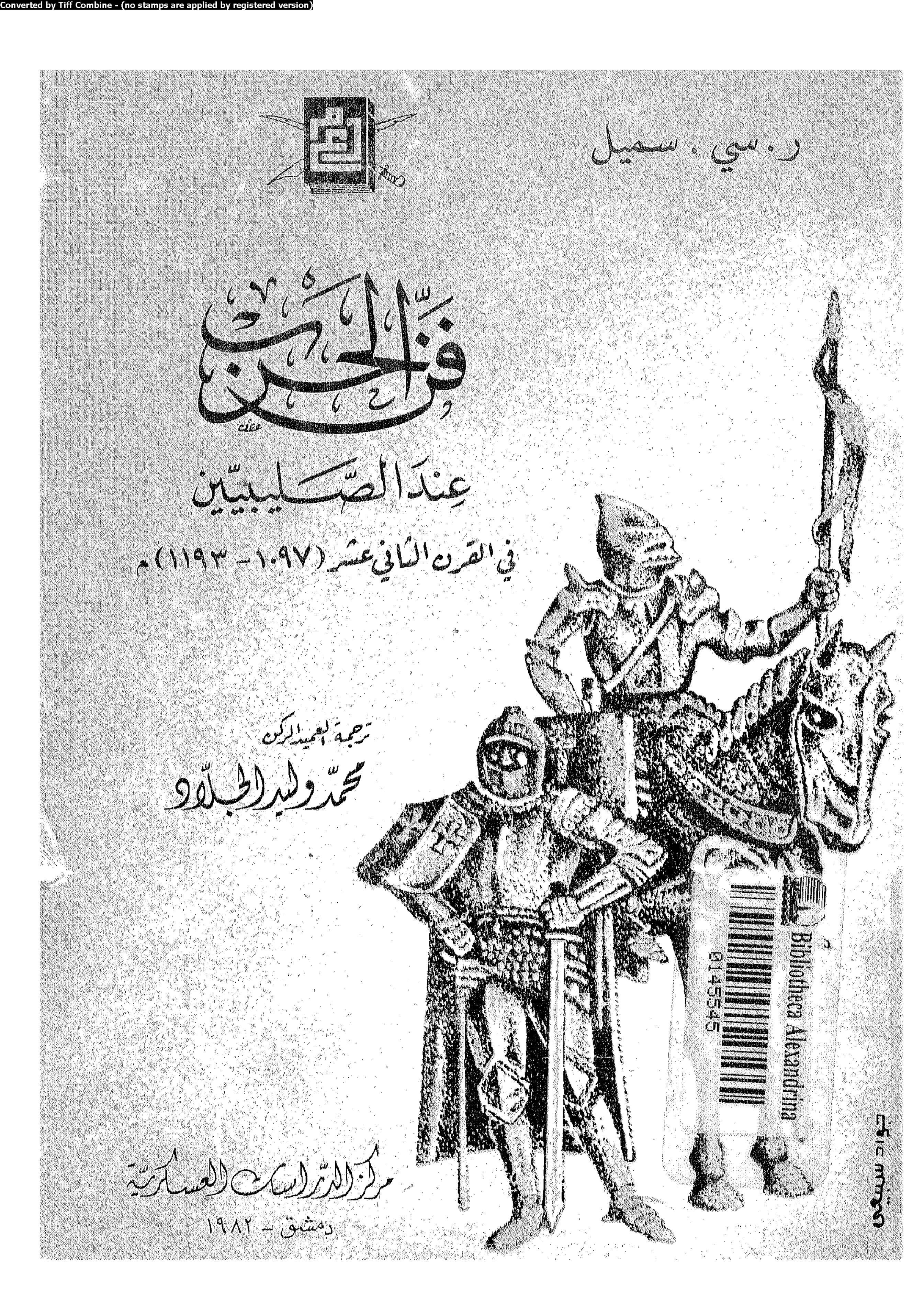


ر. سي. سميل
فن الحرب
عند الصليبيين
في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ - ١١٩٣) م
ترجمة العميد الركن
محمد وليد الجلاد
مركز الدراسات العسكرية
دمشق - ١٩٨٢



فن الحرب

عند الصليبيين

في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ - ١١٩٣)

الطبعة الأولى

دمشق ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

ر. سي. سميل

فن الحرب عند الصليبيين

في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ - ١١٩٣)

ترجمة العميد الركن
محمد وليد الجلاد

مركز الدراسات العسكرية

دمشق ١٩٨٥

CRUSADING WARFARE

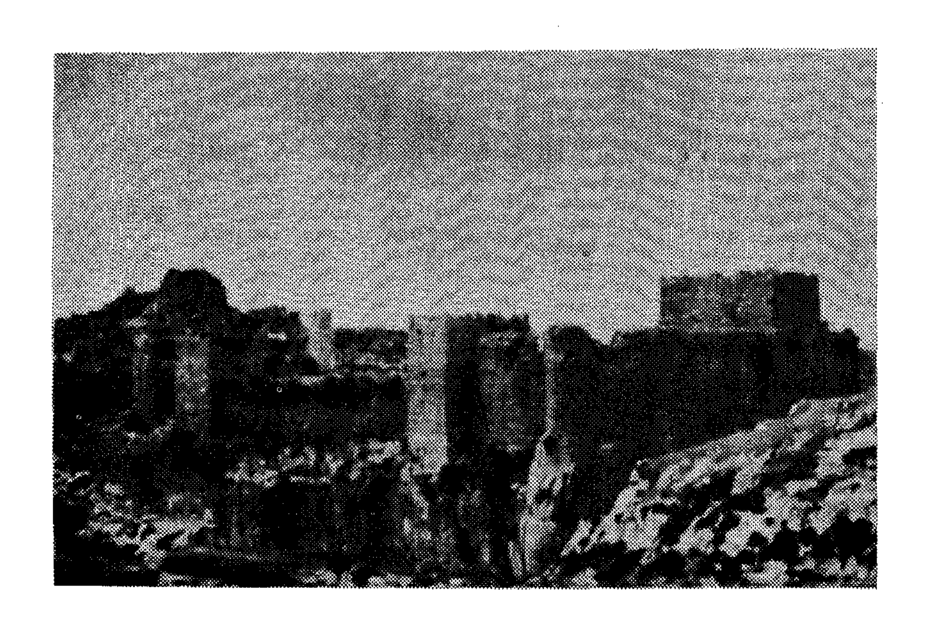
(1097–1193)

BY

R. C. SMAIL

Fellow and Tutor of Sidney Sussex College
Cambridge





قلعة صلاح الدين (صهيون)



تقــديم

شغلت الحروب الصليبية ــ ولاتزال ــ حيزاً كبيراً من اهتمام المؤرخين والباحثين على مدى قرون عدة . وثمة مصادر كثيرة عربية وأجنبية تناولت أحداث هذه الحروب ونتائجها بالتفصيل ، ومعظمها منشور وفي متناول القاريء منذ قرن أو أكثر من الزمان ، الا أن القليل والنادر منها ما اختص ببحث ناحية معينة في تلك الحقبة ولاسيما القضايا الاقتصادية والمالية أو الحياة الاجتماعية أو العلاقات الاقطاعية أو غيرها ، وكان نصيب فن الحرب والأساليب الحربية التي طبقت فيها ، ووسائط الصراع التي استخدمت خلالها أكثر حظاً من سابقاتها ، بيد أن معظم الدارسين لها حصر اهتمامه بإيراد أحداث تلك الحروب مسلسلة كما دارت في ميادين القتال دون النظر إلى الروابط الوثيقة التي ربطت تلك الأحداث بأسبابها ونتائجها وبالمجتمعات التي خاضت غمارها وعاشت في جحيمها والعوامل

التي أثرت فيها أو تأثرت بها ، مع ماهذا من أهمية بالغة في ادراك تسلسل الحوادث وماتمخضت عنه من نتائج حتمية ذات علاقة جدلية بعضها ببعض إلى جانب استلهام العبر والإفادة من الدروس التي قدمتها ، لاسيما أن تلك الحروب تركت بصماتها العميقة على جميع أوجه الحياة في الشرق والغرب معاً ، وكان لها فضل كبير على الغرب بشكل خاص فأضاءت له السبيل لبلوغ نهضته وتحقيق منجزاته .

إن المكانة التي يشغلها فن الحرب في اهتمامات المجتمعات العصرية لاتحتاج إلى برهان ، لأهميته وأثره في إعداد القوات المسلحة للدولة وتحديد أطر الاستراتيجية العامة وفن العمليات والتكتيك . ولابد لكل من يهتم بدراسة فن الحرب أن يحيط بقدر من تاريخه يستعين به في اجراء موازنة تبين له الطريق نحو الأفضل . ومما لاشك فيه أن دراسة من هذا القبيل تقدم فوائد لايمكن حصرها رغم الفروق الشاسعة زمانيا ومكانيا ، ورغم اختلاف أساليب العمل ووسائط الصراع المستخدمة في العصور السالفة والعصر الحاضر . اذ تبقى مبادىء الحرب الأساسية والعناصر المكونة للاستراتيجية العامة وفن العمليات والتكتيك صالحة للاستخدام والتطبيق في كل زمان ومكان . ولعل دراسة فن الحرب أيام الحروب الصليبية تحمل من الفوائد لنا ــ نحن العرب ــ أكثر من أية دراسة تاريخية أخرى متخصصة في هذا المجال . فالأهداف الاستراتيجية والتكتيكية التي سعى اليها كل طرف من الأطراف المتحاربة تكاد تكون هي ذاتها التي يسعى إلى تحقيقها شعبنا العربي ضد العدوان الصهيوني الغاشم والقوى الاستعمارية التي تقف وراءه . ويكاد مسرح الأحداث عندنا ينطبق تماماً على مسرح تلك الحروب . أما مصادر

القوة ووسائط الصراع التي يستخدمها العدو ضدنا فلاتزال تستقى من منهل واحد ، ولكنه أكثر ثراء وأشد ضرواةً من سابقه .

إن دراسة هذه الحقبة من تاريخ فن الحرب والنتائج التي نجمت عنها من الناحية العسكرية الحربية تتطلب الكثير من الجهد والوقت . كما أن تقصي الأحداث الحربية وخصائص الأساليب التكتيكية وخطط العمليات من بطون الكتب التاريخية ، واجراء الموازنة بينها وبين مثيلاتها المطبقة في عصرنا ، واستنباط الدروس المفيدة منها ، كل ذلك يحتاج إلى مجهود مشترك وعمل جماعي متتام وفق منهج موحد . ولعل اختيارنا لهذا الكتاب يكون متفقاً مع الغاية المرجوة ، فهو دراسة منهجية علمية لفن الحرب عند الصليبيين في الفترة الأولى من الحروب الصليبية ، وهي فترة محددة بالقرن الثاني عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) ، وتبدأ في العام ١٠٩٧م (٤٩١ هـ) أي عند مسيرة الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام ، وتنتهي في العام ١١٩٣ بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا للمرة الثانية في يد الصليبيين ووفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهي مرحلة المد الصليبي في بلاد الشام ومرحلة توحيد قوى المسلمين المشتتة في سورية ومصر تحت سلطة الزنكيين والأيوبيين في مواجهة الخطر الاستيطاني الصليبي . وبدهي ألا يلتزم الكاتب الدكتور ر . سي . سميل (جامعة كامبردج) جانب الحياد والموضوعية في معالجة الموضوع مهما بذل من جهد في سبيل ذلك ... فهو بريطاني يتحدث عن وجهة نظر غربية ويعتمد مصادر غربية أو عربية مترجمة إلى اللغات الأجنبية ، ويسعى ماأمكنه ذلك إلى اثبات تفوق الصليبيين بأساليبهم وأسلحتهم على قوات المسلمين وخططهم ، ويحاول

تسويغ هزائم الصليبيين وخسائرهم بأخطاء ارتكبوها أو بعدم توافر القوى الكافية لديهم وليس بتفوق تكتيك المسلمين أو حسن تخطيطهم الحربي . وهذه وجهة نظر قابلة للنقض بالاستناد إلى حقائق تاريخية ثابتة تنتظر من يتصدى لها ويحاول البرهان عليها .

ولقد حاولنا من جانبنا توخي الموضوعية التامة والأمانة المطلقة في الترجمة ونقل النص من الانكليزية إلى العربية ، مستعينين بعدد من المصادر العربية أو المنقولة إلى اللغة العربية لتحقيق بعض التواريخ والأحداث والأسماء ، مع التعليق على أقوال الكاتب وآرائه في ذيل الكتاب . وحرصنا من جهة أخرى على نقل شروح الكاتب في الذيل مع مصادرها وأرقام صفحاتها كما أوردها بما في ذلك من المصادر العربية التي استقاها من « جامع مؤرخي الحروب الصليبية » . وأشرنا في المتن بعدد من إشارات الاستفهام أو التعجب إلى بعض الأفكار التي تعارض وجهات نظرنا أو تنتفي فيها الموضوعية العلمية . وربما كان هذا الكتاب حافزاً للباحثين نحو إعداد دراسة علمية في فن الحرب عند العرب والمسلمين في إبّان الحروب الصليبية تكون لبنة في اعادة كتابة التاريخ العسكري المجيد لأمتنا الخالدة ، والله ولي التوفيق .

دمشق في شباط ١٩٨٥

مركز الدراسات العسكرية

تمهيـد

كان المجتمع الاقطاعي الأوربي ، خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، منظماً تنظيماً حربياً ، إلا أننا لا نعرف سوى القليل عن القدرات التي كان يتمتع بها الفرسان[1] Knights وزعماؤهم في العمليات الحربية . وأكثر مصادر المعلومات سهولة ، للطلاب والقراء العاديين ، هي المؤلفات التاريخية عن فن الحرب التي تبحث في العصور الوسطى بأكملها . وبما أنه لا يمكن لباحث واحد أن يطمح الى الإحاطة بالمصادر التاريخية التي تهتم بموضوع ضخم على مدى ألف عام ، فإن بحثنا هذا يقتصر على دراسات الاختصاصيين فقط . أما محاولات الجمع بينهما فلم تنجح إلا جزئياً لأن مثل

---

١) يقصد بالفرسان هنا أولئك الذين يحملون رتبة فارس وفق أنظمة الفروسية ، التي كانت سائدة في القرون الوسطى ، وليس الخيالة النظامية المعروفة في الجيوش . ورتبة فارس هي رتبة عسكرية خاصة يحصل عليها النبلاء عادة بعد اجتياز مرحلة تدريب معينة ويأخذ الفارس على نفسه عهداً بالقيام بمآثر حميدة .

هذه الدراسات الاختصاصية قليلة نسبياً. ومازلنا بحاجة لفهم فن الحرب في العصور الوسطى على نحو أفضل لكونه يمثل وجهاً هاماً من أوجه الحياة آنئذ، الأمر الذي حفزنا لوضع هذا الكتاب. وقد أبدى الكثير من مؤرخي فن الحرب اهتماماً لابأس به بهذا الموضوع، فكتبوا فيه ودرسوا أحواله، إلا أن معالجتهم له جاءت موجزة، ولم يكن باستطاعة أي منهم أن يتصدى للبحث بالتفصيل الوافي الذي نحاوله هنا.

حصر معظم الباحثين اهتمامهم، لدى دراسة فن الحرب، بالأحداث التي دارت في ميادين القتال، ولم ينظروا الى أبعد من ذلك. وكانت النتيجة أن وقف التاريخ العسكري معزولاً جداً عن ميادين الدراسة التاريخية الأخرى وبشكل غير طبيعي. ونحن في كتابنا هذا نحاول إعطاء الأهمية الكافية الى حقيقة كون الحرب جزءاً متمماً للحياة العامة في سورية اللاتينية[1]، وكونها مؤثرة ومتأثرة ببقية نواحي الحياة فيها. كما كانت المؤسسات السياسية والاجتماعية في الدول الصليبية بالتالي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الحربي.

إن ما وصل إلينا عن المجتمع الفرنجي آنذاك قليل جداً، إلا أنه يكشف، وبقدر كاف، تلك القدرات الكبيرة التي كان يتمتع بها ملوك بيت المقدس، من اللاتين الأوائل، في المجال العسكري. ويدل تاريخ الحرب على مهارتهم في تنظيم الحملات العسكرية وقيادة القوات في ميادين القتال قيادة حازمة، رغم تلك الصورة الباهتة التي تظهرهم حكاماً مدنيين لايملكون سوى سلطات نظرية.

لقد كان مؤلفو المصادر الرئيسية، التي استند إليها هذا الكتاب،

---

١) (الجزء الذي كان يحتله الصليبيون من سورية).

فرنجاً من أوربا أو ممن استوطن سورية منهم. واستعين بما كتبوه لأنهم كانوا بين من أسهم في الأحداث الحربية التي وصفوها، أو كانوا شهوداً لها، أو كانوا على معرفة وثيقة بالشؤون العامة في سورية. كذلك استعان الكتاب بالمصادر الاسلامية العربية، والسريانية، والأرمنية، والاغريقية البيزنطية، التي استخدمها مؤرخوا الحروب الصليبية، والتي توفرت بين أيدينا ترجمات لها، ويمكن للباحثين، الذين يملكون مصادر بحث عربية وبيزنطية أفضل، أن يتابعوا دراسة هذا الموضوع بتفاصيله. وأملنا كبير بأن يأخذ أحدهم هذا الأمر على عاتقه.

إن المصادر التي استخدمت هنا منشورة منذ سنوات عديدة. ويعود تاريخ معظمها الى جيل سابق، وقد مضى عليها قرن أو أكثر من الزمان. والاستثناء الوحيد هنا تلك الصروح التذكارية والأوابد التاريخية التي أقيمت وكانت قائمة في فترة وجود الصليبيين في سورية، والتي لا يزال قسم كبير منها غير مستكشف من دارسي الحروب الصليبية. وأود بهذه المناسبة أن أعبر عن امتناني الى أولئك الذين أتاح لي كرمهم إمكانية متابعة البحث في سورية وفي غيرها.

المؤلف

LIST OF ABBREVIATIONS لائحة المختصرات

— جامع مؤرخي الحروب الصليبية

RHC Recueil des historiens des croisades .

— وثائق أرمنية

Doc. arm. Documents arméniens.

— مؤرخون غربيون

Hist. occ. Historiens occidentaux.

— مؤرخون شرقيون

Hist. or. Historiens orientaux.

— ألبرتوس آكوينسيس في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون غربيون مجلد ٤ .

AA Albertus Aquensis RHC; Hist. occ. IV.

— المجلة التاريخية الأمريكية

AHR American Historical Review.

— ابن الأثير ، أتابكة الموصل في جامع مؤرخي الحروب الصليبية، مؤرخون شرقيون مجلد ٢

AM Ibn al-Athir, Atabecs de Mosul, In RHC, Hist, or. II.

— أنّا كومنينا ، في كتابها (ألكسياد) ، ترجمة داوس

Anna Anna Comnena, Alexiad, trans. Dawes.

— مآثر الفرنجة لكاتب مجهول ، طبعة بريهر .

Anon.	Anonymi gesta Francorum, ed. Bréhier.

— أبو شامة ، « كتاب الروضتين » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ،

مؤرخون شرقيون مجلد ٤

As	Abu Shamah, Livre des deux jardins, in RHC Hist. or. IV.

— المصدر السابق مجلد ٥

As, v	Idem, In RHC. Hist. or. V.

— بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (أو سيرة صلاح الدين) في جامع مؤرخي الحروب الصلبية مؤرخون شرقيون مجلد ٣

BD	Beha ed-Din. Anecdotes et beaux traits de la vie du Sultan Youssof in RHC. Hist. or. III.

— مكتبة مدرسة العقود والصكوك باريس

BEC	Bibliothèque De l'Ecole des chartes.

— صكوك الاسبتارية ، طبعة دولافيل لورو

Cart. Hosp.	Cartulaire des Hospitaliers, ed. Delaville Le Roulx.

— دلبروك ، « تاريخ فن الحرب في إطار التاريخ السياسي »

Delbruck	Delbruck, Geschichte Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte.

— «ديلبيك التكتيك في القرن الثالث عشر »

Delpech	Delpech, La Tactique au XIIIème Siècle.

— المجلة التاريخية الانكليزية

EHR English Historical Review.

— رسالة في موت فريدريك ، طبعة كروست

Ep. Mor. Epistola de morte Friderici, ed, Chroust.

— تاريخ امبراطورية ايراكلس وغزو الأراضي ماوراء البحار ، وتتمة تاريخ ويليام الصوري في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، مؤرخون غربيون مجلد ٢

Eracles L'Estoire de Eracles empereur et la conqueste de la terre d' outremer; la continuation de l'estoire de Guillaume arcevesque de Sur in RHC, Hist. occ. II.

— أرنول يوميات أرنول ، طبعة ماس لاتري

Ernoul Chronique d'Ernoul, ed. Mas Latrie.

— تاريخ الحرب المقدسة طبعة باريس

Est. Estoire de la Guerre Sainte, ed. Paris.

— فلتشر — فولشيريوس كارنوتينزيس ، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون غربيون ، مجلد ٣

Fulcher Fulcherius Carnotensis in RHC, Hist. occ. III.

— غالت — غالتيريوس المستشار . طبعة هاغنماير

Galt. Galterius Cancellarius, ed. Hagenmeyer.

— غروسّيه — تاريخ الحروب الصليبية

Grousset Grousset, Histoire des croisades.

— هيرمان — قيادة أعمال قتال الجيوش الغربية في الشرق .

Heermann Heermann, Gefechtsfuhrung abendlandischer Heere im Orient.

— تاريخ حملة الامبراطور فريدريك

HFF Historia de expeditione Friderici imperatoris.

— رسائل وخرائط . طبعة هاغنماير

HEP Epistulae et chartae, ed. Hagenmeyer.

— تاريخ الأسفار ، طبعة كروست .

HP Historia peregrinorum, ed. Chroust.

— ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون شرقيون مجلد ١ .

IA Ipn al-Athir, Kamel-AltvaryKh, in RHC, Hist. or. I.

— المصدر السابق، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية، مجلد ٢ .

IA,II Idem, in RHC, Hist. or. II.

— ايبلين — كتاب جان ايبلين ، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية لويس I .

Ibelin Le Livre du Jean d'Ibelin, in RHC, Lois, I.

— ابن القلانسي — تاريخ دمشق ، طبعة غيب

IQ Ibn al-Qalanisi, Damascus, ed. Gibb.

— الايتنراريوم، طرق الاسفار طبعة ستوبس

Itin. Itinerarium peregrinorum, ed. Stubbs.

— جاكوبوس دي فيترياكو ، طبعة بونغارس

JV Jacobus de Vitriaco, ed. Bongars.

— كمال الدين ، تاريخ حلب ، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية . مؤرخون شرقيون ،

KD Kamal ed-Din, Chronique d'Alep, in RHC, Hist. or. III.

— كمال الدين في مجلة الشرق اللاتيني

KD in ROL — Idem , continued In Revue de l'Orient latin.

— كوهلر ، الشؤون الحربية في عصر الفرسان

Kohler — Kohler, Kriegswesen in der Ritterzeit.

— ليبلّوس، كتيب الأعمال الهجومية في الأراضي المقدسة طبعة ج . ستيفنسون

Libellus — De expugnatione Terrae Sanctae libellus, ed. J. Stevenson.

— ماتيو الرهاوي « اليوميات » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية وثائق أرمنية مجلد ١ .

ME — Matthew of Edessa, Chronique, in RHC, Doc. arm. I.

— أودو ديوجيلو ، حملة لويس السابع ملك فرنسا ، طبعة واكيت

Odo — Odo de Diogilo, La Croisade de Louis VII, roi de France, ed. H. Waquet.

— أومان « تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى » مجلدان

Oman — Oman, History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols.

— رايموندوس أغيلرس في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، مؤرخون غربيون مجلد ٣ .

RA — Raimundus de Aguilers in RHC, Hist. occ. III.

— رادولفوس كادومنسيس في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، مؤرخون غربيون مجلد ٣ .

RC — Radulfus Cadomensis, in RHC, Hist. occ. III.

— تاريخ مملكة بيت المقدس طبعة روهريخت

Reg. Regesta regni hierosolymitani, ed. Rohricht

— نظام الداوية طبعة كورزون

Règle La Règle du Temple, ed. Curzon.

— روهريخت ، تاريخ مملكة بيت المقدس

RGKJ Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem.

— مجلة الشرق اللاتيني

ROL Revue de l'Orient latin.

— رانسيمان — تاريخ الحروب الصليبية

Runciman Runciman, History of the Crusades.

— دراسة شاملة لغربي فلسطين ، كوندر وكيتشنر

Survey Conder and Kitchener, Survey of western Palestine.

— أسامة بن منقذ كتاب الاعتبار ، طبعة حتي

Usamah Usamah Ibn Munqidh, Memoirs, ed. Hitti.

— ويليام الصوري في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ،
مؤرخون غربيون مجلد ١ .

WT Willermus Tyrensis In RHC, Hist Occ. I.

— مجلة الجمعية الألمانية الفلسطينية

ZDPV Zeitschrift des deutschen Palastina-Vereins.

الفصل الأول

مؤرخو الحروب الصليبية



١ ـــ الغرض من الموضوع

تشكل الانجازات الحربية الصليبية، خلال القرن الثاني عشر، فصلاً خاصاً من تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى. ففي بداية ذلك القرن، ونتيجة للحملة الصليبية الأولى، تأسست في سورية بضع دويلات لاتينية عدوانية أخذت في التوسع التدريجي حتى منتصفه، ومن ثم تحولت الى الدفاع ضد هجمات الدول الاسلامية المرتكزة الى حلب ودمشق ومصر. وشهدت نهاية ذاك القرن أحداث الحملة الصليبية الثالثة، عندما تمكنت قوة مملكة اللاتين المشتركة مع التعزيزات التي قدمت من أوربا الغربية من استعادة قسم من المدن والأراضي التي كان صلاح الدين قد حررها في العامين ١١٨٧ و ١١٨٨. وطوال هذه الفترة كان هنالك استمرار معقول في وصف تعاقب الاحداث الحربية وتسجيلها بقلم من عاصروها وجابوا البلاد ليكتبوا عنها، أو اتخذوا من سورية اللاتينية موطناً لهم، وكانوا في بعض الأحيان شهود عيان للأحداث التي وصفوها. ويمكن القول عموماً إن هذه الحروب كانت تدور من أجل غاية رئيسية واحدة، هي المحافظة على بقاء الدول اللاتينية في المشرق وأن مسرحها واحد فقط، هو الأراضي الواقعة ما بين السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وبادية الشام. ولقد حافظت الجيوش المتصارعة طوال هذه الفترة على سماتها الأساسية

الأولية من حيث التنظيم والتسليح والتكتيك. ويبدو أن عنصري الوحدة والاستمرار ساعدا المؤرخين العسكريين على تقديم عرض واحد ومترابط لتلك الحروب.

والواقع أن قصة الأحداث العسكرية في سورية اللاتينية رويت في جميع الكتب المفصلة لتاريخ الحروب الصليبية، إلا أن التحليل لم يكن متمشياً مع الرواية قط. فلم يستخلص مغزى تلك الاحداث، ولم توضح علاقتها ببقية أوجه التاريخ في العصور الوسطى بشكل واف. هذا بالاضافة الى وجود مجالين للدراسة تتطلبهما مثل هذه العلاقة: أولهما هو تاريخ الدول الصليبية. إذ تنطوي تحت سطور القصة، التي تروى عادة، حقيقة كون الدويلات اللاتينية تحت حكم الفرنجة في القرن الثاني عشر، قد وجدت في الحرب أداة لترسيخ كيانها والمحافظة على ذاتها في المشرق، فكانت الحرب جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة في سورية اللاتينية. وكانت وسائل خوض الحرب المتوفرة لدى الفرنجة، والاستخدامات التي اختاروها لتلك الوسائل، مترابطة مع التصورات السياسية والعلاقات الحقوقية والاقتصادية داخل ذلك المجتمع الاقطاعي. إن دراسة الحرب والتنظيم السياسي والاجتماعي توضح وتكمل بعضها بعضاً[1]. إلا أن المحاولات التي جرت للقيام بهذه المهمة الدراسية كانت نادرة فيما يتعلق بالمشرق اللاتيني. وقد أكد البروفسور لو (Lot)، مؤخراً، العلاقة المتبادلة بين الوجه العسكري للتاريخ وأوجهه الأخرى[2]. إلا أن دراسته لهذه الناحية في الفصل الذي كتبه وعالج فيه الحروب الصليبية والمشرق اللاتيني جاءت مخيبة للآمال. إذ اكتفى بإعادة سرد الأحداث العسكرية وخلفيتها السياسية، ولم يأت بشيء جديد عما ورد في كتابَيْ التاريخ العام لبريهيه Brehier، وغروسّيه Grousset[3]. ولقد تعمق مؤرخو

---

١) إن هذه النقطة لم تفرض نفسها بقوة على مؤرخي الحروب الصليبية. إذ لا نجد في دراستين شاملتين لتاريخ الحروب الصليبية أي ذكر للفرنجة السوريين كجنود رغم شمولهما على أوجه كثيرة تتعلق بهذا الموضوع وتعتبر نقاطاً مناسبة للقيام ببحوث لاحقة حوله. أنظر T.S.R. Boase "Recent Developments in Crusading Historiography" في مجلة التاريخ العدد ٢٢ (١٩٣٧) ص ١١٠ وكذلك J.L. La Monte "Some problems in Crusading Histohography" في مجلة Speculum، العدد الخامس عشر (١٩٤٠) ص ٥٧.

2) F-Lot, L' Art militaire et armees au moyen age P. 17

3) 'Lot, t, PP. 124-30, 137-53. See review in RHC XIV PP. 92-5.

المؤسسات الصليبية أكثر من ذلك، فدرسوا بنية القوى العسكرية التي نظمها ملوك القدس اللاتين[1]. وفيما عدا ذلك لا توجد أية دراسة متخصصة للطرائق العسكرية. إن الغاية من كتابنا هذا مناقشة تلك الطرائق العسكرية على أنها جزء من التاريخ العام لسورية اللاتينية ومن خلال علاقتها به.

أما المجال الثاني، الذي تشكل الحروب الصليبية جزءاً أساسياً منه، فهو حقيقة كون سورية اللاتينية أُوْجدت بالغزو والاستيطان، وكان الفرسان القادمون من أوربا الغربية هم المسيطرون في كل مرحلة من مراحلها، وتشكل حملاتهم في الشرق قسماً من الخبرة الحربية العامة للمجتمع الاقطاعي. وقد تطرق جميع المؤرخين الى شرح فن الحرب في العصور الوسطى في أبحاثهم. لذا فإن تحليل ما كتب في تلك المؤلفات قد يكون نقطة انطلاق منطقية ومعقولة لدراستنا هذه، وسوف يساعد في إيضاح وجهة النظر التي تم تبنيها في الكتاب.

٢ ــ كتب التاريخ العسكري المتعلقة بالحروب الصليبية

تقر الجهات المعنية بهذا الموضوع بصعوبات كتابة تاريخ حروب العصور الوسطى. إذ يمكن تقسيم حروب العصور القديمة الكلاسيكية الى موضوعات كبيرة محددة، مثل الصراع بين الإغريق والفرس طوال عصر كامل، أو الصراع بين جيوش الامبراطورية الرومانية والشعوب التي تقطن ما وراء حدودها والذي امتد آجالاً طويلة. ومثل ذلك أيضاً، الصراعات بين الدول القومية في الأزمنة الحديثة التي تشكل فصولاً قائمة بذاتها في تاريخ الحروب كله. إلا إن مؤرخي العصور الوسطى يعانون نقصاً واضحاً بالمقارنة مع ما ذكر[2]. فقد ظهرت شعوب عديدة على المسرح الأوربي في

---

1) G Dodu, Histoire des institutions monarchique dans le royaume latin demanscrip de royaume latin de Jerusalem (1099-1291) PP. 173-243

2) W.Erben, Kriegsgeschichte des Mittelalters,

تاريخ حروب العصور الوسطى

الفترة المحصورة ما بين القرن السادس والقرن السادس عشر. ولم تكن تسود تاريخ هذه الفترات امبراطورية عظمى، أو عدد ضئيل من الدول المؤسسة على بنيان متين. وكانت سلطة الحكومة في الدولة وفاعلية مؤسساتها السياسية محدودتين معظم هذه الفترة، ولم يكن الحكام خلالها يمارسون السيطرة على أتباعهم الكبار في غالب الأحيان. ولذا كانت حروب العصور الوسطى في معظمها حروباً خاصة وصغيرة المستوى، ولم تكن توجد جيوش محترفة منضوية ضمن منظومة لها تقاليدها في التدريب القتالي والانضباط، فلم تكن مثل هذه القوات المسلحة، إن وجدت، مؤهلة أو مدربة على القيام بمناورة مدروسة تؤهلها لتطبيق أبسط الخطط التكتيكية. كما لم تكن الحملات والمعارك تسجل عادة ــ كما كان شأنها في العالم القديم ــ من قبل كتاب يملكون الخبرة أو الاستعداد للتعمق في دراسة الشؤون الحربية. كذلك لم يترك ذلك العصر ــ إلا فيما ندر ــ أي شيء يمكن مقارنته بالسجلات الرسمية للعمليات الحربية والادارية المعروفة في الأزمنة الحديثة. وبناء على ذلك، فإن إعادة «تركيب» هذا الموضوع مسألة صعبة، والأصعب من ذلك تقسيمه وتصنيفه[1]. ورغم وجود مؤلفات تاريخية عن أحداث ومشاهد مفردة بارزة جداً في حروب العصور الوسطى[2]، فإن معظم الأعمال، المعترف بها في هذا المجال، لاتزال تقتصر على مسح عام للتاريخ العسكري الأوربي الغربي، وتشمل كل العصور الوسطى أو قسماً لابأس به منها. ولقد عُدَّ التاريخ العسكري للدويلات اللاتينية في المشرق جزءاً من ذلك المسح العام.

ومن أقدم النماذج، التي تناولت هذا الموضوع وعالجته على هذا النحو، ما قدمه ماكس يانز Max Jahns[3]. ويدل ذلك القسم من عمله، الذي يتناول فيه العصور الوسطى، على أنه مدين في ذلك كثيراً ــ فيما يتعلق بطريقته وبمادته

1) Delbruck III, P. 277

2) Morris, The Welsh Wars of Edward I.

3) M, jahns, Handbuch einer Geschichte des Kriegswesens von der Urzeit zur Renaissance.

أيضاً ـــ الى دراسة سابقة وأقل شمولاً كتبها مارتن بالتزر Martin Baltzer[1]. وكان هذا الباحث مهتماً بتنظيم القوى العسكرية وطرائق الحرب التي كانت مطبقة في ألمانيا فيما بين القرن التاسع ونهاية القرن الثاني عشر. ويعد عمله من أهم المراجع التي تهتم بهذه القضايا، والتي تضمها المصادر المعاصرة للتاريخ الألماني. وهي لاتزال ذات قيمة من هذه الناحية[2]. ولقد راعى في تقسيمه لعمله هذا الى جانب الطرائق التكتيكية دراسة موضوعات بذاتها، مثل طاقة القوى العسكرية، والإمداد بالرجال والخيول وبأسلحتهم ودروعهم، وترتيب المعسكرات وقوافل العتاد. ولقد تجاوزه يانز وتفوق عليه، لا من حيث طراز الشواهد التي أوردها[3] فحسب، بل وفي عدد الأنشطة العسكرية التي اهتم بها، وفي المجال الجغرافي الذي عني به. وهكذا جمع يانز مواده من تاريخ الشعوب الأخرى الى جانب الألمان، وكان من بينها الفرنجة في سورية اللاتينية.

وطبقاً لمنهج بالتزر، قسم يانز عمله الى أقسام، يعالج كل قسم منها بعض نواحي النشاط العسكري في العصور الوسطى، ومدى اسهام الشعوب الأوربية المختلفة فيها. وجاء كتابه على هذا النحو حاوياً مراجع متفرقة عن الدويلات اللاتينية، وثلاثة دراسات عامة مختصرة عن بعض النواحي الخاصة في أعمالها الحربية[4]. إلا أنه لا يوجد فصل أو قسم مكرس بذاته للتاريخ العسكري لسورية اللاتينية كلها.

---

1) M. Baltzer, Zur Geschichte des deutschen Kriegswesens in der Zeit von den letzten Karolingern bis auf Kaiser Friedrich II.

تاريخ الشؤون الحربية الألمانية منذ زمن الكارولينجية المتأخر حتى بداية عصر فريدريك الثاني

2) See the use made of Baltzer's work by E.v. Frauenholz, Das Heerwesen der germanischen Fruhzeit, des Frankenreiches und des ritterlichen Zeitalters.

الشؤون العسكرية للعصر الجرماني المبكر والعصور الفرنسية وعصر الفرسان

3) Jahns makes considerable use of archaeological and pictorial evidence, as well as of the illustrations in the works of Viollet-le-Duc.

يستفيد يانز كثيراً من الشواهد الأثرية والمصورة، كما يستفيد من الصور التي أوردها فيوليت لو دوك

4) E.g. Jahns, Handbuch, PP. 586-9, 630-2, 682-4.

وقد شهد العقد، الذي تلا نشر ذلك الكتاب، ظهور أعمال أخرى من التاريخ العسكري في العصور الوسطى، لباحثين تختلف مناهجهم كثيراً عن منهج بالتزر ويانز. فقد كان الجنرال كوهلر (أو كولر)[1] General Kohler، الذي ظهر مؤلفه في الفترة ما بين العام ١٨٨٦ والعام ١٨٩٠، ضابطاً نظامياً متقاعداً شهد أربعين عاماً من الخدمة العسكرية في المدفعية البروسية، وحاول أن ينهج في دراسته عن التاريخ العسكري في العصور الوسطى على نمط المناهج المطبقة في هيئات أركان الجيوش القومية الحديثة لدراسة النماذج التاريخية والتي تساعد في صياغة مبادىء الأعمال الحربية. وكان قصده من وراء ذلك وضع دراسة شاملة وتفصيلية لأعمال حربية مختارة وحملات يهتم بها، مشفوعة بتعميم نتائج مثل هذه الأبحاث. فقد كرس كوهلر مجلديه الأولين للقسم الأول من هذه القضية. وأعاد فيها «تركيب» عدد من المعارك والحملات وعمليات الحصار بعناية كبيرة، استخلصها من كل قرن من القرون الوسطى، ابتداء من القرن الحادي عشر وحتى القرن الخامس عشر. ووقع اختياره على الأحداث التي وجد أن تسجيلاتها شبه كاملة وتكفي لإيفاء البحث حقه[2]. واحتوى مجلده الثالث على النتائج العامة للكثير من أوجه الأعمال الحربية في العصور الوسطى: طبقات الجند، الآلات والأسلحة والدروع، استخدام الرجال والمواد في الحصار والقتال، الاستراتيجية التي كانت وراء الأحداث، والقيادات التي كانت توجهها.

إن منهج كوهلر بعيد عن أي نقد، لأن تقويمه للمصادر المعاصرة كان صحيحاً، ولقد أضحى هذا الشرط أولاً من حيث الأهمية، عندما يستعان بكتب التاريخ الروائية المكتوبة في العصور الوسطى. إذ أن درجة الثقة التي يتمتع بها النص

---

1) G. Kohler, Die Entwickelung des Kriegswesens und der Kriegfuhrung in der Ritterzeit von Mitte des II Jahrhunderts bis zu den Hussitenkriegen.

تطور الشؤون العسكرية وقيادة الجيوش في عصر الفرسان من منتصف القرن الحادي عشر حتى حروب الهوسيت.

2) Kohler, I, Vorbemerkungen, PP. iii-iV.

كوهلر — ملاحظات أولية

الموجود، وعلاقة الراوي الزمانية والمكانية بالأحداث التي يصفها، ومعرفته بالقضايا الحربية وخبرته فيها، والمدى الذي يبغيه من وراء وصف الأحداث الحربية، لأنها فرصة تتيح له إظهار براعته الأدبية ومعرفته بالنماذج الكلاسيكية، كل ذلك عوامل يجب أن تراعى عند تحديد أهمية أي مصدر من مصادر المعلومات كما هو معلوم. ولكن كوهلر تعرض لهجوم قاس ونقد عنيف لعمله هذا لتبنيه النصوص دون تمحيصها، ورغم أنه دافع عن نفسه بقوة معبراً عن خيبة أمله الشديدة من أخصامه، إلا أنهم أبرزوا معظم نقاط الضعف الهامة عنده[١].

لايمكن بطبيعة الحال، توجيه النقد ذاته الى أوتو هيرمان Otto Heermann، الذي أصدر في العام ١٨٨٨ استنتاجاته التي لا تزال تعد أفضل بحث كتب في التاريخ العسكري للحروب الصليبية في الدويلات اللاتينية[٢] حتى الآن. ظهر هذا العمل بعد أن نشر كوهلر المجلدين الأولين من عمله وقبل أن يصدر المجلد الثالث، الذي حيا في مقدمته هيرمان واصفاً إياه بأنه من أتباع منهجه[٣]. إلا أن ثمة فروق

---

١) إن اتساع موضوعه وحجم المواد الكبير الذي تناوله بالبحث أوقع كوهلر في تناقضات كثيرة، وقد بين دلبروك الكثير من أخطائه بدون تحفظ م ٣ ص ٣٢١ ــ ٣٢٨ و ٦٧٧ ــ ٦٨٢.

ظهر دفاع كوهلر وهجومه المعاكس ضد فينكلمان وفيكر وبالتزر وبقية النقاد في مقدمة مجلداته المختلفة من مؤلفه Kriegswesen. وصرح خصومه بأنه يتحدث من خلال صلاحياته كعسكري ولكن ينقصه التدريب الضروري كمؤرخ. ولم يكن لرأي أو حكم أن يزعج كوهلر ويضايقه إلى حد كبير أكثر من ذلك، فجاءت اعتراضاته الحانقة شديدة ونابعة من القلب أنظر Kriegswesen م I المقدمة.

See Kriegswesen, I, Vorb. P. XXX: 'Ich bin weit enfternt von dem Standpunkte Fickers, der einem preussischen General die Fahigkeit abspricht, sich die Regeln der historischen Methode anzuerkennen, etc.' For just reviews of Kohler's work see Baltzer in Historische Zeitschrift, Neue Folge, Band 21 (1887), PP. 458-62 and Band 24 (1888), PP. 296-9.

2) O. Heermann, Die Gefechtsfuhrung abendlandischer Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzugs.

قيادة أعمال القتال للجيوش العربية في الشرق في عصر الحملة الصليبية الأولى

3) Kohler, III. Pt. 2, Vorb. P. iii. But elsewhere, ibid. III. Pt. 3, Vorrede, P. v, Kohler criticizes

هامة بينهما تبدو أكثر وضوحا لنقاد الجنرال كوهلر منها بالنسبة له : فالسمة السائدة لدى هيرمان هي تقويمه الناقد للمصادر المتوفرة . ويدل العنوان ، الذي اختاره هيرمان ، على أن هذا المؤلف يغطي ناحية محدودة فقط من أوجه التاريخ العسكري . فقد اهتم بترتيب القوات واستخدامها في ميدان القتال . ولكن هيرمان استطاع بمهارة كبيرة أن يعيد تركيب معظم المعارك الهامة في الحملة الصليبية الأولى ، والمعارك التي خاضتها جيوش الدويلات اللاتينية حتى الهجوم الذي شنه بلدوين الثاني على دمشق في العام ١١٢٦ . وبعد أن شرح هذه الاشتباكات وضع خلاصته للاستنتاجات العامة في القسم الأخير من كتابه استند فيها الى القسم الأول منه .

بعد ذلك نشر كوهلر مجلده الثالث ، الذي جاء وكأنه يرد لمريده المزعوم إطراءه عن النقل عنه . واستشهد كوهلر في عمله كله بأحداث من تاريخ الحروب الصليبية أوضح من خلالها أموراً كثيرة كان مهتماً بها ، إلا أنه لم يتناول التاريخ العسكري في سورية اللاتينية في دراسة متكاملة . ولم تشمل الدراسة التفصيلية للمعارك والحملات العسكرية في العصور الوسطى ، التي تضمنها مجلداه الأول والثاني ، أي بحث لفن الحرب الذي طبقه الصليبيون ، بسبب عوامل كثيرة جداً تتعلق به وظلت مجهولة ، وبخاصة الأرض التي دارت عليها تلك الحروب . واعتقد كوهلر — على كل حال — أن الحقائق التي توفرت له كافية لتوضيح بعض النواحي المعينة من تكتيك العصور الوسطى . وضمّن ذلك الجزء من مؤلفه الذي أسماه « التكتيك الراقي » (die hohere Taktik) فصلاً خاصاً عنوانه « تكتيك الجيوش الغربية في الشرق أثناء الحملات الصليبية[1] » (Die Taktik der abendlandischen Heere im Orient Wahrend der Kreuzzuge) ، ولم يكن شبهه بمؤلف هيرمان مقتصراً على العنوان فقط . إذ وصف هيرمان سبع عشرة معركة خاضها الصليبيون ،

→ Heermann in his usual 'grobem Ton' for presuming to generalize on medieval military history after the study of so short an episode.

1) III, Pt. 3, PP. 136-249

وبدأها بمعركة دوريليوم (أو ضوريليوم)[1] Dorylauem (١٠٩٧) ، وأنهاها بمعركة مرج الصُفَّر[2] Marj es - Suffar (١١٢٦) ، وأضاف إلى هذا الوصف خلاصة لاستنتاجاته الشخصية . بينما درس كوهلر في الجزء الأول من دراسته الشاملة ثلاث عشرة معركة وصفها هيرمان جميعها . وبعد وصف كوهلر معركة مرج الصفّر أضاف لها خلاصة مماثلة ، واختتم ذلك الفصل من مؤلفه بوصف المعارك التي جرت بعدها في سورية في ذلك القرن .

شهد العام ١٨٨٦ نشر مؤلف هام عن حروب العصور الوسطى كتبه هنري دلبش[3] Henri Delpech . لم يكن دلبش معنياً في الأساس بسورية اللاتينية كما يدل

---

١) معركة دوريليوم

عندما فشل السلطان السلجوقي قلج أرسلان في إنقاذ نيقية ، انسحب نحو الشرق ليحشد جيوشه من جديد ، وفي ٢٠ حزيران ١٠٩٧ اتخذ موضعه في واد قرب دوريليوم ، على أهبة الاستعداد لمهاجمة الصليبيين عند اجتيازهم الوادي .

وفي المساء عسكر الجيش الصليبي الأول يقوده بوهمند في سهل بالقرب من دوريليوم . واندفع الترك في الهجوم مع تباشير الصباح ، فاتخذ الجيش الصليبي ترتيباً دفاعياً وأرسل قائده إلى الجيش الصليبي الثاني يحثه على السير . وحاول بوهمند شن هجمة معاكسة ضد الأتراك ولكنه لم يلبث أن ارتد مهزوماً وقد أثخنته الجراح . وطوق الأتراك معسكر الصليبيين فاستمات هؤلاء في القتال وقد سدت عليهم المنافذ ، وفي منتصف النهار لاحت طلائع الجيش الصليبي الثاني بقيادة رايموند ، فارتبك الأتراك وظنوا أنها قوات ضخمة معادية وخارت عزائمهم وتحول ترددهم إلى ذعر فولوا الأدبار ولاذوا بالفرار نحو الشرق .

٢) معركة مرج الصفّر (٢٥ كانون ٢)

اختار الملك بلدوين الثاني أن يهاجم طغتكين أتابك دمشق ، فوضع خطة المهاجمة واتجه إلى حوران ومنها إلى وادي النقرة فوادي مرج الصفّر فوادي العجم ، حتى وصل في منتصف كانون الثاني ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من اقليم شرخوب . وعند تل شقحب جنوبي غرب دمشق ، دارت المعركة بين قوات المسلمين بقيادة طغتكين وبين الصليبيين بقيادة بلدوين الثاني في ٢٥ كانون الثاني ١١٢٦ . وكاد طغتكين أن يهزم ، ولكن سرية مقاتلة من قواته انقضت على المعسكر الصليبي الخالي من المدافعين فنهبت خيامهم وأموالهم وجميع ما معهم . فعاد بلدوين إلى بيت المقدس دون أن يتمكن من الاقتراب من دمشق .

3) H. Delpech, La Tactique au XIIIème siècle.

العنوان الذي اختاره ، وإنما عني بالتكتيك العسكري في أوربا في القرن الثالث عشر ، في النماذج التي اختارها لميادين القتال في موريه [1] Maret وبوفين Bouvines . وتضمن المجلد الأول من مؤلفه إعادة بناء مفصل لهاتين المعركتين . ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة تطور التكتيك الذي استخدمه الخصمان . وارتكز في ذلك إلى كتابات فيجيتيوس Vegetius وتطبيقات الصليبيين في سورية خلال القرن الثاني عشر ، ومن بين المصادر الرئيسية التي اختارها ، الأمر الذي أدى به إلى دراسة أعمالهم الحربية .

لم تكن أبحاث دلبش التالية تتسم بالموضوعية الكاملة . وهو يرى أن التكتيك المطبق في موريه وبوفين اتسم بالحركية في المناورة التي قامت بها القوات الراكبة ، والمهارة والدقة في تحركات الجنود والمشاة ، والأهم من ذلك العمل المشترك لهذين السلاحين . وعلى هذا الأساس راح يبحث عن أصل هذه التطبيقات المبتكرة في تاريخ الحروب الصليبية وبخاصة تاريخ وليم الصوري william of Tyre . ويمكن القول بالاستناد إلى ذلك أنه قيد نفسه بأهداف وضعها ، وأنه اهتم مبدئياً بمسائل التكتيك على غرار هيرمان وكوهلر . والأكثر من ذلك أنه كان يميل دائماً لأن يأخذ كثيراً عن نصوص العصور الوسطى ، وقد قام الباحثون بتصحيح عدد لا يحصى من النقاط التفصيلية التي أوردها . والواقع أن الكثير من الاستنتاجات ، التي استخلصها عن الحروب الصليبية ، جاءت منافية للمنطق ، بحيث يمكن إغفال معظم عمله تقريباً . رغم ذلك ورغم المراجعة الرائعة والمؤذية التي قام بها مولينييه [2] Molimier لعمله هذا ، فإن كتاب دلبش ما يزال يستخدم ويستفاد منه كنص يستشهد به . إن وجهات النظر التي يتبناها التاريخ الأمريكي الحديث حول موضوع حروب العصور الوسطى مأخوذة بمجملها تقريباً عن دلبش [3] ، وهذه حقيقة واقعة ، ويثبت ذلك الملاحظات التي أبداها البروفسور بلدوين في دراسته الرائعة عن معركة حطين [4] .

---

١) مورية . مدينة على مسافة ١٣ ميل إلى الشرق من تولوز جرت عندها معركة .

2) Revue historique, XXXVI (1888), 185-95.

3) Spaulding, Nickerson, and Wright, Warfare, PP. 323-9.

4) M.W. Baldwin, Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem, PP. 97-8.

كان السجل التالي للحروب في سورية اللاتينية من وضع البروفسور تشارلز أومان[1] Proffessor Sir Charles Oman . ولقد عنون كتابه الخامس من الطبعة المنقحة لمؤلفه هذا باسم «الحروب الصليبية» . وكرّس أومان فصلين قصيرين متتاليين لتتبع الحملات الصليبية المختلفة في مسيرتها عبر آسيا الصغرى، كما كرّس فصلاً آخر لدراسة المسائل الاستراتيجية والجغرافية والعسكرية لسورية في القرن الثاني عشر، ولكن أطول فصول كتابه الخامس هذا كان مكرساً لدراسة التكتيك الذي طبقه الفرنجة. واتبع منهجاً مماثلاً لمنهج كوهلر وهيرمان: أي إعادة «تركيب» للمعارك تتبعها استنتاجات عامة. وعني بشكل خاص بتحليل أسباب انتصار جيوش الفرنجة وهزيمتها في ميدان القتال.

وجّه أومان كتابته الى القراء العاديين، ولم يثقل النص بالبيانات العلمية. وكان من نتيجة ذلك أن نظر العديد من النقاد الى عمله نظرة شك، وعزز إهماله لبعض النقاط التفصيلية[2] رأي أولئك الذين عدوه مجرد «هاوٍ متعلم». وعلى كل حال فقد ظل مؤلف البروفسور أومان، الى جانب كونه أكثر الكتب سهولة ووضوحا للقارىء العادي، أفضل كتاب تاريخ أفرد للموضوع الذي طرقه. وترتكز استنتاجاته، حول مسائل الاستراتيجية والتكتيك في الحروب الصليبية بمجملها، على البينات المتوفرة حالياً. وهي مطروحة بوضوح وبشكل مقنع وتثبت نقاطاً هامة غابت عن نظر معظم المؤرخين المجتهدين[3].

في الوقت الذي نشر فيه أومان عمله صدرت التحفة الرائعة لهانز دلبروك Hans Delbruck، أحد عظماء المؤرخين العسكريين[4]. ويدل العنوان الذي اختاره

---

1) C.W.C. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages.

٢) ذكر على سبيل المثال في الفصل الذي عنوانه «فن الحرب» من المجلد الأول ص ٣٢٠ عزمه على دراسة معركة حارم Harem ولكنه لم يأت على أي ذكر لهذه المعركة في الفصل الذي جاء بعد ذلك.

٣) أنظر فيما يلي

4) H. Delbruck, Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte.

على أن تاريخه هذا ليس معالجة تقنية للمناهج العسكرية، وانما هو دراسة للتاريخ العسكري على أنه جزء من التاريخ العام. إذ نادراً ما يحاول المؤرخون البحث في علاقة الأعمال الحربية بالانشطة الانسانية الأخرى. ومما لا شك فيه أن مؤلف دلبروك متفرد في صفته من حيث المجال والجودة[1]، ولكن عدم تناوله الأعمال الحربية في الدويلات اللاتينية لأنه جزء من تاريخها العام يعد مخيباً للأمل. إن معالجة موضوع من هذا القبيل على يد باحث يحمل تعاليم دلبروك ونفاذ بصيرته سوف تكون لبنة لها مكانتها المرموقة في التسجيل التاريخي للحروب الصليبية. ويلفت دلبروك الانتباه بنفسه الى هذه الناحية، ولكنه يرفضها في الوقت نفسه لأسباب عديدة بدت له حاسمة[2]. إذ حدثت سلسلة الحملات الصليبية بكاملها خلال مائة وخمسة وسبعين عاماً، وهي فترة طويلة جداً لا تطالها دراسة واحدة. وهو يعتقد بأنها تأثرت تأثراً عميقاً بالمطامح الروحية للحجاج المسيحيين الى درجة لايمكن عندها معالجة تلك الحملات على أنها حملات عسكرية بحتة، والأكثر من ذلك أن المستعمرين القلائل الذين استوطنوا سورية اللاتينية حافظوا على أنفسهم بصعوبة كبيرة، ولم تبق الدويلات التي أقاموها تلك المدة الا بفضل الموجات المتعاقبة التي جاءت لنجدتهم على شكل حملات صليبية جديدة، وبفضل تشكيل الأخويات الرهبانية العسكرية على نظام الفروسية. لهذه الأسباب جميعها لم يُضمّن دلبروك عمله سوى فصل قصير مختصر عنوانه « لمحة عامة عن الحروب الصليبية » allgemeine Ansicht der Kreuzzuge تناول فيه ببعض التفصيل القوة العددية للجيوش الصليبية وتأسيس أخوية فرسان المعبد « الداوية ».

إلا أن دلبروك تناول، أثناء دراسته الشاملة للطبقة العسكرية الإقطاعية في الفترة المتوسطة من العصور الوسطى، لمحات من تاريخ الجزء الذي استوطن سورية من تلك الطبقة وأورد ملاحظاته عنه. وأبدى وجهة نظره عن الكثير من السمات التي اتصفت بها الحروب الصليبية من خلال تعمقه في دراسة منشأ هذه الطبقة

1) B.H. Sumner, War and History, P. 18.

2) For the remainder of the paragraph, see Delbruck, III, PP. 230-5.

الاجتماعية المتميزة، القائمة على مبدأ الفروسية، خلال القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، والمناهج العسكرية للمقاتلين في هذه الفترة ومواصفاتهم. ومن أهم تلك السمات التعاون بين الفرسان المنفردين والجنود المشاة، والتعاون المتبادل بين القوات المكونة من هؤلاء، واستخدام رماة السهام الراكبين في القوات اللاتينية، والأثر التكتيكي لنقص الخيول، وتنظيم أرتال المسير[١]. إن القسم الوحيد الطويل من مؤلفه عن الحروب الصليبية موجود في الفصل الأخير. وقد ذكر فيه رأيه حول «العصور الوسطى المتقدمة» Das hohe Mittelalter. وهذا الفصل مجرد سلسلة من الملاحظات تخص كل واحدة منها معركة جرت في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر. ولم يقصد من ملاحظاته إعطاء تقويم كامل لتلك المعارك، وإنما ضمنها فقط بعض التفاصيل والمشاهدات التي وجدها المؤلف ضرورية لإثبات وجهات نظره التي عبر عنها في الفصول السابقة، أو ليزيل بعض الغموض أو سوء الفهم أو الاستنتاجات الخاطئة المتعلقة بها. ولقد أتى في صفحات كتابه على ذكر سبع عشرة معركة خاضها الفرنجة في سورية، وضمنه نقداً للمصطلحات التي استخدمها هيرمان مع بعض ملاحظاته حول دور الجنود المشاة أثناء الحروب الصليبية.[٢]

كان ما قام به البروفسور لو Proffessor Lot أحدث مساهمة في هذا الموضوع. وقد ركز اهتمامه، الى جانب محاولته ربط الحروب التي خاضها الصليبيون بتاريخهم العام، على نقطتين رئيسيتين أخريين هما: نتائج البحوث السابقة، والقوة العددية للجيوش الصليبية. ونظراً لأن الغاية المعلنة من كتابه هي تزويد الطلبة الناطقين باللغة الفرنسية ـــ لأول مرة ـــ بدراسة شاملة للحروب في العصور الوسطى

---

1) Historians seeking Delbruck's views on crusading warfare do not always pay sufficient attention to his chapters entitled 'Das Rittertum als Stand', and 'Das Rittertum militarisch', Kriegskunst, III, PP 239-328; e.g. L.J. Paetow's Guide to the Study of Medieval History, 1931 ed., P. 236, gives a reference only to Kriegskunst, III, PP. 226-31. M.W. Baldwin in his Raymond III of Tripolis, P. 151, n. 6 refers only to Delbruck's single sentence on Hattin in the unrevised edition of Kriegskunst, III, P. 421.

2) Delbruck, III, PP. 283, 289-90, 305, 317, 417, 430.

بلغتهم، فقد لخص « لو » الاستنتاجات الرئيسية التي طرحتها الكتب السابقة واختار منها، عن تاريخ الحروب الصليبية، أعمال كل من دلبش وهيرمان، اللذين سبقت الإشارة إليهما. كما كرس قسماً كبيراً من كتابه للموضوع الهام المتعلق بعدد الذين شاركوا في الحملات الصليبية، أو الذين قاتلوا مع الجيوش المسيحية في سورية. وهكذا جاء سجله عن الحرب في المشرق اللاتيني متضمناً جوانب محددة مختارة من كامل الموضوع.

كانت الطريقة الأساسية التي نهج عليها معظم المؤرخين، المعترف بأعمالهم الى حد ما، هي البحث عن السجلات المعاصرة عن بعض المعارك التي دارت في سورية اللاتينية. وقد أدى ذلك الى إعادة « تركيب » لهذه المعارك، استخدمت أساساً لاستخلاص الاستنتاجات العامة عن التطورات التكتيكية. وكرست الأعمال السابقة كلها تقريباً لهذا الموضوع، باستثناء صفحات قليلة من كتاب أومان حول بعض المشكلات الاستراتيجية التي صادفها الصليبيون[1]، وصفحات أخرى أكثر منها عن التحصينات وطرائق الحصار[2]. وعولج التكتيك المطبق في سورية اللاتينية على أنه جزء من التاريخ العام للتكتيك في العصور الوسطى، حتى أن بعض الكتاب درس التأثير المحتمل لتكتيك الصليبيين على التكتيك الذي مارسته الطبقات العسكرية الاقطاعية في أوربا[3].

إن الانجاز الاجمالي المثير للإعجاب الذي توصل إليه المؤرخون العسكريون عرضة لانتقاد هام وحيد: هو إن مجاله محدود، وإن دراسة الموضوع مقيدة ضمن تلك الحدود. فقد رسم الاختصاصيون حدوداً ــ كما حدث فعلاً ــ وتبنوا العرف بعدم جواز تخطي تلك الحدود. وعدّوا المعارك السمة الرئيسية ــ والوحيدة تقريباً ــ

1) Oman, I, PP 235-69.

2) Jahns, Handbuch, PP. 630-2, 682-4; Oman, II, PP. 24-33 and 48-52.

3) Delpech, passim; H. Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge, P. 182; Delbruck, III, P. 317 devotes a short paragraph to this topic.

للعمل الحربي الذي يحتاج الى بحث، وقصروا اهتمامهم عند دراسة سورية اللاتينية على اختيار أعمال القتال، التي كانت بداية الوصول الى السلطة واستخدام القوة كما جرت العادة. ولقد سبق وأشرنا الى التماثل بين لائحتي المعارك التي درسها هيرمان وكوهلر. كما أن الفارق بسيط بين اللوائح التي درسها دلبش وأومان ودلبروك. ويمكن القول على وجه العموم أن خيارهم جميعاً كان متماثلاً، وأن عملاً ضخماً صدر حديثاً عن تاريخ الحروب[1] يمكن أن يرجع إليه الباحث المعاصر، بقبول حسن[2]، لخص الحروب الصليبية مرة أخرى بتسلسل للمعارك مماثل لما جاء في الكتابات السابقة.

إن جملة المعارك، التي درست على هذا النحو جميعها هي أقل بكثير من العدد الإجمالي للمعارك التي جرت في سورية اللاتينية. وقد تجاهل المؤرخون العسكريون الأحداث الحربية التي جرت ما بين العام ١١٢٠ والعام ١١٧٨ فيما عدا بعض الملاحظات غير الكافية التي ذكرها دلبش. وجلّ ما انصب عليه الاهتمام في عملهم هو كون هذين الجيلين يشكلان صفحة شهدت انتقال الرها «كونتيه إديسة» وقسماً كبيراً من أمارة أنطاكية الى يد زنكي، وفشل الفرنجة في الاستيلاء على دمشق ومصر، والتحالفات المعادية لهم التي عقدها نور الدين زنكي وصلاح الدين. وكانت لهم أسبابهم في هذا بطبيعة الحال. ولقد شرحت هذه الأسباب على أفضل وجه في كلمات البروفسور أومان حيث قال: «لقد كانت هناك نجاحات صليبية كثيرة تستحق التسجيل في السنوات المحصورة ما بين مرج الصُفّر وسقوط القدس في العام ١١٨٧. إلا أنها ليست بذات أهمية تكتيكية خاصة...[3]». ويبدو أن هذا هو رأي مؤرخي حروب العصور الوسطى على وجه العموم، والحروب

1) Handbuch fur Heer und Flotte, ed. G. von Alten.

2) Erben, Kriegsgeschichte, P. 30.

3) Oman, Art of War, I, P. 304.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه اعتباراً من بداية معركة حطين (١١٨٧) وبعد تحقيق التوازن الاستراتيجي، عادت المبادهة الاستراتيجية إلى جانب العرب المسلمين، وأخذت كفة فن الحرب العربي الاسلامي ترجح على الفن الصليبي، حتى تفوق عليه تماماً وزال الوجود الصليبي في المشرق نهائياً دون أن تتوقف الحملات الصليبية الموجهة ضد العالم الاسلامي.

الصليبية بوجه خاص. فهم مؤرخون للتكتيك ويجدون مبتغاهم في ميدان القتال. وهي نقطة بارزة سنتناولها بالمناقشة في القسم التالي من هذا الفصل.

٣ ــ المعركة والتاريخ العسكري

قد يتساءل المرء ــ لغاية درسية بحتة ــ عن النقطة التي تبدأ المعركة عندها. ويرى مؤرخو فن الحرب في سورية اللاتينية، أنها تبدأ عندما يصطف الجيشان المتعاديان وجهاً لوجه على أرض المعركة التي اختاراها. ويفترض هؤلاء المؤرخون حقيقة مفادها أن المعركة تصبح حتمية عندما يقرر قائدا الطرفين خوضها، أو أن قائد أحد الطرفين قرر ذلك واستطاع أن يكره الآخر على خوض القتال. إلا أن مثل هذا الرأي لا يأخذ في الحساب ناحية لها أهميتها العسكرية الكبيرة، وهي أنه لا يمكن ــ في الواقع ــ ضمان نتيجة المعركة، وهي حقيقة تؤثر دائماً في مجرى الحرب. ناهيك أن النجاح في المعركة يؤدي غالباً الى تحقيق أهداف الحرب بسرعة، وبشكل مؤكد، أكثر من أية وسيلة أخرى. وهذا يعني أن القائد الذي يهدف الى تحقيق النصر في المعركة وتحمل نتائجها يخاطر دائماً باحتمال الهزيمة وعواقبها. ومن النادر أن تجرى معركة عرضاً. وإنما تنشب في معظم الأحيان نتيجة قرار معلل ومدروس[1]. وفي أيامنا هذه تضاءلت التأثيرات المحتملة للحظ السيء في المعركة لأن الاتصالات الحديثة تؤمن للقائد أكبر قدر من المعلومات، وأقصى سيطرة ممكنة. فهو يعلم متى ستجري المعركة ضده، وهو قادر إذا ما أراد، على اتخاذ اجراءات منظمة يستطيع بوساطتها أن ينشب القتال تدريجياً أو دفعة واحدة. وهو يستطيع ذلك بفضل القوة النارية التي تؤمنها الأسلحة الحديثة على نطاق واسع. أما الظروف في العصور الوسطى فكانت مختلفة تماماً. إذ كان في وسع القائد أن يضع خطة قبل المعركة، ويستطيع بموجبها أن يرتب قواته ويزج بها في القتال، ولكنه ما أن يطلقها لخوض

---

1) F.E. Adcock, The Roman Art of War (1940), P. 106; Delbruck, IV, P. 352.

المعركة حتى تتضاءل سيطرته عليها أو يفقد تلك السيطرة تماماً. وينطبق هذا على أكثر القوات فاعلية في ميدان القتال، وهي التي تضم الفرسان الراكبين. فإذا ما شرع الفرسان (الخيالة) في هجومهم، وحدث ما يخل بالخطة، فإن القائد في العصور الوسطى غالباً ما كان يقف عاجزاً عن إعادة ترتيب قواته. ولابد عندئذ من ترك مصير المعركة لتلاعب المعنويات والاندفاع الشخصي، والحظ الحسن. تلك كانت الظروف التي تجعل نتاج المعارك في القرون الوسطى موضع شك. وكان قرار خوض المعركة في ذلك العصر مجرد تقبل مدرك لركوب المخاطر. وكلما كانت محصلة الرهان كبيرة كان التفكير في عنصر الحظ الذي يسيطر على القائد أكبر.

إلا أن المخاطرة المعنية قد تتنوع وفقاً لتفنن القائد، حيث تؤكد معظم نظريات الحرب وتطبيقاتها هذه الحقيقة. فإذا استطاع القائد أن يفرض المعركة على خصمه غير المستعد لها، فإنه يخفض نسبة المخاطرة الى الصفر، في حين تبقى المفاجأة دائماً مبدأ جوهرياً من مبادىء الحرب. وبما أنه قد يكون من المحال التخلص من عامل الحظ تماماً، فإن معظم العسكريين والمنظرين الحربيين يتفقون على أن القائد الذي يدير المعركة يبذل جهده ــ إذا كان حكيماً ــ كي يضمن لنفسه الظروف الملائمة للقيام بذلك. ورغم هذا الاتفاق العام فقد تختلف وجهات النظر اختلافاً واسعاً، طبقاً لتفاوت الأهمية النسبية التي تعلق على المعركة ذاتها من جهة، والاستعدادات التي اتخذت لها من جهة أخرى. ففي عصور معينة كان المنظرون العسكريون يرون أن الاهتمام الأساسي يجب أن ينصب على الاعداد للمعركة. وإذا ما طورت مثل وجهة النظر هذه فإنها لاتوصلنا فقط الى الرأي القائل بضرورة رفض المعركة، ما لم يكن بالامكان إعداد الموقف الملائم لها، وإنما تتعداه الى المذهب المتطرف القائل بأن الحالة المثالية للحرب هي الإعداد لها إعداداً كاملاً بحيث تصبح المعركة غير ضرورية. والقائد الناجح هو من يناور بنفسه وبخصمه، بحيث يكون في وضعية تجعل نتيجة المعركة نصراً مؤكداً له.

كان هذا التفكير والممارسة تقليداً تبناه القادة العسكريون في إيطاليا في أواخر

القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر[١]، وقادة الجيوش القارية من النظام القديم (ancien regime)[٢]. وليس من قبيل الصدفة أن تستخدم مصطلحات متشابهة في التعبير عن الاستنتاجات المنطقية لوجهات النظر التي كانت سائدة آنئذ[٣]. كما أنه من الملاحظ أيضاً أن المذهب، الذي كان سائداً في كلا العصرين، كان يثير ردود فعل مشابهة. فقد انتقد «ميكيافيلي» مثلاً وجهات النظر التي طرحها «بسكار»[٤] Pescara، بينما هاجم «كلاوزفيتز» Clausewitz آراء «دوساكس» de saxe كما هاجمها أيضاً منظرون آخرون من القرن التاسع عشر[٥]. وقد عد النقاد المعركة عاملاً هاماً في الحرب، واعتقدوا أن النصر في المعركة يمكن أن يطغى بسرعة على نتائج المناورة الاستراتيجية. ويشير سبنسر Spenser Wilkinson الى أن الانتقادات، التي جاء بها المنظرون ممن يصرون على المعركة، تتلخص في جملة واحدة لمكيافيلي (Una giornata che tu vinca cancella ogni altra tua mala azione) وهي تعني سيؤدي انتصارك يوماً ما الى محو كل خطيئة ارتكبتها سابقاً[٦].

---

١) أومان — تاريخ فن الحرب في القرن السادس عشر ص ٩٥

٢) دلبروك، ج ٤ ص ٣٥٢ — ٣٦٢، ألقى ليدل هارت وليز نولز محاضرات حول العلم العسكري في جامعة كامبردج وطبعت تلك المحاضرات تحت عنوان «شبح نابليون» لندن ١٩٣٣.

٣) اقتبس دلبروك من بسكارا ج ٤ ص ١٢٧، وكذلك فعل أومان في كتابه آنف الذكر ص ٩٦ وفيه يقول: بين لي الرب مئة عام من الأعمال الحربية دون معركة واحدة. وقد جاء مثل هذا القول على لسان المارشال دوساكس في القرن الثامن عشر في كتابه Mes Réveries (١٧٥٧) ج ٢ ص ١٤٨: لست الآن مع خوض المعركة إطلاقاً وبخاصة في بداية الحرب، ولقد اقتنعت أن أي جنرال ماهر يستطيع أن يمارس الحرب طول عمره دون أن يضطر إلى خوضها.

٤) دلبروك ج ٤ ص ١٢٨ — ١٢٩، أومان، المصدر السابق ص ٩٤.

٥) فون كلاوزفيتز، في الحرب، وكذلك فون شايرف (١٨٨٠) ص ١٦٨، ٢٠١، ٥٥١ — ٥٥٢. فوش، مبادىء الحرب (١٩١٧) ص ٢٣ — ٢٧. وهذه نماذج شهيرة ولكن الشائع بين منظري القرن التاسع عشر إبراز صحة التفكير العسكري وتطبيقاته في أيامهم مع الأفكار المتوارثة عن القرن الثامن عشر. والمثال على ذلك كايمرر في كتابه روائع الاستراتيجية في القرن التاسع عشر.

٦) سبنسر ويلكنسون، الجيش الفرنسي قبل نابليون ص ١٧.

إن هذا التناقض قائم بين مجموعتين من المتطرفين. ففي أحد الجانبين يقف أنصار «استراتيجية الهزيمة» Strategy of Overthroue التي تؤكد أهمية المعركة الى درجة يعدونها العمل الهام الوحيد في الحرب الذي يجب أن يورط القائد الميداني نفسه فيه عند أول سانحة. وفي الجانب الآخر يقف أنصار «استراتيجية المناورة» Strategy of manoeuvre، ممن يهوون خوض الحرب دون خسارة، هادفين الى شل العدو بالتحركات الماهرة، واحتلال المواضع في مسرح الحرب دون اللجوء الى المعركة. وثمة وجهة نظر أكثر اتزاناً تقف بين هذين الحدين، وهي تحبذ المعركة، إذا أمكن تهيئة الظروف المناسبة لها أولاً، وإلا فيفضل الاستعداد لها وتجنبها. وبما أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة، التي قد تلجأ اليها الحكومة لتحقيق أهدافها السياسية، فإنها تعد المعركة الوسيلة الوحيدة المهيأة لتحقيق غايات الحرب[١].

لقد كان المنظرون العسكريون في القرن التاسع عشر مشدودين الى المذهب الأول من هذين المذهبين. وكان ذلك مناسباً تماماً للوسائل المتوفرة لخوض غمار الحرب في أيامهم تلك، إلا أن عدداً كبيراً منهم دعا الى تطبيقه عالمياً. ولم يكن ليدور في خلدهم أبداً أن أفكاراً استراتيجية أخرى يمكن تطبيقها تطبيقاً مفيداً في عصور غير عصرهم، أو ظروف غير تلك التي اهتموا بها، ولذلك كان حكمهم على تلك الأفكار بأنها سيئة مهما كانت الظروف. ولا تنقصنا الأدلة على أن بعض المؤرخين العسكريين كتب ما كتب، سواء عن وعي أم غير وعي، متأثراً بمثل هذه النظريات، وكما يمكننا أن نعد انشغالهم بتاريخ التكتيك في ميادين القتال دليلاً على ذلك[٢].

---

١) عالج دلبروك هذه الناحية معالجة ناجحة، ج ٤ ص ١٢٦ ــ ٣٣، وفي فصل «الاستراتيجية»، ص ٣٣٣ ــ ٦٣، أنظر بشكل خاص الصفحات ٣٣٤ ــ ٣٣٨. وتبنى دلبروك في مناقشته هنا ما اصطلحه كلاوزفيتز بالنسبة للمذاهب الاستراتيجية التي ذكرتها في المقطع أعلاه. أما المصطلحان الآخران فوضعهما دلبروك.

٢) وجد أومان أن تكتيك المرتزقة عقيم (ج ٢ ص ٣٠٥) وأسلوب سخيف (ص ٣٠٨ ــ ٩). وكان تعليقه في مكان آخر (فن الحرب في القرن السادس عشر) على ذلك مطابقاً لرأي فوش في تعليقه على دوساكس (مبادىء الحرب ص ٢٧) وكلاهما اعتمد في رأيه على مثال« نابليون ».

إن تفسير أحداث عصر ما، على ضوء افتراضات أو أحكام مسبقة لعصر آخر، لايساعد اطلاقاً في كتابة تاريخ مقبول. وإن قصة المناهج العسكرية في العصور الوسطى سوف تكون بعيدة جداً عن الكمال، إذا ماورويت بكاملها، أو من حيث المبدأ، من زاوية المعركة فقط. فلم يكن ذلك العصر عصر القادة، الذين يطبقون مذهباً استراتيجياً مدروساً في الحرب، وإنما كان هؤلاء يدركون تماماً الأخطار التي تنطوي وراء خوض المعارك، وكانوا مستعدين لتجنبها إذا كانت الظروف معاكسة لهم[1] . إلا أن الظروف التي عاشتها الدويلات اللاتينية كانت تتيح لها تحقيق أهداف عسكرية هامة، بإبقاء جيوشها جاهزة في مواجهة أي خطر يحيق بها، حتى ولو قرر قادتها رفض المعركة.

لقد كان اللجوء الى القتال، باعتباره أسلوب من أساليب الحرب، مشكلة دائمة يواجهها الحكام في الدويلات اللاتينية. ولم يجد أي مؤرخ صعوبة في أن يدرك أن غي لوزينيان Guy de lusignan، ارتكب في تموز من العام ١١٨٧ خطأً فادحاً عندما قرر انقاذ مدينة طبريا معرضاً قواته لخوض معركة حتمية تقريباً في ظروف غير ملائمة. وهكذا تقرر مصير مملكة القدس بالهزيمة الساحقة في حطين. إلا أنه لابد من الملاحظة بأن العامل العسكري، الذي كان مكافئاً للمعركة من حيث الأهمية، هو قرار ركوب مخاطر المعركة. وقد حدث ان اتخذت خلال القرن بكامله قرارات مماثلة في مناسبات لاحصر لها. إن حطين تمثل تماماً ـــ للفرنجة ـــ العواقب المحتملة لقرار خاطىء، ويمكن أن توضح تماماً لماذا كان الفرنجة يتجنبون المعركة أحياناً، ولماذا كانوا يسعون لتحقيق الغايات المباشرة للسياسة العسكرية بطرائق أخرى.

---

١) سوف نستعرض ذلك بالوقائع. ولو كان الفرنجة في سورية متأثرين بالمنظرين العسكريين فقد كان كتاب فيجيتيوس حول الحرب هو الأوسع انتشاراً في العصور الوسطى، ولقد أكد فيجيتيوس أكثر من مرة أن المعركة عمل غير مؤكد ويجب رفضها إذا توفرت وسائل أخرى ما لم تكن الظروف مناسبة وقد نوه إلى ذلك كوهلر إلا أنه لم يشر إلى أن هذا المفهوم الشامل كان سائداً قبل زمن طويل من تلك الأمثلة التي ساقها عن العصور الوسطى. ولم يكن في سورية زمن الحروب الصليبية مجال للشك حول مخاطر المعركة.

عالج مؤرخو الحرب في سورية اللاتينية أحداثها في ميدان القتال، لأنها المادة الخام الوحيدة لدراساتهم. وكان الموضوع بحاجة لأن يدرس خارج هذه الحدود الضيقة. إذ تقع خارج نطاق أعمال القوات في القتال مؤثرات وظروف تحدد تلك الأعمال، والأهم من ذلك، أن التاريخ الحربي يُصنع من مناسبات لا حصر لها قبل أن تنشب المعركة، بل وحتى عندما ترفض تلك المعركة أو يتم تجنبها. وبما أن دراسة العمل الحربي تخرج عن حدود ميدان القتال، فإن مجالها أوسع بكثير من دراسة التطورات التكتيكية. وإن تلك الطرائق تفرضها أوجه المجتمع الأخرى التي تمارسها، والتي يجب أن تعزى اليها. لقد كان استخدام حكام سورية اللاتينية لجيوشهم الميدانية مرهوناً بعوامل كثيرة: كالسياسة المحددة لنوع الحرب التي ستخوضها، وبالعلاقات التي كانت قائمة بين المستوطنين الفرنجة والسكان الوطنيين، وبنية الجيوش المتقابلة وتركيباتها التكتيكية، واستخدامها للأسلحة المتوفرة بين يديها أيضاً. ولهذا كرس أحد الفصول القادمة من الكتاب لدراسة كل ناحية من هذه النواحي. وقد اجتمعت هذه الشروط كلها لتفرض على الفرنجة طرائق معينة في العمل الحربي، وهذا ما تم إيضاحه في فصل تال هو دراسة جيش الميدان الصليبي أثناء العمل.

لا تعكس الدراسات التاريخية دائماً، وبشكل كاف، حقيقة الانسان بأنه كائن مقاتل الى جانب كونه كائن سياسي واقتصادي، وان العنف الانساني المنظم تضبطه طرائق معينة، وتوجهه نحو نهايات تؤثر في بقية النواحي التي تكفل وجوده كانسان وتتأثر بها أيضاً. وما العمل الحربي سوى جزء مرتبط بنشاط المجتمع كله مهما كان هذا المجتمع. وهكذا كان الحال في سورية اللاتينية. إذ لم تكن الدويلات الصليبية من نواح عدة أكثر من مجرد مستوطنة عسكرية فجّة»[1]، كما أن تقبل وجهة النظر هذه ينطوي على اعتراف بأهمية العمل الحربي، بالنسبة لها، عاملاً من عوامل وجودها. وبالفعل فقد كان العمل الحربي وجهاً من وجوه تاريخها الذي لم يُدرس كله دراسة وافية حتى الآن. وفي الصفحات التالية من هذا الكتاب محاولة لذلك..

1) Sir Ernest Barker in The Legacy of Islam, T. Arnold and A. Guillaume, P. 54.



الفصل الثاني

الحرب والسياسة
في سورية اللاتينية



١ ــ بعض الآراء القديمة

كان للحرب في سورية اللاتينية وجهان اثنان. فقد كانت تسلية مفيدة لأقطاب الاقطاع من جهة، وأداة لممارسة السياسة، التي طبقها حكام الدويلات اللاتينية، من جهة أخرى. وتختص هذه الدراسة بالحرب من النوع الثاني[١] أي كونها أداة لممارسة السياسة.

طرح الدارسون الأوائل عدة وجهات نظر حول هذه المسألة. وكان رأي دلبروك أنه لا يمكن تطبيق مبادىء الاستراتيجية على الحروب الصليبية لأن هذه الحروب ولدت نتيجة حوافز روحانية أكثر منها سياسية[٢]. ومما لا شك فيه أن التبشير بالحملة الصليبية الأولى كان مرتكزاً الى كره المسيحية « الغربية » للإسلام[٣] إلا أن الحوافز الأخرى كانت موجودة منذ البداية. فقد ضمت الحملة فيما ضمت، الى جانب بطرس الناسك Peter The Hermit، النورمانديين المتعطشين للأرض،

---

١) الواقع أن كل الحملات الصليبية كبيرة كانت أم صغيرة تحمل هذين الوجهين. فالحاكم الذي يقاتل من أجل احتلال دائم للأرض يبحث أيضاً عن فائدة مباشرة يجنيها، والاقطاعي الذي يقوم بغزوة قد يحصل بإصراره ومثابرته على أرض يغتصبها من المسلمين. إلا أن متطلبات السياسة كانت هي السائدة في معظم الحملات.

٢) دلبروك ج ٣ ص ٢٣١.

٣) أنظر العدد ١١، ص ٢٣١ ــ ٢٤٢ من المجلة التاريخية الأمريكية AHR بقلم د. سي. مونرو.

والجنويين المغامرين الطامحين لاغتنام الفرص التجارية. وكان من المحال لجماعة المستوطنين اللاتين الصغيرة إقامة علاقات دائمة مع من خضع لهم من المسلمين وتقبل العيش في ظلهم، ومع من جاورهم من هؤلاء في ظل الحرب المقدسة. فكان من المهم جداً إيجاد طريقة للتعايش معهم modus Vivendi، فأقيمت العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين الفرنجة والمسلمين منذ تاريخ مبكر. وقد تُضْرِمُ جذوة الحماسة الدينية في بعض الأحيان نار النزاع الدائر بسبب تصادم المصالح الدنيوية[١]، إلا أن السياسة الخارجية الطبيعية، والحرب بالتالي، بين الحكام اللاتين والمسلمين كانتا تخضعان لدوافع عقلانية منطقية.

افترض عدد آخر من مؤرخي تلك الحروب وجود استراتيجية نموذجية لدى الفرنجة.[٢] وأشاروا الى أن سورية كانت بمثابة شريط ضيق من الأراضي المأهولة بين البحر والصحراء، وأنها كانت عبر التاريخ جسراً يصل بين حضارات واديي النيل والفرات[٣]. وإن احتلال رقعة سورية بكاملها سوف يمكن الحكام اللاتين من منع جميع الاتصالات بين السلاطين السلاجقة في بغداد والخلفاء الفاطميين في مصر. إلا أن الفرنجة لم يتمكنوا أبداً من إخضاع أكثر مدن سورية الشرقية أهمية مثل حلب وحماة وحمص ودمشق، وعندما أصبح هذا الحزام من أراضي المسلمين تحت سلطة

---

١) ج . ل . لامونت J. L. La Monte في كتابه « الأرث العربي » طبعة ن . آ . فارس ص ١٩٧ The Arab Heritage, ed N.A. Faris P. 197.

٢) أومان Oman ، الجزء الأول ، ص ٢٥٤ ، و هـ . بيلوك ، الحملة الصليبية H. Belloc . The crusade, P. 101

٣) يمكن العثور على تسجيلات مختصرة حول التركيب الطبيعي لسورية في وصف سورية للجغرافي العربي « المقدسي » الذي كتب في القرن العاشر . وقد ترجم قسم من مؤلفه ونشر على يد ج . لوسترانج G. Le Strange تحت عنوان Translation of Mukaddasis Description of Syria, وانظر بشكل خاص ص ٨٥ . كما يمكن الرجوع إلى كتّاب حديثين مثل دوشامب في كتاب قلعة الحصن Le crac des Chevaliers ص ١٦ ــ ١٧ ، و أومـــــــــــــــان ، ١ ، ص ٢٥٣ و بيلوك Belloc في كتاب الحروب الصليبية ص ٩١ ــ ٨ للاطلاع على وصف مختصر لها .

صلاح الدين الى جانب مصر مع أجزاء هامة من منطقة ما بين النهرين أصبح في مقدوره سحق الدويلات اللاتينية وانهاء وجودها تقريباً. إن هذه الاستنتاجات العامة تأتي متفقة مع حقائق التاريخ ومبادىء الاستراتيجية على حد سواء، ولكن لا بد من التأكيد، في الوقت نفسه، على أن الأنشطة العسكرية ــ التي كان يمارسها الحكام اللاتين ــ لم تكن نابعة، وبشكل واع، عن مفهوم احتلال سورية من البحر الى الصحراء. فلم تكن هنالك أية خطة للغزو خلال الحملة الصليبية الأولى، وبعد أن تم الاستيطان لم يكن يوجد أي تنسيق للجهود من أجل التوسع. وكان حكام الدويلات اللاتينية الأربع يوحدون قواهم أحياناً تحت زعامة ملك القدس في زمن المحن الحربية ولكن كلاً منهم كان يذهب في حال سبيله اثناء الإحتلال[1]. إن الاستيلاء على سورية بعرضها الكامل كان فكرة مثالية، ربما لم يدركها الفرنجة في سورية، ولكنهم لم يسعوا الى تحقيقها بكل تأكيد[2].

نسبت الى الفرنجة حوافز استراتيجية في احتلالهم لمناطق معينة تقع بين أراضي المسلمين. ويمكن أن تقدم لنا الخريطة المرفقة دليلاً على أنه كان باستطاعة الفرنجة على هذا النحو منع التعاون بين الحكام الذين لا تتجاور أراضيهم. وتوصل المؤرخون الى القول بأن كونتية الرها Edessa الفرنجية كانت تفصل بلاد الرافدين عن حلب

---

١) من الممكن وجود خطة واحدة للاحتلال على الأقل، لو آن حكام كل من أنطاكية والرها وطرابلس أداروا أراضيهم كاقطاعيين تابعين لملك القدس، وقدموا له الخدمات الاقطاعية العادية. وبعد العام ١١٠٩ أصبح كونت طرابلس اقطاعياً من أتباع الملك، ولكن كونت الرها لم يقف هذا الموقف إلا عرضاً، أما أمير أنطاكية فلم يكن ذلك أبداً، وأفضل معالجة لهذا الموضوع هي ما قدمه لامونت La Mont في كتابه Feudal Monarchy ص ١٨٧ ــ ٢٠٢، كذلك حاول غروسية أن يبرهن على العلاقة الاقطاعية البحتة بين انطاكية والقدس دون أن ينجح في ذلك.

٢) في هذا القول تجاهل لحقائق واضحة ربما أغفلها المؤلف عن قصد أو عن غير قصد. إذ حاول الفرنجة أكثر من مرة وبكل مافي وسعهم احتلال دمشق وحلب وحمص وحماه دون أن يتمكنوا من ذلك. وتشير بعض وثائق فرسان القديس يوحنا وكتابات المؤرخين المعاصرين الصليبيين إلى أن ملوك الفرنجة وقادتهم كانوا يدركون أهمية التوسع في هذا الاتجاه والإبقاء على عوامل التفرقة بين الدويلات العربية الاسلامية ولا سيما بين بلاد الشام ومصر. (المترجم).

ودمشق[١]، وكانت لوردية الكرك[٢] تفصل دمشق عن مصر. إلا أن مثل هذا التعبير ليس له سوى معنى محدد جداً. ومن السهل أن نتبين أن المواصلات بين حلب ودمشق من جهة وبين بلاد الرافدين من جهة أخرى، لم تنقطع اطلاقاً. وأن الطريق الرئيسي الذاهب من حلب حتى الفرات يمر من الباب وبُزاعة[٣] ومنبج[٤]، ولم يسيطر الفرنجة أبداً على أي مكان على هذا الطريق باستثناء فترات فاصلة قصيرة[٥]. وكان لدمشق اتصالات مستمرة مع الفرات عبر الطرق الصحراوية[٦]، كما كان الطريق المار بالرحبة (الميادين حالياً) بعيداً دائماً عن سيطرة الفرنجة ولم يكن يستخدمه المسافرون فحسب، بل وتستخدمه أحياناً أيضاً قوات عسكرية صغيرة في تلك الأيام[٧]. حتى أن الجيوش الإسلامية كانت تستخدم أيضاً الطرق التي تمر في قلب الأراضي اللاتينية. وقامت هذه القوات في مناسبات عديدة بمسيرات عبر أراضي

---

1) Grousset, III, Pref., P. XXI; L. Halphen, L'Essor de l'Europe, P. 77.

٢) مقاطعة سيدها يحمل رتبة لورد أنظر Grousset. II, P. 554; Deschamps, Le Crac, P. 20, and in Revue historique CLXXII (1933), 43.,

٣) وردت في النص باسم باب ـــ بزاعة "Bab-Buza'a" وذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان باسم الباب وبُزاعا بضم الباء فقال: الباب بليدة صغيرة ذات سوق وحمام ومسجد جامع ولها بساتين كثيرة نزهة أما بُزاعا فضويعة من أعمال الباب وبظاهرها مشهد به قبر عقيل بن أبي طالب وهي على مرحلة من حلب في الجهة الشمالية الشرقية ... » ص ٢٢٧ (المترجم).

4) Dussaud, Topographie, PP. 451, 474-5, and map XIII; Cahen, Syrie du Nord, P. 165; Le Strange, Palestine under the Moslems, P. 406.

٥) يقول ابن الأثير في التاريخ ص ٣٢٣ (جامع مؤرخي الحروب الصليبية ـــ مؤرخون شرقيون) أن الفرنجة احتلوا بزاعة في العام ١١١٩، ونظراً لهزيمتهم أمام ايلغازي بعد ذلك في العام نفسه يكون احتلالهم لها لفترة قصيرة جداً فقط.

6) C. P. Grant, the Syrian Desert PP. 36-39

٧) يقول ابن القلانسي ان دقاقاً قاد حملة بين العام ١٠٩٩ والعام ١١٠٠ من دمشق إلى ديار بكر وسلك طريق الصحراء مروراً بالرحبة (الميادين حاليا) ... وحول استخدام الطرق في مناسبات أخرى أنظر ابن القلانسي ص ٥٩، ١٨١ ـــ ٢، وأبو شامة ص ٦٠

كونتيه الرها بالذات[1]، كما قاد كل من شيركوه وصلاح الدين جيوشهما في خمس مناسبات عبر اقطاعية الأردن[2].

وقد استشهد دوسّو Dussaud ، بهذه المناسبة، بالمنطقة التي كان يسيطر عليها الفرنجة من معرة النعمان وكفر طاب . وأثبت أن هاتين المدينتين تقعان على أهم الطرق بين حلب وحماة[3] . وأكد أهميتهما باعتبارهما مفتاح حماة، وعدّ استيلاء الفرنجة على معرة النعمان، في العام ١٠٩٨ ، دليلاً على نيتهم بالاستيلاء على حماة[4] أيضاً . ومما لاشك فيه أن الدليل الذي أقامه دوسّو عظيم حقاً، ولكن لا بد من ذكر حقيقة تاريخية هي أن الفرنجة لم يقوموا أبداً بأي هجوم خطير على حماة أو حلب (!!)، التي كانت معزولة دائماً عن كل من حماة ودمشق، طوال تلك الفترة، رغم أنهم ظلوا مسيطرين على المعرة حتى العام ١١٣٥ ، باستثناء فواصل زمنية قصيرة. بينما مكنتهم ممتلكاتهم في الرها والمعرة، والكرك في شرقي الأردن، من السيطرة على طرق المواصلات والإفادة من حركات التنقل الطبيعية التي يسلكها التجار والحجيج والبدو المسافرون ما بين سورية المسلمة وبلاد الرافدين ومصر والجزيرة العربية . ولو تم لهم ذلك لاستطاعوا أن يجعلوا من مثل هذه الرحلات ضرباً من المخاطر الشديدة[5]، إلا أنهم كانوا عاجزين، في الواقع ، عن منع جميع الاتصالات بين أي قطرين مسلمين ناهيك عن منع مرور الجيوش. وعندما كانت الحاجة تدعو الحكام

---

١) يقصد بذلك مسير قلج أرسلان في قلب كونتية الرها في العام ١١٠٦ ، أنظر ستيفنسون Crusaders in the east

٢) اجتازها شيركوه مرتين في العام ١١٦٤ ومرتين في العام ١١٦٧ ومرة واحدة في العام ١١٦٩ ، واجتازها صلاح الدين في الأعوام ١١٧٤ ، ١١٧٦ ، ١١٧٨ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ .

3) Dussaud Topografhie, PP. 187-94

٤) المصدر السابق ص ١٨٩ .

٥) أنظر الشواهد العامة لابن الأثير في أتابكة الموصل ص ٥٩ — ٦١ ، وفي كتاب الاعتبار لاسامة ابن منقذ ، الذي وصف رحلة الصحراء بين مصر ودمشق في مذكراته ، طبعة وترجمة « حتي » ص ٣٥ و ٥٣ .

المسلمين لإقامة علاقات سياسية أو عسكرية فيما بينهم فإن الأراضي اللاتينية لم تكن تشكل أبداً حائلاً لايمكن التغلب عليه[1].

لقد كانت أهداف الحرب بالنسبة للفرنجة في سورية مختلفة عن تلك التي قال بها أو استخدمها الكتاب الذين نوقشت وجهات نظرهم أعلاه. وان تأثير تلك الأهداف على الطرائق العسكرية هام جداً بحيث وجدنا من الضروري بحثها في الفصل التالي.

٢ ــ أهداف الحرب لدى الفرنجة في سورية

عندما تعجز الحكومات عن تسوية خلافاتها بالمفاوضات أو التحكيم تعمد الى إعلان حالة الحرب فيما بينها، فيسعى كل طرف من الطرفين الى فرض إرادته على الآخر بالقوة. وقد يكون استخدام تلك القوة محصوراً في تحقيق الأهداف التي كانت سبب النزاع أو تحقيق جزء منها، أو أن توجه تلك القوة لإتمام دحر العدو بحيث لا يصبح في وسع المنتصر حل المسألة موضوع النزاع لصالحه فحسب، بل وإملاء إرادته على العدو المنهزم أيضاً. ولقد حدثت خلال الأربعين عاماً الماضية حربان من هذا النوع لم تكن أي منهما مقيدة الأهداف أو الوسائل. إن ضرورة العثور على

---

١) ربما كانت إقطاعة شرقي الأردن في نظر المؤرخين تشكل حاجزاً فعالاً بين دمشق ومصر لأنه نادراً ما كانت الدولتان تتعاونان فيما بينهما قبل أن يوحدهما صلاح الدين. وكان حكام دمشق يدينون بالولاء غالباً للخلفاء العباسيين وسلاطنة السلاجقة الذين كانوا يعدّون الخلفاء الفاطميين مارقين ومنشقين. وثمة دليل على أن حكام مصر اقترحوا صيغاً للتعاون ضد الفرنجة على حكام دمشق، إلا أن هذا العرض كان يرفض في كل مرة. أنظر أسامة ص ٣٤، وكذلك: Derenbourg, Vie d'Ousâma PP. 223-32; Wiet. Histoire de l'Egypte, PP. 280-287.

وكذلك القصائد والمراسلات المتبادلة بين نور الدين وبين شاور وبن رزيك (أنظر كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٩) المترجم.

أما الدليل على وجود العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين خلال القرن الثاني عشر فموضح في ابن القلانسي ص ٢٢٠ و ٢٨٠. وقد أخذ المؤرخون الذين علقوا على « الفصل » بين دمشق ومصر كل هذه الحقائق في اعتبارهم.

القوات المسلحة المعادية وتدميرها كانت دائماً مسألة بديهية في المذاهب العسكرية الحديثة. ولا بد بالتالي من التذكير بأن استخدام القوة لم يكن في العصور الأخرى يهدف دائماً الى تلك الغايات المتطرفة. وكثيراً ما كان يقتصر على تحقيق غايات معروفة لم تكن تشمل غالباً الاستسلام غير المشروط من جانب المنهزمين. وكانت الحروب، التي يخوضها حكام الدويلات اللاتينية ذات أهداف محدودة من هذا النوع دائماً، بينما كانت الأرض هي الهدف الرئيسي الذي يضعه الحكام اللاتين لسياستهم الخارجية طوال القرن الثاني عشر، وهي غالباً سبب تورطهم في الحرب سواء لكسب أرض جديدة أو للدفاع عن أرض يحتلونها. وكانت القوة التي تشكل لهذه الغاية تستخدم استخداماً مباشراً، أي داخل المنطقة المتنازع عليها.

ثمة استثناء لهذه الاستنتاجات العامة. ففي بعض الأحيان كان الحكام اللاتين ينضوون في ظل حلف دفاعي قد يورطهم في عداء ليس لهم مصلحة مباشرة فيه[1]. والأكثر من ذلك أنهم كانوا يدركون، في ذلك العصر، كيف يمكن الاستيلاء على منطقة ما بغزو منطقة أخرى عسكرياً. فقد ولدت الفكرة القائلة بإمكانية السيادة على بيت المقدس من ضفاف النيل أثناء الحملة الصليبية الأولى[2]، وظلت تلك الفكرة حية طوال القرن الثاني عشر[3]، وكان لها شأن تاريخي حتى أواخر العصور الوسطى. إلا أن القاعدة العامة ظلت غير متأثرة بتلك الاستثناءات: فالحروب، التي أسهم فيها الحكام اللاتين، كانت تهدف عادة الى امتلاك الأرض، وتنحصر الأحداث العسكرية المتعاقبة داخل منطقة النزاع.

كان هدف الفرنجة، منذ أول حملة صليبية، الاستيلاء على الأراضي. ولم يكن

---

١) يقصد بذلك التحالف بين فولك (فُلك) ومعين الدين أنر صاحب دمشق. ولم يكن غرض الملك من إقامة هذا التحالف، الذي من شأنه أن يثير حرباً مع زنكي، ضمان دمشق لنفسه وإنما تمكين أنر، من الحيلولة دون استيلاء زنكي عليها. أنظر غروسيه ٢، ص ١٣٢.

٢) RA, P. 292

٣) أنظر الشرط الذي وضعه الجنويون في معاهدتهم مع بلدوين الأول في العام ١١٠٤. Regesta, No. 43. وقد قام أملريك بالمحاولة في الأعوام ١١٦٣ ــ ٩، كما جرى التعبير عن الفكرة ذاتها في الحملة الصليبية الثالثة؛ الايتنراريوم ص ٣٨١ ("ITin" P. 381).

ذلك مقصوراً على ما جاهر به رجال من أمثال بوهمند وريموند وصنجيل، الذين أعلنوا عزمهم على تأسيس ممتلكات لهم في الشرق فحسب، وإنما كان حافزاً لمعظم الحجاج الورعين والسذج الذين ساروا وراءهم، والذين كانوا يرمون الى إحياء المسيحية في الأراضي المقدسة، بما في ذلك الاحتلال العسكري لمدينة القدس الحصينة. لقد كان الاستيطان الدائم يتطلب حيازة أراضٍ أخرى، فأسس الفرنجة لأنفسهم مستوطنات على الساحل السوري من أجل تأمين مواصلاتهم مع الغرب وليسيطروا على الطريق التي تصل بين الموانىء وممتلكاتهم الداخلية. أضف الى ذلك أن الأرض كانت مطلوبة لأنها الأساس المادي لإقامة الحكومة. ورغم كون الحكام اللاتين يملكون موارد مادية، على شكل ضريبة الرؤوس، والمكوس، والرسوم المفروضة على التجارة، وهي ضرائب غير معروفة بالدرجة نفسها في أوربا الغربية، فإن قدرتهم على الإيفاء بالأعباء الإدارية والعسكرية للحكومة ظلت تعتمد، والى درجة كبيرة، على سعة ممتلكاتهم من الأراضي[1]. وكانت هذه الحقيقة هي الدافع الأساسي للحرب العدوانية التي خاضها الحكام اللاتين الأوائل، أكثر من حماستهم لحرب مقدسة، أو تفكيرهم في الثراء الشخصي، أو المناصب الشخصية أو رغبتهم في التجارة. وكانت الدخول التي يُحصلها الحاكم الاقطاعي سنوياً تؤمن نفقاته الشخصية كلها والمصاريف الحكومية الطارئة. ولما كان يعيش «على حسابه الخاص» فقد كان استقراره في الحكم مرهوناً بصورة رئيسية بما يملكه من أراضٍ تشكل أكبر مصدر لقوته. وكان يلح في طلب الأراضي أيضاً لكي يقطعها لأتباعه المباشرين، الذين يمكن أن يخدموه في بلاطه وفي جيشه، مشكلين بذلك أساس قوته المسلحة. وهذا هو السند الحقيقي للحاكم الفرنجي في هيمنته على الشعوب الشرقية التي تعيش ضمن الدويلات اللاتينية، ووسيلته الوحيدة لمقاومة الغزو من الخارج. أصبحت قوة الحكام اللاتين العسكرية تعتمد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر على الأخويات الرهبانية العسكرية،

---

1) La Monte, Feudal Monarchy, P. 171. The revenues of the kings of Jerusalem are discussed by Rey, Colonies, PP. 257-66; Dodu, PP. 235-60; Chalandon, Première Croisade, PP. 346-59; La Monte, Feudal Monarchy, PP. 171-83. For Antioch see Cahen, Syrie du Nord, PP. 465-71.

كالإسبتارية، والداوية، والأجناد المرتزقة الذين كانوا يتزايدون باضطراد. ولكن هذه التنظيمات الفرسانية لم تكن قد تحولت، بعد، الى قوى عسكرية في الثلاثين سنة الأولى التي حقق فيها الفرنجة أعظم نجاحاتهم. وكان اسم المرتزقة أقل تردداً منه في السنوات الأخيرة من عمر المملكة، بينما كان الفرسان (الذين يقدمهم السادة الاقطاعيون للتجنيد، لالتزامهم بتقديم خدمات عسكرية مقابل الأراضي التي يديرونها)، يشكلون العمود الفقري للجيش.

كانت الفوائد، التي تجنى من الأرض، تأتي في معظمها من استغلال الفلاحين الذين يزرعونها. وكان هؤلاء يعطون سادتهم سنوياً حصة من المحصول، أو ما يعادلها من المال[1]. ويخضعون الى جانب ذلك الى ضرائب معينة ويؤدون بعض الخدمات[2]. وكما كان سيد المقاطعة يُحَصِّل أتاوةً من التجار والبدو الرحل الذين يجتازون أراضيه لقاء حمايته لهم[3]. وكانت الأرض هي القاعدة الأساسية التي تستند إليها ممتلكات اللاتين. وتركزت سياسة الحكام اللاتين على الاستيلاء عليها بأي ثمن. فكانت الحرب وسيلة من أجل التوسع في الأراضي، أو الدفاع عنها لكونها ـــ أي الحرب ـــ أداة السياسة.

بدهي، استناداً الى ما ذكر، أن تستخدم القوة فوق الأراضي المتنازع عليها ذاتها، فيقود الحاكم جيشه الى هناك في حملة هجومية، وقد عقد العزم على احتلالها أو تدمير ضواحيها بغية إضعافها لتسهل عليه حيازتها فيما بعد.

وكانت السيادة الفعالة والمستديمة على مقاطعة ما ترتكز على حيازة المدن المسورة، والقلاع المحصنة الموجودة فوق أراضيها. ويستطيع الغازي أن يسيطر على

---

1) Beugnot in BEC, v (1854), 3me sér. P. 421; Rey, Colonies, P. 243.

2) Beugnot, loc. cit. PP. 418-19; Dodu, P. 242; La Monte, Feudal Monarchy, P. 171.

3) Discussions with references in Rey, Cohonies, P. 252; Dodu, P. 238; La Monte, Feudal Monarchy, P 173. For the importance of the Bedouin as a source of revenue see Regesta, nos. 174, 355, 366, 562, 567, 593.

منطقة ما طالما أنه يحتلها بجيشه، ولكن سيطرته تنتهي بانسحاب قواته إذا لم يتخذ لنفسه مكاناً حصيناً. وكان الهدف الأولي لكل غازٍ يرغب في إلحاق أرض بممتلكاته هو الاستيلاء على نقاطها الحصينة. ولم يكن الأمر آنئذ ـــ كما هو الآن ـــ يتطلب تدمير قوات العدو أو شلها (تحييدها)، لكي يفرض إرادته من جميع النواحي على الحاكم الذي يهاجمه في أرضه. فإذا ما حاول جيش الميدان المعادي التدخل بعملياته الهجومية، فقد يضطر الغازي الى الاشتباك معه، إلا أن هزيمته ليست النهاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لتحقيق أهدافه العسكرية الرئيسية ألا وهي: إضعاف المقاطعة التي يغزوها، أو احتلالها. وعندما يتحدى جيش دفاعي معتد ما فإن طبيعة الحملة تتحدد بقرار القائد القائم بالغزو، من حيث رغبته في خوض القتال أم لا. فإذا كان هدف الحملة الاحتلال الدائم، وتقليص عدد المدن والقلاع التي يحتلها خصمه، يكون من الضروري له أن يقاتل. وكان الجيش المعادي، القادر على مهاجمة معسكر الجيش القائم بالحصار، وقطع طرق إمداده عن الريف المحيط به، قادراً دائماً على جعل عمليات الحصار صعبة إن لم تكن مستحيلة في غالب الأحيان[1]. بينما كان على المحاصِر بالتالي أن يحاول التخلص من الخطر بتحقيق النجاح في المعركة. فإذا كان مستعداً ـــ من جهة أخرى ـــ لإرجاء محاولته حتى تسنح له سانحة أخرى أفضل، وكانت هناك أراضٍ صديقة يستطيع الاعتصام بها، فإنه غالباً ما يسعى الى عدم المغامرة بالحصار أو القتال، ويعمد الى الارتداد على أعقابه دون أن ينجز شيئاً.

وعلى العكس تماماً، فإن مقاومة الغزو الناجحة تعني الاحتفاظ بالأماكن القوية. ولم يكن هناك تقبل لمسألة تمكن الغازي من اجتياز الحدود، والتوغل عميقاً في منطقة النزاع، نظراً للأضرار الكبيرة التي يمكن أن يلحقها بالزراعة وبالقرى غير المحمية منهكاً مصادر الحاكم الذي يهاجمه. إلا أن هذه ليست سوى ناحية سلبية مؤقتة قليلة الأهمية إذا ما بقيت القلاع والمدن المحصنة سليمة. وتحقيقاً لهذا الهدف

---

١) إن عمليات الحصار الوحيدة التي سجلت خلال تلك الفترة والتي نفذها الفرنجة بوجود قوة تتعاون مع القوات الموجودة في الحصار هي حصار صيدا في العام ١١١٢، ودمياط في العام ١١٦٩، وعكا في العام ١١٨٩ ـــ ١١٩١ ولم تنجح سوى العملية الأخيرة منها كلها.

المبدئي قد يلجأ المُدافع الى وضع كل ثقله في التحصينات والحاميات لحماية تلك الأماكن. ولكن القلعة التي تترك لمواردها الخاصة قد لا تستطيع المقاومة الى ما لانهاية، وغالباً، بل دائماً، ما كان صبر الحامية المحاصرة ينفذ وتضعف معنوياتها، إذا ما علمت أنه ليس من المتوقع قدوم جيش لنجدتها[1]، بينما تزداد فاعلية الدفاع كثيراً إذا ما وجد جيش في الأرجاء قادم لنجدة الحامية، أو لإنهاك المحاصرين. ولم يكن الغرض الرئيسي لمثل هذه القوة تدمير الغزاة أيضاً وإنما ضمان انسحابهم من المنطقة المتنازع عليها. ويمكن أن يتحقق ذلك بخلق صعوبات إضافية الى عمليات حصارهم وزيادة المشكلات التي تعترض تموينهم. ولم تكن ثمة ضرورة عادة لفرض المعركة عليهم.

يمكن إيضاح الكثير من الاستنتاجات العامة آنفة الذكر بإيراد قبسات رئيسية من التاريخ العسكري لتلك الفترة. وهذا ما سوف يتناوله القسم التالي باختصار.

٣ ــ مسح شامل للأحداث الحربية

غادر الفرنجة نيقية في العام ١٠٩٧م، وشرعوا في غزو أراضي الأمبراطورية السلجوقية، وكانوا في أمس الحاجة للاستيلاء على بعض المدن الكبرى كي يتخذوا منها قاعدة لهم في توسعهم المستقبلي، ولترسيخ أقدامهم في المشرق العربي، فإذا ما قاوم المسلمون هذا الاجراء بجيش ميداني كان على الفرنجة أن يضمنوا نجاح مغامرتهم تلك بخوض المعركة دون أن تكون لهم قاعدة يستندون إليها في دفاعهم.

هذا الواقع هو نموذج الأحداث الحربية التي حدثت فيما بين العامين ١٠٩٧ و ١٠٩٩. إذ شق الصليبيون طريقهم عبر آسيا الصغرى، بعد انتصارهم الحاسم على قلج أرسلان في دوريليوم (أو ضوريليوم)[2] Dorylaeum في الأول من تموز سنة

---

١) قد تشترط الحامية المحاصَرة أحياناً وتعطي وعداً بالاستسلام إذا لم تأت النجدة خلال فترة محددة.

٢) دوريليوم Dorylaeum، و بالفرنسية Dorylée، وباليونانية Dorulaion مدينة قديمة في آسيا الصغرى، قريبة من المدينة الحالية اسكي شهر (تركيا حالياً). حاصرها آنتيغونوس حوالي عام ٣٠٢ م، واحتلها الصليبيون بقيادة غودفروا دو بويون من الاتراك في عام ١٠٩٧ (موسوعة روبير).

١٠٩٧ . وطفقوا يغزون سورية في الخريف التالي. فكان أول أهدافهم مدينة انطاكية الكبيرة التي حاصروها في الفترة ما بين تشرين الأول ١٠٩٧ وحزيران ١٠٩٨. وعندما قدمت الجيوش الاسلامية لنجدة المدينة خاض الفرنجة معركتين ضدها على مضض وذلك يوم ٢٨ كانون الأول ١٠٩٧ و ٩ شباط ١٠٩٨ . وغب الاستيلاء على أنطاكية مباشرة تولى أكبر تلك الجيوش التي قدمت، لنجدتها تحت إمرة كربوقا أمير الموصل محاصرة الفرنجة في المدينة. ولما كان الفرنجة لا يملكون أية مصادر تساعدهم على الصمود في وجه حصار طويل الأمد، وليس لديهم الأمل بوصول أية نجدات، فقد وجدوا أن خوض القتال ضد تلك القوات الكبيرة هي الطريق الوحيد الذي يمنحهم الأمل بالبقاء. وأمن لهم انتصارهم في ٢٨ حزيران ١٠٩٨ السيطرة على انطاكية وشمال سورية، وحررهم لمدة عشر سنوات من التعرض لأي هجوم عسكري على المستوى الذي قاده كربوقا.

كان الانجاز الرئيسي التالي الذي حققته الحملة الصليبية الاستيلاء على بيت المقدس. وصاحب حصار المدينة المقدسة في شهري حزيران وتموز من العام ١٠٩٩ صعاب كثيرة، وأبدت حاميتها مقاومة ضارية كما أعاقت اللاتين ندرة الخشب والمياه. إلا أن مشكلاتهم كانت لا تذكر إذا ما قورنت بمشكلات أولئك الذين شاركوا في الحملة الصليبية الثالثة بعد اثنتين وتسعين سنة، لأنهم لم يصطدموا بأي جيش مسلم في الجوار سواء خلال مسيرتهم باتجاه المدينة أو أثناء الحصار.

سقطت القدس بيد الفرنجة في الخامس عشر من تموز من العام ١٠٩٩، ولم يمض شهر واحد على ذلك حتى تعرضت المناطق القليلة التي حازوها من الأماكن المقدسة ويافا والطريق الواصل فيما بينهما لتهديد جيش أرسلته الخلافة الفاطمية الى فلسطين عن طريق البحر، وكانت الدولة الفاطمية صاحبة السلطة في جبال القدس والسامرة والمدن الساحلية السورية حتى جبلة قبل الغزو اللاتيني. ووجد الفرنجة أنفسهم مرة أخرى في موقف مماثل للموقف الذي واجهوا فيه كربوقا: فلم يرسخوا أقدامهم في بعض المناطق التي استولوا عليها، ولم يكونوا يدافعون عن ممتلكات

مطمئنين إليها، وإنما كانوا غراً وجدداً لم تنجز مهمتهم ويتحداهم جيش انقاذ. فلم يكن أمامهم من خيار ـــ كما كان الحال في انطاكية ـــ إلا خوض المعركة.

تعلم الفرنجة من انتصارهم في عسقلان، في شهر آب من العام ١٠٩٩، أن الجنود القادمين من مصر لايملكون كفاءة الجنود السلاجقة المروِّعين، وليسوا أنداداً لهم (!!) وقد منحهم إدراكهم لتفوقهم التكتيكي ثقة كبيرة في أنفسهم، وعزز تلك الثقة انتصارهم في العام ١١٠٢. ونظراً لبقاء تلك المناطق التي سقطت في أيديهم في جنوب فلسطين معرضة للخطر حتى أتيح لهم التوسع باتجاه السامرة والجليل فإنهم لم يترددوا في خوض القتال لمجابهة الهجمات المعاكسة الفاطمية المتكررة[١]. وكان الفرنجة في بيت المقدس يحوزون على أراضي جديدة في كل مرة يصدون فيها تلك الهجمات. ولما كان السهل الساحلي واقعاً تحت سيطرة المرافىء البحرية الهامة والتي كانت تهدد مواصلات الدويلات اللاتينية مع أوربا ومع بعضها بعضاً، فقد استخلص الجيش الميداني الفرنجي تلك المدن من حامياتها، دون أن يتعرض الفرنجة خلال ذلك الى تدخل فعال ضد عمليات الحصار، من جانب القوات المسلحة، سوى مرة واحدة في العام ١١١٢[٢]. وجاء توسعهم، داخل السواد وحوران[٣] من جهة أخرى، مكافأة لهم عن غاراتهم المتواصلة التي كان أمراء الجليل أصحاب المبادأة في معظمها[٤]. وهنا تصدى طغتكين صاحب دمشق لتنظيم المقاومة، إلا أن جيش الطرفين الرئيسيين لم يصطدما إطلاقاً. وكان تقدم الفرنجة نتيجة معاهدة اقتسام

---

١) تمخض الموقف عن سلسلة معارك ضد الجيش الفاطمي في العام ١٠٩٩ و ١١٠١ و ١١٠٢ (مرتين) و ١١٠٥ و ١١٢٣ .

٢) كان نشاط قوة طغتكين Tughtgin التي قاعدتها بانياس أحد الأسباب التي أدت إلى فشل بلدوين الأول في الاستيلاء على صور في ذلك العام، ابن القلانسي ص ١٢٠ .

٣) Dussaud, Topographie, PP. 323, 381.

٤) كان تنكريد، أول أمير من أمراء الجليل اللاتين، يعلن منذ البداية عن عزمه على توسيع مقاطعتيه نحو شرقي الأردن أنظر Regesta No. 36 . وقد سقط خليفتاه المباشران ضحية الحرب التي شنها . أنظر خلاصة عن الأحداث تضمنت ما كتبه ابن الأثير وابن القلانسي في غروسيه، ٢ ص ٨٣٧ ـــ ٥٠ .

يضطر طغتكين الى قبولها مكرهاً[١]، أو نتيجة إقامة قلاع كانت تدار منها الأراضي الجديدة المستولى عليها[٢].

تحدد مجرى الحرب مبدئياً في شمالي سورية خلال هذه الفترة، وفقاً لطموحات الأمراء النورمانديين في أنطاكية، وردود الفعل المسلمة حيالهم. وبعد أن تابع الجيش الصليبي الرئيسي مسيرته، منطلقاً من المعرة قاصداً القدس، تابع بوهمند أعمال الغزو التي كان الصليبيون قد باشروها شرقي نهر العاصي. ويقول مؤرخ حلب كمال الدين[٣] أنه بدأ يُهَدِّد تلك المدينة منذ العام ١١٠٠[٤]، وخضع هذا التوسع السريع لاختبارين أولهما وقوع بوهمند في الأسر، من العام ١١٠٠ وحتى ١١٠٣، وثانيهما الهزيمة التي لحقت بحملة مشتركة قامت بها جيوش انطاكية والرها ضد حرّان. وكان حرياً بالنصر أن يمنح الفرنجة نقطة انطلاق نحو استثمارات جديدة على امتداد المحور الشهير المؤدي

---

١) ابن القلانسي ص ٩٢، وكان هنالك عدد من المقاطعات المقتسمة عندما كتب وليم الصوري تاريخه (ص ١٠٩٠).

٢) يقول ابن القلانسي أن الفرنجة كانوا يحاولون تأسيس قلعة في العال منذ ١١٠٥ — ١١٠٦ ونجحوا في ذلك مؤخراً، ويدل كل من قلعة حبيس جلدك وخان رحوب على توسعهم التالي نحو الشرق. أنظر كذلك :

C.N. Johns's map, Palestine and the Crusades, squares C7 and D8; Dussaud, Topographie, P. 381. Deschamps in Revue historique, CLXXII (1933), 47-57; Beyer, ZDPV. LXVII, 214-15.

٣) كمال الدين بن العديم

هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن ابي جرادة، الصاحب العلامة رئيس الشام، كمال الدين العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم.

ولد سنة ٥٨٦ هـ وتوفي سنة ٦٦٦ هـ ... كان محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً مجوداً ... ولي قضاء حلب خمسة من آبائه متتالية، له تصانيف رائعة منها « تاريخ حلب » أدركته المنيّة قبل إكمال تبييضه .. دفن بسفح المقطم بالقاهرة.

فوات الوفيات للكتبي ج ٣ (ص ١٢٦ — ١٢٨)

٤) كمال الدين ص ٥٨٩

الى وادي الخابور[1] ومنه الى الرقة[2] والفرات . حاصر الفرنجة حرّان وكادت تستسلم لولا أن خف جيش إنقاذ لنجدتها . وأراد الفرنجة حل مشكلة إتمام الحصار بخوض معركة ضد هذه القوة فهزموا هزيمة ساحقة . وكان ذلك أول مؤشر للعواقب المحتملة التي قد تنجم عن الهزيمة في ميدان القتال لأقلية حاكمة تعتمد على القوة العسكرية في المحافظة على مكانتها . وكان لامفر من الجلاء عن جميع الأراضي التي استولى عليها النورمان تقريباً شرقي نهر العاصي . بينما احتل الإغريق (البيزنطيون) قليقية مجدداً ، بعد أن كان تنكريد قد استخلصها منهم في العام ١١٠١ ، وألقى الحصار حول اللاذقية[3] Ladhakiya . ووجد بوهمند الموقف ميؤوساً منه فارتحل الى أوربا يبحث عن نجدات .

استرد الفرنجة قواهم بعد نكسة العام ١١٠٤ على يد تنكريد ، الذي ترك وحده مع موارد ضحلة . واستطاع بالصبر والأناة أن يستعيد ما خسروه وأن يضيف أراضي جديدة لممتلكاته . وفي العام ١١٠٥ وخلال حصار أرتاح[4] Artah هاجمته قوة بقيادة رضوان صاحب حلب ، فهزمها تنكريد في معركة حاسمة ثم أكمل حصاره . ولم يلق بعد ذلك سوى مقاومات صغيرة خلال سعيه لاسترداد ما فقده من أراضي والتوسع فيما وراء نهر العاصي وأثناء استيلائه على قليقية مجدداً .

جرت أول محاولة رئيسية نظمها سلاطين السلاجقة لوقف الزحف اللاتيني في العام ١١١٠ . وتم تجميع الجيش اللازم لهذه الغاية في أراضي الجزيرة — بين النهرين — وتكرر الهجوم في كل سنة من السنوات الخمس التي تلت . وكانت مدينة الرها هي الهدف في هجوم الأعوام ١١١٠ ، و ١١١٢ ، و ١١١٤ ، بينما كان الجليل هو هدف الهجوم في العام ١١١٣ . وكانت ممتلكات الفرنجة الواقعة ما بين حلب

---

١) دوسو ، طبوغرافية ص ٤٩٥

٢) حول أهمية الرقة بالنسبة لطرق التجارة الرئيسية أنظر :

3) Le strange, Palestine under the Moslems, P. 518 وكذلك Heyd, Histoire du Commerce, 1, P. 167; Chalandon, Alexis Comnene, P. 235

٤) أرتاح : .. اسم حصن منيع ، كان من العواصم من اعمال حلب ... معجم البلدان لياقوت جزء أول ص ١٤٠ .

وشيزر شرقي نهر العاصي هي الهدف في العامين ١١١١ و ١١١٥ . كان السلطان يعين قائد هذه الحملات ، ويأمر عدداً من أمراء السلاجقة بالالتحاق بالجيش مع القوات العسكرية التابعة لهم . وكان من الطبيعي أن يزداد هذا الجيش قوة بانضمام حكام سورية المسلمة إليه . ولكن نظراً لأن هؤلاء كانوا يخشون تهديد جيش السلطان لاستقلالهم الشخصي كما يهددهم الفرنجة ، ولأن الأمراء لم يكونوا يخضعون خضوعاً تاماً لسلطة القائد الذي أمّره السلطان عليهم ، ولم يكونوا على صلات حسنة فيما بينهم أيضاً ، فإن الجيش لم يبلغ قط تلك القوة التي تصورها السلطان ولم يكن أداة فاعلة في الحرب كذلك . لم يكن هدف الفرنجة الأول ــ عند مجابهة هذا التهديد ــ تدمير جيش المسلمين وانما منعه من استعادة المدن والقلاع في سورية اللاتينية . وكان حكام الدويلات اللاتينية يتحدون في الدفاع كل عام باستثناء العامين ١١١٢ و ١١١٤ ، حين كان الهجوم صغير المستوى وموجهاً ضد الرها فقط ، وكان عملهم هذا على كره منهم ، ولم يسعوا للاشتباك في معركة فاصلة ، وإنما أبقوا جيشهم قائماً وجاهزاً للتدخل ضد أية محاولة يقوم بها العدو لاسترداد الأراضي بشكل دائم . إلا أن هذا الحذر بوجه عام لم يمنع الفرنجة من الدخول في معركة عندما تتاح لهم فرصة مباغتة المسلمين وهم في غفلة من أمرهم . ففي الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) من العام ١١١٥ استطاع روجر أمير أنطاكية أن يباغت جيش برسق بن برسق بالقرب من تل دانيث[1] Tell Danith وأنهى انتصاره هذا سلسلة الهجمات المعاكسة التي بدأت منذ سنوات خمس مضت .

بعد أن تحرر روجرز ، وجوسلين أمير الرها من مقاومة الخصوم عاودا تقدمهما باتجاه الشمال ، فتعرضت حلب مرة أخرى للخطر في العام ١١١٨ . ووجد مواطنوها أنفسهم في حاجة الى من يحميهم ، وعثروا عليه في شخص إيلغازي بن أرتق حاكم ماردين . إذ كان باستطاعته أن يطلب الدعم العسكري من قبائل التركمان المتعشقة للحرب والمقيمة في ديار بكر . وعندما غزا على رأس قوة كبيرة أراضي

١) دانيث : بلد من أعمال حلب ، بين حلب وكفر طاب (معجم البلدان ــ ج ٢ ــ صفحة ٤٣٤)

أنطاكية، قبل روجر التحدي غير مبال بإجراءات الحيطة التي استند اليها دفاع الفرنجة حتى هذا التاريخ، فجابه جيش المسلمين دون أن ينتظر وصول الملك بلدوين وبونز أمير طرابلس. وفي ٢٨ حزيران (يونيو) من العام ١١١٩ (السبت ١٧ ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ ـ م. م) قتل روجر وأبيد جيشه في معركة عرفها المؤرخون الفرنجة باسم آجر سانغوينس[١] Ager Sanguinis أو ساحة الدم.

كان من نتائج تدمير القوة الميدانية أن خسر الفرنجة معظم ممتلكاتهم شرقي نهر العاصي ومنها، الأثارب وزردنة وسرمين ومعرة النعمان وكفر طاب. وتعرضت انطاكية ذاتها لخطر السقوط. إلا أن البطريرك تولى زمام القيادة العسكرية في المدينة، واستعد للدفاع عنها بحامية من المواطنين الفرنجة ورجال الإكليروس[٢]. ولم يكن إيلغازي قادراً ـ على كل حال ـ على جني ثمار النصر كاملة. إذ أن إدمانه على الشراب منذ زمن طويل حرم جيشه من القيادة وترك التركمان أحراراً في إطلاق العنان لشهواتهم الطبيعية والتفرق بعد جمع الغنائم. وعندما وصل بلدوين الى الشمال كان أول عمل له تخليص الأمارة المهددة من عدوها المنتصر.

ولم يستطع بلدوين التحلي بالصبر في مثل هذا الموقف اليائس إزاء عدوه الواثق من بنفسه ولم يفكر بالانسحاب فنشبت معركة برج هاب[٣] Burj Hab في الرابع عشر من آب (أغسطس) من العام ١١١٩ فكانت صراعاً مريراً دام طويلاً، ولم يحقق فيه أي من الطرفين نصراً مجلياً، ولكن النتيجة كانت في صالح الفرنجة نظراً لأن التركمان انسحبوا في خاتمة المطاف، واستطاع بلدوين، دون معارضة، احتلال بعض

---

١) تعرف لدى المؤرخين المسلمين والعرب باسم معركة ساحة الدم (م. م)، ويذكرها ابن القلانسي بأنها قرب سرمدا أو دانيث البقل بين حلب وأنطاكية، أو هي في منطقة ما قرب عفرين (ابن القلانسي ص ٣١٩) Dussaud, Tonographie, P. 220

٢) Galt. P. 95

٣) أنظر Cohen, Syrie du Nord ص ٢٨٣ وقد عنون الفصل الخاص بهذه الفترة على النحو التالي "Les annees Tournants" ومن المهم بالنسبة لتاريخ الاحتلال اللاتيني التأكيد أيضاً على ما كتبه ستيفنسون Stevenson, Crusaders in the east P. 105

الأماكن التي كان فقدها. ومنذ ذلك العام وحتى العام ١١٢٦ حكم بلدوين أنطاكية والقدس معاً. وأمضى سبعة أعوام من عهده في المناطق .الشمالية المهددة بدلاً من المناطق الجنوبية الآمنة. وكانت هذه السنوات مشحونة بالانشطة العسكرية الحربية. فكان كل من بلدوين والزعماء المسلمين من الأسرة الأرتقية حتى العام ١١٢٤، ومن بعدهم آق سنقر البرسقي، يلتمسون السيطرة على أراض في المنطقة المتنازع عليها ما بين أنطاكية وحلب، وكانت حلب الهدف النهائي للفرنجة[١]. لقد كانت حرب الاحتلال (الفتح) هي السمة التقليدية لتلك الفترة. وكان كل من الجانبين يسعى للفتح عن طريق الحصار، دون أن يكون في نيته خوض معركة طويلة الأمد ضد جيش إنقاذ[٢] وعلى هذا النحو لم يكد بلدوين يقترب من زردنة في العام ١١٢٢ حتى رفع بلق Balak، ابن أخ إيلغازي، الحصار عنها. وكذلك فعل البرسقي في العام ١١٢٦ عند تل الأثارب Atharib. وفي العام ١١٢٥ تراجع بلدوين نفسه عن حلب بدون قتال عندما حضر البرسقي لنجدتها[٣]، رغم أن حصاره لها استمر ثلاثة أشهر وأوشك على النجاح، وكاد يكون أثمن جائزة لتلك الحرب. وفي العام نفسه خاض الزعيمان معركة قبل أن يرفع البرسقي الحصار عن أعزاز، المدينة التي كان كلاهما يمنحها أهمية كبرى. ومن المحتمل أن تكون هذه المعركة قد نشبت نتيجة سعي أحدهما للحصول على مزية تكتيكية مؤقتة.

عندما تحرر الملك بلدوين من مسؤولياته في شمال سورية، بعد وصول بلدوين الثاني إليها، شن هجومين على دمشق. ولم يكن هذان الهجومان مجرد غارتين بقصد الغزو، وإنما كانا موجهين الى الضواحي الملاصقة للمدينة. وخطط للحملة الثانية أن تأتي متزامنة مع ثورة يقوم بها الحشيشية في دمشق. وانضم إلى جيش القدس كل من

---

١) أو معركة قرية هاب (أنظر كتاب تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان جزء ٢ صفحة ٢٤٣ ترجمة الدكتور السيد الباز العريني.

٢) من الملاحظ كذلك ندرة الأحداث العسكرية ذات الأهمية التكتيكية، ولذلك لم تثر هذه الفترة اهتمام المؤرخين العسكريين.

٣) كان ذلك مجرد حصار تقليدي لحلب قام به الفرنجة في سورية.

جيوش أنطاكية والرها وطرابلس، بالاضافة الى التعزيزات التي وصلت مجدداً من أوربا. إلا أن موارد المدينة في عهد الحكم البوري Buride كانت جيدة التنظيم، ومكنت الحكومة والسكان من الدفاع عن مدينتهم، بعكس ما كان من أمر حلب. وفي كلا العامين غادر جيش دمشق المدينة ليخوض المعركة خارجها. ولكنه هزم في العام ١١٢٦ بصعوبة كبيرة لم تمكن الفرنجة من المضي في تنفيذ مخططهم ومهاجمة دمشق بالذات. أما في العام ١١٢٩ فقد استفاد المدافعون من فرصة اضطرار الفرنجة الى ارسال قسم من جيشهم للبحث عن العلف بسبب نقص المؤن، فهاجموا تلك المفرزة ودمروها منفردة، بينما أكرهت البقية الباقية من الجيش على الارتداد عن غزوتها بعد أن يئست من إيجاد حل لمشكلة المؤن، وأرهقها الطقس السيء.

توفي بلدوين بعد ذلك بعامين، ولم يعش جوسلين كونت الرها بعده طويلاً وانتهت، بذهاب هذين الزعيمين المتبقيين عن جيل الغزو الأول من الفرنجة وفشلهم أمام أسوار دمشق، الفترة الأولى من الاحتلال اللاتيني لسورية.

استهلت المرحلة الجديدة بأحداث أشد قوة عندما استطاع عماد الدين زنكي في العام ١١٢٧ أن يخلف البرسقي في الموصل أولاً، وفي حلب بعد ذلك، وسرعان ما برهن الأتابك الجديد عن عزمه على السيطرة على باقي سورية المسلمة، وقد تحقق طموحه هذا على يد ابنه وخليفته نور الدين، الذي تملك دمشق في العام ١١٥٤ وجعلها عاصمته. وهكذا حل حاكم واحد قوي محل الحكام العديدين في سورية المسلمة الذين تشكلت الدول اللاتينية في سورية نتيجة تخاذلهم عن متابعة سياسة حربية دؤوبة ومنسقة.

كان توحيد سورية المسلمة وحده كفيلاً بتفاقم مشكلات الفرنجة العسكرية وتضاؤل نجاحاتهم الحربية، وساعدت تطورات معينة داخل الدويلات اللاتينية في الوصول الى النهاية ذاتها. إذ استطاع زنكي وابنه نور الدين أثناء توحيدهم سورية المسلمة اقتطاع أجزاء من ممتلكات الفرنجة، نظراً لأن خسارة الأرض تعني حرمان الحاكم من الخدمات العسكرية المفروضة على أتباعه في تلك الأرض. وثمة شواهد أخرى تدل على أن إفقار رعايا الإقطاعية جعلتهم عاجزين عن تقديم الخدمات التي

التزموا بها ، فكان لا بد من إيجاد مصادر إقطاعية إضافية للمحافظة على قوة الجيوش اللاتينية وأهمها المرتزقة والأخويات الرهبانية من الاسبتارية والداوية . إلا أن توظيف أي منها كان يحمل في طياته مساوىء ذات ضرر بالغ ، إذ يترتب على استخدام المرتزقة استنزاف كبير إضافي لموارد الحكام اللاتين الضئيلة نسبياً ، بينما كانت الأخويات الفرسانية لا تخضع للسيطرة السياسية والعسكرية الكاملة التي كان يمارسها الحكام اللاتين في أوائل القرن[1] ، نظراً لإصرارها على التمتع باستقلالية ذات شأن في القضايا العسكرية . لهذه الأسباب مجتمعة انحطت فاعلية الفرنجة عسكرياً خلال الفترة الثانية من الاحتلال . وحلت محل سياسة العدوان المتعمد سياسة انتهاز الفرص والهجمات المتفرقة . كما فقدت الدول اللاتينية قدرتها على مجابهة كل غزوة اسلامية بالحزم المناسب وبقواها المشتركة .

استولى زنكي في العام ١١٣٥ على الأثارب وزردنة ومعرة النعمان وكفر طاب وكانت كلها محور صراع قاس ومرير خلال العقدين السابقين ، ولكنها سقطت في يد زنكي دون أن يدخل الميدان جيش لاتيني واحد لإنقاذها . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٤٤ شن زنكي هجوماً مفاجئاً على الرها ، وبسبب العلاقات السيئة التي كانت قائمة آنئذ بين جوسلين الأصغر وريموند أمير أنطاكية لم يحدث أي تعاون بين الاثنين لإنقاذ المدينة . بينما تم حل موقف مماثل لهذا قبل جيل من الزمن على يد ملك القدس[2] . ولكن بلدوين الثالث كان صغيراً في العام ١١٤٤ ، ورغم أن الملكة الوالدة قامت بعد طول أناة بإرسال جيش نحو الشمال ، إلا أنه جاء متأخراً جداً ولم يستطع إنقاذ الرها . وغب موت زنكي في العام ١١٤٦ حاول جوسلين استعادة عاصمة إمارته إلا أن نور الدين حطم قوته الصغيرة . ومنذ ذلك الحين وحتى العام ١١٤٩ استمر تمزيق أوصال كونتية الرها واسترد المسلمون العديد من الأماكن الهامة التي كانت تابعة لأنطاكية دون أية مقاطعة من جانب الفرنجة . وفي خاتمة المطاف دفع ريموند أمير أنطاكية في العام ١١٤٩ بقوة الى الميدان إلا أنه

---

١) سوف تناقش النقاط التي أثارتها هذه الفقرة بتفصيل أكبر فيما بعد .

٢) في العام ١١١٠ عندما كان تنكريد وبلدوين الثاني أمير الرها على علاقة سيئة .

عرضها لهجوم مباغت ــ كما فعل روجر في العام ١١١٩ ــ ولحقت به هزيمة نكراء عند عين مراد Fons Muratus الى الشرق من جسر الشغور[1]، كانت بمثابة الكارثة مثلما كانت معركة ساحة الدم من قبل.

لم يظهر الفرنجة قوتهم السابقة هنا أيضاً ليتخلصوا من عواقب الهزيمة. فقد كانت ردود فعل الجيل الأول على هزائمهم الشديدة في الرملة عام ١١٠٢ وجسر الصّنبرة (سن النبرة) في العام ١١١٣، وساحة الدم في العام ١١١٩، خطيرة وشديدة. ولكنها هذه المرة كانت محدودة بهجمات معاكسة سريعة، مع أنهم كانوا يملكون القوة الكافية في كل مكان من أجل كبح جماح عدوهم المنتصر واستعادة ما خسروه. فقد أدت هزيمة فولك خارج بعرين (بارين) في العام ١١٣٧ الى استسلام ذلك المعقل القوي الذي لم يتمكنوا من استعادته قط فيما بعد. وبعد معركة عين مراد في العام ١١٤٩، سقطت كل من حارم وآفامية في يد نور الدين. ورغم أن الفرنجة استردوا حارم في العام ١١٥٧ فقد خسروها مرة أخرى عقب انتصار نور الدين عليهم خارج أسوارها في العام ١١٦٤، ومنحه ذلك النجاح بانياس أيضاً. إن مثل هذه الأحداث كانت مؤذناً بالخطر الذي تعرضت له مملكة اللاتين نتيجة هزيمة جيشها دون أن يكون لديها احتياط من القوى يمكنها من استعادة ما فقدته، واقتضت الضرورة تقليص حاميات النقاط الحصينة من أجل تجنيد جيش ميداني تكفي قوته لتحدي العدو. واستمر الحال على هذا النحو الى أن بلغت تلك التطورات أوجها في حطين وما تلاها.

استمرت العمليات الهجومية تقريباً طوال فترة الاحتلال الأولى، بينما أصبحت رهينة بالظروف خلال السنوات التي توسطت القرن. ففي العام ١١٣٧ أدت مبادأة قام بها الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين الى شن هجوم رئيسي في شمالي سورية انضم فيه كل من ريموند أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها بقواتهما الى الجيش البيزنطي الإغريقي. وفي العام ١١٤٨ شجع وصول ما تبقى من فلول الحملة الصليبية الثانية الى سورية، بعد أن اجتازت آسيا الصغرى، الصليبيين على مهاجمة دمشق. وتجدر

---

١) Dussaue, Topography, P. 167 ويدعوها المؤرخون المسلمون معركة إنب

الاشارة هنا الى أن هجوم العامين ١١٣٧ و ١١٤٨ كانا من الضخامة بحيث لم يجرؤ المسلمون على تحدي أي منهما في ميدان القتال، إلا أن كلا الهجومين لم يتوصلا الى تحقيق أية نتيجة تذكر لأنهما لم ينجحا في حصارهما لأهدافهما الممثلة في شيزر عام ١١٣٧، ودمشق عام ١١٤٨[1].

في تلك الأثناء غدت الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت مصر مصدر إغراء للفرنجة فاحتل بلدوين الثالث عسقلان في العام ١١٥٣، بعد حصار طويل جرت خلاله محاولات عدة لنجدة المدينة من جهة البحر فقط. وبعد سنوات عشر شرع خليفته أملريك بمهاجمة مصر نفسها، وتُعدُّ غزواته الخمس في خضم ست سنوات أكبر العمليات الهجومية التي قام بها الفرنجة منذ محاولة بلدوين الثاني مهاجمة حلب ودمشق قبل أربعين سنة من ذلك التاريخ. وكانت المشكلة الرئيسية، التي اعترضت طريق أملريك هي الاستيلاء على المدن الحصينة. وبالتالي فإن تاريخ حملات أملريك على مصر يتألف بصورة رئيسية من عمليات حصار فقط: بلبيس في العام ١١٦٣، و العام ١١٦٤، والاسكندرية في العام ١١٦٧، وبلبيس والقاهرة في العام ١١٦٨، ودمياط في العام ١١٦٩. وبعد العام ١١٦٣ كانت كل غزوة فرنجية تقابل بتحدٍ من جيش يرسله نور الدين، الذي كان يرغب ـــ مثله مثل أملريك ـــ في الإفادة من حالة الضعف التي أصابت مصر والإفادة من ثرواتها (!!) وفي العام ١١٦٤ لم يفعل ذلك الجيش شيئاً ـــ وكان بقيادة شيركوه ـــ سوى الانضمام الى حامية بلبيس. إلا أنه في العام ١١٦٧ ظل متمركزاً في العراء. وكان أملريك بصفته

---

١) حدثت هجمات فرنجية أخرى في هذه الفترة شجع عليها وصول الحجاج من الغرب والخلافات التي كانت قائمة بين الحكام المسلمين. فقد أدى وجود الكونت تييرّي كونت الألزاس في سورية عام ١١٣٩ إلى القيام بحملة شرقي نهر الأردن، وأدت عودته في العام ١١٥٧ إلى شن هجوم ناجح على حارم. وفي العام ١١٤٠ استولى الفرنجة مجدداً على بانياس بمساعدة معين الدين أنر أمير دمشق. وفي العام ١١٤٧ أتاحت ثورة قام بها أحد الأمراء ضد أنر الفرصة أمام بلدوين للاستيلاء على بصرى، ولكن محاولة الملك باءت بالفشل. والأمير المذكور هنا هو التونتاش أمير بصرى وصلخد وكان في الأصل أرمنياً اعتنق الاسلام ثم أعلن استقلاله عن دمشق وقدم إلى بيت المقدس يلتمس المساعدة .. أنظر رانسمان ج ٢ ص ٣٨٩ (م. م).

غازياً وحليفاً مؤقتاً للمصريين، يملك جميع مقومات الربح إذا ما دمر قوة شيركوه. وتعد قصة حملته، من أعظم الأحداث الدرامية في تاريخ الحروب الصليبية[1]. وفي العام الذي تلا قدم شيركوه الى مصر حليفاً للدولة الفاطمية هذه المرة، وبوصوله عمد أملريك الى رفع حصاره ـــ الذي كان قد بدأه على القاهرة ـــ وانسحب دون قتال. ومن المؤكد أن انسحاب أملريك في العام ١١٦٨ من مصر ترك تلك البلاد تحت رحمة شيركوه وولي أمره نور الدين. وبوفاة شيركوه بعد أسابيع قليلة أصبح زمام الأمور في يد خليفته وابن أخيه صلاح الدين، الذي نجح، بهمته ونشاطه، في ترسيخ أقدامه حاكماً لمصر. فصد هجوم أملريك على دمياط في العام ١١٦٩ الذي شنه بمساعدة من الأسطول البيزنطي، وأخمد فتنة حدثت في صفوف القوات السودانية، وقضى على الخلافة الفاطمية نهائياً في العام ١١٧١.

عرفت مصر مرة أخرى سيداً بلا منازع، قادراً على تنظيم موارده من الرجال والمال لخوض الحرب ضد الفرنجة. فبادر الى غزو مقاطعتي الدارون (الداروم) Darum وغزة مع حلول العام ١١٧٠، واسترد أيلة (العقبة) Aila، وخليج العقبة في العام ١١٧١، وهاجم في العامين ١١٧١ و ١١٧٣ معاقل الفرنجة الكبرى في شرقي الأردن عند الكرك والشوبك. ولكن هذه الهجمات ظلت غير فعالة حتى العام ١١٧٤ لأن العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين لم تكن على ما يرام، ووقفت حائلاً دون التعاون الكامل بينهما. بيد أن وفاة نور الدين في ذلك العام ومبادرة صلاح الدين الى العمل الفوري من أجل السيطرة على ممتلكاته في سورية خلقتا موقفاً جديداً كل الجدة، مؤذنة ببداية المرحلة الثالثة والأخيرة من وجود المملكة اللاتينية في القرن الثاني عشر. ووطّن صلاح الدين عزمه على غزو الامبراطورية الزنكية والدول اللاتينية معاً انطلاقاً من مصر التي أصبحت تشكل القاعدة المادية لقوته. فدخل دمشق في العام ١١٧٤، وأصبح خلال سنتين من الزمن السيد المطلق لسورية المسلمة فيما عدا حلب. وفقد الفرنجة كل مبادأة في السياسة الحربية في مواجهة حاكم

---

١) أنظر Schlumberger, Campagnes du Roi Amoury en Egypte, PP. 107-68.

قوي تحيط بهم ممتلكاته . إلا أن وجود فيليب كونت الألزاس ، والأسطول البيزنطي في سورية ، خلال العام ١١٧٧ ، شجعهم على التفكير في مهاجمة مصر مجدداً ، وفرض حصار فاشل على حارم . وفيما عدا هذين الحدثين لم يعد الفرنجة يملكون القدرة على شن هجوم ذي شأن في حين فقدت أنطاكية بدورها مكانتها العسكرية منذ انتصار نور الدين في حارم . كما اقتصرت الأعمال الحربية في مملكة القدس وكونتية طرابلس على عمليات إغارة تأديبية وحملات دفاعية .

وأخيراً تركزت الأعمال الدفاعية ، ذلك العام ، تحت إمرة الملك الشاب المجذوم بلدوين الرابع . وبالرغم من عجزه والمنافسة التي كانت محتدمة بين مستشاريه واختلافهم في الرأي ، فقد ضمنت زعامته مواجهة كل هجمة مسلمة بجيش مسيحي . وكان الفرنجة يتحاشون خوض المعارك ، إلا إذا بدرت سانحة تبشر بنصر مؤكد . ولكن محاولات الاستيلاء على المدن أو القلاع كانت تواجه بالتحدي الفوري . وهكذا قوبلت كل هجمة قام بها صلاح الدين بتحد شديد . وأحبطت بنجاح حتى العام ١١٨٧ ، باستثناء أسابيع قليلة من العام ١١٨٠ حين اكتسحت قواته كونتية طرابلس[1] دون أن تلقى مقاومة تذكر . وقد حدث أول هجوم شن صلاح الدين ضد مملكة اللاتين ، فيما بين العامين ١١٧٧ و ١١٨٠ . فغزا فلسطين في العام الأول من هذه الفترة منطلقاً من مصر على الطريق الساحلي . وخرج بلدوين بقوة صغيرة لمواجهته ، ولكنه بادر بالالتجاء الى عسقلان بمجرد اقتراب صلاح الدين . ودلت الأحداث التي تلت ذلك على أنه لا يمكن ترك أي جيش لاتيني بدون عقاب مهما كان صغيراً حتى ولو ركن الى الدفاع السلبي . ترك صلاح الدين الملك بلدوين في عسقلان وانطلق مسرعاً باتجاه الرملة ويافا . ولم تكن قواته تتوقع أية مقاومة أخرى ، فتفرقت عميقاً وعلى جبهة عريضة قاصدة المغانم الشخصية . وفي اللحظة التي بدأ يفقد فيها صلاح الدين السيطرة المباشرة على قسم كبير من جيشه هاجمه بلدوين الذي انطلق في أعقابه ، ولحقت بصلاح الدين أكبر هزيمة عرفها في حياته . وفر جيشه الى مصر في فوضى بالغة دون أن تكون لديه قاعدة يرتكز إليها .

---

١) وليم الصوري ص ١٠٦٤ .

في العام ١١٧٩ هاجم صلاح الدين الفرنجة بجيش جديد. فاتخذ قاعدة لعسكره قرب بانياس، وراح يرسل مفارز إغارة باتجاه صيدا. وبادر بلدوين لتوه الى مواجهته متبعاً قاعدته الثابتة في العمل. وأتيح له مرة أخرى تحقيق مفاجأة تكتيكية ثانية عندما انحدر على جناح السرعة نحو مرج عيون (مرجعيون) من جهة الغرب. ولكن القوة المسلمة، التي دحرها هناك، لم تكن سوى مفارز إغارة متفرعة من الكتلة الرئيسية. وهنا تراخى الفرنجة غب انتصارهم، ودبت الفوضى في صفوفهم لتقدمهم السريع، فبوغتوا بهجوم صلاح الدين بقواه الرئيسية وارتدوا مندحرين. وتمكن صلاح الدين بهذه الطريقة من الانتقام لهزيمته في العام ١١٧٧، وأصبح قادراً على تدمير قلعة الداوية الجديدة، التي عرفت باسم القليعة (القصر الصغير أو قلعة مخاضة الأحزان) Le Chastellete، عند المجرى العلوي لنهر الأردن. ولم يعرض الفرنجة أنفسهم للمخاطر. بخوض معركة أخرى حتى العام ١١٧٨.

وفي العام ١١٨٠ سمح صلاح الدين لنفسه بالمضي في استخلاص ممتلكات الزنكيين في الجزيرة السورية بعد أن عقد هدنة مع القدس وطرابلس. ولم يضع الوقت في طريق عودته في العام ١١٨٢ كي يستأنف هجومه على مملكة اللاتين. فسدد ضرباته ذلك العام الى الكرك في جبال موآب، والى الجليل عن طريق بيسان ووادي زرعين (يزرعيل) Jezreel، والى بيروت عبر ممر المنيطرة في جبال لبنان، ثم دخل الجليل مرة أخرى في العام ١٩٨٣ من الطريق نفسه الذي سلكه في السنة السابقة، كما حاصر الكرك في العام ١١٨٤. وكان الملك المجذوم في كل مرة يعبىء قواته ويخف بها لنجدة المناطق المهددة. ولم يكن صلاح الدين بقادر على استدراجه الى معركة، فكان يكتفي بتطبيق سياسته المفضلة، وهي إفقار المملكة بكل ما أوتي من جهد، عن طريق بث المفارز لتعيث فساداً في المناطق الريفية الزراعية. ولم يكن في استطاعة الفرنجة وقد أضحوا بدون قوى احتياطية سوى محاولة إعاقة عمليات الجيش الرئيسي.

أظهر الفرنجة في هذه الفترة أقصى ما يملكون من قوة في الدفاع، وضعفاً في الهجوم. ففي العام ١١٨٢ غادر صلاح الدين سورية في آخر حملة مظفرة له الى الجزيرة العليا وبلاد الرافدين. ورغم أن الفرنجة تخلصوا من صلاح الدين لفترة اثني

عشر شهراً، إلا أنهم لم يستطيعوا أكثر من الإغارة على ممتلكاته واسترداد قلعة صغيرة واحدة. ففي شهر تشرين الأول (اكتوبر) من العام ١١٨٢ حمل الملك بلدوين والبطريرك صليب الصلبوت إلى بصرى في حوران، واستردا قلعة حبس جلدك Hapis Jaldak. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) أغار ريموند أمير طرابلس في الاتجاه نفسه، بينما قاد الملك مجموعة من الخيالة حتى بلغ داريا، على بعد أميال قليلة من دمشق. وقد فسر غروسية Grousset هذه الغزوات على أنها جزء من خطة رسمتها الدولة لمساعدة الزنكيين في الموصل البعيدة[1]. كما يمكن أن تعد مظهراً من مظاهر الإعراب عن السخط العقيم الذي ملأ نفوس الفرنجة حين غادر صلاح الدين سورية دون أن يكلف نفسه عناء التفاوض لعقد هدنة[2] معهم. وثمة تعليقات أشد مضاضة من تلك التي كتبها غروسية، تعزى الى صلاح الدين نفسه إذ قال: «يخربون القرى ونملك عوضها بلاداً ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم»[3].

تظهر أهمية ما حققه دفاع الفرنجة في الفترة الواقعة ما بين العامين ١١٨٢ — ١١٨٤ واضحة في كارثة العام ١١٨٧، عندما سُحِق جيشا القدس وطرابلس مع خمسين نبيلاً فارساً من أنطاكية، ودمرا تدميراً فعلياً في معركة واحدة. ولما كان الفرنجة قد اختصروا حاميات كثير من المدن والقلاع في المملكة، لتعبئة صفوف هذه القوة، فقد اضطرت الى الاستسلام الى المسلمين المظفرين دون مقاومة تقريباً بعد أن خلت من رجالها، وفقدت أملها في الخلاص. ولعدم وجود قوى احتياطية لدى الفرنجة فقد استحال عليهم تنظيم مقاومة تواجه صلاح الدين في الميدان حتى العام ١١٨٩. ولذا فقد غزا صلاح الدين في العامين ١١٨٧ و ١١٨٨ مملكة القدس

١) غروسيه. م ٢. ص ٧١٦

٢) جاء ذلك في سجلات وليم الصوري. فيقول عن صلاح الدين ص ١١٠١ باللاتينية: ..

Saladin (P. 1101): 'nostrorum vires quasi pro nihilo ducens et ad majora Tuspirans', and on P. 1102 he refers to the Franks, 'eoque amplius indignati, quod tantam ejus qui abierat notabant superbiam, quod, contemptis regni viribus, ut regna sibi vindicaret extera, proficiscens, cum rege nec treugam oec foedus inierat. . .'

٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٧

كلها فيما عدا صور، ولم يبق في أنطاكية من الأماكن الهامة بيد الفرنجة سوى العاصمة وقلعتي المرقب والقصير.

بدأ الهجوم المعاكس اللاتيني بعد هذه الأحداث على يد الملك غي. فعندما أطلق سراحه من الأسر وأراد الالتجاء الى صور، وهي المدينة الوحيدة التي بقيت له، منعه حاميها كونراد دي مونتفرات من دخولها، فلم يبق أمامه سوى مغادرة ملكه في سوريّة أو محاولة استرداد مملكته. وعبر عن خياره هذا في شهر آب (أغسطس) من العام ١١٨٧ بأن فرض الحصار على عكا.

كان مثل الملك غي هنا، مغامراً بلا أرض، كمثل أمراء اللاتين في العام ١٠٩٧. وكان للموقف العسكري، في السنوات الثلاث التي تلت، ملامح مماثلة لذلك الموقف الذي كان سائداً خلال الحملة الصليبية الأولى. إذ كان غي، مع التعزيزات التي جاءته من الغرب، محروماً من أية موارد تقريباً في سورية، فإما أن يحقق فوزاً حربياً أو يخسر كلَّ شيء. وهكذا واظب على حصار عكا رغم العوائق الكبيرة التي واجهته، ضارباً بذلك المثال الوحيد الذي سجلته الحرب في سورية خلال القرن الثاني عشر لحصار كبير نفذ بنجاح رغم وجود جيش ميداني مسلم قادر على سحق القائمين بالحصار ومساعدة المحاصرين. واقتصر دور جيش صلاح الدين على منع جميع الإمدادات عن اللاتين وتدميرهم في المعركة. ورغم أنه استطاع تجويعهم، إلا أنهم كانوا يتلقون إمدادات منتظمة عن طريق البحر، وأخذت أعدادهم تتزايد باضطراد، ومنحتهم التحصينات التي أقاموها في معسكرهم حصانة لابأس بها، حالت دون إلحاق هزيمة نكراء بهم. وخير ما يدل على أثر وجود صلاح الدين هنا أن الجيش الصليبي احتاج الى واحد وعشرين شهراً لاسترداد المدينة التي استولى عليها صلاح الدين في العام ١١٨٩ في يوم واحد.

بعيد الاستيلاء على عكا، انتقل الفرنجة الى الهجوم. وكان هدفهم الرئيسي بيت المقدس. وما حدث في العام ١٠٩٩ حدث في العام ١١٩١ عندما ساروا جنوباً على طول الطريق الساحلي. ولكن الحملة الصليبية الثالثة كانت تتمتع بميزة عن سابقتها، هي كثرة السفن التي تدعمها. وهكذا استولى الفرنجة على يافا وأعادوا

تحصينها قبل محاولة التقدم باتجاه القدس. وكان هنالك جيش مسلم يقف لهم بالمرصاد ويعيقهم عن تحقيق خطتهم العامة، وكان هذا عائقاً لم يعهده رجال الحملة الصليبية الأولى. لقد كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة في استرداد الأماكن المقدسة مرهوناً بمقدرة الفرنجة على إلحاق هزيمة حاسمة بجيش صلاح الدين، بحيث لايستطيع بعدها البقاء في الميدان. بينما كان صلاح الدين جاهزاً للإفادة من ميزة تفوق قواته في القتال أثناء المسير. وحدث نتيجة ذلك صراع متقطع خلال مسيرة الفرنجة باتجاه الجنوب بلغ ذروته في السابع من شهر ايلول (سبتمبر) من العام ١١٩١ بوصولهم الى أرسوف (عتليت). وهنا كان النصر حليف الفرنجة، إلا أن وصف الضرر الذي ألحقوه بالعدو بأنه «ضربة ساحقة» فيه مبالغة كبيرة وتناسٍ للهدف الذي دارت المعركة من أجله. فعلى الرغم من تراجع المسلمين عن أرسوف، والخسائر التي لحقت بهم، كان صلاح الدين قادراً على إعادة تنظيم جيشه والاحتفاظ به. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية لجعل حصار القدس مستحيلاً تقريباً من وجهة النظر العسكرية. إذ أن جبل القدس Judean Plateou القاحل الذي تنتصب المدينة فوقه، والذي تدين له بأمنها على مر التاريخ[1]، خلق صعاباً كبيراً في وجه الحملة الأولى، مع أنه لم يكن يواجهها عدو في الميدان. بينما واجه ريتشارد هنا صلاح الدين، وآلت مواجهته الى الفشل لأنه لم يستغل الحماس الصليبي لدى الحجاج، ولم يختبر نقاط الضعف لدى عدوه بدرجة كافية.

إن الغرض من هذا الفصل تقديم إطار زمني للأحداث العسكرية، التي سنشير إليها في الفصول اللاحقة من جهة، وايضاح، الطبيعة العامة للحرب في سورية اللاتينية خلال القرن الثاني عشر من جهة أخرى. ونلاحظ هنا أن هذه الحرب تعرض مشهد جيشين، عقدا العزم على تدمير بعضهما بعضاً إلا فيما ندر، وأن النهاية الفعلية للنشاط العسكري هي الاستيلاء على الاماكن المحصنة والدفاع عنها. وقد يكون الصراع في أبسط أشكاله ما بين جيش من جهة وحامية تملأ أسوار

1) G.A. Smith, Historical Geography of the Holy Land P. 255.

تلك الأماكن بالرجال من جهة أخرى. ولقد حدثت فتوحات هامة كثيرة، لأن جيشاً واحداً كان في الميدان هو جيش الغزو[1]. وعلى كل، كان الدفاع الفعال عن الأراضي ممكناً فقط إذا كانت مقاومة الحاميات مدعمة بجيش في الميدان. ففي مثل هذه الحالة لم يكن الجيش الغازي والجيش المدافع يتعجلان مهاجمة كل منهما الآخر، ولم يكونا يبذلان أية محاولة لذلك غالباً. إذ كانت القلاع لكليهما تحتل المكانة الأولى الهامة. وربما اضطر المُدافع الى خوض معركة لطرد الغزاة، إلا أن هذه النهاية غالباً ما كانت تتحقق بدون معركة. ومن ناحية أخرى، فإن الغازي الذي عقد العزم على الاستيلاء على بلد ما، لا بد وأن يتخلص مما يهدد خططه ممثلاً بدفاع العدو النشيط في الميدان. ومن المحال وضع قاعدة ثابتة هنا، لأنه لو أدت مهارة أحد القائدين، أو خطؤه، الى منح الطرف الآخر ميزة فورية، ومكنته من خوض المعركة بأقل مخاطر ممكنة وجعلته موقناً بالنصر، فإنه لم يكن ليتورع عن اغتنام الفرصة. ولكن قرار خوض المعركة، الى جانب أشياء أخرى مكافئة له، كان يخدم ــ في الغالب ــ الغايات التي أرادها المهاجم أكثر من الغايات التي رمى إليها المدافع.

---

١) منها على سبيل المثال فتوحات الفرنجة الأولى في فلسطين، بما في ذلك استيلاؤهم على جميع المدن الساحلية الهامة، ١٠٩٩ ــ ١١٠٩، وفتوحات زنكي في العام ١١٣٥، ونور الدين في العام ١١٤٧ في أراضي إمارة أنطاكية وما وراء العاصي، وفتوحات صلاح الدين في العام ١١٨٧ والعام ١١٨٨.



الفصل الثالث

الفرنجة والأرمن والسوريون



١ ــ المجتمع الفرنجي ــ السوري

La Nation Franco - Syrienne

فرض الصليبيون ممالكهم على شعوب تفوقهم عدداً. وكان يوجد عدد كبير من المسيحيين بين المواطنين في سورية، إلا أن الأكثرية كانت من المسلمين المتعاطفين من الناحية الدينية ــ دائماً ــ ومن الناحيتين الثقافية والقومية ــ غالباً ــ مع الأعداء الطبيعيين لتلك الدويلات اللاتينية. ولهذه الأسباب فقط كانت العلاقات، القائمة بين الفرنجة ورعاياهم السوريين، تعتمد اعتماداً وثيقاً على وضع الفرنجة العسكري، وهذا هو الموضوع الذي يتناوله الفصل التالي.

يقال بأن أبحاث بروتز Prutz وراي Rey ومونرو Monro ودونكالف Duncalf وكاهن Cahen، حول هذه المسألة، استنفذت الموضوع كله الى أن يكشف الغطاء عن مصدر جديد للمعلومات على الأقل[1]. وقد يكون هذا الرأي موغلاً في التفاؤل، فالمشكلة التي كتب عنها الكثير على هذا النحو ما زالت تحتاج الى فهم أشمل. وهي لا تدل بالتأكيد على أن المؤرخين المذكورين لم يكونوا متفقين في تفسيرهم للشواهد. إذ تركت الحرية للباحث كي يختار بين مفهومين مختلفين تماماً لطبيعة المجتمع الفرنجي السوري. فمن جهة ثمة باحثون يعدون الاستشراق (الروح

1) J.L. La Monte in Speculum, XV (1940), 72. His reference to Duncalf's article in note 2 to that page should read, 'Annual Report of Amer. Ass. (1914), I, 137-45'.

الشرقية) الذي طغى على سلوك الفرنجة في سورية ، والحالات التي ظهرت في منشأ العلاقات الودية بين الفرنجة والمسلمين دليلاً على ولادة مجتمع فرنجي — سوري وظهور حضارة تخصه. ومن جهة أخرى، هنالك آخرون يلقون أهمية كبرى على أوجه التنظيم الاجتماعي الأخرى في الدويلات اللاتينية ، وعلى حالة العلاقات العدائية التي كانت قائمة بين الفرنجة والمسلمين. وهم يرون ان الفرنجة ظلوا طبقة حاكمة منفصلة عن المواطنين السوريين من حيث اللغة والدين ، مستخدمين القوة رادعاً أخيراً في ممالكهم. وبسبب هذين الرأيين المتناقضين لا بد من إعادة النظر في الدليل الذي استند إليه كل من الطرفين والتسوية بينهما ، أو إقرار أيهما أصح تفسيراً للحقائق المعلومة.

يدل تاريخ الدويلات اللاتينية على أن الفرنجة تمثلوا بسرعة بعض عادات البلاد ، وأقاموا علاقات طيبة مع جيرانهم وأتباعهم من المسلمين[1]. ولقد حظيت مثل هذه التطورات باهتمام ملحوظ في المؤلفات القديمة مثل مؤلف راي[2] Rey ، وبروتز[3] Prutz ، وجرى التركيز عليها مجدداً عندما راح الفرنسيون يعدون الدويلات اللاتينية وكأنها الفصل الأول في تاريخهم الاستعماري. وكان راي قد كتب « مقالة حول الممتلكات الفرنسية في سورية » «Essai sur la dominion française en Syrie» . إلا أن الموضوع فسر بعبارات بليغة وأكثر فصاحة ، وذاع على نطاق أوسع على يد لويس مادلان Louis Madelin . إذ آمن هذا المؤرخ ، عن تعصب ، بمقدرة الفرنسيين على حكم الشعوب الأخرى لمصلحتها. فقبل نشوب الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤ ، كان يناضل من فوق منصة الخطابة ضد « العقلية الانهزامية » «mentalite de vaincu» التي كانت متفشية بين مواطنيه ، ورغب في فتح عيونهم الى وجهة نظره

---

١) تأثر الباحثون بظهور بلدوين الأول المبكر بزي شرقي ، وبالنقود المعدنية التي يظهر فيها أحد المتحمسين المتعصبين للحرب المقدسة مثل تنكريد وهو يرتدي العمامة وربما حمل لقب الأمير العظيم . أنظر شلومبرغر Numismatique de l'Orient Latin PP. 44-5 واللوحة ٢ رقم ٧ ، وكذلك بروتز Kultur gschichte PP. 62, 555 ، وراي Monuments P. 9 ، ومادلين Expansion P. 21.

2) E.G. Rey, Les Colonies franques, PP. 4-14.

3) H. Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge, PP. 55-72.

المتحمسة حول عظمة بلادهم. ووجد في حالة السلم التي تلت انتصارات الحرب العالمية الأولى سانحة لفرنسا لكي تعود الى المقاطعات والمستعمرات التي كانت تابعة لها ذات مرة. وراح يركز مرة أخرى على تأثير الرأي العام على هذه النهاية. وفي العام ١٩١٨ طبع سلسلة من أولى محاضراته التي ألقاها تحت عنوان «L'Expansion Française» (التوسع الفرنسي) عدّ فيها الدويلات الصليبية الفصل الأول من تاريخ المشاريع الاستعمارية الفرنسية[1]. وفي السنة التي سبقت ذلك نشر مقالاً مطولاً في مجلة «ريفو دي دو موند» «مجلة العالمين» «Revue des deus mondes» سار فيه على نهج مماثل[2].

لقد أشير الى أعمال مادلان هنا لأن تأريخ الحروب الصليبية ليس مجرد دعاية مكتوبة لها صلة بمعاهدة سلام، وإنما يمثل مفهوم المأثرة الفرنجية في سورية اللاتينية، وعلاقات الفرنجة بالشعوب التي خضعت لهم، والتي لم ينحصر تأثيرها في مدرسة المؤرخين اللبنانيين[3] فحسب وإنما برز ذلك التأثير مؤخراً أيضاً في تاريخ رينيه غروسّيه René Grausset عن الحروب الصليبية.

وجد مادلان وغروسّيه ان الدويلات اللاتينية مأثرة فرنسية[4]، وأن الرجال الذين أسسوها هم أجداد شامبليون* ولابوردونّيه**. وأن الفرنسيين يتمتعون بعبقرية استعمارية

---

1) L. Madelin, L'Expansion Française

٢) كان عنوان المقال « سورية الفرنجية » 'La Syrie franque'، وقد نشر في مجلة Revue de deux mondes العدد السادس من السنة XXXVIII (١٩١٧) ص ٣١٤ — ٣٥٨ .

٣) وبخاصة ف. الحايك في كتابه « الحق الفرنجي في سورية أثناء الحرب الصليبية » "Le Droit franc en Syrie pendant les croisade" وهي دراسة موثقة عن هذا الموضوع، ويهتم بها دارسو الحروب الصليبية على نطاق واسع. وثمة عمل آخر مشهور كتب من وجهة النظر ذاتها هو كتاب ر. ريشتلهوبر R. Ristelhueber، التقاليد الفرنسية في لبنان Tradition françaises du Liban

4) Madelin, Expansion, PP. 2-3. Grousset, I, P. 316.

★ شامبوليون (شامبليون) Champollion جان فرانسوا الأبن (١٧٩٠ — ١٨٣٢)، عالم فرنسي ظهر نبوغه في دراسة تاريخ مصر الفرعونية. كان أول من وفق في حل طلاسم اللغة الهيروغليفية عن طريق تحليل نقوش حجر رشيد. (الموسوعة اليسرة)

(تضطرد حججهم التي ساقوها على هذا النحو)، وأن شهرتهم وعدلهم في الحكم لم ينس أبداً حتى في البلاد التي خسروها[1] وهذا ما حدث في سورية. فالعدالة الفرنسية في القرن الثاني عشر ضمنت لكل فئة من رعاياها الشرقيين التمتع بحقوقها وعاداتها القومية (!!) وكان الفرنسيون محبوبون لأنهم لم يبقوا ـــ رغم كونهم فاتحين ـــ بمعزل عن الشعب الذي كانوا يحكمونه[2]. فتبنوا لباس تلك الشعوب وعاداتها، وتعلموا لغتها، وأقاموا معها علاقات ودية وثيقة. وكانت النتيجة ذلك التزاوج بين الشرق والغرب، الذي لم تكن ثمرته «حضارة أصيلة[3]» «Une Civilization originale» فحسب، بل وأمة فرنجية سورية أيضاً[4] (!) «Une nation franco- Syrienne»

يقال بأن العلاقات اللاتينية كانت مأهولة بمجتمع يضم شتاتاً من مختلف شعوب الأرض، إلا أنه كان مجتمعاً متكاملاً اندمجت فيه عن رضى مختلف العناصر العرقية والدينية، وكانت له حياته الداخلية وقوته الخاصة. والاستنتاج المنطقي لمثل هذا التفسير ـــ وهو ما يؤثر في خلفية الموقف العسكري ـــ هو أن تدمير مثل هذا المجتمع لايمكن أن يتأتى من أي ضعف داخلي في بنيته الاجتماعية، وهذا ماتوصل اليه مادلان فعلاً في استنتاجاته[5]، حيث قال: إن التطورات الحتمية جاءت من الضغط

برتراند فرانسوا ماهيه، كونت دولا بوردونّيه Le Bourdonnàis. (١٦٩٩ ـــ ١٧٥٣). تميزت سيرته بالاستيلاء على ماهيه Mahé (١٧٢٥)، وأصبح حاكماً لجزر فرنسا في المحيط الهندي (١٧٢٤)، وأظهر كفاءة إدارية عالية في ذلك. وقد شكل بنفسه وحدة بحرية أثناء الحرب الفرنسية ـــ الانكليزية في الهند، وتلقى استسلام مدراس، ولكنه قبل بإعادتها مقابل فدية، الأمر الذي جعله يتهم بالخيانة. فأعدم بعد ثلاث سنوات قضاها في سجن الباستيل. (قاموس أعلام روبير)

1) A recurent theme in the literature now being discussed. See Madelin, Expansion, PP. 27, 160, and Syrie franque, PP. 353, 358. Ristelhueber, Traditions françaises au Liban, P. 72.

2) Madelin, Syric franque, PP. 352-3.

3) Madelin, Syrie franque, PP. 344-5; La Monte, in the Arab Heritage, ed. N.A. Faris, P. 666.

4) Grousset, I, P. 287; Madelin, Syrie franque, P. 334.

5) Syrie franque, P. 354: 'Quoi qu'en aient dit certains historiens, je ne crois pas qu'il faille ehercher dans le régime même la cause de cette chute. Le royaume a succombé à des événements extérieus à sa constitution'.

الخارجي الذي لم يكن يقاوم مع الفشل في فرض سلالة حاكمة قوية الى درجة كافية في الداخل. بينما كان رأي غروسيه أن «الروح الاستعمارية» «l'esprit colonial,» كانت العنصر الرئيسي في سورية اللاتينية. إلا أن السياسة، التي لم تكن مؤطرة بما يتفق مع هذا العنصر، وإنما بما يتفق مع عنصر آخر مضاد له ومتعارض معه، هو «النزعة الصليبية» «l'esprit croisé»، كانت السبب الرئيسي في خيبة الفرنجة وفشلهم[1].

تذكر مصادر تاريخ الصليبيين العديد من الأمثلة التي عدلت فيها أنماط معيشة الفرنجة بعد أن استوطنوا سورية، وهي تدل على أن الفرنجة استخدموا الأطباء والطباخين والخدم والحرفيين والفعلة من أهل البلاد. وأنهم تزيوا بالأزياء الشرقية وطعموا فواكه البلاد وأطباقها. وكان لديهم زجاج على نوافذهم، وفسيفساء على أرضهم، وفسقيات مياه ونوافير في ساحات منازلهم، حيث كانت تخطط على النمط السوري. وكان عندهم راقصات في أفراحهم، وندابات محترفات في أتراحهم، وكانوا يستحمون وينظفون بالصابون ويأكلون السكر[2]. إن هذه كلها هي بالتأكيد حقائق تاريخية، أما أن تكون من أمارات «الروح الاستعمارية» فهذا ما لايمكن الاعتقاد به لأنها مظاهر سطحية ومحدودة القيمة. إذ أن نمط الفرنجة في الحياة تبدل من بعض النواحي الخارجية، بل ربما لفت نظرنا أكثر عدم حدوث مثل هذه التبدلات. لأن ذلك يعني أن الفرنجة لم يستطيبوا المنتجات الطبيعية للبلاد وعاداتها المحلية وطرائق الحياة الشخصية التي تلائم المناخ والبيئة المحليين بكل جلاء. لقد كان من المؤكد والطبيعي أن يتبنى الفرنجة نمط الحياة والعادات السورية. وقد ذكر فلتشر دوشارتر Fulcher of Chartres استجابته لمثل هذه التبدلات في مقطع من مؤلف له اقتبس أكثر من مرة حتى ذاع صيته[3]. أضف الى ذلك أنه ليس من مبرر يدعونا الى الاستنتاج بأن

---

1) Grousset, I, P. 314; II, PP. 141, 225, 264, 518, 615, 754-5; III, Intro. PP. XIV-XV; and PP. 57-9, 61-2.

2) Rey, Colonies, PP. 4-14; Munro, Kingdom of Crusaders, PP. 105-6, 120-2.

3) Fulcher , P. 468: 'Nam qui fuimus occidentales, nunc facti sumus orientales. Qui fuit Romanus aut Francus, hac in terra factus est Galilaeus aut Palestinus. Qui fuit Remensis aut

الاستيطان اللاتيني أدى الى تشكيل أمة فرنجية سورية ، كما يقول غروسّيه ، وأنه « خلال الربع الأول من القرن الثاني عشر تأسست فرنسا جديدة في المشرق ، واستطاعت أن ترسي جذورها الصلبة في بيئة محلية بسرعة وحيوية مذهلتين » .

'Ormation dume nation franco- Syrienne,...'danc ce Premir quart du douzième Siècle, une Nouvelle- France s'ètait constituèe au Levant et, avec une rapiditè et une vitalitè surprnnantes, avait solidement pris racine dans le milieu indegène' [1]

لقد كان قسيس القصر من القرن الثاني عشر ، والعالم الباحث من القرن العشرين ، وكلاهما فرنسي ، متساويين في كونهما موضع شك من حيث ولعهما بالخطابة وقدرتهما عليها .

ومما لاشك فيه أنه تم تحقيق الكثير بصدد العلاقات الودية التي كانت تقوم غالباً بين الحكام اللاتين وحكام الدول الاسلامية . ولم تكن السياسة وحدها هي التي تؤدي الى إقامة التحالف في بعض الأحيان . إذ كثيراً ما كانت العلاقات الشخصية

Carnotensis, nunc efficitur Tyrius vel Antiochenus. Jam obliti sumus nativitatis nostrae loca; jam nobis pluribus vel sunt ignota, vel etiam inaudita. Hic jam possidet domos proprias et familias quasi jure paterno et haereditario, ille vero jam duxit uxorem non tantum compatriotam, sed et Syram aut Armenam et interdum Sarracenam, baptismi autem gratiam adeptam. Alius habet apud se tam socerum quam nurum, seu generum sive privignum, necne vitricum. Nec deest hùic nepos, seu pronepos. Hic potitur vineis, ille vero culturis. Diversarum linguarum coutitur alternatim eloquio et obsequio alteruter. Lingua diversa jam communis facta utrique nationi fit nota, et jungit fides quibus est ignota progenies. Scriptum quippe est: Leo et bos simul comedent paleas. Qui erat alienigena, nunc est quasi indigena, et qui inquilinus est, utique incola factus. Nos nostri sequuntur de die in diem propinqui et parentes, quae cumque possederant omnino relinquentes, nec etiam volentes, Qui enim illic erant inopes, hic facit eos Deus locupletes. Qui habuerant nummos paucos, hic possident bizantois innumeroys; et qui non habuerat villam, hic, Deo dante, jam possident urbem. Quare ergo reverteretur in Occidentem qui hic taliter invenit Orentem?'

1) Groussel, I, P. 287. 1, P. 288.

تقوم بينهم بنتيجة المجاملة والصداقة. فالأمثلة الكثيرة التي اقتبست في هذا المساق مأخوذة من مذكرات أسامة بن المنقذ[1]، وهي حقيقة في حد ذاتها وتعد مظهراً من مظاهر قلة هذا النمط من الشواهد. إذ كان أسامة فرداً من أفراد أسرة عربية نبيلة حكمت شيزر ما بين العامين ١٠٨١ ــ ١١٥٧[2]. وتربى في شبابه على موضوعين رئيسيين هما الصيد والحرب. لذا نجد معظم مذكراته تدور حول الهواية الأولى أو الثانية من هواياته[3]. وكانت هذه الهوايات تشغل الإهتمام الأول لمن هم على مستوى أسامة الاجتماعي من الفرنجة. وكل ما يمكن استخلاصه من إفاداته هو وجود علاقات صميمة، في كثير من الأحيان، بين أفراد الطبقة العسكرية الصغيرة الحاكمة لدى كل من الطرفين، حيث كانت تطلعاتهم وأذواقهم مشتركة الى حد كبير، بسبب وضعهم المتميز في المجتمع وحماستهم للحرب والفروسية والصيد والقنص الذي كانوا يشاطرون فيه بعضهم بعضاً.

كان الدلائل التي استند إليها مادلان في أفكاره مستقاة من هذا القبيل، وهي التي دفعت غروسّيه الى الاستنتاج بأن الفرنجة مدوا جذورهم عميقاً في المجتمع المشرقي. ورغم أن كتابات هؤلاء الباحثين تعد من وجهة نظر الكثيرين تجسيداً لتفسير معقول لتلك الشواهد، فإنه من المنطقي كذلك، وعلى قدم المساواة على الأقل، أن نرى في استشراق الفرنجة، وفي الصداقات التي عقدها حكامهم مع أندادهم المسلمين قضايا سطحية وحتمية سواء بسواء[4]. إذ لا يقدم المؤرخان اللذان نحن بصددهما أي دليل على أنهما أدركا حدود البينات التي يسوقانها. ويمكن بالتالي انتقاد استنتاجاتهما لقلة الحذر والتحفظ اللذين تتطلبهما تلك الحدود. ففي مناسبة

---

1) P. K. Hitti, An Arap Syrian Gentleman and Warrior in the period of the Crusades.

2) H. Deren bourg, Ousama ibn Mounkidh, Iere partie, Vie d'Ousama PP. 14-24.

٣) علّق الخلفية الفاطمي « الحافظ » على أسامة مرة تعليقاً وثيق الصلة بالموضوع حين قال : « وأي عمل يمارسه هذا الرجل سوى القتال والصيد ؟ » (أسامة ، ص ٢٢٥)

4) Cf. La Monte, Feudal Monarchy, Intro. P. XX; C.N. Johns in journal of the Royal Central Asian Society, XXI (1934), 292.

واحدة على الأقل يبين غروسيه في مؤلفه عواقب الرأي المسبق المبتسر Parti Pris ، ويغالي في استشهاده بأسامة بن منقذ إثباتاً لمفهومه عن المجتمع الفرنجي ــ السوري. وهو يسوق هنا حادثة طريفة تتعلق بغارة شنها تنكريد على أراضي شيزر في خريف العام ١١٠٨ . فبعد القتال الذي دار تبادل الزعيمان اللدودان رسائل ودية ، وطلب تنكريد لنفسه هدية هي حصان يخص أحد أفراد الأسرة المنقذية الحاكمة . فأرسل إليه ذلك الحصان وعلى متنه شاب كردي فتي اسمه حسنون ، فأعجب تنكريد بهيئة الفتى وتصرفه ومنحه عهداً بأن يطلق سراحه إذا ما وقع في أسره يوماً ما[1] . لقد وجد غروسّيه في هذه القصة مثالاً مؤاتياً يدل به على علاقات الفروسية التي كانت قائمة بين الفرنجة والمسلمين[2] . ولكن لهذه القصة تتمة ، فبعد سنة من ذلك التاريخ وقع حسنون فعلاً في أسر تنكريد ، ولم يتجاهل تنكريد إطلاق سراح أسيره فحسب وإنما نكل به وفقأ له عينه اليمنى[3] . وتدل هذه النهاية على وجود وجه آخر للعلاقات الفرنجية ــ المسلمة ، لم يوردها غروسّيه .

إن مثل هذه البينة تنطوي أحياناً على تفسيرات متضاربة . إذ يؤكد مونرو Munro أهمية التزاوج في تقريب التفاهم المتبادل بين الفرنجة والمسلمين . وهو يوضح وجهة نظره هذه مستشهداً بأسامة ، ويعيد على مسامعنا قصة الفتاة الفرنجية التي

---

١) (أنظر كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٨٥ ــ ٨٦) .

٢) أنظر Grousset. I. P. 427 n.I

٣) أنظر أسامة ص ٨٦ . والقصة كما رواها أسامة كانت على النحو الآتي : أمان تنكريد لا قيمة له ، وكان نزل علينا دنكري (جرت الحادثة في ٢٧ ت ٢ ١١٠٨) ، وهو أول اصحاب انطاكية بعد ميمون (اسم ريموند الذي خلفه تنكريد سنة ١١٠٤) فقاتلنا ثم اصطلحنا . فنفّذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرساً جواداً . فنفّذه له عمي تحت رجل من اصحابنا كردي يقال له حَسَنون . وكان من الفرسان الشجعان . وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري . فسابق به فسبق الخيل المجراة كلّها . وحضر بين يدي دنكري ، فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع . فخلع عليه دنكري . فقال له حَسَنون « يامولاي ، أريدك تعطيني أمانك أنك ان ظفرتَ بي في القتال تصطنعني وتطلقني » . فأعطاه أمانه ــ على ما توهّم حسنون ، فإنهم لا يتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

أضحت عروساً لسيد قلعة جعبر المسلم[1]. مما لا شك فيه أن التزاوج كان موجوداً بين الفئتين، ولكن لا بد من التنويه الى أن الفتاة الفرنجية التي تتحدث القصة عنها لم تذهب الى سيد قلعة جعبر باختيارها وإنما كانت جزءاً من غنائم حرب، وأنها رغم المنصب الرفيع الذي تبوأته والدة للأمير حاكم جعبر إلا أنها فرت في خاتمة المطاف الى

ومضى على هذا سنة أو أكثر (في ربيع سنة ١١١٠ م) وانقضت مدة الصلح . وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة . وكانت خيلنا لقيت أوائلهم . فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من اصحابنا كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده . فأبطأ عليه ، وأقلقه طعن كامل المشطوب ، فقال لوالدي « يا مولاي ، مُرْ لي بلباس خفيف » . فقال « هذه البغال عليها السلاح واقفة ، مهما صلح لك البسه » . وأنا إذا ذاك واقف خلف والدي ، وأنا صبيّ ، وهو أول يوم رأيت فيه القتال . فنظر الكزغندات في عيبها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل عمل كامل المشطوب . فتقدم على حجرته ، وهو معرّى ، فاعترضه فارس منهم . فطعن الفرس في قطاتها فعضّت على فأس اللجام ، وحملت به حتى رمته في وسط موكب الافرنج . فأخذوه أسيراً وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى . فقال لهم دنكري ، لعنه الله ، « اقلعوا عينه اليمنى ، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً » فقلعوا عينه اليمنى ، كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفّاجة جواداً من أحسن الخيل . فاشتراه بالحصان ، رحمه الله .

كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ص ٨٥ ــ ٨٦ . تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برلستون الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

١) أنظر Munro, Kingdom of the Crusaders P. 119. واسامة ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ : وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس . فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم . وهم ، لعنهم الله ، جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم . فرأى منهم جارية مليحة شابة ، فقال لقهرمانة داره « ادخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر » ففعلت . وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك ، صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه . وكتب إليه يقول « غنمنا من الافرنج غنيمة قد نفّذت لك سهماً منها » . فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه . فولدت له ولداً سماه بدران . فجعله أبوه وليَّ عهده . وكبر ومات والده . وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية . فواعدت قوماً وتدلت من القلعة بحبل ومضى بها اولئك إلى سروج (جنوب غرب اورفه) ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف ، وابنها صاحب قلعة جعبر .

] كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ص (١٦٦ ــ ١٦٧)

شعبها تحف بها المخاطر شخصياً ،وأقامت هناك زوجة لإسكاف فرنجي. ومهما كانت المبررات التي تقدم بها مونرو في هذه الطرفة فإن هذه الحجج ذاتها يمكن أن تساق لإثبات رأي آخر معاكس هو أنه كانت بين الفرنجة والمسلمين في سورية هوة واسعة لم يعد بالإمكان في نهاية المطاف الربط بين ضفتيها.

إن صلة هذا التفسير بالوضع العسكري في الدويلات اللاتينية هي التي تعنينا هنا، ولكن مضامينه واضحة. فقد كان المجتمع الفرنجي ــ السوري وثيق العرى، ولم يكن مصاباً بوهن داخلي يتطلب اللجوء للقوة. وكان باستطاعة الحاكم أن يطمئن الى ولاء رعاياه وطاعتهم بما كانوا يقدمون من مساعدة له في العمليات الحربية. وكان بالإمكان توجيه كل القوة المسلحة الى الأعداء الخارجيين الذين تحقق لهم في خاتمة المطاف قهر الدويلات اللاتينية. وهذه الناحية من تاريخ الحروب الصليبية هي التي سوف تؤخذ في الاعتبار الى حد بعيد أثناء مناقشة العلاقات التي كانت قائمة بين الفرنجة ورعاياهم من الأرمن والسوريين سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين.

٢ ــ الأرمن

يبدو أن الأرمن كانوا أكثر السكان عدداً وأكثرهم تأثيراً في كونتية الرها The county of Edessa، وفي بعض أمارة أنطاكية. وكانوا قد هاجروا من بلادهم أرمينيا في أواسط القرن الحادي عشر لسوء السياسة البيزنطية من جهة والتوسع التركي السلجوقي من جهة أخرى[1]. وعندما دخلت الحملة الصليبية الأولى سورية، في العام ١٠٩٧، كانت في جبال طوروس الشرقية والغربية جماعات مشتركة مستقلة يحكمها أمراء منهم. بينما كانت الجماعات الأرمنية في السهول خاضعة للحكم العسكري الذي فرضته عليها الحاميات السلجوقية، رغم أن بعض المدن مثل ملاطية والرها كانت تحت حكم الأرمن وتتمتع باستقلال واهن العرى وغير وطيد في قلب العالم

1) Cahen, Syrie du Nord, P. 184; Grousset, L'Empire du Levant, PP. 157-173 et seq.

السلجوقي. وقد رحب الأرمن بالصليبيين بمجرد أن أضحوا على مشارف أنطاكية[1] وقدموا الدعم لتنكريد أثناء احتلاله السريع لسهل قليقية[2]، وقبلوا بلدوين كونت بولونيا Baldw,in of Boulogne حاكماً للرها وتل باشر[3]. وهذه كلها أمور معروفة في الحملة الصليبية الأولى.

أيد الأرمن الحكم اللاتيني لأنهم مسيحيون وأعداء للترك. إضافة الى وجود عاملين اثنين جعلا منهم أقرب للفرنجة من أية عناصر مسيحية أخرى في المشرق، أولهما أنهم لم يكونوا يطمحون للتحرر من التسلط التركي فحسب، بل ومن الحكم الاسلامي أيضاً (!!)، وثانيهما أنهم شعب محارب. وكثيراً ما كانوا يشاهدون خلال القرن الثاني عشر في زي الجنود الخيالة أو المشاة في الجيش الفرنجي يخوضون المعارك في شمالي سورية[4]. وكانوا في كثير من المناسبات يقدمون الأدلة الدامغة على ولائهم واحترامهم الشديد لحكامهم اللاتين. فالتضحية التي أبدتها عصبة من الأرمن أنقذت بلدوين الثاني وجوسلين، في العام ١١٢٤ من قلعة خرتبرت[5] Kharput، وإخلاص

---

١) يسجل الكاتب المجهول (ص ٦٢ — ٦٤) أن المؤن كانت ترسل من أمراء أرمينية إلى اللاتين أثناء حصار أنطاكية، كما يقول الشيء نفسه في ص ٧٦، رغم أنه يتهم الأرمن كذلك بالاستغلال والحصول على أرباح فاحشة.

٢) أنظر الكاتب المجهول ص ٥٨.

٣) أنظر Fulcher P. 338.

٤) ذهب بلدوين كونت مقاطعة بولونيا إلى الرها في بادىء الأمر (فلتشر ص ٣٣٨)، وثمة دليل مشابه ساقه ماثيو الرهاوي ص ٣٦، حين قال: كان لبلدوين ستون فارساً من الأرمن. ونظراً لأنه أصيب بخسائر فادحة في حربه ضد الترك فمن المحتمل أنه استند إلى المساعدة العسكرية الأرمنية منذ البداية: ويقول ماثيو في ص ١٢٣: كان يوجد خمسماية خيال أرمني مع روجر في معركة ساحة الدم في العام ١١١٩، وفي ص ١٤٣: كان يوجد عدد مماثل مع بلدوين الثاني في معركة إعزاز في العام ١١٢٦. كذلك ساعد العنصر الأرمني الفرنجة تحت قيادة أمرائهم الأرمن.

٥) أنظر Fulcher P. 454 وكذلك Mathew of Edessa PP. 133-5أنظر كذلك ابن القلانسي ص ٣٣٤ — ٥ وحاشية المحقق الدكتور سهيل ذكار التي أورد فيها رواية المؤرخ السرياني المجهول.

الأرمن وتفجعهم على وفاة بلدوين أمير مرعش[1]، تدلان بوضوح على الدرجة التي يمكن للفرنجة الوثوق بالأرمن من أتباعهم فيها. أضف الى ذلك وجود بيّنات أخرى تثبت العكس. فعندما كانت الحملة الصليبية الأولى تحاصر انطاكية في العام ١٠٩٧ كان الأرمن موضع ريبة لممارستهم التجسس لصالح الحامية السلجوقية، وكان معلوماً أنهم ينقلون المؤون الى داخل المدينة. وفي العام ١١٠٤ أضعفت هزيمة بوهمند وبلدوين، في حرّان، سطوة الفرنجة في شمالي سورية الى درجة استطاع معها رضوان صاحب حلب استرداد عدة مدن، وكان من بين تلك المدن أرتاح Artah، التي دعاه إليها سكانها من الأرمن[2]. وفي العام ١١٠٨ وجد بلدوين ـــ الكونت الثاني للرها ـــ أن من الضروري إحباط مكيدة دبرها الأرمن ضد سلطاته في المدينة[3]. وبعد أربع سنوات كاد ينجح مودود في حصاره للرها عندما سلمه الأرمن أبراجاً معينة من السور الحامي للمدينة، ولم يكتف بلدوين بالبطش بالخونة وحدهم وإنما صب جام غضبه على الطائفة الأرمنية كلها[4]. تأثر بلدوين كثيراً بخطر الخيانة الأرمنية الى درجة طرد في العام الثاني جميع السكان الأرمن من الرها[5]، ثم عمد بعدها مباشرة الى إلحاق

١) ورد في تصنيف مؤرخي الحروب الصليبية ص ٢٠٤ ـــ ٢٢٢ RHC. Doc arm. I أن موقف المؤلف الأرمني حيال بلدوين ربما كان نموذجاً لمواقف مواطنيه إزاء الفرنجة . والواقع أن غروسيه في المجلد الثاني ص ١٩٩ كان قادراً على الاستنتاج بأن هذه العلاقات كانت طيبة ، بينما استنتج بروتز أن تلك العلاقات كانت تستند إلى البغضاء حيث يقدم نموذجاً آخر على ضرورة الحذر عند استخدام مثل هذه البيّنة . وفي الحقيقة أن باسيل أبدى عظيم احترامه لفضائل بلدوين ، ولكنه لم يتعامَ عن أخطائه . وثمة حدث تقليدي أورد في الصفحات ٢١٨ ـــ ٢١٩ ، وعلى ضوء المرثية التي ذكرها لابد من الاستنتاج أنه في الوقت الذي يبجل فيه الأرمن حكامهم اللاتين فإن عاطفتهم كانت مقيدة أو ملطفة ، ومن الضروري أن ينظر إلى إخلاصهم على أنه نتيجة لتلك العاطفة ، وأن الإخلاص ليس مطلقاً على الأغلب . وللاستزادة من هذا الموضوع أنظر الفقرات التالية .

٢) أنظر كمال الدين تاريخ حلب ، في تصنيف مؤرخي الحروب الصليبية .

٣) أنظر Mathew of Edessa P. 88.

٤) المصدر السابق ص ١٠١ ـــ ١٠٢ .

٥) يعتمد ماثيو على هذه الأحداث كثيراً للدلالة على المشاعر القوية المعادية للفرنجة ص ١٠٤ ـــ ١٠٥

مناطق معينة به كان يحكمها أمراء من الأرمن. وربما يلاحظ أن وجود مثل هؤلاء الحكام على حدود أنطاكية والرها خلق ظروفاً قسمت ولاء الكثير من الأرمن بين صاحبيها من الفرنجة. وثمة أمثلة كثيرة عن عدم ولاء الأرمن، تدل على أن هذا الشعب الذي كانت تشده الى الفرنجة روابط أوثق من أي شعب آخر في سورية لم يكن دائماً محل ثقة تامة، والملاحظ كذلك أن ضعف ولائهم هذا كان ينكشف غالباً عندما يواجه الفرنجة مآزق حربية صعبة.

٣ ــ المسيحيون السوريون

قطن معظم الأرمن منطقة تقع الى الشمال من أنطاكية، بينما كانت جماعات من اليونان الأرثوذكس، وكنائس اليعاقبة، القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، منتشرة في جميع أنحاء سورية، وقد سعى الفرنجة الى كسب مودتهم والتفافهم معهم ولو ظاهرياً. فعندما دخلت الحملة الصليبية الأولى البلاد كان من الواضح أن سياسة أدهمير[١] Adhemer، أسقف لوباي Le Puy ومبعوث البابا الرسمي، هي التعاون مع البيزنطيين الإغريق. وكان تعامله متناسقاً مع البطرك الأرثوذكسي في بيت المقدس لتنظيم إمداد الجيش المسيحي، بينما أعيد بطرك الأرثوذكس في أنطاكية الى مدينته بعد سقوطها بيد الفرنجة في شهر حزيران من العام ١٠٩٨[٢]. وكان الظن السائد أن من الأسباب التي دفعت البابا أوربان للدعوة الى الحروب الصليبية هي رغبته في إنهاء النزاع الذي قسم الكرسي البابوي بين روما والقسطنطينية منذ العام ١٠٥٤[٣]. ومما لا شك فيه أن الفرنجة السوريين خلال القرن الثاني عشر عدوا رعاياهم من اليونان الأرثوذكس جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية الموحدة، على العكس من اعترافهم بالأرمن

---

١) أنظر رنسيمان ص ٢٢٢، ٢٣٧ الطبعة الأنكليزية، كاهن ــ سورية الشمالية ص ٣٠٨.

٢) أنظر A.C. Krey 'Urban's Crusade, Success or Failure? in Arminian Historical Revew, LIII (1947-8) 235-50

٣) أدهمير دي مونتيل أسقف بويه (أنظر رنسيمان) (Adhemer de Monteil)

واليعاقبة طوائف مستقلة منفصلة ، وبالتالي فقد ظلت الطقوس الأرثوذكسية قائمة في كنيسة القيامة. وكانت هناك أديرة أرثوذكسية في جوار بيت المقدس وأنطاكية. ويتمتع الفرنجة برعاية وحماية الامبراطور عمانويل كومنين Manuel Comnenus ، التي يبدو أنها كانت فعالة جداً، لأنه ــ بعد العام ١١٥٠ ــ أخذ الحكام اللاتين يتطلعون بصورة مضطردة الى معونة البيزنطيين الذين كانوا دائماً على علاقة حسنة مع البيت الحاكم في القدس[1]. ويمكن أن تكون مثل هذه الصداقة قائمة بين الفرنجة والكنائس التي تؤمن بالطبيعة الواحدة. فقد ترك ميخائيل بطرك أنطاكية اليعقوبي، فيما بين العامين ١١٦٦ و ١١٩٩ ، تسجيلاً لذلك الاستقبال الحار الذي تلقاه فيه بطرك بيت المقدس وأنطاكية اللاتيني والملك بلدوين الرابع في عكا في العام ١١٧٩[2]، بينما أعاد موارنة لبنان ارتباطهم المباشر بروما.

ثمة مؤشرات أخرى لها قيمتها فرضها الحكام اللاتين على رعاياهم من المسيحيين السوريين. فبعد الاستيلاء على بيت المقدس، في العام ١٠٩٩ ، أدت المجازر والأوبئة وفرار الكثير من المسلمين الى تناقص تعداد سكان المدينة. وكان عدد الفرنجة الذين بقوا لسد النقص الذي عانت منه المدينة ضئيلاً جداً، وكان لا بد من اتخاذ بعض الإجراءات لزيادة عدد قاطني المدينة. ولقد وجد بلدوين الأول الحل باستقدام طوائف من المسيحيين السوريين، من شرقي الأردن، واستعمر المدينة

---

١) رنسيمان ج ٢ ص ٣٢١

٢) مذكرات ميخائيل السوري أنظر Chronique de Michel Le Syrien (ed. and Trans. by J.B. Chabot), III, PP. 332,379, See also III, P. 222.وهو يقدم خلاصة للعلاقات التي كانت قائمة بين رعيته من جهة والفرنجة والاغريق والمسلمين من جهة أخرى . وهو يسجل هنا تسامح الفرنجة حيث كانوا يعتبرون مسيحياً كل من يعبد الصليب ، دون استقصاء أو امتحان . ('ils consideraient comme chrétier. quiconque adorait La croix, sans enquête ni examen) وتسامح المسلمين الذين لم يكن من عادتهم أن يسألوا عن معتقدات غيرهم الدينية ، أو أن يضطهدوا أحداً من أجل دينه ، كما كان يفعل الأغريق البيزنطيون ذلك الشعب الخبيث الهرطيق . N'avaint pas pur hapitude de S'informer sur les professions de foi ni de persecuter quelqu' un pour sa profession de foi, comme faisaient les Grecs, peuple mechant et hérétique) وفي الصفحة ٢٢٥ يعبر عن رأي مماثل عن الأغريق . كذلك اعتبر الأرمن الإغريق (البيزنطيين) مضطهدين أيضاً أنظر ماثيو ص ١٢٥ .

بهم[1] . وغالباً ما يستشهد بما ورد في كتب القانون التي تعود الى القرن الثالث عشر حول وضع السوريين «Les Syriens» دليلاً آخر على فضل اللاتين عليهم . ويذكر جون ايبلين John of Ibelin ، في الفصل الرابع من كتابه الطلب التقليدي الذي تقدم به ممثلو الطوائف السورية الى أحد ملوك بيت المقدس يلتمسون فيه أن يحكموا وفقاً لعاداتهم السائدة في محاكمهم الخاصة[2]، فاستجيبوا الى طلبهم ومنحوا ذلك الحق . وكانت القضايا المتنازع عليها بين السوريين ـــ فيما عدا حالات معينة ـــ تعالج في محاكم يرأسها قضاة سوريون . وكانت هذه المحاكم ظاهرة طبيعية في المناطق الريفية ، أما المراكز التجارية فكانت العدالة تمارس فيها في ما يسمى محكمة الضرائب «Cour de la fonde» حيث كانت تدرس القضايا التجارية كذلك . وكان القاضي في هذه المحاكم من الفرنجة يعاونه ستة محلفين اثنان من الفرنجة وأربعة من السوريين[3] . ويتساءل دودو Dodu ، لو كان السوريون مفسدين وغير جديرين بالثقة فهل يمنحهم المشرع مثل هذه المميزات الكثيرة[4]؟ .

إن الجواب على هذا السؤال يتوقف على مدى ما كان للفرنجة من خيارات أخرى ، وهي ناحية سوف تتطرق إليها المناقشة فيما بعد[5]. ولكن للصورة وجهاً آخر يدل على أن العلاقات بين الشعوب الشرقية والغربية لم تكن تقوم على التفاهم والثقة المتبادلين فقط ، فمنذ أن قدم اللاتين الى سورية كان بينهم كثيرون ممن يميل الى ممالأة المسيحيين المحليين كافة بمن فيهم الإغريق والهراطقة[6]. وثمة دلائل أخرى طوال القرن تدل على الكراهية المتبادلة التي كانت قائمة بين المشرقيين والأوربيين الغربيين[7] .

---

1) WT, P. 500; J. Prawer, 'The settlement of the Latins in Jerusalem'; in Speculum, XXVII (1952), 490-503.

2) RHC, Lois, I, P. 26.

3) Hayek, Droit franc, PP. 130-5.

4) Dodu, Institutions, P. 210; Rey, Colonies, P. 76.

5) Infra, PP. 57-9.

6) Letter of the crusading princes to Pope Urban II, in HEp. P. 164.

7) See, for example, Odo, P. 29, 43.

وقد استفحلت هذه الكراهية بسبب المشكلات السياسية التي ضربت جذورها في أول اتصال بين الكسيوس كومنين وأوائل الصليبيين، وفي النزاع العنيف الذي نشب حول الحقوق البيزنطية في أمارة أنطاكية[1]. إلا أن المصدر الدائم والثابت لاستياء البيزنطيين يكمن في حقيقة النظر إليهم على أنهم جزء من المؤسسة الاكليركية اللاتينية، وليسوا منفصلين عنها. ولما كانوا جزءاً تابعاً فقد كان محظوراً على رجال الاكليروس الأرثوذكس ارتقاء المناصب العليا في سلم الكهانة. وهكذا أفسح بطريرك أنطاكية الاغريقي ـــ الذي أعيد تنصيبه في العام ١٠٩٨ ـــ مكانه الى خلف لاتيني في العام ١١٠٠، وهو برنار الفالنسي، ولم تعش محاولات إحياء البطريركية وإعادتها إلى سابق عهدها طويلاً[2]، كما حدث عندما فرض ذلك عمانويل كومنين في العام ١١٥٨ بالقوة. ولم تعرف القدس اللاتينية أبداً أي بطريرك اغريقي. وكان الأرثوذكس ملزمين بتقديم فروض الطاعة ودفع العشر الى المستوى الاكليري الأعلى الذي كان أجنبي الجنسية ويمارس شعائر مغايرة لهم. وأخيراً كان هؤلاء يتمتعون بالتسامح، إبان الحكم الاسلامي، وبحماية الامبراطور البيزنطي لهم، لذا لم يكن لديهم من الحوافز لمساعدة الفرنجة في المحافظة على سيادتهم سوى القليل. وليس ثمة ما يدهش إذا علمنا أن صلاح الدين عندما حصر بيت المقدس، في العام ١١٨٧، تعهدت له الطائفة الأرثوذكسية داخل أسوار المدينة بتقديم المساعدة، وأنه تلقى تهاني الأمبراطور اسحاق آنجيلوس Isaac Angelus على استرداده المدينة[3].

حدثت حوادث مماثلة أيضاً عندما استرد زنكي الرها في العام ١١٤٤. فهو لم يكن رحيماً في معاملة الفرنجة، إلا أنه عامل السوريين من المسيحيين في منتهى الرأفة. وقد لفت غروسّيه الانتباه الى الموقف الذي وقفه كاتب سوري مجهول ترك مذكراته لتلك الأحداث[4]. إذ كان زنكي في نظر الغرب اللاتيني وحشاً متعطشاً للدماء، وكان استيلاؤه على الرها مأساة كافية للتحريض على إرسال حملة صليبية

1) Grousset, I, P. 110.

2) Cahen, Syrie du Nord, PP. 400-2.

3) Grousset, II, P. 811; Runciman, II, P. 465.

4) Grousset, II, PP. 866, 882.

ثانية. هذا الكاتب السوري المجهول استطاع أن يحفظ لنا وجهة نظر أخرى قد تكون محايدة، فهو لم يكتف بوصف الحلم الذي كان يتحلى به عماد الدين زنكي إزاء المسيحيين الشرقيين فحسب، بل وصف أيضاً زيارته لكنائسهم وعلاقته الحميمة مع المطران اليعقوبي[١]. إن اللهجة التي يكتب بها أمثال هؤلاء المؤرخين لها قيمتها كبيّنة على العقلية التي تسود أذهان الناس الذين ينتمون إليهم. لقد كتب ميخائيل السوري ومواطنه المجهول مقاطع تشهد بأن اللغة المشتركة والنسب المشترك بين معظم المسيحيين السوريين والمسلمين فيها يكوّنان رابطة أوثق عُرى من العقيدة المسيحية التي يشاركون بها الفرنجة[٢] فقد عاش المسيحيون السوريون الأرثوذكس والمؤمنون بالطبيعة الواحدة كافة، ولقرون عدة، في ظل حكم اسلامي سمح. وكان هناك أثناء الاحتلال اللاتيني طوائف تؤمن إيمانهم سواء في الأراضي الاسلامية أو الأراضي التي تخضع للصليبيين[٣]. وكان كل منهما يشكل جزءاً من العالم الاسلامي والعالم الفرنجي من حيث الزمان والمكان. وكان بين هؤلاء المسيحيين وسادتهم اللاتين روابط الإيمان

---

١) من مذكرات الكاتب السوري مجهول الإسم عن الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية، ترجمها إلى الانكليزية آ . س . تريتون مع حاشية كتبها هـ . آ . ر . غيب H.A.R. Gibb حيث قال: « حيا (زنكي) المسيحيين مبتهجاً وقبل الإنجيل ، وقدم تحيته إلى المطران وسأله عن صحته » A.S. Tritton, notes by H. A.R. Gibb, in jour. Roy. Asiatic Soc. (1933), PP. 285, 289, 291.

2) In jour. Roy. Asiatic Soc. (1933), 276, 278-9, 293; Chronique de Michelle Syrien, III, PP. 267, 270, 314.

٣) شهدت الكنيسة اليعقوبية في أنطاكية، في عهد البطريارك الفالنسي، بعض الاضطرابات نتيجة شجار شجب بين بطريارکها ومطران الرها. أنظر مذكرات ميخائيل السوري طبعة شابوت ٣ص ١٩٦ ــ ١٩٨ . وكان من مصلحة الفرنجة، حكاماً يملكون زمام المدينة، إثارة مثل هذا الشجار حتى تورط فيه كل من الأمير روجر (روجيه) أمير أنطاكية وبطريارك اللاتين. وكان البطريارك السوري متشدداً في موقفه وانزعج من معاملة الفرنجة له، فاتخذ لنفسه مقراً في آمد في ديار بكر بعيداً عن أراضي الفرنجة، وكانت واجبات ميخائيل بطريارك الكنيسة السورية كثيراً ما تتطلب منه مغادرة أنطاكية والتوغل بعيداً في أراضي المسلمين: إلى آمد Amida وماردين ونصيبين وملاطية (أنظر المصدر نفسه ص ٣٥٧ ـــ ٣٦٠ و ٣٨٤ و ٣٩٠). (آمِد (بكسر الميم): هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً. وهو بلد قديم وحصين مبني بالحجارة السود على نشز

المشترك إلا أنهم كانوا مشدودين الى المسلمين بتاريخهم ولغتهم وعاداتهم[١]. فهم لم يكونوا مصدر متاعب للفرنجة. إلا أنهم كانوا قادرين على رؤية آفاق الحكم المسلم بنظرة المتزن. ولم يكن ملوك بيت المقدس وحدهم هم الذين يرون فيهم أتباعاً ورعايا يمكن الاحتفاظ بولائهم بمعاملتهم معاملة حسنة وإنما كان يشاطرهم في ذلك الزنكيون والأيوبيون أيضاً.

يبدو بالتالي أن المسيحيين الوطنيين لم يكونوا يشكلون أي أساس يعول عليه الحكم اللاتيني، وأنهم زادوا في حدة المشاكل العسكرية الفرنجية أكثر من تلطيفها. ولكن «دودو» يرى أن المسيحيين السوريين كانوا أحد مصادر المساعدات العسكرية للحكام اللاتين. وقد قام بتجميع عدد من النصوص التي تدل ـــ أو يبدو أنها تدل ـــ على أن السوريين كانوا يقاتلون الى جانب الفرنجة[٢]، ويتابع قوله، مشيراً الى أن قوة المشاة كانت تشكل من حيث المبدأ من مصادر وطنية محلية[٣]. أما الأساس الذي اعتمده في ذلك فغير واضح البتة. ولما كان ذلك صحيحاً فيما يخص الأرمن في الشمال، وبما أنه عدّ الأرمن من جملة الوطنيين المسيحيين، فمن الجائز أنه كان يعني هؤلاء في كلامه. ولكنه يقول ـــ على كل حال ـــ أن تعميمه ينسحب على جميع السوريين، وهذا أمر تنقصه البينة الصحيحة. فهو لم يستطع في عدة صفحات كتبها تقديم مثال واحد مقنع عن اشتراك السوريين في الحرب (الى جانب الفرنجة). وأكثر الأمثلة صراحة ما قدمه ابن الأثير الذي كتب بعد الأحداث بثلاثة أجيال، حين قال

دجلة، وفي وسطه عيون وآبار ... فتحت آمد في سنة ٢٠ هجرية، حيث سار إليها عياض بن غنم بعدما افتتح الجزيرة ... (معجم البلدان ج ١، ص ٥٦ ـــ ٥٧)

١) أنظر Jacobus de Vitiaco. كان الأسقف يعرف سورية والسوريين. وترتكز خلاصته عن صفاتهم على خبرته الشخصية، والكلام الصريح المذكور أعلاه يستند إلى الحقائق التاريخية المتوفرة. وقد كتب في المصدر نفسه عبارات تدل على ذلك: 'Suriani . . . secreta Christianorum . . . nuntiant Saracenis, inter quos nutriti sunt, quorum etiam lingua libentius utuntur, quam alia, et quorum moresperversos ex parte magna imitantur.'

٢) أنظر دودو Dodu ص ٢٠٥ ـــ ٢١٥.

٣) دودو ص ٢٠٨.

إن المسيحيين السوريين (المردة) ساعدوا ريمون صنجيل Raymond st Gilles في فتح طرابلس[١]. ومن المحتمل أن هؤلاء كانوا من الموارنة، الذين لا يزالون يقطنون السفوح الغربية من جبال لبنان. وهم يتصفون بنزعتهم المحاربة ــ كما يقول وليم الصوري ــ بينما يثني جيمس فيتري على مهارتهم في رمي السهام[٢]. لقد اقتبس دودو مقتطفات من وليم الصوري ليدلل على أن السوريين كانوا يقومون بأعباء الحامية. وربما أضاف بيّنة أوردها فلتشر Fulcher، الذي يعزو ذلك الى الوقت الذي كان فيه جيش المملكة يحاصر صور في العام ١١٢٤، فتولى مواطنوا القدس، بمساعدة السوريين، صد غارة شنتها حامية عسقلان[٣]. كما شارك السوريون في هجوم الصليبيين الفاشل على معرة النعمان في العام ١٠٩٨[٤]. كذلك فإن التركُبولية[٥] ــ كما يؤكد دودو ــ الذين كانوا يقاتلون مع جيوش الفرنجة طوال هذه الفترة كانوا من السوريين دون شك[٦]. ومن الطبيعي أن يكون عدد التركُبول العاملين ضئيلاً على كل حال بالموازنة مع حجم المجتمع السوري ككل. وطبقاً لشهادة وليم الصوري وجيمس فيتري، التي يجب أن يكون لها وزنها لمعرفتهما بالسوريين، فإن هؤلاء المسيحيين السوريين لم يكونوا شعباً محباً للقتال[٧]. وتدل هذه البينة على أنه كان منهم أفراد يميلون لهذه الحياة فانضموا الى صفوف التركبول، وأن منهم جماعات معينة تميل لحياة الحرب كالموارنة. أما الباقون ومنهم أولئك الذين كانوا في القدس في العام ١١٢٤، فربما نهضوا للقتال في خضم الأزمة، ولكنهم لم يكونوا مصدراً للمعونة العسكرية لأنهم طائفة لها كيانها كما يقول دودو، ولم تكن الفائدة التي قدموها في الحرب تتناسب مع تلك الطائفة.

---

١) دودو ص ٢١١ نقلاً عن ابن الأثير.

٢) وليم الصوري ص ١٠٧٧، جاكوب دوفيتياغو ص ١٠٩٣.

٣) فلتشر ص ٤٦٠.

٤) كاتب مجهول ص ١٦٤.

٥) التركُبول: جندي خفيف التسليح في طائفة فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) في القدس وهم من شبان الترك على الأغلب (أنظر معظم وبستر ــ م. م).

6) Infra, P. III

7) WT, P. 1091; JV, P. 1089. 'Prorsus imbelles et praeliis velut mulieres nutiles.

٤ ــ المسلمون

من المرجح أن غالبية مواطني كل دولة من دول اللاتين كانت من المسلمين. وكانت طريقة التعايش modus vivendi معهم ضرورة من ضرورات الإستيطان فيها. وثمة أسباب كثيرة تجعل من المحال أن تكون العلاقة بينهم وبين الفرنجة مشفوعة بروح الحرب المقدسة[١]. إذ أن الاضطهاد والظلم ــ كممارسة ــ سياسية يتطلبان وجود عدد كبير من الإداريين بينما كان عدد المستوطنين الفرنجة قليل. لذا كان استغلال الفلاحين المسلمين ضرورة اقتصادية لأصحاب الإقطاعات من الأراضي. وقد جَرَّ هذا التعامل اليومي وراءه نوعاً من التعاطف والتفاهم. ولما كانت الحرب الهجومية والدفاعية ضد الدول المسلمة المجاورة تتطلب غالباً حشد جميع القوى تحت تصرف الفرنجة، ولم يكن لديهم من يخلفونه وراءهم ليضطهد أتباعهم ورعاياهم، فقد كانوا مضطرين على ما يبدو لأن يتركوا للمسلمين ــ تماماً كما كانوا يفعلون مع السوريين المسيحيين ــ جانباً لابأس به من الحقوق والإدارة الذاتية، وأن يمنحونهم حرية التمتع بتقاليدهم وعاداتهم الخاصة. إن المصدر الرئيسي للمعلومات حول هذه المسألة هو ما سجله ابن جبير في رحلته التي قام بها من دمشق الى عكا في العام ١١٨٤[٢]. فقد لاحظ في طريقه ما بين تبنين والساحل أن المسلمين كانوا يدفعون للفرنجة نسبة من نتاجهم السنوي الى جانب ضريبة الرؤوس وضريبة أشجار الفاكهة. وفيما عدا ذلك كان هؤلاء أسياداً في موطنهم ويديرون شؤونهم وفق ما يشاؤون[٣].

ويضيف ابن جبير «أن معظم المزارعين المسلمين كانوا راضين عن أمنهم ومعيشتهم في ظل الحكم الفرنجي الذي وجدوا فيه عدالة أكثر من حكم بعض أمراء المسلمين[٤]».

لقد عدّت الفقرات التي ساقها كتاب «تصنيف مؤرخي الحروب الصليبية»

1) Duncalf, Report of Amer. Hist. Ass. I (1914), P. 137.

2) In RHC, Hist. or. III. PP. 445-56.

٣) المصدر السابق ص ٤٤٨.

4) RHC. Hist. or. III, PP. 448.

Recueil des historiens des croisades مترجمة عن مؤلف ابن جبير دليلاً له قيمته الخاصة على تضامن المجتمع السوري لأنه يشير الى أن المسلمين كانوا سعداء لكونهم أفراد في ذلك المجتمع أكثر من كونهم رعايا حكام مسلمين . هنا أيضاً لم تؤخذ في الاعتبار ، بدرجة كافية ، تلك الحدود التي يقف عندها الدليل . إذ أنها جاءت نتيجة ملاحظة رجل واحد في مجال ضيق ووقت قصير . وقد يجد مسلم آخر دليلاً يثبت العكس تماماً[١] . وكان الأولى أن نستخلص من الفقرات المقتبسة عن كتابة ابن جبير أن بعض الفرنجة لم يكونوا يضطهدون أتباعهم من المسلمين وأن كثيراً من المسلمين كانوا مرتاحين للحكم الفرنجي وموالين له . أما أن نمنح كلمات الرّحالة تلك القيمة الأساسية وأن نستنبط منها أن جميع المسلمين في الدويلات اللاتينية كانوا يفضلون حكم الفرنجة على حكم امرائهم وأتابكتهم فأمر لا يتفق مع قواعد النقد الموضوعي وفيه كثير من المبالغة . ومن الطبيعي أن نفترض أن كثيراً من المسلمين داخل الدويلات اللاتينية لم يكن لينسى أن الفرنجة أجانب وغرباء وكفار ، وأن منهم من حافظ على ارتباطاته مع الدول المسلمة المجاورة وكان يتطلع الى اليوم الذي سوف تعود فيه سورية الى ظل الاسلام[٢] . وربما كان أكثرهم قد رضي بالبقاء مذعناً للفرنجة ، ولكنه ظل في ذاكرته يعي ما تفرضه عليه واجباته كمؤمن ومواطن وعندما يدعوه الى ذلك قائد مسلم ناجح . فإذا كانت الظروف على هذه الحال فلن تكون للعدالة أو الأمن

---

١) كمال الدين ص ٦٢٥ .

٢) ومن ذلك سلوك قاضي جبلة منصور بن نبيل . وكان هذا القاضي مسموع الكلمة عند بوهمند صاحب أنطاكية وله الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها ومن يتبع بوهمند منهم ، فحمتله غيرته للدين على قصد صلاح الدين وهو محاصر لحصن الأكراد (ربيع الآخر سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٤ م) ودعاه لفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية . فسار صلاح الدين معه واستولى على طرطوس دمرقيه . وسبقه القاضي إلى جبلة فدخلها ، ولما وصل صلاح الدين رفع القاضي أعلامه على سورها وسلمها إليه في ثامن عشر جمادى الأولى . وتحصن الفرنج الذين بها في القلعة ، فما زال القاضي يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأخذ رهائنهم ، إلى أن يطلق بوهمند رهائن المسلمين من أهل جبلة ، وكان قد أخذهم عنده في أنطاكية ... (ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ١٩٠ — ١٩١ ، مم) .

اللذين ربما تحلى بهما حكم الفرنجة أية أهمية، لأن العداء المكشوف أو المستتر، الذي يكنه لهم أتباعهم المسلمون، كان دائماً أحد الاحتمالات القائمة وعاملاً لا بد للفرنجة من أخذه في الاعتبار عندما كانوا يقررون سياستهم العسكرية. تلك كانت في الواقع الخلفية التي تقوم عليها العلاقات بين الفرنجة والمسلمين كما توضحها سلسلة الحقائق الساطعة.

برز الخطر الكامن على الدويلات اللاتينية من أتباعها المسلمين منذ العام ١١١٣، عندما حقق مودود أمير الموصل أعظم نجاحاته ضد الفرنجة. وكان مودود قد غادر مدينته الموصل قبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ بعد أن استنهضه السلطان السلجوقي ليقود غزواته في سورية اللاتينية (!) خلال هذه الفترة. وفي العام ١١١٣ انضم مودود الى الأتابك طغتكين أمير دمشق في غزوة قاما بها معاً على فلسطين نتيجة لعلاقاتهما الحميمة، التي توطدت بينهما قبل عامين من ذلك التاريخ. واستطاع المسلمون هزيمة جيش القدس بقيادة بلدوين الأول قرب جسر الصنّبرة[١]. لم يتحطم جيش الفرنجة تماماً إلا أنهم اضطروا الى التقهقر نحو موقع مرتفع الى الغرب من بحيرة طبرية حيث مكثت قوات مودود ترقبهم عن كثب. ولم يجرؤ بلدوين على مغادرة الموقع الذي اختاره حتى بعد وصول التعزيزات من أنطاكية وطرابلس. وبينما كانت القوتان تتربصان إحداهما بالأخرى تحركت مفرزة من جيش المسلمين عبر جبال السامرة واجتازت نابلس. إن أفضل المصادر المعاصرة لهذه الأحداث هي ما كتبه فلتشر Fulcher وابن القلانسي، ويشير كلاهما الى أن الفلاحين المسلمين في أواسط فلسطين أقاموا علاقات طيبة مع القوات المنتصرة[٢]. وليس ثمة ما يثير العجب أنه بعد جيلين من الزمان استخدم وليم الصوري ما سجله فلتشر عن تلك الأحداث مصدراً من مصادر تاريخه وأضاف إليها الفقرات التالية

١) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث أنظر غروسيه Crousset المجلد الأول ص ٢٦٨ وما يليها.

٢) أنظر فلتشر ص ٤٢٧، ابن القلانسي ص ١٣٩. RHC, Hist. or. III, PP. 447-8.

« Nulla enim Pestis efficacior ad nocendum quam famliaris inimicus »[1] . « ما من عدو أسوأ من العدو المقيم بين ظهرانيك » . ودلت الأحداث التي جاءت بعد ذلك على أنه فعل ذلك لأسباب وجيهة . فبعد معركة حطين في عام ١١٨٧ أخلى الفرنجة منطقة نابلس بعد ثورة قام بها الفلاحون المسلمون الى جانب صلاح الدين المنتصر[٢] .

يسجل وليم الصوري مناسبة أخرى استجار بها المواطنون العرب بالسلاجقة في منطقة يحكمها الفرنجة . ويبدو أن فلاحي العويره Ouaira بالقرب من البتراء قاموا بهذه الخطوة في العام ١١٤٤ أو عام ١١٤٥ ، فنزل الأتراك في القلعة هناك[٣] وبادر الملك الشاب بلدوين الثالث على الفور الى تجهيز قوة وسار على رأسها الى مسرح الأحداث ونجح بعد حصار قصير في طرد الأتراك منها . ومنذ ذلك الحين أصبحت القلعة مقراً لحامية فرنجية قوية بعد أن زودت بالمؤن والمخزونات الوفيرة .

كان توظيف الفرنجة للمسلمين في مناصب جديرة بالثقة أحد الشواهد التي يستدل بها على وجود « شعب فرنجي ــ سوري واحد » . إلا أن ثمة شواهد أخرى تدل على أنه لم يكن باستطاعة المسلمين تناسي نداء العقيدة والتراث المشترك ، مهما كانت العلاقات وثيقة بين الشعبين ، وأن ذلك جدير بأن يشدهم الى المسلمين الذين يهاجمون الدويلات اللاتينية من الخارج . فتصرف قاضي جبلة الذي سجله ابن الأثير غني عن التعريف[٤] . وكذلك ما كتبه سليمان بن داوود الذي نشره كاهن Cahen

---

١) وليم الصوري ص ٤٨٦ . أنظر كذلك القصة الطريفة التي رواها ابن جبير في كتابه .

٢) أنظر « العماد » .Al-Imad in RHC, Hist. or. IV, 301-2

٣) أنظر وليم الصوري ص ٧١٢ ــ ٧١٣ .

٤) ابن الأثير ص ٧١٧ . كان القاضي خادماً موثوقاً لدى بوهمند أمير أنطاكية فجعل منه ما يمكن أن يسمى وزيراً لشؤون المسلمين في أمارته حسب قول غروسيه (م . م ص ٨٢٥ "Une sorte de ministre des affires musulmanes dans la principauté" . ورغم ذلك شدّته « غيرته على الدين » إلى صف صلاح الدين الذي كان قد شرع يغزو أراضي طرابلس . وعندما أكد له القاضي أن جبلة واللاذقية ومدناً أخرى في الشمال سوف تستسلم لجيشه هاجم صلاح الدين أمارة أنطاكية ، وتلت ذلك حملة الصيف المظفرة في العام ١١٨٨ . أنظر كذلك « العماد » .

منذ فترة[١]. إن قصصاً من هذا القبيل مع الشواهد التي أشير اليها تدل على أن الأعداء المستأنسين «familiaris inimicus» كانوا يشكلون خطراً جاثماً وبخاصة عند نجاح الغزو الاسلامي، وكان هؤلاء عاملاً له أهميته في الموقف العسكري للدويلات اللاتينية. إذ لم يكن في وسع الفرنجة منح ثقتهم الكاملة لأي من الشعوب الخاضعة لهم، والتي كانوا يخشونها أعظم الخشية عندما تنحط فاعليتهم العسكرية بسبب الفقر أو الزعامة المتخلفة أو الهزيمة في ميدان القتال. وثمة مثال على هذا الوضع يقدمه والتر Walter مستشار روجر أمير أنطاكية، الذي فقد جيشه وحياته في العام ١١١٩ في معركة ساحة الدم ضد الأتراك بقيادة إيلغازي. ففي تلك المعركة كانت خسائر الفرنجة باهظة جداً. وكانت المدن والقلاع في تلك الامارة قد بعثت بحامياتها للإنضمام الى الجيش وتضاءل عدد السكان الفرنجة في أنطاكية بعد الهزيمة الى درجة الخطورة. فألقي عبء الدفاع عنها على عاتق رجال الإكليروس الذين يقودهم بطريرك اللاتين. وكان الخطر يحف المدينة من الخارج بجيش المسلمين المظفر، ومن الداخل باحتمال وقوع خيانة بين السكان الوطنيين[٢]. ولذا فقد تم نزع السلاح من جميع الناس باستثناء الفرنجة، ومنعوا من الخروج من دورهم ليلاً بدون مشاعل[٣]. وتولى رجال الإكليروس اللاتين والرهبان والمدنيين من الفرنجة الحراسة الدائمة فوق أسوار المدينة وأبراجها وبواباتها حيث كان يزورهم البطريرك مع حرسه المسلح ليلاً نهاراً. وقد ظلت المدينة على هذه الحال حتى وصلها الملك بلدوين الثاني. إن الإجراءات التي

---

١) أنظر كاهن Cahen في كتابه « سورية » (١٩٣٤) الفصل الخامس عشر ص ٣٥١ — ٣٦٠. ومن المرجح أن سليمان ولد في القدس وخدم بعد ذلك الخليفة الفاطمي في مصر. وبعد ذلك عاد إلى فلسطين ليصبح طبيباً للملك آملريك. وخلفه أحد أبنائه في هذا المنصب، بينما أصبح ابن آخر له معلماً للفروسية للأمير بلدوين (الملك بلدوين الرابع بعد ذلك). وقد قامت بين هؤلاء خلال خدمتهم صلات وثيقة مع عيسى أحد مستشاري صلاح الدين. وأرسلوا رسالة إلى صلاح الدين بالذات. وبعد أن فقد الفرنجة القدس في عام ١١٨٧ ظلت الأسرة في خدمة الأيوبيين.

2) Galt, P. 95:'. . . iam destituto militari officio et iam paene toto amisso Francorum civium auxilio, ea vice in clerum necessario totum redactum exstitit, ita, inquam, ut multo acrius timerent interiorum hostium proditione falli quam vi exteriorum ullo modo intrinsecus posse comprimi.'

٣) المصدر السابق.

اتخذها البطريرك والظروف التي وصفها «والتر» لهي أفصح بيان عن الأساس المتقلقل الذي كان يقوم عليه الحكم اللاتيني في سورية.

٥ ـ الاستيطان اللاتيني

يحق للمرء أن يتساءل الآن فيما إذا كانت الحرية التي أتيحت للمسيحيين والمسلمين السوريين لتدبير شؤونهم نتيجة لسياسة «مستنيرة» تنطوي على الثقة التي كان باستطاعة الفرنجة منحها لأتباعهم، أو أنها دليل على تلاحم العناصر الغربية والشرقية في مجتمع واحد له قوته الذاتية الخاصة به. مما لاشك فيه أنه كان في وسع الفرنجة الاعتماد ـ على الأقل ـ على الولاء السلبي لمعظم السكان الذين يخضعون لحكمهم، ولم تشاهد سوى حالات نادرة كشف العداء المستتر فيها عن نفسه، عندما كان الغازون المنتصرون يهددون الدويلات اللاتينية. ولكن هذا لايشكل سوى جزء من الإجابة عن ذلك التساؤل، ولا بد أن يكون السبب الهام والأكثر التصاقاً بالقضية هو ضآلة عدد الطبقة الاقطاعية الحاكمة والفروق اللغوية والسلوكية التي تفصلها عن رعاياها من سكان البلاد الأصليين. إذ أن إحلال أعراف بديلة محل الأعراف المحلية في إدارة القرى، يقتضي وجود طبقة من الإداريين أوفر عدداً مما كان لدى الفرنجة ناهيك عن تفاقم الصعاب التي تواجه تلك الطبقة بسبب اختلاف اللغة. أما ترك المجتمعات المحلية تمارس أعرافها الخاصة فليس مجرد سياسة «مستنيرة» فحسب، وإنما كان محافظة على اعتبارات متعارف عليها في القرون الوسطى[١]. وهو أفضل ممارسة سياسية عملية وأكثرها اقتصاداً بالقوة البشرية[٢].

ثمة أسباب أخرى جعلت من تبديل التقاليد المحلية أمراً لاضرورة له. فقد كانت احتياجات الطبقة الاقطاعية تنحصر مبدئياً في استغلال الناس الخاضعين لحكمها اقتصادياً. وكانت هناك سمة بارزة تسم التنظيم الاجتماعي لشعوب غربي آسيا منذ قرون عدة، قبل بدء الحملة الصليبية الأولى، فحواها أن الفلاحين والمزارعين

---

1) Cahen, Syrie du Nord, PP. 330-1.

2) Chalandon, Première Croisade, P. 301.

اعتادوا تقديم قسم من انتاجهم، أو دخلهم الذي يجنونه من بيع المحصول، الى جابي الضرائب أو المالك الذي ينتسبون إليه مؤجرين للأرض. وكانت الحكومة المركزية تمنح فرداً من الأفراد حق الانتفاع بملكية ما، أو امتياز إدارة منطقة ما مقابل تقديم مبلغ سنوي متفق عليه الى بيت المال. وكانت هذه الامتيازات تمنح غالباً الى العسكريين، حتى جرت العادة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر على تمليكهم المقاطعات أو تكليفهم بتصريف شؤونها مقابل خدماتهم العسكرية فقط، وقد أصبح ذلك عرفاً شائعاً في إدارة الامبراطورية السلجوقية آنذاك[1]. وكان ذلك أحد الظروف المؤاتية والملازمة لنظام الإقطاع يتفق مع ما أكده بونيو Beugnot ــ منذ قرن مضى ــ على أن سورية كانت في العام ١١٠٠ جاهزة لتقبل التقاليد الإقطاعية، وفيه الكثير من الحقيقة[2]. لأن المزارعين كانوا يرون فيما يقدمونه الى الحكومة أو الى مالك الأرض التزاماً أساسياً إزاء السلطة. وهكذا ترك تصريف الكثير من الشؤون المحلية في يد المجتمعات القروية. وظلت مبدئيات هذا الترتيب قائمة بدون تعكير من جانب الغزاة المتعاقبين على حكم سورية ودلتا وادي النيل، وهذا ما يفسر الى حد بعيد سبب بقاء جماهير السكان الريفيين دون حراك، عند حدوث عنف أو تبدلات مفاجئة في الأحداث السياسية، وما يليها من تبدل الأسياد[3].

تشير الدلائل المتوفرة جميعاً الى أن الفرنجة، كفئة حاكمة، لم يكونوا يبدلون ما نهج عليه سابقوهم[4]. والمرجح أنهم حافظوا على نظم المحاسبة والتسجيل التي وجدوها قائمة[5]. كما ظل إقطاع الأراضي من السادة الى أتباعهم جزءاً أساسياً من

1) See infra, Chapter IV.

2) Beugnot, 'Memoire sur le régime des terres dans les principautés fondées en Syrie par les Francs' in BEC, IV, sér. 3, P. 543; Cahen, 'Notes sur l'histoire des croisades et de l'orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg (1951), 286-310; Cahen, Syrie du Nord, P. 193.

3) Cf. Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, P. 18.

4) Cahen, loc. cit. P. 309.

5) La Monte, Feudal Monarchy, P. 167.

العلاقات الاقطاعية كما كان شأنها في أوربا، إلا أن هؤلاء لم يكونوا ينتفعون من ممتلكاتهم باستثمار الأرض المقطعة لهم عن طريق خدمات العمل التي يقدمها أقنان الأرض غير الأحرار[1]، وإنما بتحصيل إيجار سنوي نقداً أو عيناً من هؤلاء الأقنان، كما كانت تفعل الفئات الأخرى التي كانت تسود سورية قبلهم[2]. وتلفت النظر هنا نسبة الاقطاعات والمنح الكبيرة، والتي لم تكن على شكل أراضٍ فقط، وإنما على شكل أموال نقدية، أو امتيازات مالية أيضاً، وكانت تفرض على البدو الرحل[3]، أو تحصل من الجزية على الأراضي التي يتم تقاسمها مع الحكام المسلمين في مقابل الحصول على دخلها في أحيان كثيرة[4]. ويبدو من خلال المعلومات المتوفرة حالياً، وبالاستناد الى الحقائق التي ذكرت، أن الحكام الفرنجة في سورية كانوا يطبقون نظاماً يؤمن لهم ريعاً يجنونه من السكان المحليين ويتركون لهم قدراً لابأس به من الحرية في ترتيب شؤونهم المحلية.

وبالتالي فإن السياسة «المستنيرة» هذه كانت أكثر السياسات صلاحية على ضوء المتطلبات الاقتصادية للطبقة الحاكمة والصعاب التي كانت تواجه الأرستقراطية العسكرية في إدارة شعب خاضع لها. وقد يحق لنا أن نعتقد مع بونيو وكاهن أن تأسيس الدويلات اللاتينية، من الناحية الاجتماعية، لم يكن يعني أكثر من حلول طبقة عسكرية حاكمة محل أخرى. إذ يقول كاهن: «كان زعماء الأتراك هناك غرباء من حيث العرق أيضاً، ويختلفون باللغة أحياناً، وكذلك زعماء الفرنجة، وكانت الترتيبات التي يتخذها هؤلاء الزعماء فيما بينهم غير هامة أبداً للحياة اليومية التي هي الحياة الأساسية».

---

1) La Monte, Feudol Monarchy, P. 171, n. 2; Cahen, Bulletin (1951), P. 297.

2) Beugnot, in BEC, v, sér. 3 (1854), 421; Rey, Colomies, P. 243; Chalandon, Première Croisade, P. 301. It was usual for the landlord to take a proportion, often between a quarter and a half of the peasants' crops. See Cahen, Bulletin (1951), P. 300.

3) On the money fief see La Monte, Feudal Monarchy, P. 144. On gifts and gtrants of Bedouin see Regesta, nos. 174, 355, 366, 562, 567, 593.

4) Ibn Jubair, RHC, Hist. or. III, P. 446; IQ, PP. 93, 106 113; KD, P. 651.

«Chefs turcs là, etrangers de race et parfois de langue, eux aussi, chefs francs ici, que ces chefs s'arrangent entre eux cela n'importe guèreà la vie quotidienne, qui est presque toute la vie.» [1]

كانت مكانة الطبقة الفرنجية الحاكمة مؤلفة من الارستقراطية العسكرية ومركزها سورية، وهي تشابه في كثير من النواحي مكانة النورمان في انكلترا، في الجيل الأول بعد العام ١٠٦٦. ومن أبرز أوجه التشابه اعتماد كلتا الفئتين على قلاعها للحفاظ على ما استولتا عليه. ويلقي هذا الاعتماد ضوءاً أكثر على طبيعة الاستيطان اللاتيني. وقد تناول العديد من مؤرخي فن العمارة العسكرية دراسة هذه المنشآت، التي استولى الفرنجة على قسم منها، وابتنوا لأنفسهم القسم الآخر، وهي من أعظم الصروح التذكارية الآبدة. ورغم الدراسات المكثفة، فإن الباحثين لم يولوا الغاية من امتلاك القلاع ووظيفتها الاهتمام الذي تستحقه، وكان معظمهم يفسر ذلك على أنها تؤمن الدفاع عن الحدود. إلا أن ذلك لا يعدو في الواقع جزءاً من الحقيقة المعروفة، لأن الدفاع عن الحدود لم يكن سوى مهمة واحدة من المهام التي تؤديها قلعة ما، أو مجموعة قلاع، دون أن تستطيع القيام بها على الوجه الأكمل. إذ كانت القلاع تؤدي مجموعة مختلفة من الوظائف ربما كانت أكثر فاعلية من مهمة الدفاع تلك. فاستخدم

---

١) أنظر كاهن « سورية » Cahen, Syria, XV (1934) 359 . وتحتاج هذه المسألة إلى بحث أكثر، نظراً لأن كاهن بالذات يشير إلى وجهات نظر مماثلة في النشرة الصادرة عام ١٩٥١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ حيث يقول (ces facts) Suggèrent, sous resérve de vérification, que l'établissment de la domination franque n'a pas dû se Traduire, pour les paysans indigènes, par un grand bouleversement. Une classe supérieure nouvelle se substitue à l'anciènne pour se superposer à la société rurale antérieure; ignorante des conditions du sol elle s'en remet naturellement à cette soeiété du soin d'en continuer l'exploitation. au profitdes novueaux maitres, mais selon ses propres traditions

ومعنى ذلك « كل هذه الوقائع توحي — مع التحفظ في التحقيق — بأنه لا يجوز تفسير إقامة ممالك الفرنجة بالنسبة للفلاحين المحليين على أنه انقلاب كامل للأوضاع، وكل ما هنالك أن طبقة حاكمة جديدة حلت محل القديمة في سيطرتها على المجتمع الريفي السابق، وهي جاهلة لظروف الأرض، إلا أنها التصقت بذلك المجتمع لتضمن استمرار الاستثمار لصالح السادة الجدد ولكن ضمن تقاليده الخاصة » .

بعضها في الهجوم أيضاً ، وكان لها شأن بارز في استيلاء اللاتين على أنطاكية وطرابلس وصور وعسقلان[1]. في حين استخدمت بعض القلاع في شرقي الأردن وجنوبي فلسطين لترسيخ السيطرة اللاتينية على مناطق ذات أهمية استراتيجية، وتحولت بالتالي الى مراكز للاستعمار والتطوير الاقتصادي[2]، كما استخدمت مقرات للإقامة ومراكز إدارية وثكنات للجند ومخافر للشرطة[3].

إضافة الى ذلك كانت تلك القلاع مراكز للسلطة. وكان قائد القلعة وحاميتها، السيد المطلق للمقاطعة المحيطة بها، وتحت تصرفه من الوسائل الدائمة ما يستعين به على مواجهة كل تحد لسلطته. وكانت الأبنية المحصنة في تلك المنشآت ــ حيثما وجدت ــ تشكل القاعدة الأساسية التي يمكن ممارسة السلطة انطلاقاً منها أو التحصن والاحتماء فيها. وكانت القلاع في سورية ــ شأنها في انكلترا ــ مهيأة لمقاومة الحصار الذي يفرض عليها بين الفينة والفينة، إلا أنها كانت تقوم باستمرار بوظيفة المقر الطبيعي لسيد المنطقة. وهنالك مناسبة واحدة على الأقل اضطر فيها الفرنجة تحت إلحاح الضرورات الإدارية الى تشييد قلعة. ففي عهد الملك بلدوين الثاني، واجه الفرنجة صعوبات جمة في جمع المداخيل المفروضة على المزارعين المسلمين في جبال لبنان المطلة على بيروت، فوجدوا الحل في إقامة قلعة فوق المرتفعات المطلة عليها «Mons Glavianus»[4]. كذلك كانت تصادف صعوبات أخرى مماثلة في المناطق التي يتقاسمها الفرنجة والمسلمون. إذ كان اقتسام تلك المناطق يتم دائماً، على

---

١) سوف نتناول بتفصيل أكبر الدور الحربي للقلاع عند الصليبيين في الفصل السابع من هذا الكتاب.

٢) أنظر المقال الهام الذي كتبه د. ج. براور Dr. J. Prawer, 'Colonization activities in the Latin Kingdom of Jerusalem' in Revue XXIX (1951), 1063-118. Also R.C. Smail, 'Crusaders' Castles of the Twelfth Century' in Cambridge Historical journal, X (1951), 133-49.

٣) شيد معسكر أرنالدي Castrum Arnaldi على الطريق القادم إلى القدس من الساحل "ad tutelam X transeuntium peregrinorun". WT, P. 617.

4) Fulcher, P. 473,'. . . et quia ruricolae Sarraceni tributa locorum reddere antea nolebant, postea vi cohibiti reddibiles exstiterunt'.

ما يبدو ، في مقابل ريعها[1]، وكانت جباية الرسوم من المزارعين المسلمين المتبرمين بها مشكلة من المشاكل الادارية التي تعترض الفرنجة ، لأن وجود الدولة الإسلامية المجاورة التي يتقاسم الفرنجة الريع معها يعد عاملاً مشجعاً على التمرد . وقد وصف وليم الصوري صورة لهذا الوضع في السواد as-Sawad ، حيث وجد الفرنجة الحل لهذه المشكلة أيضاً بأن أدخلوا عنصر القوة الضروري لبسط نفوذهم بإقامة قلعة أو وضع حامية مقيمة هناك[2]. وربما كان أكثر الأمثلة إثباتاً لذلك ما حدث في الداروم Darum[3] التي وصف وليم الصوري تأسيسها على يد الملك أملريك ، فكتب يقول :

«Condiderat autem rex ea intentione praedictium, ut et fines suos dilataret et suburbanorum adjacentium, quae nostri casalia dicunt, et annuos redditus, et de transeuntibus statutas eansuetudines plenius et facilius sibi posset habere »[4]

وليس في هذه العبارات ما يشير الى الدفاع عن الحدود[5]. فالقلعة توسع من حدود المملكة فتضع منطقة جديدة تحت سيطرتها . وهي مركز إداري يمكن الملك

---

١) أنظر أعلاه ص ١٠٥ وكذلك Beyer, ZDPV, 67, PP. 214,234.

2) WT, P. 1090, 'nam cum praedicta regio hostium magis esset contermina finibus, quam nostris, et ipsi eam facilius pro suo possent tractare arbitrio, et ejus habitatoribus confidentius imperare, hujus tamen praesidii beneficio multis annis obtentum fuerat, et obtinebatur nihilominus in praesenti, quod nostris et illis ex aequo dividebatur potestas, et tributorum et vectigalium par fiebat distributio'.

٣) الداروم .... قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر . الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ . خرج منها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ هـ ... غزاها المسلمون سنة ١٣ هـ وملكوها ... ويقال لها الدارون أيضاً ... معجم البلدان ، ٢ ص ٤٢٤)

٤) وليم الصوري ص ٩٧٥ . ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن وليم الصوري كتب ما كتبه بصفته مستشاراً للمملكة وأسقفاً وسفيراً إلى عمانويل كومنين . وكان متفهماً لدوافع السياسة الملكية .

٥) يربط دو شامب تشييد قلعة الداروم باحتياجات الدفاع عن الحدود ، أنظر قلعة الحصن Le Crac ص ١٩ و Defenseص ٢١ .

من تنظيم جمع الرسوم بسهولة وفاعلية أكبر ، سواء من الفلاحين في محيط القلاع أو من البدو الرحل، أو من القوافل التي كانت تجوب المنطقة أو تجتازها[١] .

أقيمت ممتلكات الفرنجة الى حد ما بعزائم إقطاعييها ، ولكن وجودها ظل يعتمد الى حد بعيد على ما كانوا يملكون من أماكن حصينة . وبخاصة عندما أخذت الدويلات اللاتينية تتعرض للغزو المنظم ، ولم يعد باستطاعة قلاع القرون الوسطى رد الهجوم عن حدودها . حتى أن الجيوش الإسلامية توغلت عميقاً لمرات عديدة داخل الدويلات خلال ذلك القرن وكان الفرنجة يفقدون سيطرتهم مؤقتاً على المناطق التي كان يجوسها المسلمون أو يستولون عليها . خير تمثيل لممتلكاتهم على الخريطة ، في الوقت الحاضر ، ليس تصويرها منطقة يحيط بها خط حدود وإنما سلسلة من النقاط الحاكمة على شكل أماكن محصنة . فإذا لم تكن هنالك قوة ميدانية تهدد الفرنجة كان هؤلاء يكتفون بشريط ضيق من الأرض لائذين بأسوارهم ،
« Ut Extra Moenia Memo Prorus auderet Comparere » [٢]

٦ ــ الاستنتاجات

تأثرت طبيعة الاستيطان اللاتيني بالطرائق العسكرية التي كان الفرنجة يطبقونها . ومهما كانت المعلومات التي تتوفر لدينا حول ذلك الاستيطان فإننا نجد تفسيرين مختلفين جداً لتلك الحقائق ، ينص أولهما على أن الفرنجة تلاءموا مع محيطهم

---

١) يذكر المؤرخون مقتنعين بأن الطريق الساحلي الذي يربط غزة بمصر كان يستخدم طريقاً للقوافل أثناء الاحتلال اللاتيني . أنظر Rey, Calonies Franques, P. 255. و Dodu, Instituions, P. 239 ، و Derenbourg, Vie d'Ousâma P. 204 إلا أن الدليل الوحيد في القرن الثاني عشر هو ما ذكره وليم الصوري في الفقرة المذكورة أعلاه . أما بوركارد مونت سيون Burchard of Mount Sion الذي أخذ عنه راي فلم يعرف سورية حتى العام ١٢٨٣ . وبوركار هذا صاحب مرتفع صهيون .

٢) أنظر وليم الصوري ص ٤٨٦ و ٧٨٤ ، وكذلك فلتشر ص ٤٢٧ . ويلاحظ هنا الموقف الذي وصفه وليم الصوري في الصفحة ١٠٦٤ ، عندما لم يجرؤ كل من ريموند أمير طرابلس أو الطوائف الفرسانية العسكرية على الخروج إلى الميدان لمواجهة صلاح الدين خلال هجومه على كونتية طرابلس في العام ١١٨٠ . فطافت قوات صلاح المنطقة كلها دون أن يجابهها أحد .

الشرقي ، ومدوا جذورهم بين الشعوب التي حكموها . وكان نتاج ذلك ظهور مجتمع جديد له حياته الخاصة وتمازجت عناصره كافة تمازجاً تاماً ، وهو بعيد كل البعد عن التصنع ، أما المدرسة الأخرى فترى أن السمة الأساسية لتنظيم الدويلات اللاتينية هي تسلط طبقة أرستقراطية عسكرية صغيرة على جماهير السكان الوطنيين ، وأن هذه الطبقة الحاكمة استغلت الشعوب الخاضعة لها اقتصادياً عن طريق الترتيبات الاجتماعية التي وجدتها قائمة ، والتي كانت مماثلة لتلك المعروفة في أوربا . ولم تُدخِل هذه الطبقة من جانبها سوى تعديلات طفيفة على الحياة اليومية للسوريين .

ويبدو هذا التفسير الأخير متفقاً مع الحقائق أكثر من سابقه . في حين استخدم مادلان وغروسّيه الشواهد التي بين أيديهما بحماسة مفرطة ، ولم يعيرا اهتماماً يذكر الى الحدود التي تقف عندها هذه الشواهد ، وتجاهلا أهمية الحقائق الكثيرة التي تتناقض معها ، أو لم يقدراها حق قدرها ، وفاتهما بالتالي أن يدركا احتمال كون « الاستشراق » ، الذي تحدثا عنه ، قضية ظاهرية وسطحية نسبياً كان لها تأثيرها الخلاب على الظواهر لا أكثر ، نجد أن استنتاجات بونيو وكاهن تأتي أقرب الى حقيقة الواقع .

إذ أن الأمن والعدالة اللذين عرف بهما حكم الفرنجة حققا لهم طاعة المسيحيين والمسلمين السوريين وبعض ولائهم . ولكن نواحي الضعف في ذلك الولاء كانت تتكشف زمن الأزمات العسكرية . وكانت ارتباطات المسيحيين السوريين مع العالم الاسلامي حسنة فكان موقفهم في تلك الحرب المقدسة قريباً من الحياد (!) . إذ كانوا أصدقاء عرضيين «amici fartunae» يميلون حيث يكون الجانب المنتصر . وكان المسلمون يستجيبون ، بطبيعة الحال الى نداء العقيدة في الظروف المماثلة ، وينقلبون بقليل من التشجيع الى أعداء فاعلين ضد أصحاب السلطة من الفرنجة . لقد قام حكم الفرنجة على القوة وظل مستمراً على هذا الأساس . وكان اعتمادهم الأماكن المحصنة وحامياتها هو الملاذ الأخير لممالك الفرنجة ووسيلتهم الوحيدة لرد الغازين عنها . ويعد الحكم الذي أطلقه بروتز Prutz منذ زمن طويل على موقف الفرنجة العسكري إزاء مواطني الشعوب الأخرى أكثر الأحكام إثارة للضجة مع أنه لم

يناقش تلك المسألة . وكان ما قاله : « لم يكن الفرنجة يستطيعون الاعتماد على السكان المحليين عند تعرضهم لهجوم معادٍ ناجح . لذا كانت القلعة تخدم الفرنجة حيال مرؤوسيهم غير الموثوقين بالجودة نفسها التي تخدمهم في الدفاع ضد هجمات الاعداء المسلمين » .

«...Bei Franken namentlich lei einem siegreichen feindlichen Angriff sich auf die einheimische Bevolkerung nicht verlassen Konnlen», each castle gegen die unzuverlassigen Unterthanen so gut wie gegen die mahammedanischen Angriffe diènen musste »[1]

1) Prutz, Kulturgeschichte, P. 19.



الفصل الرابع

جيوش المسلمين



١ ــ المؤسسات السلجوقية في سورية !!

كان كل من واديي الفرات والنيل يشكل على مر التاريخ قاعدة امبراطورية. ولما كانت سورية هي الجسر الواصل بينهما، فقد تعرضت للغزو من كليهما أكثر من مرة. وفي القرن الثاني عشر كانت السيطرة على وادي الفرات في ظل الخلافة العباسية، التي كان سلاطين السلاجقة يتمتعون فيها بسلطة مؤقتة منذ العام ١٠٥٩. أما وادي النيل فكان تحت حكم الخلافة الفاطمية، التي تأسست في مصر منذ العام ٩٦٩. وكانت الخلافتان خلال القرن الثاني عشر تخوضان الحرب، بين الفينة والفينة، ضد الفرنجة، الذين تأثرت طرائقهم العسكرية بتنظيمات الجيوش التي توجه ضدهم وتكتيكاتها. إن هدف هذا الفصل هي دراسة الخصائص المميزة للجيوش الاسلامية التي كان لها أثرها على نشاط الفرنجة وسلوكهم في سورية.

من المسلم به أن نجاح الحملة الصليبية الأولى كان بفضل الشقاق المستعر بين الأتراك السلاجقة. إذ كان عهد سلاطينهم العظام من أمثال طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه قد انصرم بوفاة الأخير في عام ١٠٩٢. ولم تفشل هذه السلالة بعدهم في إنجاب شخصية مكافئة لأولئك السلاطين العظام فحسب، وإنما انصبت معظم طاقاتها على المنازعات في سبيل الإرث وعلى الحرب الأهلية. فوهنت، في هذه الظروف، سلطة السلاطين، التي كانوا يمارسونها على مؤسسات الدولة، وبخاصة على

إدارة الولايات التي تمنح اقطاعات الى الأمراء الكبار . وبما أن هذا العرف وثيق الصلة بالقسمين الأول والثاني من هذا الفصل فسنتناوله بالبحث هنا باختصار[١] .

كان الإقطاع ، أرضاً أو ريعاً ، يخصصه الحاكم لشخص ما . وكان معروفاً منذ أول عهد الاسلام بأنه نوع من المكافأة يمنح لقاء خدمات تقدم للدولة . وتختلف أشكال الإقطاع اختلافاً كبيراً ، كأن يعين المستفيد والياً على ولاية ما ويمنح صلاحيات تخوله الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية ، أو يمنح حق جباية الضرائب في منطقة تذكر في نص المنح مقابل مبلغ متفق عليه يدفعه الى الحكومة ، مع احتفاظه بما يبقى لنفسه ، أو يمنح راتباً سنوياً من ريع منطقة ما[٢] . وقد طرأت تطورات بارزة في أوائل عهد السلاجقة على نظام الإقطاع من حيث إضفاء الصفة العسكرية عليه militarization . فأصبح المستفيد يملك حق جباية كل المداخيل في المقاطعة الممنوحة له ، على أن يخدم في جيش الحكومة المركزية مقابل ذلك[٣] . فإذا كانت الإقطاعية هامة ، توجب عليه أن يصطحب معه فئة من الأجناد يتروح عددها أو حجمها حسب مقامه[٤] . ولقد ترسخ هذا النظام وطيداً بعد أن اعترف به نظام المُلك ، كبير وزراء ملكشاه ، وقبل به ومنحه الصفة الشرعية[٥] .

ظل عدد كبير من أنواع الإقطاع معمولاً به خلال العهد السلجوقي[٦] إلا أن

---

١) إن الفقرتين التاليتين تستندان إلى أبحاث س . هـ . بيكر ,Steurpacht und lehnswesen' in Der Islam V (1914), 81-92 وكتاب المؤلف نفسه Islamstudien, I, P. 243 ، وإلى مقالة « مصر » في الموسوعة الاسلامية بقلم الكاتب المذكور ، وإلى مقالة « إقطاع » 'Ikta في المصدر نفسه بقلم م . سوبرنهايم ، وإلى كتاب آ . ك . س . لامبتون ,Contribution to the study of Soljuq institutions thesis for Ph. D. London. 1939. ، أنظر كذلك هـ . آ . ر غيب في ابن القلانسي ص ٣٤ ، ولان بول ، صلاح الدين ص ١٥ .

٢) للاستزادة في أنواع الاقطاع المبكرة أنظر بيكر في كتابه Der Islam V, P. 84-6 ، وسوبرنهايم في موسوعة الإسلام م . ، ص ٤٦١ (مقال : « الاقطاع ») .

٣) أنظر بيكر Becker, Der Islam, V.P. 88

٤) أنظر Lampton, Ph. D. thesis, P. 245

٥) أنظر Sobernheim. Encye, Islam, II. P. 462, Becker, Der Islam, V, 89

٦) أنظر Lampton, Ph. D. thesis PP. 209-10, 219 وهو يناقش هنا خمس أنواع رئيسية .

الإقطاع الإداري كان أكثرها أهمية على الإطلاق للموقفين السياسي والعسكري في الامبراطورية السلجوقية. وكان هذا الإقطاع منحة عسكرية من الطراز المذكور أعلاه، ولكنه يشمل أعباء إدارة المنطقة المعنية. ويمكن القول إجمالاً بأن الشخص المُقطع هنا يمسك بزمام جميع سلطات الحكومة. وهو مرتبط بالحكومة المركزية بشخص السلطان فقط، الذي يملك وحده حق تعيينه أو عزله. وكان عليه أن يتعهد بالدعاء للسلطان على المنابر، وتجهيز قوة عسكرية تنضم الى جيوش السلطان عندما يدعو لذلك[1]. وكانت فاعلية تلك الروابط ووحدة الامبراطورية السلجوقية منوطتين بمقدرة السلطان على إرغام أمراءه الكبار على الالتزام بما تعهدوا به. الأمر الذي كان يتجاوز في كثير من الأحيان سلطة من خلفوا ملكشاه، وبخاصة في ولاية سورية البعيدة[2]، حيث يمكن إدراك أسباب الضعف السياسي للامبراطورية السلجوقية بوضوح على خلفية الإقطاع الإداري هذا[3].

برز الضعف العسكري من تلك الظروف عينها. إذ كانت جيوش السلاجقة في هذه الفترة تضع عنصرين اثنين: أولهما وجود قوة ضاربة تدعى «العسكر» تقوم بالمهام الروتينية وتنفذ العمليات الصغيرة، وهي مؤلفة من المماليك ومَنْ أُعتِق منهم.

---

١) أنظر Lampton, ifid PP. 228-9 حيث ذكرت شروط منح السلطان دمشق إلى طغتكين في العام ١١١٦ باختصار. وقد شملت سلطات طغتكين إدارة القضاء، وحفظ الأمن الداخلي، وشن الحرب، وفرض الضرائب وجمعها وتعيين الموظفين ودفع رواتبهم. وورد نص هذه الوثيقة في ابن القلانسي ولكنها حذفت من ترجمة غيب Gibb (ابن القلانسي ــ ص ١٥٣).

٢) أنظر Lampton, Ph. D. thesis PP. 16-17

٣) أنظر Gibb في « ابن القلانسي » ص ٣٤ . تبدو الحقيقة جلية في هذا القول في المصادر العربية التي تبحث في تاريخ الحروب الصليبية أيضاً. فكتابة ابن الأثير عن أتابكة الموصل هي تاريخ لإقطاعة إدارية كبرى وللأمراء والأتابكة الذين توالوا عليها، وأسماء معظمهم معروفة في تاريخ الدويلات اللاتينية فيتحدث ابن الأثير عن تعيين مودود أميراً للموصل في العام ١١٠٨ ــ ١١٠٩ وعن تعيين جيوش بك في العام ١١١٣، وعن تعيين آقسنقر البرسقي في العام ١١٢١، وعن تعيين زنكي في العام ١١٢٧، ويذكر في كتابه الكامل المناسبة التي طرد فيها السلطان جكرمش من الموصل ومنحها لجاولي سقاوة.

وثانيهما أن العمليات الكبيرة كانت تتطلب مساهمة حكام الولايات مع القوات التابعة لهم، وأية احتياطات أخرى يمكن تجهيزها، وكان أفراد القبائل التركمانية (!!) هم العنصر السائد بينها دائماً[1]. وعلى هذا النحو كان القوام الكامل لجيش السلطان يضم ــ الى جانب الاحتياطيين من رجال القبائل ــ الأمراء الكبار مع قواتهم التي كانت تتألف، أيضاً، من قوة دائمة يحتفظ بها الأمير والرجال الذين منحهم الأمير الأراضي أو عائداتها داخل إقطاعه الذي أقطعه إياه السلطان. وهكذا كان كل جيش كبير من جيوش السلاجقة مؤلفاً من قوات مركبة.

ثمة عامل أساسي كان له دوره في التاريخ العسكري للفرنجة في سورية، وكان له تأثيره الخاص على طرائقهم في خوض الحرب، هو أن جميع الحملات التي وجهت ضدهم، والتي هدفت الى طردهم نهائياً من الشرق، أو تقليص الأراضي التي يسيطرون عليها والى أقصى حد كانت محاولة طموحة تتطلب تجميع جيش ضخم. بينما كان الإغارات والغزوات المعاكسة تنفذ بقوات صغيرة، فلم تكن غارات تنكريد ضد شيزر، أو هيو كونت طبرية على السواد، أو بونز أمير طرابلس على البقاع، تحتاج الى فرسان الأسرة الحاكمة من الأمارة الفرنجية، وكان بإمكان «العسكر» الخاص بأمير مسلم واحد مواجهتها وردها، إلا أن تنفيذ العمليات الهجومية الاسلامية الهامة كان يتطلب حشد الكثير من تلك القوى ومساعدة الاحتياطيين من رجال القبائل.

ومن الملاحظ أن المدن والقلاع كانت أساس الممتلكات في سورية القرن الثاني

---

١) كان تبدل الحجم النسبي لهذين العنصرين في جيش السلاطين بعد وفاة ملكشاة سبباً من أسباب تقلص سلطة من خلفه من بعده ومظهراً من مظاهرها. ويقول لامبتون في رسالة الدكتوراه ص ١٦٨ ــ ١٦٩ «... في الوقت الذي تقلص فيه الجيش الضارب بعد موت ملكشاه أخذت تتفاقم قوة الأمراء العسكرية باستمرار ... وفي خاتمة المطاف أخذ السلاطين يزدادون اعتماداً على قوات الأمراء. إن هذا التبدل في القوة النسبية لجيش الحكومة المركزية وجيوش الأمراء أدى إلى خلق صعوبات جمة، ذلك أن القوة العسكرية كانت الضمانة النهائية للمحافظة على الامبراطورية السلجوقية الكبيرة، وبعد أن تخلى السلاطين عن إشرافهم المباشر على تلك القوة، وتركوها بين أيدي الأمراء اضطروا إلى الاعتراف باستقلال هؤلاء.

عشر، ولم يكن بالإمكان تحقيق كسب بالأراضي إلا بتقليص عدد مثل هذه الأماكن فيها . وكان الحصار بطبيعته عملية صعبة في عصر التحصينات القوية مع ضعف المدفعية ووسائط القصف. فإذا ما هددت المحاصير قوة ميدانية قادمة لتخفيف الضغط عن الحامية المحاصرة قد تصبح مشكلة الإبقاء على الحصار مسألة مستعصية الحل. وكما أثبتت أحداث العام ١١٨٧، فإن دحر جيش الميدان الفرنجي متبوعاً بتقليص نقاط الاستناد القوية كان نموذجاً للغزو الناجح. ويتطلب مثل هذا الإنجاز استخدام أكبر قوة عسكرية ممكنة وبخاصة إذا كانت الدويلات اللاتينية الأربع مستعدة للتضامن من أجل المحافظة على ذاتها. وباستثناء حالات قليلة كانت كل جيوش المسلمين التي انطلقت من العراقين أو من سورية لتدمير ممالك الفرنجة مؤلفة من قوات مركّبة.

كانت أكثر الجهود، التي بذلت لتحطيم الحكم الفرنجي في سورية، تصميماً تلك التي تمت ما بين العامين ١١١٠ و ١١١٥ وما بين العامين ١١٧٧ و ١١٨٨ . ففي الفترة الأولى كان الغزو بأمر من السلطان. وكانت الجيوش التي تجمعت تتألف من فرق عسكرية قدمت من المقاطعات الإدارية في الجزيرة وديار بكر، وكان الأمير المعين لأمارة الموصل غالباً هو القائد لتلك القوات. ولم يتول السلطان بنفسه قيادة هذه الجيوش إطلاقاً، وهنا بالذات تكمن نقطة الضعف الرئيسية . فمن المفروض أن تكون هذه القوات جزءاً من جيش السلطان كله، ولكنها بدون قيادته الشخصية لم تكن لتعدو تحالفاً بين عدد من كبار أتباعه[1]. وكانت عاقبة غياب الزعيم غير المنازع في غالب الأحيان إصابة العمل العسكري بالشلل.

---

١) آ — يمكن الرجوع إلى ابن الأثير ص ١٩٤، وابن العديم ص ٥٧٩ — ٥٨٠ للحصول على أمثلة عن الظروف التي ذكرت في هذه الفقرة . فالجيش الذي أرسل لنجدة أنطاكية في العام ١٠٩٨ كان بقيادة كربوقا أمير الموصل .

ويذكر ابن الأثير في الصفحة ذاتها تسجيلاً لمواقف الأمراء إزاء كربوقا، ولائحة بالفرق التي كان الجيش يتألف منها .

ب — يذكر ابن الأثير في الصفحة ٢٤٠، وابن القلانسي ص ٦٧ أن السلطان أقطع الموصل في العام ١١٠٧ لِـ جاولي سقاوة، وأمره بطرد الفرنجة من المناطق التي استولوا عليها .

لأن الأمراء لم يكونوا أبداً قادرين على التعاون فيما بينهم بنجاح ويتمردون دائماً ضد بعضهم بعضاً ، إذا لم تفرض عليهم السيطرة تامة . وهذا ما اعترف به واحد منهم على الأقل من رجال الدولة السلجوقية[1] وأثبتته الأحداث على نحو وافر . ولم يكن تدخل السلطان في شؤون سورية يهدف الى طرد الفرنجة منها فحسب ، بل والى تقليص نفوذ الأمراء المسلمين في هذه الولاية أيضاً . ولهذا كان حكام سورية المسلمون يرفضون غالباً التعاون معه . وحتى عندما كان يتم له ذلك تبقى خشيتهم على سلامة إقطاعهم ـــ كما كان شأن دقاق أو طغتكين ـــ مصدراً من مصادر الضعف .

لم تكن العلاقات بين الأمراء القادمين من خارج سورية على ما يرام في غالب الأحيان . ففي العام ١١٠٤ حقق سقمان بن أرتق وجكرمش نصراً كاملاً في حران على الجيوش المشتركة لأمارتي أنطاكية والرها الفرنجيتين . ولكن نجاحهما لم يأت بنتائج هامة لأنهما اختلفا فيما بينهما بعيد المعركة مباشرة حول اقتسام الغنائم[2] . وبعد سنوات ثلاث عين السلطان جاولي سقاوة أميراً للموصل وأمر بطرد الفرنجة من الأراضي التي احتلوها ، ولم يكن في وسع حاكم الموصل الجديد إطلاقاً قيادة مثل هذه الحملة لأنه كان مضطراً لتثبيت أقدامه في إقطاعه فيهزم جكرمش[3] ـــ الحاكم

جـ ـــ يذكر ابن الأثير ص ٢٨٠ وابن العديم ص ٥٩٥ ـــ ٥٩٦ وابن القلانسي ص ١٠١ أنه في العام ١١١٠ أمر السلطان بالقيام بأول مواجهة مضادة للصليبيين وعين مودوداً أمير الموصل قائداً للحملة ، فقاد فرق الكثير من الأمراء إلا أن الكتّاب لم يذكروا أسماءهم .

د ـــ يذكر ابن الأثير ص ٢٩٢ وفي كتابه أتابكة الموصل ص ٣٦ أنه في العام ١١١٤ أمر السلطان أمير الموصل آقسنقر البرسقي بمهاجمة الفرنجة . وكان جيشه يضم فرقاً من سنجار وماردين ومدن أخرى .

هـ ـــ للاستزادة عن غزوات المسلمين في العام ١١١١ و ١١١٥ أنظر فيما يلي ص ١٤٠ ـــ ١٤٨ .

١) ابن الأثير ص ٢٢٢ .

٢) ابن الأثير ص ٢٤١ ، ابن القلانسي ص ٧٦ .

٣) ابن الأثير ص ٢٤٧ ، ابن القلانسي ص ٧٩ .

السابق ــ في معركة في بادىء الأمر، ثم يجابه قلج أرسلان سلطان رومية (آسية الصغرى) بعد ذلك قبل أن يُطْرد هو نفسه بأمر من السلطان[1]. وخير مثال على الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في قيادة الجيوش الضخمة المرسلة لمواجهة الصليبيين خلال العقدين الأولين من القرن الثاني عشر هي الحملة التي نفذت في العام ١١١١، والتي سوف يتناولها التحليل في فصل مقبل[2]. إن مثل هذه الحقائق تدل على أن جيوش الأمراء السلاجقة، في أوائل القرن الثاني عشر، كانت مركّبة (مجمعة)، وبدون قيادة فاعلة، نتيجة للوضع السياسي للامبراطورية السلجوقية، ولوضع المؤسسات الحكومية التي أشير إليها سابقاً ولحجم القوى العسكرية التي كانت مطلوبة لتحقيق النصر على الفرنجة. وكان ينقصها التلاحم، كما كانت عرضة للتفكك والتشتت من تلقاء ذاتها. ولذا كان باستطاعة الفرنجة أن يجنوا ثمار الميزات الهامة لحملة دفاعية مظفرة، دون أن يعرضوا أنفسهم لمخاطر خوض المعركة، وهذا ما كانوا يفعلونه.

حدث تبدل كبير في المسرح السياسي السوري منذ العام ١١٢٨ عندما تملك عماد الدين زنكي حلب، واستمر حتى العام ١١٧٤ عندما توفي ابنه نور الدين. فقد أخذت سلطة السلطان وقدرته على التدخل في سورية تتقلصان باستمرار، وتحول أمراء سورية الى حكام مستقلين أكثر منهم حكام ولايات[3]. فبعد أن تمكن زنكي من إلحاق حلب بالموصل أصبحت له مصالح في سورية، وظهرت بوادر تدل على أن موقفه من السلطان يقترب من موقف رضوان أو طغتكين[4].

---

١) ابن الأثير ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨، ابن القلانسي ص ٨٣.

٢) أنظر فيما يلي الفصل السادس.

٣) أنظر .Lampton, Ph

٤) عندما هدد يوحنا كومنين باجتياح سورية في العام ١١٣٧، أرسل زنكي ممثلاً عنه إلى السلطان بطلب المعونة العسكرية. وما إن انزاح الخطر حتى أرسل زنكي تعليمات مشددة بوجوب عدم قدوم جيش السلطان إلى سورية. ويعبر ابن الأثير في كتابه الكامل ص ٤٢٨ ــ ٤٣٠ وأتابكة الموصل ص ١١٠ ــ ١١٣ عن رأيه مشيراً إلى أنه لو أرسل السلطان جيشه فلن يكون غرضه محاربة البيزنطيين فقط وإنما استعادة سلطته المباشرة على سورية أيضاً.

ونتيجة هذه التبدلات لم يعد السلطان هو الذي يوجه الحرب المقدسة ضد الفرنجة. واستمر الوضع على هذا النحو في عهد نور الدين بن زنكي الذي تولى الأمارة على ممتلكات والده في سورية فقط. ويلفت ستيفنسون Stevenson الانتباه الى انجازات زنكي المتواضعة نسبياً، والى فترات الهدوء الطويلة التي تمتع بها الفرنجة في عهد ابنه نور الدين[1]. وتعزى هذه أحياناً الى تردده أو افتقاره الى البداهة وخشيته من التدخل البيزنطي لصالح الدويلات اللاتينية. كما يمكن إضافة سبب آخر الى الموقف العسكري. إذ أن استرداد أي جزء من أراضي الدويلات اللاتينية كان يحتاج الى قوى أكبر مما تستطيع سورية المسلمة تقديمه. وكان نور الدين يبحث عن حليف آخر في بعض الأحيان عندما يرغب في ولوج ميدان القتال. وقد ساعده عسكر أخيه وعسكر أمراء آخرين من الجزيرة السورية في تحقيق انتصاره عند حارم في العام ١١٦٤، وفي هجومه على كونتية طرابلس في العام ١١٦٧. وفي مناسبات أخرى وجه الدعوى الى القبائل التركمانية في شمال سورية وشرقيها التي لبت نداءه وقدمت له المساعدة[2]. إلا أن الحليف، أي حليف، يخفي وراءه دائماً تهديداً للاستقلال. لذا كان نور الدين يعتمد عادة على مصادره العسكرية الصرفة، وهذا هو سبب استرداده المجتزأ والمحدود للأرض من الفرنجة[3].

كانت النجاحات التي حققها صلاح الدين ضد الدويلات اللاتينية متمشية مع اضطراد نمو مصادره العسكرية. ففي العام ١١٧٠ والعام ١١٧٧ غزا فلسطين من الجنوب بقوات عبأها من مصر فقط ولم يحقق شيئاً. وبعد أن سيطر على شمالي

1) Stevenson, Crusaders in the east, PP. 123, 154, 173.

٢) ابن الأثير ص ٥٣٧، ٥٥١، أبو شامة ص ١١١. ابن القلانسي ص ٢٩١، ٣٠٥، ٣١٥، ٣٤١.

٣) الجدير بالذكر هنا أن هذه التحالفات تدل على نواحي الضعف السابقة. ففي العام ١١٦٧ رغب نور الدين بمهاجمة بيروت، ولكنه صرف النظر عن ذلك بسبب صراع نشب بين قوات الجيش المركب (ابن الأثير ص ٥٥١). ولاقت الحملة المشتركة ضد بانياس مع فرقة من دمشق في العام ١١٥٣ المصير نفسه (ابو شامة ص ٧٧).

سورية والجزيرة خلال العامين ١١٨٢ و ١١٨٣ أصبحت قوته العسكرية متفوقة[١]. أما الجيش الذي حقق به صلاح الدين أعظم انتصاراته في حطين، واستولى على أكبر أجزاء الدويلات اللاتينية، وحاول بوساطته رفع الحصار عن عكا ومقاومة الحملة الصليبية الثالثة، فكان قوة مركّبة مؤلفة من فرق شبه اقطاعية، على غرار جيش مودود وبرسق[٢]. وفي أيامه كان الاقطاعان العسكري والإداري ما يزالان قائمين كما كانا عليه في البلاد من قبل. وكان بعض العسكريين قد حصلوا في زمن نور الدين على إقطاع متوارث مقابل تعهدهم وورثتهم من بعدهم بالخدمة في الجيش[٣]. وظل هذا الموقف قائماً في عهد الأيوبيين، وأدخله شيركوه وصلاح الدين الى مصر[٤]. وكانت الحكومة المحلية في امبراطوريته لاتزال تنظم على أساس الإقطاع الإداري. وكان لصلاح الدين حرسه الدائم، ولكنه كان يستنفر الفرق التابعة للأمراء المقطعين مدناً وولايات عندما يقوم بحملاته المنتظمة.

وكانت هذه القوات مماثلة في تركيبها للجيوش التي واجهت الصليبيين، قبل

---

١) حشد صلاح الدين فرقاً من جميع أجزاء إمبراطوريته لمهاجمة الكرك في العام ١١٨٤، أنظر بهاء الدين ابن شداد ص ٨٠ — ٨١.

٢) كان جيش صلاح الدين في حملة ١١٨٧ يضم فرقاً من مصر وسورية (بهاء الدين ص ٩١)، وفرقة من حلب كان لها ذكر خاص (المصدر نفسه)، ومفارز أيضاً من ممتلكات صلاح الدين السابقة في الموصل وماردين (بهاء الدين ص ٩٢) وسنجار (بهاء الدين ص ١١٧) وتذكر الصفحات التالية من مؤلف بهاء الدين لائحة بالفرق التي كان يتألف منها جيش صلاح الدين، انظر ص ١٤٠ — ١٤١ — الفرق المشتركة في معركة عكا في الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩، وص ١٤٨، حيث يذكر بهاء الدين كيف أرسل لجمع فرق جديدة عندما تواترت الأنباء عن قرب وصول برباروسا، كذلك يصف في ص ١٥٢ — ١٥٧ وصول فرق إلى معسكر صلاح الدين من أجل حملة العام ١١٩٠ أنظر كذلك ابن الأثير ج ٢، ص ٧ حول تجنيد الجيش لحملة العام ١١٨٧، والمصدر السابق ج ٢، ص ٢١ لحملة العام ١١٩٠.

٣) سوبرنهايم في موسوعة الاسلام، م ٢، ص ٤٦٢ مقالة « إقطاع »؛ ولامبتون، رسالة الدكتوراه ص ٢٦٣، ٢٦٤؛ وغيب، جيوش صلاح الدين في دورية التاريخ المصري أيار ١٩٥١ ص ٣٠٦ Cahiers d'histoire egytienne, sèr. 3 fasc .4

٤) بيكر، موسوعة الإسلام، م ٢، ص ١٤ مقالة مصر. غيب — جيوش صلاح الدين ص ٣٠٤ — ٣٠٥.

سبعين عاماً من ذلك التاريخ، مع عدد من الفروق الهامة أيضاً. فلم يكن يوجد في سورية حاكم ــ مثل رضوان مثلاً ــ يستطيع أن يرفض التعاون أو مد يد العون. ولم تعد مصر قوة معزولة عن بقية البلاد، وإنما كان جنود وادي النيل موجودين جنباً الى جنب مع جنود سورية والجزيرة. والأهم من ذلك كله أن الحاكم، الذي كان يعبىء الجيش كان هو نفسه على رأس ذلك الجيش وفي الميدان. ولم يعد الأمراء أحراراً في تناحرهم وتنازعهم بل أصبحوا خاضعين تماماً لسلطة مهيمنة. ورغم ذلك كان صلاح الدين يصطدم بأعظم العقبات حين يفرض إرادته على أتباعه[1]. ولم تكن سيطرته التي يمارسها على جيشه كاملة في عدد من المناسبات الهامة. وكانت نقاط الضعف، التي جعلت جيشه أداة غير مستكملة الشروط لتحقيق سياسته، عامة لجميع الجيوش الاسلامية في القرن الثاني عشر، وهو ما سيتناوله البحث في القسم التالي.

٢ ــ النتائج العسكرية

كانت الحرب موسمية. فما أن يبدأ تهطال الأمطار الشتوية حتى تصبح الأرض غير صالحة للتحرك[2]. وقد يحدث أن تنفذ حملات أحياناً خلال الشتاء إلا أنها نادراً ما كانت تأتي بنتائج مثمرة. وكان سبب فشل هجمات الفرنجة المشددة على دمشق في العام ١١٢٩[3] ودمياط في العام ١١٧٠[4] يرجع جزئياً في كلتا المناسبتين الى

---

١) من ذلك الصعوبات التي اعترضته في إبقاء سنجر شاه وعمه عماد الدين على حصار عكا في تشرين الثاني من العام ١١٩٠. أنظر ابن الأثير ص ٣٧ ــ ٣٩، وبهاء الدين ص ١٩٢ ــ ١٩٥.

٢) أنظر Historical Geography of the holy land ص ٦٤. ويمكن الوقوف على حالة الأمطار في الدراسة العلمية لآبل Abel، جغرافية فلسطين المجلد الأول ص ١٢٥ ــ ١٢٧. ويمكن الرجوع إلى بهاء الدين ص ٣٥٩ لمعرفة حالة الوحول في الشتاء عندما يقول الكاتب إنه قضى تسعين يوماً في رحلته من القدس إلى دمشق. أنظر كذلك أسامة بن منقذ ص ١٨٧، وبهاء الدين ص ١١٩ و ٢٠٤، و ابن الأثير ص ١٧ المجلد الثاني.

٣) وليم الصوري ص ٥٩٧، ابن الأثير ص ٣٨٥.

٤) وليم الصوري ص ٩٦٨.

حالة الطقس. كما عانى الحجاج، خلال الحملتين الصليبيتين الأولى والثالثة، معاناة كبيرة من الشتاء السوري[1]. وقد قال أحد من شهد الحرب التي نحن بصددها حرفياً ما يلي: «Il n'est ore mie tons de tenir ost encontre yver.»[2] أي ما معناه: لم نكن نستطيع تحمل قسوة الشتاء على هذا النحو.

أتاح الشتاء بالتالي فرصاً ملائمة للأمراء وفرقهم من أجل الهجوع الى أوطانهم وكان من الطبيعي أن يكونوا راغبين في ذلك. إذ أن تلهف الجنود الى موطنهم وأسرهم عامل من العوامل المعنوية التي لاتغيب عن ذهن القائد العسكري. وحتى لو كان الرجال واعين بأن حالة الحرب القائمة تحول دون تسريحهم الى بيوتهم فإنهم لا يتحملون غيابهم المتواصل عنها بسهولة، ولكن إذا ما أنكرت عليهم فرصة مقبولة وبينة فإنهم يصبحون أقل امتثالاً للانضباط وتتضاءل فاعليتهم القتالية تدريجياً[3]

وتكتسب هذه الاعتبارات أهمية إضافية عندما لا يكون الجند المعنيون جنوداً محترفين التزموا بالخدمة مدة طويلة، وإنما رجال استدعوا الى الجيش تحسباً لخوض عمليات رئيسية، كما هو شأن معظم القوات السلجوقية الأتابكية والأيوبية. ولقد سبقت الإشارة الى أن بعض العسكر السلجوقي كانوا موجودين باستمرار تحت السلاح. أما الباقون فكانوا يلتحقون بالخدمة حسب الظروف ويكونون أحراراً بقية أيامهم أو الجزء الأكبر منها في تكريس أنفسهم للاضطلاع بمسؤولية الأرض المقطعة لهم ورعايتها. وثمة ظروف مماثلة عرفت في عصور تاريخية أخرى كان الجندي فيها يمنح قطعة أرض مكافأة له عن خدمته العسكرية في الجيش في المناسبات، وسرعان ما تطغى مصالحه الزراعية على اهتماماته العسكرية[4]. وهنالك من الأسباب ما يدعونا

١) أنظر Epistulae et chartae ed. Hagenmeyer ص ٣١٢.

٢) Ernoul ص ١٤١.

٣) يؤيد هذه الحقيقة كل من خدم وراء البحار من قوات الحلفاء فترة طويلة من الزمن في الحرب العالمية الثانية.

٤) أنظر Delbruck, III, PP. 4, 12-13، وكذلك Frauenholz, Heerwesen, PP. 12-13، وأيضاً Helen Chew, EcclesiasticdeTenants-in-chief، وأيضاً J.E. Baldwin, the Scutage and Knight Service in England, P. 15.

للاعتقاد بأن الجندي في الأمبراطورية السلجوقية قد يضيع في خضم الزراعة أيضاً. ففي العام ١١٥٥ رغب السلطان محمد بن محمود بمهاجمة بغداد ولكنه عجز عن تنفيذ مخططه لأن من كان في خدمته من الأمراء مع فرقهم التي يعتمد عليها لم يرضوا بترك أراضيهم أثناء جني المحاصيل[١]. إن هذا المثال شديد التطرف بالطبع، ولكن لا بد وأن تكون هنالك اعتبارات أخرى مماثلة في بعض الأحيان في ذهن كل أمير من الأمراء المنتفعين. إذ لم تكن الحملات العسكرية محفوفة بالمخاطر وباهظة التكاليف ومزعجة فحسب وإنما كانت تتعارض مع متع المعيشة بين أفراد الأسرة والتمتع بالأملاك ورتابة الحياة الريفية الزراعية. ولن يفوّت مثل هؤلاء العساكر فرصتهم السنوية في العودة الى بيوتهم حيث يقضون الشتاء. كما أن اهتمامات الأمراء الاداريين بأراضيهم أعظم من اهتمامات الجنود العاديين، وبخاصة في أوائل القرن الثاني عشر، حيث لم تكن ولايتهم في اقطاعهم مضمونة بحال من الأحوال. فقد يهاجم ثائر من الثوار ممتلكات الأقطاعي وهو غائب عنها في حملة عسكرية أو قد يهبها السلطان لأمير آخر غيره[٢]. وهكذا لم يكن في وسع أي من الاقطاعيين الأتراك مغادرة إقطاعه بمثل هذه البساطة.

لهذه الأسباب جميعها لم تكن تلك الجيوش الضخمة القادرة على تهديد الدويلات اللاتينية لتبقى معبأة من نهاية موسم الحملات الواحد الى بداية الموسم التالي. ففي العام ١١١١ طمح طغتكين الى إبقاء جيش مودود الضخم في سورية طيلة أيام الشتاء، ليهاجم طرابلس في ربيع العام ١١١٢، ولكن لم يستطع ــ رغم كل الجهود التي بذلها ــ في إقناع باقي الأمراء بالموافقة على ذلك[٣]. حتى أن صلاح الدين اضطر، أكثر من مرة خلال مسيرته المظفرة، الى السماح لجنوده بالعودة الى

---

١) أنظر Lampton, Ph. D. thesis, P. 160، وقد رفضوا بعد ذلك التحرك بسبب حرارة الصيف في بغداد. ويمكن الرجوع إلى Gibb, "The Armies of Saladin" للحصول على أمثلة أخرى عن المناسبات التي كانت العساكر فيها مشتتة في طول اقطاعاتهم وعرضها عندما يقترب موسم جني المحاصيل.

٢) أنظر ابن القلانسي ص ١١٧.

٣) أنظر ابن الأثير ص ٦٢٦.

بيوتهم، في وقت كان هو في أمسّ الحاجة إليهم. ففي العام ١١٧٦ شهد حملة ناجحة ضد الزنكيين، ثم قاد جيشه الى جبال البهراء[١] (العلويين) بعد تسوية الأمر مع حلب لإخضاع دولة الحشيشية (الاسماعلية)، ولكنه لم يستطع تحقيق نهاية ناجحة لخطته بسبب جنوده الذين رغبوا في العودة الى دورهم بعد الإرهاق الذي أصابهم . وكان على هذا القائد المظفر أن يأذن بتسريح جيشه.

وفي العام ١١٨٧ ، كان صلاح الدين في أمس الحاجة إلى تحقيق نجاح واحد يتوج به انجازات جيشه بالاستيلاء على صور، ولكنه لم يفرض حصاره عليها حتى الخامس والعشرين من تشرين الثاني، عندما اقترب الشتاء وحان موعد استراحة قواته، الأمر الذي حال بينه وبين المضي في ذلك[٢]. وفي العام الذي تلا، وبعد حملته المظفرة في شمالي سورية، أتيحت له الفرصة لتحطيم أمارة أنطاكية الفرنجية. وفشل جيشه للمرة الثانية في تحقيق مراميه، حين رغبت فرق عديدة من جيشه في العودة الى الوطن، فتوقف عاجزاً عن فرض الحصار على أنطاكية[٣]. لقد كان كل جيش من الجيوش السلجوقية أو الأيوبية يتفرق في نهاية موسم الغزوات. ولا بد من الملاحظة مرة أخرى هنا أنه لم يكن في مقدور الفرنجة تحقيق نصر في معركة أكبر بكثير مما يمكن أن يحققه لهم مثل هذا الوضع.

يمكن أن يضاف الى هذا الوضع عامل آخر هو السلب والغنائم. إذ باستطاعة الجنود حتى في الأزمنة الحديثة تحقيق منافع شخصية لهم في غنائم الحرب، فكيف الحال في العصور الوسطى حيث الفرص المتاحة أكبر بكثير. وكان التركمان موجودين بصورة مستديمة تقريباً في الجيوش السلجوقية الكبيرة في تلك الحقبة، وربما كانت احتمالات الحصول على الغنائم من أكبر الحوافز التي تدفعهم للمشاركة في

---

١) في ابن الأثير ج ١١ ص ٤٣٧ ، حاصر قلعة مصياف ونصب عليها المجانيق ..

٢) ابن الأثير ص ٧١١ ، أبو شامة ص ٣٤٣ .

٣) ابن الأثير ص ٧٣٢ ، العماد في أبوشامة ص ٣٨٠ ، بهاء الدين ص ١١٧ ، كمال الدين ، مجلد ٤ ص ١٨٩ .

الحرب[١]. إذ أن فشل إيلغازي في جني ثمار انتصاره على روجر أمير أنطاكية في معركة ساحة الدم في العام ١١١٩، لم يكن بسبب ثمله المتواصل والدائم فقط، وإنما بسبب تشتت جنده في سبيل جمع الأسلاب أيضاً[٢]. لقد كانت هذه هي نقاط الضعف في الجيوش التي حاربت الدويلات اللاتينية وغزتها طوال القرن الثاني عشر. وكان من أسباب اندحار صلاح الدين في تل الجزر Mont Gisard (عند الرملة)، في العام ١١٧٧، هو أن قواته فقدت تماسكها من خلال انشغالها بالسلب والنهب[٣]. وبعد عشر سنوات تباطأت سرعة تقدمه المظفر بعد معركة حطين للسبب نفسه[٤].

كانت أهم العقابيل العسكرية لهذه الظروف تزايد نقمة الجنود، إذا لم تحقق لهم الحملة المنافع التي كانوا يتوخونها. ففي العام ١١٢٠ قاد بلدوين الثاني جيش القدس لنجدة أنطاكية ضد هجمات إيلغازي، ولم يكد يبلغها حتى تفرقت معظم القوة التركمانية التي تخاذلت بسبب قلة الغنائم[٥]. وفي العام ١١٩٢ حقق ريتشارد بلانتاجنيت (قلب الأسد) Richard Plantagenet نجاحاً تكتيكياً رائعاً أمام يافا.

---

١) أنظر لامبتون — رسالة الدكتوراه ص ١٦١؛ «لقد كان اهتمامهم منصرفا إلى السلب، وحيثما حدث مثل هذا فلا بد أن يكون هنالك تركمان». وثمة تصديق حرفي لهذا القول في يوميات ابن القلانسي، حيث نجده يذكر التركمان مرافقة بكلمة «السلب» في الجملة نفسها، أنظر ابن القلانسي ص ١٦١، ١٧٦، ١٩٩، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٣٩، ٣١١، ٣٢٢. ويصف ابن الأثير في ص ٣٣٢ — ٣٣٣ وصول رجال القبائل عند تجنيد قوات إيلغازي (أنظر أتابكة الموصل):.

٢) ابن القلانسي ص ١٦١، كمال الدين ص ٦١٩. 'La cupidité seule amenait les Turkomans sous ses drapeaux. On les voyait venir un à un, avec un sac dans lequel étaient de la farine et un mouton taillé en bandes qu'on avait fait sécher.'

٣) وليم الصوري ص ١٠٤٠ — ١٠٤٢، أبو شامة ص ١٨٥، ابن الأثير ص ٦٢٨.

٤) بهاء الدين ص ٩٨ — ٩٩. «حاول صلاح الدين فتح صور ولكنه تخلى عن ذلك لأن رجاله تفرقوا في البلاد الساحلية وانشغل كل جندي من جنوده بالسلب لحسابه الخاص، ولحق الانهاك بالجيش نتيجة القتال المتلاحق والحرب المستمرة».

٥) كمال الدين ص ٦٢٤.

ولم يكن ذلك بفضل مهارته الشخصية فحسب وإنما بسبب انخفاض الروح القتالية بين جنود صلاح الدين. إذ كان صلاح الدين قد فاوض حامية يافا قبل بضعة أيام من ذلك بدلاً من أن يترك العسكر يأخذونها عنوة. وأحس هؤلاء بأنهم سوف يحرمون من غنائم السلب فحطت هذه المظلمة من معنوياتهم وفاعليتهم كجنود[1]

مما سبق نجد أن الجيوش الضخمة، التي كانت تهدد الدويلات اللاتينية في وجودها، كانت جيوشاً شبه إقطاعية في تركيبها نتيجة لبنية المؤسسات السلجوقية والأيوبية. ولم يكن بالإمكان الاحتفاظ بها في الميدان لمدة طويلة. وكان النقص الذي تعاني منه هذه الجيوش في عصر «أنطاكية الجميلة» «**bella Antiochena**» عدم وجود قادة يملكون سلطة لا منازع لها مع تعرضها للتفرق والتشتت نتيجة نشوب نزاع بين الأمراء الكبار. ولم يكن عهد عماد الدين زنكي ونور الدين عصر الغزوات الطموحة، ولكنها عادت فنشطت في عهد صلاح الدين الذي كانت جيوشه مؤلفة من فرق من جميع أنحاء امبراطوريته أيضاً، إلا أن سلطانه وشخصيته ضمنا له وحدة القيادة التي كانت تنقص سابقيه في السنوات الأولى من ذلك القرن[2]. ورغم ذلك لم تكن سيطرته على قواته وعلى القادة من مرؤوسيه كاملة أحياناً، وأدت الصعوبات التي واجهها من هذه الناحية الى خلق ظروف أخرى كان لها أثرها في تحديد وجود الجيوش الاسلامية لفترة الحملة الواحدة على امتداد القرن كله. وكان موقف مالكي الاقطاعات العسكرية والإدارية حيال الحملات العسكرية متأثراً باحتياجات الإدارة والزراعة، كما كان كل جندي تقريباً يستجيب الى نداء أسرته وبيته. وعندما يضع الشتاء حداً للعمليات الحربية يصبح ذلك النداء غير قابل للمقاومة الى درجة أن

١) بهاء الدين ص ٣٣٧ ، ويشرح ابن الأثير الحادثة نفسها بفارق بسيط ص ٦٥ المجلد ٢ .

٢) الواقع أن في هذا القول تجن واضح على عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ولا سيما هذا الأخير ، إذ تجمع المصادر الاسلامية كافة على أنه لم يتخل يوماً واحداً عن فكرة الجهاد والتخلص من الوجود الصليبي في البلاد ، كما كان يملك تفكيراً استراتيجياً عميقاً دفعه إلى السعي لتوحيد البلاد تحت زعامته وضمان بقاء مصر إلى جانبه ليتفرغ لطرد الفرنجة ، فكانت خطواته هذه المقدمة المنطقية للانجازات التي حققها صلاح الدين من بعده ، وإن لم تتح له الظروف الصعبة التي أحاطت به تحقيق ما أراد (المترجم) .

صلاح الدين نفسه كان مضطراً، على مضض، لأن يسمح بارتحال فرقه وهو في أوج مدّه المظفر. وأخيراً كانت اعتبارات المنفعة الدنيوية هي الدافع المحرك للمحاربين في الغالب أكثر من ثواب الآخرة (!) بما في ذلك المتحمسين للجهاد. فإذا لم تكن تلك المنفعة متوقعة فليس ثمة ما يعوضهم عن ركوب مركب الخطر ومشقة الحرب، وكان المرء منهم يجد نفسه بدون حوافز تدفعه لمقاومة جاذبية الحنين الى بيته التي كانت تشده دائماً بعيداً عن مسرح الحرب..

٣ ـ تكتيك القوات السلجوقية والأيوبية

كان الفرنجة يخشون القوات السلجوقية أشد خشية من بين الشعوب الآسيوية كافة، ويعجبون بهم أيضاً لصفاتهم العسكرية،[١] وسوف يتناول الفصل التالي طرائقهم العسكرية. «Erant trecenta sexaginta millia pugnatorum, scilicet sagittaridrum. Mos enim eurum est, talibus uti armis. Equites erant omnes»[٢]

يبرز فلتشر في وصفه للجيش الذي لاقى الفرنجة عند دوريليوم سمتين رئيستين كانت تتركان بصماتهما دائماً على المراقبين الغربيين، الى جانب «صرخات القتال الرهيبة»[٣] و «القرع الوحشي للطبول»[٤]. والواقع أن معظم القوات السلجوقية في تلك الحقبة كانت تضم فرساناً من طرز مختلفة. وربما كان السبب هنا وجود خليط من المقاتلين ينتمون الى سكان المناطق الغربية من آسيا في صفوف قواتهم. ويذكر المؤرخون العرب جنود المشاة في أحيان كثيرة رغم أن وظيفتهم العسكرية لم تذكر بجلاء تام. ومما لا شك فيه أنهم كانوا مطلوبين في أعمال الحصار وللقيام بواجبات الإيواء والتموين[٥]. وكانوا يثبتون جدارتهم عند القتال في الأراضي الوعرة. فعندما خرج

---

١) أنظر Est. PP. 5067 et seq. Itin. PP. 226, Anon. P. 50

٢) أنظر Fulcher, P. 334.

٣) أنظر WT, P. 131; Fuleher, P. 335; Anonymi gesta Francorum P. 44 'HP.P. 156, Itin. P. 117, HEF, P. 84

٤) أنظر Fuller, Historie of the Holy Warre (1640) P. 25 وكذلك بهاء الدين ص ١٩٩ .

٥) أنظر Cahen, Syrie du Nord. P. 195 .

جيش دمشق للدفاع عن المدينة ضد الفرنجة في العام ١١٢٦ كان برفقة كل خيّال في المعركة جندي مشاة[1] إلا أن المشاة لم تكن تذكر على وجه العموم إلا عندما يعمل السيف في رقاب الجانب الخاسر[2]. كذلك توجد إشارات الى خيالة لم يكونوا مسلحين بالقسي[3].

كان أعظم خطر دائم يواجهه الفرنجة في قتالهم تكتيك رماة النبل الراكبين (النبالة من الخيالة). ولقد تناولت المؤلفات العسكرية البيزنطية هذه الطرائق بالتحليل المفصل، ووصفها كذلك المؤرخون المحدثون الذين استعانوا ــ الى درجة كبيرة ــ بوصفين مختصرين ومتشابهين، كان أحدهما ترجمة حرة لنص منقول بالفرنسية عن وليم الصوري في القرن الثالث عشر[4]، بينما ظهر الوصف الآخر في نسخة متأخرة من تتمة تاريخ وليم الصوري[5]. ويبدو أن أومان وغروسّيه استخدما هذه الفقرات أساساً في إيراد وصفهما الخاص للطرائق الحربية السلجوقية رغم أنهما

---

١) أنظر Fulcher P. 478 .

٢) أنظر Gibb in IQ, P. 40 (غيب في كتابه ابن القلانسي ص ٤٠) .

٣) وليم الصوري ص ٩٢٥ وهو يقول في تسجيله لمعركة البابين أن شيركوه : WT, P. 925, 'habebat Turcorum duodecim millia, ex quibus novem millia loricis galeisque tegebantur, reliqua tria millia arcubus tantum et sagittis utebantur', كما يشير إلى أسلحة العرب "Lanceis pro more utentium" . ويلاحظ التقسيم ذاته في أرسوف في العام ١١٩١ ، Itin P. 262

4) WT, P. 131: 'A la premiere venue, li Turc trestrent as noz si espessement que pluie ne grelle ne poist fere greigneur oscurté, si que molt en i ot de navrez des noz; et quant li premier orent touz vuidiez leur carquois et tout tret, la seconde route vint après ou plus avoit encore de chevaliers et commencierent à traire plus espessement que l'onn ne porroit croire'.

5) WT, cont. in RHC, Hist. occ. II, P. 606: 'Il (li Sarrazin) aceintrent les noz tout entor et traistrent si grant planté de saietes et de quarriaux que pluie ne grelle ne feist mie si grant oscurté, si que moult i ot de navrez de nos genz et de leur chevaux. Quant les premierez routes des Turz orent vuidie touz leur carquoiz et tout trait, il se retraistrent arrierez, mes les secondes routes vindrent tentost arrierez ou il avoit encores assez plus de Turz. Cie Traistrent encorez plus espessement assez que n'avoient fait li autre.'

لم يصرحا بذلك[1]. ولكنهما لم يقدما وصفاً شاملاً للتكتيك السلجوقي كما لم يفعل ذلك أي باحث آخر لهذا الموضوع. وربما كان الوصف الذي قدمه دلبش أفضل الموجود[2] وقد اعتمد هو كذلك وبصورة أساسية على النص سابق الذكر. وبما أنه تقيد كثيراً بالمعنى الحرفي لكلمات ذلك المؤرخ فقد جاءت الصورة التي رسمها تخطيطية diagrammatic الى درجة الجمود وليست حقيقية. إذ أن طرائق الحرب التي تبناها الفرنجة في سورية تحددت جزئياً بالتكتيك السلجوقي التقليدي، ومن المهم جداً أن تفهم هذه الناحية فهماً صحيحاً. ويعتمد الشرح المذكور في الفقرات التالية تسجيلات الفرنجة الذين جابهوا الجيوش السلجوقية في ميدان القتال في القرن الثاني عشر. والاستثناء الوحيد والهام بينهم هو ألبرت آيكس Albert of Aix الذي لم يحدث أن جاء الى سورية أبداً رغم أنه كان على اطلاع جيد على تلك الأحداث. وسوف نستخدم شواهده بكثير من الحذر. وليس من المؤكد أن يكون وليم الصوري قد رافق حملة من الحملات، إلا أن معرفته بسورية وسكانها وعاداتهم كانت أكبر بكثير مما يعرفه أي مؤرخ آخر في ذلك العصر.

كان الجزء الفعال من الجيش السلجوقي ــ كما كان شأن الفرنجة ــ يقاتل على متن الخيل، ولكن من الواضح ــ بالاستناد الى جميع السجلات المعاصرة ــ أن المقاتلين في هذا الجيش كانوا أسرع من الفرنجة وأكثر مرونة في المناورة منهم. ولقد عزي ذلك الى سرعة عدو خيولهم ورشاقتها وخفة أسلحتهم[3] إذ كان القوس سلاحهم الرئيسي، ولكنهم كانوا يحملون الترس والرمح والسيف والهراوة كذلك[4]. وهنالك دليل جيد على أن الرمح والترس كانا أخف وزناً مما لدى الفرنجة. وعندما لم

---

1) Oman, I, P. 274; Grousset, I, P. 33.

2) Delpech, I, PP. 358-60

٣) ثمة دليل على ذلك من مراقبين من أجيال مختلفة في القرن الثاني عشر. أنظر RA, P. 243: '. . . quia velocissimos equos hobebant, et expediti nec graves armis aliis quam sagittis. . .; Itin. P. 247; Est. 5647, et seq: RC, P. 628.

٤) أنظر لائحة الأسلحة السلجوقية الموجودة في الايتنراريوم ص ٢٤٧ وتاريخ الحرب المقدسة ص ٥٦٤٧ وفي تاريخ توسع الامبراطورية الفرنسية HEF ص ٨٧ وغالتيريوس المستشار ص ٨٨.

يكن التفوق العددي الى جانب السلاجقة كان الفرنجة يملكون الميزة في الالتحام. وربما يلفت النظر هنا استخدام رمح أطول من قبل بعض العرب كما يذكر أسامة بن المنقذ[١]. ويبدو أن الرمح الذي يستخدمه المسلمون كان أخف بكثير، ولم يكن كالرمح الفرنجي مصنوعاً من خشب السنديان أو البلوط[٢] «quercus aut fraxinus» وإنما كانت قناته من القصب مع أسلة من الحديد[٣] «arundineum hastile cuspide ferrata»، ولم تكن تروسهم أيضاً دفاعية طويلة على هيئة الحدأة كما كانت تروس الفرنجة وإنما كانت تبدو على شكل مجنات مستديرة صغيرة أقل مناعة في الدفاع ولكنها تملك ميزة الخفة[٤]. كان المسلمون بفضل خيولهم وأسلحتهم أخف حركة من الفرنجة، وقد استغلوا هذه الحركية في أربعة أوجه رئيسية. أولها أنها كانت تمكنهم من البقاء بعيداً عن العدو واختيار اللحظة المناسبة للالتحام معه. وكان الفرنجة في أوربا متمرسين على مواجهة العدو وهو راكب، ولكن الأوربيين هناك كانوا مثلهم ويستفيدون من ثقل خيولهم وسرعتها لإضفاء زخم إضافي في حملهم على العدو، الأمر الذي كانت له أهمية كبرى وفاعلية كاملة إذ كان موجهاً ضد تشكيلات العدو المتماسكة فقط. أما النبّالة المسلمون فلم يكونوا يشكلون هدفاً من هذا القبيل[٥]، وإذا ما شن الهجوم عليهم كانوا متأهبين للفرّ مبتعدين، وعندما يتوقف العدو عن المحاولة كانوا يكرون هم أنفسهم مرة ثانية. ولقد لاحظ الكتّاب اللاتين هذه الميزات في بداية القرن وفي نهايته على حد سواء. وقد يتفرق المسلمون ويتشتتون في جميع

---

١) أسامة بن منقذ ص ١٣١ ــ ٢ .

2) RC, P. 631.

3) Itin, P. 247; Est. 5652, 'de can bien aceree'.

٤) يبين رادولفوس كادومينسيس (ص ٦٢١ ، ٦٤٠ ، ٦٤٥) الفروق بين الترس الفرنجي المعروف باللاتينية باسم Scuta والمجن السلجوقي الذي يطلق عليه مصطلح Pelta (الترس الصغير المقوّر) .

٥) يتحدث وليم الصوري (ص ١٣١) عن الأعمال التي قام بها الترك في دوريليوم ، كما يصف في ص ٧٤٣ الورطة التي وقع فيها الألمان عندما حاولوا عبور آسيا الصغرى في العام ١١٤٦ . ولم يكن وليم الصوري شاهد عيان لكلتي الحادثتين إلا أنه لم يترك سانحة يتعرف بها إلى الترك وطرائقهم الحربية إلا وانتهزها وبالتالي فإن وصفه لفن المراوغة التركي له أهميته التاريخية .

الجهات ولكنهم كانوا يعودون دائماً للقتال[1]، فتراهم يكرون تارة ويفرون تارة أخرى[2]، ولا يرون في الفرّ غضاضة لأن التقهقر في اعتقادهم لا يقل شأناً عن المطاردة[3] «فتراهم كالذباب يمكن قتله ولا يمكن طرده»[4].

والوجه الثاني أنهم كانوا يطبقون أسلوب التقهقر المضلل (الكاذب). وكانت هذه المناورة مطبقة في أوربا الاقطاعية قبل الحملة الصليبية الأولى، وساعدت في تقرير مصير معركة هاستينغز[5] the battle of Hustings. ويقال بأن الفرنجة السوريين استخدموها في عدد من المناسبات[6]. إلا أن المسلمين كانوا معتادين على المناورات باستمرار، وبطرق مختلفة ومتعددة. وقد يمتد تقهقرهم أحياناً بضعة أيام، ويهدف دائماً الى إرهاق الفرنجة وإبعادهم عن قواعدهم[7]. وكثيراً ما كانوا يضعون «طعماً»

---

1) RA, P. 243.

2) Fulcher, P. 448.

3) Itin. P. 50.

٤) EsT. 5647-68, Itin. P. 247 . يعطينا وليم الصوري تسجيلاً رائعاً للتكتيك ذاته (٧٤٢ — ٧٤٣) في مجرى حديثه عن مسيرة الحملة الصليبية الثانية عبر آسيا الصغرى في العام ١١٤٧ . وقد بنى وصفه على ما ذكره شهود عيان . "Ut asserunt qui praesentes fuerunt". وثمة شاهد آخر للأحداث عينها هو أودو دويل Odo of Deuil يصف الترك على النحو التالي docti et faciles ad fuqam كما يقول الملك لويس السابع "Pacem man posset habere, nec pugnam" (Odo, P. 65)

5) Stenton, Anglo-saxon England, P. 587. But see W. Spatz, Die Sehlacht von Hastings, PP. 55-62.

٦) طبقاً لما جاء في كتاب رادولف كادومينسيس Radulfus Cadomensis (ص ٧١٥) أن تنكريد طبقها في معركة أرتاح في العام ١١٠٥ ، ويصف وليم الصوري (ص ٥٨٢) مناسبة نصب فيها بلدوين الثاني فخاً لجزء من حامية عسقلان بالأسلوب ذاته . ورغم أن المؤرخين العسكريين يأخذون هذه التحركات على أنها أمر مسلم به فإننا نادراً ما نعرف كيف كانت تنفذ ، خاصة وأن ترتيب الصفوف كما ينبغي والسيطرة على التراجع بشكل منظم ليس بالأمر السهل .

٧) أنظر فلتشر (ص ٤٢١) حول أحداث العام ١١١٠ ، وكذلك ماثيو الرهاوي Mathew of Edessa (ص ٩٣) حيث يقدم التعليق ذاته عن الحادثة نفسها "Lés Turcs reculèrent au delà de Khar'an (Harran) afin d'attierer les Chretiens, par un strategème, dans un pays incdnnu à ceux-ci" ولمعرفة المزيد أنظر . Fuleher, P. 423. RC, P. 710.

لاجتذاب الفرنجة نحو كمين مهيأ[١]. وكان ذلك عبارة عن قوة صغيرة من الخيالة كفيلة بإغواء العدو بتدميرها وحفزه لمطاردتها. وعندما ينطلق الفرنجة لمهاجمتها كان الطعم يتوجه بمطارديه باتجاه الكتلة الرئيسية التي تبقى مختفية حتى اللحظة الحاسمة. وكانت مثل هذه الخطة تكفي لتحقيق نجاح ضئيل، أو كسب معركة كاملة طبقاً للمستوى الذي تطبق فيه[٢].

والوجه الثالث أنه كانوا يستفيدون من حركيتهم لمهاجمة جناحي العدو ومؤخرته. فما أن تسنح لهم الفرصة حتى يحوموا حوله كالنحل[٣] ويهاجمونه من جميع الجهات «Undique»[٤] ويحاولون الإحاطة به إحاطة السوار بالمعصم «quasi corona»[٥] مثل «الحزام أو هالة القمر في قبة السماء»[٦]، أو «كالكرة حول محورها»[٧] أو «كما لو كانوا يحاصرون مدينة»[٨]، فإذا لم يستطيعوا الإحاطة بالعدو التفوا عليه من جانب أو من الجانبين مثل الهلال ad instar lune corniculate[٩]. وربما كان اتباع مثل هذا التكتيك نتيجة للتفوق العددي، إلا أنه كان يشكل دائماً جزءاً أساسياً من طريقة المسلمين في خوض الحرب، وكان يطبق دائماً مهما كان

---

١) تشير المراجع العربية واللاتينية باستمرار إلى مثل هذه الخدع الحربية «ونجد أمثلة عنها في ابن القلانسي ص ٢٤٢، ٣٣١ وابن الأثير م ص ٣١ ــ ٣٢، وأسامة (ص ٧٤، ٨٥، ٨٧، ١٣٣) وبهاء الدين (ص ١٢٧، ٢٠٢). كما تدل هذه المراجع على أن الفكرة كانت مألوفة للفرنجة عندما قدموا إلى سورية. (كاتب مجهول ص ٨، ١٦، ٦٨).

٢) كما حدث عند جسر الصنبرة في العام ١١١٣ (Fulcher P. 426)وفي القتال الذي دار في الأول من أيار العام ١١٨٧ (Lebellus, P. 213)

3) HEF, P. 87, quoting Psalm CXVIII, 12.

4) Anon. PP. 90, 154.

5) Ep. mor. P. 175.

6) IQ, P. 138.

7) IA, P. 685.

8) WT, P. 772.

9) HEF, P. 84.

عددهم[1] . وكان على الفرنجة أن يراقبوا ظهورهم باستمرار . إذ كان ذلك شكلاً من أشكال الهجوم لم يعهدوه في خبرتهم العسكرية أوربا ، وملزمين حياله باتخاذ إجراءات تكتيكية خاصة في الشرق .

أما الوجه الرابع لاستخدام المسلمين لحركيتهم فهو مهاجمة العدو وإرغامه على القتال أثناء المسير . ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا كان المهاجم قادراً على التحرك بسرعة أكثر من سرعة خصمه والى مدى أبعد منه . وكانت تلك طريقة مستجدة على الفرنجة من طرائق فن الحرب ، وتثير غيظهم بشكل خاص ، لأنهم كانوا يهوون ترتيب فصائلهم قبل الشروع بالقتال ، ويميلون الى دخول المعركة بتنظيم جيد[2]. وكان الخطر الرئيسي يتأتى من ميل المسلمين الى الهجوم من الخلف «a Tero» . فعندما يهاجمون رتلاً سائراً كان جهدهم الرئيسي ينصب دائماً على المؤخرة . وكانت المشكلات التي تواجه القائد في هذه الظروف من أجل الإبقاء على سيطرته أكبر بكثير مما لو ركز العدو جهوده على المقدمة . وقد ترك شهود عيان تسجيلات كثيرة عن تطبيق مثل هذه الأساليب التكتيكية ضد أرتال الحملة الصليبية الثانية ، عندما حاولت اجتياز آسيا الصغرى في العام ١١٤٧[3] ، وضد قوات فريدريك برباروسا الذي سار على

---

1) RA, P. 244: 'Etenim id moris pugnandi apud Turcos est, ut, licet pauciores sint, tamen semper nitantur hostes cingere suos.' Many other Latin observers record the same characteristic. Typical descriptive words used are, besides 'cingere':

(a) circumcingere, Anon. PP. 46, 72,90, 154;

(b) accingerc, RA, PP. 247, 260; Fulcher, P. 478;

(c) circumdare, RA, P. 295; HEF, PP. 84, 85, 87: Libellus, P. 223;

(d) vallare, WT, PP. 718, 772, 1094;

(e) cricumvallare, Fulcher. P. 335;

(f) concludere, Itin. P. 117;

(g) circumsedere, Libellus, P. 213.

٢) أنظر الفصل الخامس فيما يلي .

٣) WT. P. 748 , Odo, P. 65 الذي حصل على معلوماته من شاهد عيان .

المحور نفسه في العام ١١٩٠[١]. وقد اضطر الفرنجة في سورية الى اتخاذ إجراءات مضادة أكثر من مرة لمجابهة مثل هذا الهجوم[٢]. وكان يعار اهتمام كبير الى تنظيم حرس المؤخرة وقيادته نتيجة لذلك[٣].

كانت السمة التكتيكية الثانية التي اشتهرت بها القوات السلجوقية والأيوبية بعد قدرتها الحركية اعتمادها على رماة النبل (النبّالة) وكان هؤلاء ماهرين في استخدام القسي على متون الخيل والرمي منها بدون توقف أو ترجل. وكانوا بذلك قادرين على الجمع بين رمي السهام واستخدامهم التكتيكي لحركيتهم التي سبق وصفها. حتى أنهم كانوا قادرين أثناء الفرّ (التقهقر) على الالتفات الى الخلف واطلاق سهامهم على مطارديهم وهم على ظهور الجياد[٤]. وبالاستناد الى استخدام الكتّاب اللاتين المتكرر لكلمات كثيرة مثل pluvia(زخات المطر) و imber (مدرار) و grando (وابل) و nubes(غزير ــ كثير) عند وصفهم لحجم رماية النبل من جانب المسلمين[٥] من المرجح أن يكون معدل الرمي عالياً جداً. ويبدو أن القوس والنبل

---

1) HEF, P. 74, 'cum Turci extremam partem Imperatoris incursarent'. For attack 'a tergo' see HEF, P. 80; Ep. mor. P. 177; HP, P. 158.

٢) كان الهجوم على مؤخرة الخطوط الصليبية من أهم ملامح المعارك التي دارت في حطين وأرسوف. أنظر الفصل الخامس فيما يلي. وانظر كذلك وصف الهجوم على رتل الفرنجة فيما بين عكا وحيفا في الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١١٩٠. Itenerarum peregrinorum, ed. stubbs P. 118.

٣) في آسية الصغرى عام ١١٤٦ (وليم الصوري ص ٧٤٧)، وتراجع بلدوين الثالث من عنتاب في العام ١١٥٠ (وليم الصوري ص ٧٨٨)، وحطين ١١٨٧ (ليبلّوس ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣)، وأرسوف ١١٩١ وغيرها. وطبقاً لما يقوله البرتوس آكنسيس Albertus Aquensis ص ٥٦٥ أن الحملات التي حاولت اجتياز آسية الصغرى في العام ١١٠١ هوجمت من المؤخرة أيضاً وأن حراسة المؤخرة كانت أكثر الأماكن خطراً.

4) In the words of RC, P. 715, illi facile terga vertunt, sperantes, ut est moris, fugiendo gyrare, gyrando sagittare'.

5) E.g. Anon. P. 84; Fulcher, PP. 335; 478; Odo, P. 65; WT, PP. 131; 196, 721, 1040; Libellus, PP. 242-8; Est. 4047-50, 6067, 6283.

كانا سلاحين خفيفين . وكان النبل يخترق دروع الفرنجة دون أن يجرح جسم لابسه غالباً[1] . حتى أن الكتّاب كثيراً ما يستخدمون صورة النيص (حيوان من القوارض يشبه القنفذ Porcupine) لتصوير مظهر الرجال أو الحيوانات الذين تعرضوا لرماية النشابين .[2]

كان الاستخدام التكتيكي لهؤلاء النبالة يهدف الى تحطيم تماسك العدو . ويمكن تحقيق ذلك بتكبيده الخسائر لا بالرجال فحسب بل وبالخيول أيضاً . وقد سجل شاهد عيان أن مختلف الحملات الصليبية التي عبرت آسيا الصغرى خلال القرن الثاني عشر تعرضت لإنهاك شديد نتيجة خسائرها بالخيول[3] ، إذ كثيراً ما كانت تعاني نقصاً بالعلف والمياه[4] ، كما كان لحم الخيل مطلوباً لإطعام الحجيج[5] ، أضف الى ذلك أن عدداً كبيراً من الخيول كان يقتل بسهام المسلمين[6] . وكان ذلك الخطر يظل قائماً كلما لجأ الفرنجة الى ميدان القتال طوال القرن الثاني عشر . إذ كان الفرنجة يعتمدون الهجوم الراكب لتحقيق النصر في المعركة بينما كان المسلمون يدركون تماماً أهمية تدمير خيول الفرنجة[7] .

كانت السهام ــ الى جانب الخسائر التي تحدثها ــ تتسبب في خلق توتر نفسي بين صفوف الجنود الذين تنهال عليهم . ولما كانت أفضل طريقة مؤكدة لتحييد

---

1) Odo, P. 69, said of Louis VII: 'sub lorica tutatus est a sagittis' (sc. Turcorum).

2) WT, P. 788; Est. 11630; AS, P. 2. Itin. P 423.

3) Anon. P. 78; HEp. PP. 157, 169; Odo, P. 69, 74. HEF, PP. 4; 74; Ep. mor. P. 176; AA, P. 427.

4) Odo, P. 71; Ep. mor. P. 174; HP, P. 155.

5) HEP. P. 159, 163, 166; Odo., P. 73; HEF, PP. 79, 81, 83; Ep. mor. P. 176; Itin P. 168.

6) RA, P. 243; WT, P. 131, 1052; Odo, P. 69; Ep. mor. PP. 174-5; Itin. PP. 118, 263; IQ, P. 199; IA, P. 683.

٧) بينما كان صلاح الدين يعمل على إنهاك ريتشارد في مسيره من عكا إلى يافا (آب ــ ايلول ١١٩١) كان يهتم اهتماماً شديداً بالخسائر التي لحقت بخيول الفرنجة بفضل نشاط النشابين ، بهاء الدين ص ٢٤٩ و ٢٦٢ ، أنظر كذلك ابن القلانسي ص ١٩٩ ، وأبو شامة ص ١٧١ ــ ٢٧٢ ، وكان القادة البيزنطيون يدركون جيداً قيمة مثل هذه الخسائر (أنا كومنينا ص ١٢٩ ، ١٨٥) .

الأسلحة القاذفة المعادية هي الاقتراب من الجنود الذين يستخدمونها ما أمكن ذلك[١]، فقد كان المسلمون يلجأون دائماً الى استفزاز الفرنجة وتحريضهم على الهجوم وترك تشكيلاتهم عن طريق رماة السهام[٢].

لم تكن حركية المسلمين ورمايتهم بكافيتين وحدهما لتحقيق النصر لهم. إذ أن هاتين الوسيلتين ليستا سوى وسائل لإضعاف العدو، أما هزيمة العدو النهائية في ميدان المعركة فلا يمكن تحقيقها إلا بالقتال القريب والالتحام معه بالرمح والسيف والهرواة، وتشير كتابات كثيرة ــ ذكر بعضها سابقاً ــ الى أن المسلمين عندما يجدون الفرصة مؤاتية للالتحام كانوا يعلقون أقواسهم على مناكبهم وينقضون على الفرنجة[٣]. وقد رسم وليم الصوري هذه الصورة في نصه اللاتيني الأصلي[٤]. ويمكن القول مرة أخرى إنه بالرغم من أن ذلك الأسقف كتب ما كتب بعد مدة طويلة من تلك الأحداث فإن معرفته بسورية وشعوبها لا تبارى، ويدل حديثه عن ذلك بمثل هذا التفصيل على عادة متأصلة لدى المسلمين على الأغلب ولو لم تحدث في دوريليوم.

لاحظ شهود عيان من اللاتين على امتداد القرن الثاني عشر أن المسلمين كانوا يستهلون القتال على مرمى السهام ثم ينقضون للالتحام بعد ذلك بغية حسم الموقف عنوة. وقد رسم كل من فُلتشر ورالف Ralph في سجلاتهم عن دوريليوم صورة

---

١) أنظر Delbruck III, P. 304

٢) كان قادة الفرنجة يضطرون أحياناً إلى اتخاذ تدابير صارمة لضمان مقاومة رجالهم لمثل هذه الاستفزازات. وهنالك شواهد على أن صلاح الدين كان يهتم بتحريض الفرنجة على شن الهجوم في غير موعده، أنظر بهاء الدين ص ٧٥، ٢٥٢، ٢٦٢، وابن الأثير، م ٢، ص ٣١.

3) RHC, Hist. occ. II, P. 606: 'Li Tur virent que nostre gent et leur chevaux estoient moult blecié et a grant meschief, si pandirent isnellement leurs arz aus senestrez braz esouz leur rouelles et leur coururent sus moult cruelement as masces et as espees'.

4) WT, P. 132: 'invalescebant igitur hostium agmina, et nostris pene deficientibus, arcu ab humeris dependente et ejus neglecto officio, gladiis instant cominus'.

للمسلمين وهم يهاجمون بالسهام أولاً ومن ثم بالرماح والسيوف[1]. وتلاحظ المرحلتان المذكورتان في معركة ساحة الدم ومعركتي هاب وحطين وعند أرسوف ، ويمكن ايجاد شواهد كثيرة عنها في سجلات تلك الفترة. ولم يكن السلاجقة يتعجلون الالتحام مع العدو لأنهم كانوا يرغبون بادىء ذي بدء في تحقيق أكبر تفوق يمكن بلوغه عن طريق الرمي والحركة. لقد كان التكتيك الذي يطبقه المسلمون تعبيراً طبيعياً للسلوك الفطري الذي يفترض ضرورة تحقيق الجيش لكل ميزة ممكنة على خصمه قبل أن يتورط في معركة لا رجوع عنها. وكانوا يحققون تلك الميزة بالمفاجأة أحياناً، ويكون العمل التمهيدي غير ضروري[2] وقتئذ، أو يضطرهم العدو اضطراراً الى الالتحام الفوري بالقتال رغم إرادتهم[3]. ولكن المسلمين كانوا يظلون عادة بعيدين عن العدو محتفظين بحريتهم في الاختيار، فإما أن يطوروا المعركة أو يتخلوا عنها، ولا يعرضون أنفسهم للقتال القريب إلا عندما يهيئون له الظروف المناسبة بالرمي والحركة.

٤ ـ مصر

كان خطر مسلمي الشمال على مملكة القدس أعظم بكثير من تهديد حكام مصر، رغم أن ممتلكات الفرنجة في فلسطين تعرضت أكثر من مرة لخطر الهجوم المعاكس من جانب مصر في العقد الأول من القرن الثاني عشر. وكانت الدولة

---

1) Fulcher (P. 335) refers to Turks 'pluviam sagittarum vehementer emittentes', and later, when the Christians were in confusion, 'super nos irruebant'. RC, P. 622: 'Quum subito irruunt, primo sagittis, mox ensibus saevientes Turci.' Fulcher was an eyewitness. RC received his information from Tancred, and later had personal experience of Syria.

٢) من ذلك مثلاً هجوم نور الدين على بلدوين الثالث عند بحيرة الحولة في العام ١١٥٧، ابن الأثير ص ٨٤١، أبو شامة ص ٨٩، ابن القلانسي ٤٧٢.

٣) كان بوهمند قادراً على فعل ذلك عند رد محاولة نجدة أنطاكية في التاسع من شباط ١٠٩٨، أنظر فيما يلي ص ... وفي معركة اعزاز في العام ١١٢٥ لم تنفذ رمايات تمهيدية (فلتشر ص ٤٧٢).

الفاطمية بثرواتها الغنية[1] وأجهزتها الحكومية جيدة التنظيم[2] تشكل عدواً كامناً أشد هولاً على الفرنجة مما كانت تشكله الامبراطورية السلجوقية في ظل ملكشاه وخلفائه من بعده. وكان الفاطميون يملكون حافزاً قوياً يدفعهم دائماً للتعويض عن خسائرهم، نظراً لأن القدس وجنوبي فلسطين والمدن الساحلية حتى جبلة شمالاً كانت ولاية تابعة لمصر قبل العام ١٠٩٩.

كانت قابلية الحكومة الفاطمية لطرد الفرنجة مرهونة بمدى السلطة التي يتمتع بها رأس تلك الحكومة الذي يعرف بالوزير في نهاية القرن الحادي عشر. وعندما يكون ذلك المنصب في يد غير كفء، أو موضع نزاع، كانت الحكومة ـــ والسياسة العسكرية بالتالي ـــ مشلولة على الأغلب بحرب أهلية. أما إذا كان الوزير ـــ من جهة أخرى ـــ مسيطراً سيطرة تامة على الحكومة والجيش فيستطيع توجيه موارد مصر الهائلة ضد أعدائها ما وراء الحدود.

وكانت مصر فيما بين العامين ١٠٩٤ و ١١٢١ خاضعة لسلطة «الوزير الأفضل» القوي الذي كان يمارس صلاحياته كاملة. وقد اتبع الأفضل سياسة ايجابية إزاء الوضع الجديد الذي خلقه الاحتلال اللاتيني. وبعد فشله في العام ١٠٩٧ في الوصول الى اتفاق حول اقتسام سورية مع الفرنجة راح ينظم كل سنة تقريباً ـــ في الفترة بين العام ١٠٩٩ والعام ١١٠٧ ـــ سلسلة من الحملات الرئيسية التي كانت تدخل فلسطين عن طريق عسقلان والسهل الساحلي. وكانت هذه الجيوش تتعرض

---

١) تدين مصر بغناها لزراعتها وصناعتها وتجارتها المزدهرة بالدرجة الأولى، أنظر Wiet, l'Egypte arabe, ص ٣٠٥ ـــ ٣٠٧، وكذلك Heyd, Histoire du commerce du levant المجلد الأول ص ١٦٧. وللاطلاع على وصف معاصر لثروة مصر ونشاط الاسكندرية التجاري أيام الصليبيين أنظر وليم الصوري ص ٩٣٠ ـــ ٩٣١.

٢) كانت مصر تحكم في العصور القديمة وفي العهد البيزنطي بحكومة مركزية قوية (Rostovtzeff, Journal of Egyption Archaeology, Vol. VI, PP. 161-71) ولم تخرق هذه التقاليد في عهد الحكم العربي (Moss, Birth of the Middle Ages, PP. 165-4; Lane-Pole, History of Egyptin in the Middle Ages, P. 18)، أنظر أيضاً المصدر السابق ص ١٥٤ ـــ ١٥٧ للاطلاع على تنظيم أقسام الحكومة في العهد الفاطمي، بالرجوع إلى وصف القلقشندي.

للهزيمة أو ترتد على أعقابها دون إنجاز شيء في كل مرة، باستثناء العام ١١٠٢ عندما حققت نصراً حاسماً دون أن تستثمر ذلك النصر. وبعد العام ١١٠٧ قلص الأفضل جهوده ضد الفرنجة الى مستوى إغارات صغيرة تقوم بها حامية عسقلان.

عقب اغتيال الأفضل في العام ١١٢١ أرسل خَلَفهُ جيشاً لمهاجمة يافا، ولكن الحملة هزمت عند يبنه (ايبلين Ibelin) هزيمة منكرة كما حدث لسابقاتها. ومنذ ذلك الحين لم تعد مصر تشكل خطراً على مملكة اللاتين حتى أصبح صلاح الدين حاكماً للبلاد في العام ١١٦٩. وكانت إدارة الدولة موضع نزاع دائم بين الخليفة والوزير أو بين متمردين يطالبون بمنصب الوزير[1]، وأدت هذه النزاعات الى حدوث انقسام في الجيش وحرب أهلية نتيجة لذلك[2]. وأضحت مصر ــ في خضم الفوضى التي عمت مراتبها العليا ــ عاجزة عن مهاجمة الدول الأخرى، بينما أخذت هي نفسها ــ اعتباراً من العام ١١٦٣ فما بعد ــ تتعرض للهجوم عليها من سورية المسلمة واللاتينية إلى أن تحولت في العام ١١٦٩ الى ولاية من ولايات الدولة الزنكية، ثم الى قاعدة للامبراطورية الأيوبية بعد سنوات خمس من ذلك التاريخ. وعلى هذا النحو حالت الهجمات المعاكسة المتتالية وغير الناجحة والانقسامات الداخلية الخطيرة، التي أعقبتها في الفترة بين العامين ١١٠٧ و ١١٧٠، دون أن تكوّن مصر ذلك الخطر الجاثم الذي يهدد الدول اللاتينية.

كان السبب الأبعد في ذلك هو تفوق اللاتين تكتيكياً في الحرب. إذ كانت الجيوش المصرية في تلك الفترة تضم أحياناً فرقاً سلجوقية[3] ولكنها كانت تجند بصورة رئيسية من العرب والبربر والسودان. ولا يحاول الكثير من كتاب العصور الوسطى

---

١) أنظر Wiet, l'Egypte arabe ص ٢٦٧ ــ ٢٩١ للاطلاع على خلاصة عن أحداث تلك الحقبة. كما يمكن الرجوع إلى مذكرات أسامة ص ٤٤ ــ ٥٤ للاطلاع على التسجيل الشخصي لفترة محددة من هذه المشاكل. وقد كان له دور بارز في ثورة هامة حدثت في القصر.

٢) أنظر Wiet, l'Egypte arabe ص ٢٧٣ وما بعدها، وكذلك Wustenfeld في كتابه Gesehichte der Fatimiden chalifen. III, PP. 81,87.

٣) كما في معركة الرملة في العام ١١٠٥، أنظر فيما يلي ص ٢٦٢

والمحدثين إطلاع قرائهم دائماً على الفروق الكبيرة بين العرب والأتراك تاريخياً وعرقياً وحضارياً ولغوياً[١]. إذ تمتد هذه الفروق حتى تشمل الطرائق الحربية التي يطبقها كلا الشعبين. فالعرب يقاتلون على ظهور الخيل ولكنهم ليسو كالترك في طرائقهم ولم يكونوا يستفيدون استفادة كاملة من حركيتهم (!). ويبدو أن معداتهم الحربية كانت مماثلة لتلك التي لدى الفرنجة[٢]، ويقاتلون مثلهم قتالاً قريباً بالسيف والرمح[٣]. أما الرماية في الجيش المصري فكانت من نصيب الجنود المشاة الذين يجندون من السودان. وهؤلاء هم الأحباش الذين ذكرهم فلتشر على أنهم جزء من الجيوش الفاطمية التي شهد القتال ضدها[٤]، وكانوا يقاتلون راجلين رماة السهام، كما سجل ذلك بعض المراقبين من اللاتين الذين حضروا معركة عسقلان في العام ١٠٩٩ وأرسوف عام ١١٩١[٥].

لقد سبق وذكرنا أن المؤرخين العسكريين، الذين كتبوا قبل أومان Oman، لم يأتوا على ذكر أي تمييز بين جنود الترك والعرب . وعند إعادة تركيب المعارك التي دارت بين جيوش اللاتين والفاطميين يقرون بأن القوات المصرية كانت تطبق تكتيك الالتفاف حول عدوها أحياناً، وبما أن هذه المناورة كانت مطبقة لدى السلاجقة

---

١) بالنسبة لكتاب العصور الوسطى أنظر بروتز (Prutzs, Kulturgeschichte, PP. 59, 509)، وفي العصور الحديثة أغفل المؤرخون العسكريون الفروق بين الشعبين أيضاً. وحتى هيرمان Heermann، الذي عرف عنه دقته واهتمامه بالتفاصيل، لم يشر أبداً إلى أنه يدرك ذلك الفارق أو أهميته (أنظر (Gefechtsfuhrung, P. 120) بينما لاحظ كوهلر Kohler الفارق باقتضاب في المجلد الثالث ص ١٣٨ ولكنه لم يرجع إليه قط بعد ذلك وكذلك الأمر بالنسبة لدلبش Delpech. أما أول مؤرخ عسكري يركز اهتمامه على هذه الناحية فهو أومان (Oman, I, P. 289).

٢) أنظر أسامة ص ١٧٣ للاطلاع على صعوبات التعارف والتمييز المتبادلة.

٣) يبدو ذلك واضحاً تماماً في مذكرات أسامة، وهو عربي لا يعرف التركية، ويبدو أنه لم يقاتل بالقوس والسهم إطلاقاً ولكنه يقاتل بالرمح وكان معجباً به ويحكي الكثير من الحكايا عن طعنات الرمح الشهيرة أنظر أسامة ص ٦٩ — ٧٠، ٧٦ — ٨٠، ١٣٢.

٤) أنظر Fulcher, PP. 362, 411

٥) Albertus Aquensis، أعرب ألبرت عن ألمه عندما ذكر أنه تلقى معلوماته عن معركة عسقلان من أولئك الذين كانوا حاضرين. أما معركة أرسوف فانظر Itin P. 262

أيضاً فقد استنتج المؤرخون على ما يبدو أن جميع المسلمين الشرقيين يقاتلون بهذه الطريقة. ولحسن الحظ أن هناك شواهد تمكننا من تصحيح هذا الحكم. فمناورة التطويق السلجوقية كانت شيئاً طبيعياً لهجوم النبالة الراكبين، الذين لا يبقون ثابتين عند إقامة التماس مع العدو وإنما يستفيدون من حركيتهم للكر عليه ومن جميع الجهات. وهم يفعلون ذلك مهما كانت الظروف حتى ولو كانوا أقل عدداً من العدو[1]. ولم يكن النبالة الراكبين يشكلون جزءاً من الجيش الفاطمي، ففي المعارك التي دارت في الفترة ما بين العامين ١٠٩٩ و ١١٢٣ لا يوجد أي دليل على وجودهم فيما عدا استثناء واحد. وينحصر هذا الاستثناء في معركة الرملة في العام ١١٠٥ عندما هاجمت فرقة التركمان الفرنجة بالأسلوب التقليدي[2]. ولكن المعروف أنه في هذه المناسبة أرسل طغتكين أتابك دمشق فرقة من لدنه لنجدة المصريين[3]. ويكاد يكون من المؤكد أن التركمان الذين وصفهم فلتشر هم جنود طغتكين. أما حقيقة تطويق القوات المصرية للفرنجة في مناسبات أخرى فلم تكن نتيجة مناورة الرماة الراكبة وإنما نتيجة التفوق العددي. حيث يقول فلتشر عن الهجوم الفاطمي خارج يافا في العام ١١٠٢[4] «Et quia multitudo magna erant, gentem nostam giraverunt» وفي معارك أخرى جرت في المنطقة ذاتها تمكن المصريون من تطويق الفرنجة للسبب نفسه (أي للتفوق العددي).

وثمة برهان آخر على الفروق بين الجنود الترك والعرب يقدمه كاتب مجهول من الفرنجة في كتابه مآثر الفرنجة Gesta Francorum. وكان هو نفسه مقاتلاً[5] معجباً بالصفات العسكرية للأتراك السلاجقة[6] ويحترمها، وقد ترك وصفاً قصيراً وحيّاً عن

---

١) أنظر Raimundus de Aguilers في RHC ص ٢٤٤.

٢) أنظر Fulcher P. 413

٣) ابن القلانسي ص ٧١.

٤) أنظر فلتشر ص ٤٠٤.

٥) أنظر Bréhier, in Anon P. iii

٦) أنظر Anon. P. 50

تكتيكهم"[1]. وعندما بدأ يتحدث عن أول مواجهة له مع الجنود الفاطميين عند عسقلان راح يصف بوضوح خصماً مختلفاً تماماً: ـــ «Pagani Vero stab ont parati ad bellumm»[2] ـــ، وبعد بضعة أسطر استخدم الفعل نفسه: ـــ « Stobant autem inimici Dei... »[3] ـــ ولم يكن لديهم أي نبّالة راكبين أو أية قدرة على الحركة

كان الفاطميون بكتلة رماة السهام الراجلة والخيالة القادرين على التريث للهجوم ـــ وهذا ما لم يكن يفعله السلاجقة ـــ يشكلون هدفاً ثابتاً لأسلحة الفرنجة التكتيكية الأقوى: هجوم الفرسان الراكبين في دروعهم الزردية. ونحن نعرف من سجلات معركة عسقلان أن المصريين هزموا آنئذ « من أول هجمة لنا » «Pro solo impetu nostro»[4] وفي اشتباكات أخرى « فروا هاربين لتوهم » «dederunt fuganm repentiam»[5] و « وهربوا مبتعدين هكذا باستمرار » «Cantinuo m fugam moti sunt»[6] لقد كانت هذه المعارك قصيرة بالتالي ولم تكن تطول أكثر من « ساعة على أبعد تقدير » «horae parvae spatio»[7] ولم تطل معركة يبنة أكثر « من ساعة على الأغلب » . «non langa hora protrahitur»[8]. ولهذه الأسباب لم يكن الفرنجة يخشون المصريين إطلاقاً كما كانوا يخشون جيوش سورية والجزيرة المسلمة حتى جاء

---

١) المصدر نفسه "Turci undique jam erant circumcingentes nos dimicando et jacubando et mirabiliter longe loteque sagittando".

2) Anon. P. 122

3) Anon P. 214

٤) Epictulae et chartae, ed. Hagenmeyer, P. 172 ، ويستخدم رايموند أغيليه عبارة "uno impetu" للمناسبة نفسها والمعركة ذاتها Raimondus de Aguieers in RHC, Hist. occ. III. P. 305.

٥) أنظر Fulcher P. 414.

٦) المصدر السابق ص ٤٥١ .

٧) المصدر السابق ص ٣٦٣ .

٨) المصدر السابق ص ٤٥١ .

عصر صلاح الدين.[1] وكانوا معجبين بالصفات العسكرية للسلاجقة ولكن السلاجقة والفرنجة كلاهما كانوا يتلمظون شهوة على ثروات مصر ويبخسون رجالها حقهم.

١) يشير وليم الصوري في وصف الخلفاء المصريين للملك أملريك في حملته التي قادها ضد شيركوه في مصر في العام ١١٦٧ فيقول : "Egyptiis vilibus et effeminatis, qui potius impedimento et oneri essent quam utilitati". ولاحظ كذلك الكلمات التي وصف بها وليم الصوري (ص ٩٠٣) شيركوه ، والتي وصف بها ابن الأثير (ص ٥٥٤) الفرنجة الذين حرضوا أملريك على مهاجمة مصر في العام ١١٦٨ .

الفصل الخامس

الجيوش اللاتينية



١ ـــ التجنيد

كانت الجيوش التي ينظمها حكام أوربا الغربية خلال القرن الثاني عشر ، تقوم على الخدمة المفروضة على أصحاب الإقطاع من الطبقة العسكرية . أما في حالات الطوارىء فتقوم على التزام شعبي قديم يتعهد فيه كل رجل حر بالخدمة عندما تدعو الحاجة الى ذلك ، وكانت القوات التي تستنفر بالأسلوبين السابقين كلهما غير مضمونة القدرة لأسباب كثيرة سوف تناقش فيما بعد ، وتبين بمرور الزمن أن من الأنسب تعزيزها أو استبدالها جزئياً بجنود مأجورين . وفي سورية اللاتينية استغلت مصادر التجنيد الثلاثة المذكورة ، أي القوات الاقطاعية والنفير العام (التعبئة العامة) arriere ban والمرتزقة وأضيف إليها جميعاً المتطوعة من جماعات الحجيج وفرق الأخويات الرهبانية الفرسانية العسكرية التي كانت هيمنتها تتزايد يوماً بعد يوم .

قال لامونت La Monte ـــ وهو محق في ذلك ـــ « إن الفرسان الذين التزموا بالخدمة العسكرية مقابل إقطاعهم ـــ سواء كانت أرضاً أم نقوداً ـــ كانوا يشكلون العمود الفقري للجيش في مملكة اللاتين »[١] . وكان الصليبيون الأوائل قد جلبوا معهم مؤسساتهم الإقطاعية من أوربا ، وعندما يعمد الحاكم الى منح رعاياه أراضي يتصرفون

---

١) أنظر La Monte "Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem", 1100-1291, P. 158

بها فهو إنما يفعل ذلك لقاء التزامهم بخدمات معينة ، من بينها الالتحاق بسيدهم في الزمان والمكان اللذين يحددهما للقيام بحملة ما ، مصطحبين معهم كامل أسلحتهم وعدتهم . فإذا كان الإقطاع يشتمل على التزام بالخدمة لأكثر من فارس واحد توجب على هذا التابع أن يجند العدد المفروض على إقطاعه من الأفراد التابعين له . وكل ذلك مسجل بوضوح في كتابات رجال القانون الذين درسوا تفاصيل الخدمة العسكرية المستحقة على الأتباع الإقطاعيين ، وتؤكده الصكوك العائدة للقرن الثاني عشر والتي تسجل مواثيق الخدمة الفرسانية[1] . لم تقدم التسجيلات المحفوظة عن سورية في القرن الثاني عشر أية معلومات عن العدد الصحيح للفرسان الذين كانوا موجودين فيها ، ولم ترسم صورة واضحة للاقطاع العسكري الذي كان قائماً آنذاك ، بيد أنه توجد وثائق إدارية محفوظة عن الدول المعاصرة في أوربا الغربية تعطي فكرة كافية عن هذا النظام . وهي توضح عدد الفرسان (الأشخاص الحاملين لرتبة فارس) والجنود الآخرين الموجودين آنئذ والمناسبة التي منحوا فيها تلك الألقاب ، وأسلوب المنح ، ومدة خدمتهم في فترة محددة[2] .

والمعلومات الوحيدة التي يمكن أن تقارن بها والمتعلقة بسورية اللاتينية هي تلك التي يقدمها أحد القضاة في القرن الثالث عشر واسمه جون ايبلين John of Ibelin . وهو يذكر في كتابه « كتاب قواعد البلاط » Livre des Assises de la Houte Cour تفاصيل خدمات الفروسية المفروضة على رجال الاقطاع العسكريين من أتباع ملوك القدس[3] . وكانت الخدمة من نوع servitia debita (الخدمة الملتزمة) تتراوح بين

---

١) للاطلاع على نماذج هذه الصكوك أنظر Regesta regni hierosolymitani, ed. Rohricht. nos, 447, 465, 517.

٢) للاطلاع على الدراسات المتعلقة بالتنظيمات العسكرية بالإستناد إلى هذه التسجيلات أنظر H.M. Chew في كتابه the English Ecclesiastical Tenants-in-chief and Knight Service ، وكذلك J.E. Morris في كتابه the Welsh Wars of Edward I. وكذلك E. Auduin في كتابه Essai sur L'armée royale au temps de Philippe-Auguste.

٣) أنظر John of Ibelin, RHC Lois, I. PP. 422-6

مئة فارس كانت تلتزم بهم أكبر ثلاث بارونيات في المملكة، وبين الخدمة الشخصية لأتباع مقطعين مفردين وكان المجموع ٦٧٥ فارساً[1] «نبيلاً».

إن تلك اللائحة ليست معاصرة لموضوعنا، نظراً لأن ايبلين المذكور لم يكتب كتابه إلا في عام ١٢٦٥ . ومع ذلك يجب أن ينظر الى المعلومات التي يقدمها عن المملكة السابقة نظرة قبول نظراً لأنه كان من أسرة إقطاعية لها دورها المميّز في شؤون مملكة القدس (وفي قبرص أيضاً بطبيعة الحال) منذ أواسط القرن الثاني عشر. وكان جون ايبلين كونتاً لعسقلان ويافا. وتتمتع شواهده عن الخدمة الفرسانية بقوة أكثر، بسبب تضمينها تفاصيل يمكن التحقق منها والتثبت من صحتها بالرجوع الى الصكوك المتبقية من القرن الثاني عشر. وهو يذكر عدداً كبيراً من الأتباع الاقطاعيين بأسمائهم، ممن كانوا شهوداً على وثائق العهد الأسبق، وبخاصة في السنوات المحصورة بين عامي ١١٧٠ و ١١٨٦[2]. وليس ثمة سبب يدعو للشك في دقة تقرير جون ايبلين عن خدمة الفروسية التي كان يفرضها ملوك اللاتين في العقد السابق لفتح القدس على يد صلاح الدين.

---

١) حدد جون ايبلين بالذات وناشر الكتاب العدد الإجمالي بأنه ٥٧٧ فارساً . وكرره بروتز ودودو وبريير وشالاندون ولامونت ورانسيمان وجميع الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع . أما إذا جمعت الأرقام فيمكن الخروج بأكثر من جواب واحد . إذ يقول ايبلين مثلاً ان عدد الفرسان المفروضين على الملتزمين بمدينة عكا هو ثمانين فارساً ، ولكن جمع الأعداد المتفرقة في المدينة يعطي ستاً وسبعين ، ومهما كان العدد المجموع بالتفصيل فإن الإجمالي لا يقل عن ٦٤٧ فارساً ، وإذا ما تجاوزنا التناقضات في التفاصيل يكون العدد ٦٧٥ فارساً . (والمقصود هنا هو من يحمل لقب فارس من أصحاب الاقطاع ــ م . م) .

٢) جاء ذكر فيليب لورو (ذو الشعر الأحمر) Phelippe le Rous مثلاً في لائحة إيبلين ص ٤٢٢ ، كما ذكر أيضاً باسم فيليبوس روفوس Philippus Rufus or Ruffus في سجلات المملكة تحت الرقم ٤٧٧ (العام ١١٧٠) و ٥١٧ (العام ١١٧٤) و ٥٢٥ (العام ١١٧٥) و ٦٠٨ (العام ١١٨١) . كذلك ورد اسم Lorens de Franc leuc (إيبلين ص ٤٢٣) شاهداً في السجلات رقم ٥٧٩ (١١٨٠) و ٦٠٨ (١١٨١) . واسم Ansel Babin (ايبلين ص ٤٢٣) ولكن باسم Anselinus Babini شاهداً في السجلات رقم ٥٠٣ (١١٧٣) و ٥٣٦ (١١٧٦) و ٦٥٣ (١١٨٦) . أنظر لامونت Feudal Monarchy ص ١٤٨ للاطلاع على أمثلة أخرى .

إن العدد المذكور ــ ٦٧٥ ــ لا يمثل بطبيعة الحال القوة القصوى المتوفرة. فقد لاحظ راي Rey منذ زمن أن إقطاعات معينة أغفلت من لائحة ايبلين، وحدد بيير Beyer عدد هذه الاقطاعات المغفلة[1] ويستند المؤلف في إحصائه الى الخدمة التي كانت مفروضة في يوم من الأيام على بانياس وصُبيبة قبل أن يستردهما نور الدين في العام ١١٦٤. وهو يجهل القيمة الكمية لتلك الخدمة ولم يضمها الى الأرقام التي ذكرها. كما يضم كذلك فرقة المائة فارس الذين ذكرهم في فصل سابق خدمةً مفروضة على كونتات طرابلس. وربما حذفها جون ايبلين لأنها لم تكن تنضم الى جيش الإقطاعات التابع للقدس إلا إذا دعيت لهذا الغرض خصيصاً.

أما فيما يتعلق بأمارة أنطاكية وكونتية الرها فلا يتوفر من مؤشرات قوتيهما الاقطاعية إلا القليل جداً. ويبدو أنه من الممكن الافتراض أن خدمة الفروسية في أنطاكية شبيهة بتلك التي كانت في القدس ويمكن موازنتها بها[2]. وربما كانت بعض الأرقام مأخوذة عن والتر Walter المستشار المعروف لروجر (روجيه) أمير أنطاكية لا تخلو من الأهمية. فقد كان موجوداً عندما هزم إيلغازي جيش روجر في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام ١١١٩، وهو يقول بأن عدد الفرنجة في ذلك اليوم كان سبعماية فارس وثلاثة آلاف راجل[3]. ولم تأت أية نجدات من الدويلات اللاتينية الأخرى. وإذ جاز لنا أن نفترض أن قوة الإمارة بأكملها قد استنفرت لمجابهة هذا الغزو لأمكننا القول بأن خدمة الفروسية في أنطاكية آنئذ كانت تضم حوالي سبعمائة فارس. ولكن من المحتمل أن يكون ذلك العدد قد تناقص الى درجة كبيرة بعد الخسائر المستمرة بالأراضي باستيلاء زنكي ونور الدين عليها، ومع غياب كونتية الرها في السنوات ١١٤٤ ــ ١١٥٠ تصبح المصادر العسكرية الإقطاعية لدى الفرنجة في جنوبي سورية أوفر منها في شماليها.

يقول جون ايبلين إن الخدمة العسكرية الخاضعة لملوك القدس لم تكن تقتصر

1) Rey, Colonies, PP. 110-111; Beyer in ZDPV, LXVII, 201

2) Cahen, Syrie du Nord, P. 328

3) Galt, P. 88.

على الأتباع من الاقطاعيين فقط، وإنما كانت تشمل أيضاً رجال الاكليروس والمجتمعات المدنية كذلك. ولم يكن هؤلاء يلتزمون بالخدمة مثل الفرسان وإنما برتبة سرجندية Sergant . ولم يكونوا يجندون لكل حملة أو أية حملة، وإنما عندما تدعو الحاجة الملحة، وعلى أراضي مملكة القدس فقط «qoant le grant besoin est sur la Terre dou reiaume de Jerusalem» وفي مثل حالات الطوارىء هذه كان بطرك القدس ورهبان كنيسة القيامة والجالية المدنية في كل من القدس وعكا ملتزمين بأن تقدم كل جهة منهم خمسماية سرجندياً للتجنيد. وكانت هذه أكبر فرق مفردة قيد الطلب، ويليها في ذلك العدد المطلوب من رئيسي أساقفة الناصرة وصور وأسقف عكا ورئيس دير جبل صهيون Mont Sion والبالغ مائة وخمسون من كل منهم. وهكذا يكون مجموع هذه الخدمة التي ذكرها ايلين والمفروضة على كل المملكة هو ٥٠٢٥ سرجندياً فقط[1] .

لم يذكر ايلين فيما إذا كان السرجندية المطلوبون للخدمة راكبين أم رجالة، ويفترض الكتاب الحديثون أن الخدمة كانت تشمل النوعين معاً دون تقديم الأسباب التي دعتهم الى ذلك[2]. ويبدو أن الأرجح كونهم من الأجناد المشاة. إذ أن الشخص المناسب للقتال على متن الفرس يعد فرداً باهظ التكاليف بمعداته. ورغم غنى الكنيسة والطبقة البرجوازية مع حقيقة اعتبار خدمة كل سرجنديين اثنين مكافئة عموماً لفارس واحد[3] فإنه من غير المحتمل، بشكل عام، أن يكونوا ملزمين بتجهيز مثل هذا العدد الكبير من الفرسان الذي يبلغ أضعاف ما يلتزم به تابع واحد

---

١) يمكن العثور على جميع الحقائق المذكورة في هذه الفقرة في كتاب ايلين ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧ .

٢) أنظر Cahen, Syrie du Nord, P. 328 حيث يقول انهم راكبون، بينما يقول Chalandon في كتابه Première Croisade ص ٣٢٤ أن السرجندية كانوا يشكلون المشاة "Les sergents formaient L'infanterie. . ." وكذلك يقول راي Rey, Colonies, P. 110 وغروسيه Grousset, l'Empire du levant P. 285

٣) للوقوف على دليل عن هذا التقويم أنظر Chew, Ecclesiastical Tenants-in-chief ص ٩١ ، و Morris, Welsh Wars ص ٤٤ ــ ٤٥ .

رئيسي. كما أن حقيقة كون هذه الفرق تستدعى عند الطوارىء فقط تدل على أنها مؤلفة على الأغلب من جنود مناسبات غير مدربين تدريباً كافياً على القتال راكبين.

يمكن أن تلقي التنظيمات العسكرية المماثلة في فرنسا في عهد الأسرة الكابتيه[1] Capetian France، والمعروفة لنا بشكل أفضل، بعض الضوء على هذه المسألة الغامضة. ومن ذلك محتويات وثيقتين إداريتين هامتين محفوظتين منذ عهد فيليب أوغسطس. تعرف الأولى باسم بريسيا سيرفينتوم Prisia Servientum، وهي سجل للسرجندية المفروضين على الجاليات (الجماعات) المختلفة الموجودة في الأراضي الملكية، والوثيقة الثانية سجل إيرادات الملك الفرنسي ومصروفاته خلال عامي ١٢٠٢ ــ ١٢٠٣. ولقد أتلفت اللفيفة الأصلية خلال القرن الثامن عشر إلا أنها استنسخت لحسن الحظ وطبعت من قبل بروسيل[2] Brussel. إن هذين السجلين معاً يؤمنان لنا تفاصيل كثيرة عن تأدية خدمة السرجندية لدى ملوك الكابتيين The Capetian Kings[3]. وهي تدل على أن السرجندية المماثلين لنظائرهم في مملكة القدس كانوا يفوقون الفرسان عدداً بدرجة كبيرة، وكانوا يُقبلون بالخدمة مشاة، ويبدو أن الأمر كان كذلك على الأرجح في الشرق اللاتيني. إلا أن السجلات السورية لم تقدم ــ على أية حال ــ دليلاً يوضح القيمة العملية لهذا النوع من الخدمة. وليس واضحاً كيف فسرت عبارة الحاجة الملحة «grant besin» بحيث ظلت المناسبات التي يدعي فيها هؤلاء السرجندية جميعهم أو بعضهم غير

---

١) الكابتية نسبة إلى كابيت Capet وهو لقب أطلق على هو غ الأول ملك فرنسا نسبة إلى قبعته.

٢) أنظر ن. بروسل .Nouvel Examen de l'usage général des fiefs en France وفي نهاية المجلد الثاني لطبعة العام ١٧٥٠ باريس ص CXXXIX-CCX طبع بروسيل اللفيفة الكبيرة المسماة "gros rouleau en la chambre des comptes" والتي أسماها الحسابات العامة لإيرادات الملك الاعتيادية واللا اعتيادية للعام ١٢٠٢. أعيد طبع نسخة بروسيل وتم تحليل الوثيقة كلها من قبل ف. لو F. Lot و ر. فوتييه R. Fawtier في مؤلفهما ."Le Premier Budget de la monarchie"

٣) إن المؤلف الشامل لهذا الموضوع هو كتاب ي. أوديون "Essai sur l'armée royale au Temps de Philippe-Auguste" وهو يستند إلى أبحاث المؤلف القيمة حول الوثيقتين سابقتي الذكر.

مؤكدة[1]. وربما أمكن الافتراض أنهم كانوا يستدعون للخدمة أثناء عمليات الغزو الكبيرة للملكة مثل الغزوات التي شنها صلاح الدين خلال الأعوام ١١٨٢ ــ ١١٨٧ . وتؤكد وجهة النظر هذه الى حد ما تلك الأعداد المسجلة عن الجنود المشاة Pedites الذين كانوا يعملون في ميدان القتال[2].

تبقى هنالك إمكانية تجاوز الخدمات الاقطاعية المتوفرة ودعوة كل قادر من الرجال على حمل السلاح . وقد حدثت مناسبات ــ كما يقول لامونت[3] ــ تمت فيها مثل هذه الدعوة ، كالقيام بغارة على مستوى كبير[4] أو مهاجمة مدينة واعدة بغنائم ثرة[5] أو الأسراع في بناء قلعة في جوار موقع للعدو[6] . إلا أن الشواهد الدالة على استخدام التعبئة العامة Universus Populus هي من الندرة بحيث لا تسمح بتحليل حالات حدوثها ولا الشروط التي تتحكم بتطبيقها .

يعرف الجميع أن القوة البشرية المعبأة بالتجنيد الإقطاعي لم تكن تفي بالأغراض العسكرية للحكام اللاتين الذين اضطروا بسبب ذلك الى توظيف مرتزقة

أنظر La Monte, "Feudal Monarchy" وهو يقدم عدداً من الاستنتاجات المقنعة في الفقرة التي تبدأ في نهاية الصفحة ١٥٨ ، ولكنه لا يؤيدها بشواهد ثابتة . ولا تلقي إشارته إلى ١٥٠ رجلاً من المشاة أي ضوء على هذه القضية . فقد خلقت الهجمات المعاكسة الشديدة التي شنها الفاطميون في الأعوام ١٠٩٩ ــ ١١٠٥ أزمة عسكرية شديدة في دولة تأسست حديثاً لم تتشكل لديها بعد قوانين وعادات راسخة . وقد استنجد بلدوين بكل رجل قادر على القتال حيثما وجده .

٢) قيل بأن الفرنجة حشدوا في الميدان في حملة العام ١١٨٣ خمسة عشر ألف راجل ، وليم الصوري ص ١١٢٢ ، أبو شامة ص ٢٤٥ . ومن المرجح أن عدد المشاة في حطين في العام ١١٨٧ كان عشرة آلاف رجل ، أنظر بلدوين في « ريموند الثالث كونت طرابلس » ص ١٠٢ ــ ١٠٤ .

٣) أنظر La Monte, Feudal Monarchy P. 159.

٤) أنظر Ernoul P. 156 استدعيت العامة arriere ban في العام ١١٧٨ .

٥) شارك العامة Populus في الهجوم على دمشق في العام ١١٢٦ ، وعلى عسقلان في العام ١١٥٣ ، (وليم الصوري ص ٥٨٢ ، ٧٩٥) ، أنظر كذلك ما قام به العامة في تشجيع بلدوين الثالث على خرق المعاهدة مع دمشق في العام ١١٤٧ ومحاولة الاستيلاء على بصرى (وليم الصوري ص ٦٣٩) .

٦) بناء بيت جبرين (وليم الصوري ص ٦٣٩) وتشييد قلعة في غزة (وليم الصوري ص ٧٧٨) وفي تل الصافية (وليم الصوري ص ٦٩٨)

في خدمتهم. ويشير كل من دودو Dodu و لامونت La Monte الى هذا التطور الذي حدث، رغم أن أياً منهما لم يدقق النظر في الشواهد المتوفرة عن القرن الثاني عشر[١]. ولا يخلو سجل تاريخي عن عصر المؤسسات الاقطاعية من ذكر الجنود الذين كانوا يخدمون في الجيش لقاء أجر. وثمة دلائل كثيرة في جميع أنحاء أوربا عن استخدام المرتزقة خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وقد استخدم هؤلاء في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من قبل معظم الحكام الأوربيين على مستوى كان يزداد باضطراد[٢]. ويمكن أن يشمل هذا التعميم سورية اللاتينية كذلك.

كان أول مرتزق في سجلات الصليبيين هو تنكريد الذي دفع له أمراء اللاتين خلال حصار أنطاكية في العام ١٠٩٨ مبلغاً من المال لقاء حمايته للدير الذي حصن من أجل قطع الطريق على بوابة القديس بولس[٣]. وفي السنة التي تلت وقبل أن يغادر الجيش المعرة في طريقه الى القدس عرض ريموند صنجيل أن يأخذ معظم القادة الآخرين على حسابه[٤]. وقد سجل ألبرت إيكس عدداً من الجنود التقليديين

---

١) إن ما قالاه معروف وذائع الصيت ولكن الشواهد التي تؤيده غير مقنعة رغم وجود دليل جيد. لقد أخذ لامونت شاهده الرئيسي عن وليم الصوري، وأول هذه المراجع قول مزعوم لوليم الصوري (ص ٥٨١) بأن بلدوين الثاني شكل جيشاً في العام ١١٢٥ من "interventu pecuniae" أما الجملة التامة التي أخذت عنها هذه العبارة فتقرأ على النحو التالي ــ "Per idem Tempus elapso pacis Temporalis et initi foederis spatio, quod inter dominum regem et Doldequinum, interventu pencuniae, prius convenerat, sociata sibi de unverso regno mililia, in terram Damascenorum rex ingreditur" وهذا يعني أنها المعاهدة التي نظمت interventu pecuniae ولا تشير العبارة إلى الجيش.

٢) أنظر Frauenholz, "Heerwesen" PP. 85.117 وكذلك Delbruck, III, PP. 329-337 وللاطلاع على استمرار وجود المرتزقة في ألمانية خلال العصور الوسطى وتطورهم في عهد برباروسا أنظر P. Schmithenner في كتابه "Das freie Soldnertum im abendlandischen imperium des Mittelalter"، وكذلك J. Boussard في كتابه "Henri II plantegenet et les origines de l'armée de métier» in BEC. CVI (1945-6) 189-224.

٣) أنظر Anon. P. 98, RA, P. 250, RC P. 643.

٤) RA, P. 9؛ ورانسمان، ١، ص ٣٣٦ ــ ٦٤١، وقد استعمل معلومات ريموند أساساً لحسابات مقنعة حول عدد من ساهم في الحملة الصليبية الأولى.

«conventiones soeidorum»[١] ، ورغم أنه لم ير سورية قط فإن استعداد الزعماء الصليبيين للدخول في علاقة تقوم على الارتزاق قد يكون دليلاً على ما ذهب إليه.

يروي وليم الصوري في معرض تعليقه على فقر الملك بلدوين الأول أن الملك نادراً ما كان يملك ما يكفيه لدفع «رواتب الخيالة» «Stependia equitum»[٢]، وإن ما يرجح كون هؤلاء من المرتزقة وليس من ذوي الاقطاع النقدي هو ماكتبه فلتشر عن ظروف العام ١١٢٤ عندما طرأت الحاجة الى اتخاذ اجراءات خاصة من أجل الحصول على أموال لدفع رواتب الخيالة وجنود المشاة كي يسهموا في حصار صور[٣]. وتشير كتابات وليم عن الأحداث ذاتها الى وجود مشاة مرتزقة في الجيش اللاتيني[٤]. ثم يشير فيما بعد الى وجود خيالة ومشاة مأجورين «stipendiarii equites et pedites» في حامية بانياس[٥]. وفي العام ١١٥٣ تعهد الملك للحجاج الذين استنهضهم لحصار عسقلان بدفع مرتبات لهم لقاء خدماتهم[٦]. وفي السنوات الأخيرة أصبح اعتماد الحكام الفرنجة على المرتزقة أكثر من ذي قبل. ففي العام ١١٨٣ فرضت على جميع أنحاء المملكة ضريبة كانت ثورية في وضعها وفي مبادىء تقويمها ولم يسبق لها مثيل في مستواها؛ وكانت الغاية منها دفع رواتب الجند «equitum peditumque copias habere possemus»[٧]. وكان ملكا فرنسا وإنكلترا غير مستعدين لقيادة قواتهما في حملة الى سورية، فاستعاضا عن ذلك بإرسال أموال

---

١) أنظر "Conventionem solidorum militibus suis solvens' (sc. Baldewinus)" AA, P. 361-633

٢) أنظر وليم الصوري ص ٤٨٨ .

٣) أنظر فلتشر ص ٤٥٩ "sed quia pecuniae nos inopia universos tunc arcebat, colligiture multa viritim militiae et clientelae conductitiae impertienda".

٤) وليم الصوري ص ٥٦٨ .

٥) وليم الصوري ص ٦٣١ .

٦) المصدر السابق ص ٧٩٩ .

٧) كتب هذه الكلمات وليم الصوري ص ١١١٠ وكان يومئذ مستشاراً للمملكة .

لاستئجار جنود بها[1]. وكان بعض الجيش الذي قاتل في حطين مجنداً بالأموال التي أرسلها هنري الثاني ملك انكلترا[2].

كان الحجاج القادمون من أوربا يشكلون مصدراً آخر من مصادر القوة العسكرية الدائمة للفرنجة. وبما أن هدفهم هو الأراضي المقدسة فقد كانوا يقدمون عوناً كبيراً لملوك القدس أكثر منه بالنسبة للحكام اللاتين الآخرين، وقد بينت مصادر المؤرخين الحديثين بوضوح الدور الأساسي الذي قامت به أساطيل جنوة وبيزا والبندقية إزاء قلة الموانىء[3]. ومنذ الحملة الصليبية الأولى، وما بعد، كانت الدويلات اللاتينية دائماً بحاجة الى المساعدة التي تأتيها من الغرب سواء في شكل تعزيزات عامة[4] أو في شكل أمراء منفردين كبعول للوريثات اللائي لايتوفر لهن أزواج مناسبين في سورية[5]. وكان وصول أي اقطاعي من أوربا مع أتباع مسلحين مناسبة لإقامة الأفراح العامة ولشن حملة أو غزو بحيث يمكن الإفادة عملياً من تلك الزيارة[6]

---

١) أنظر Cartellieri, Philipp II August, II, PP. 5-14

٢) أنظر Ernoul, P. 156

٣) أنظر La Mante, Feudal Monarchy, PP. 227-32; Heyd, Commerce du levant, I, PP. 133-46

٤) كتبت رسائل تطلب مثل هذه المعونة حتى قبل أن تصل الحملة الصليبية الأولى إلى القدس. كذلك كانت ترد طلبات مماثلة من حين إلى آخر طوال القرن الثاني عشر، أنظر السجلات السنوية. كما قام بوهمند بالذات بمهمة خاصة إلى الغرب لهذه الغاية في العام ١١٠٥، وكذلك هيو دوبين في العام ١١٢٧ (وليم الصوري ص ٥٩٥)، وكذلك مقدم الاسبتارية في العام ١١٦٤ (السجل رقم ٤١٠) ورئيس أساقفة صور فريدريك في العام ١١٦٨ (وليم الصوري ص ٩٦٠) والبطرك هيراكليوس في العام ١١٨٤ (السجل رقم ٦٣٨).

٥) جاء فولك آنجو Fulk of Ango ليكون وريثاً لبلدوين الثاني وخليفة له، كما قدم ريمون دو بواتييه ليكون أميراً على أنطاكية. وللاطلاع على الجهود التي بذلت للعثور على بعل للأميرة سيبيل Sibyl شقيقة بلدوين الرابع ووريثته أنظر وليم الصوري ص ٩٨٨، ١٠٢٥، ١٠٥٩.

٦) وليم الصوري ص ٦٦٥، عندما استقبل الشعب تيري كونت الألزاس بمظاهر الابتهاج multa cum hilaritate ونظمت حملة داخل شرقي الأردن. أنظر كذلك المصدر نفسه ص ١٠٢٧ حول استقبال فيليب كونت الألزاس في العام ١١٧٦، و ص ١١٥٨ حول استقبال هنري كونت تروي وبيتر كونت كورتني.

ولكن الأكثر ديمومة من ذلك كان القدوم السنوي للحجيج الذين يأتون كل عام تقريباً، ويتمتعون بمزايا ركاب الربيع Passagium vernale التي كانت تمنحها سفن المدن الإيطالية[1] لمن يأتي للاحتفال بعيد الفصح في الأماكن المقدسة. ولم يكن حضورهم يسجل غالباً في الحوليات المعاصرة، وربما لأنه كان من الأمور الاعتيادية جداً ولا تحتاج الى التنويه. ولكن المؤكد أن الحجاج كانوا موجودين باستمرار وأنهم كانوا جاهزين لتقديم العون إذا دعت الضرورة، الأمر الذي تثبته مناسبات عديدة جداً هبوا فيها للنجدة خلال الأزمات الحربية التي شهدتها المملكة[2]. ويحق لنا أن نفترض أن نسبة كبيرة منهم كانت تسهم في السنوات الاعتيادية في كل حملة ينظمها ملوك القدس خلال الفترة التي يؤدون فيها طقوس الحج.

أما المصدر الرئيسي الرابع لتجنيد القوات في الدويلات اللاتينية فكانت الأخويات الرهبانية العسكرية من الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) والداوية (فرسان الهيكل). وكانت هذه الأخويات قد أسست بالأصل لتلبية احتياجات الحجيج في الأراضي المقدسة، ويمكن تتبع نمو النزعة العسكرية المضطرد لديهم خلال القرن الثاني عشر من سجلات تلك الفترة[3]. فمنذ العام ١١٣٧ تلقى الاسبتارية من الملك فولك حق الاشراف على قلعة بيت جبرين المشادة حديثاً[4]. وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ منحهم كونت طرابلس قلعتين من قلاعه الرئيسية الى

---

١) أنظر Heyd, Commerce du Levant, I, P. 180

٢) كان الحجاج في يافا بانتظار رحلة العودة عندما دُعوا لمساعدة الملك في معركة الرملة الثانية، فلتشر ص ٣٩٧. واعتقد فلتشر في العام ١١٠٥ (ص ٤١١) أن المصريين تشجعوا للهجوم لأن الفرنجة كانوا يرافقون الحجيج. وفي العام ١١١٣ قدم الحجاج لنجدة الملك بعد هزيمته عند جسر الصنبرة، فلتشر ص ٤٢٨. كذلك أجبر الحجاج في العام ١١٥٣ على الخدمة في حصار عسقلان، وليم الصوري ص ٧٩٩. وفي العام ١١٨٣ انضموا إلى الجيش الذي واجه صلاح الدين في وادي زرعين، وليم الصوري ص ١١٢١.

٣) تتبعت Delaville la Roulx تاريخ الاسبتارية في كتابها les Hospitaliers en terre Sainte et a chybre. أنظر كذلك Prutz, Die geistlechen Ritterorden

٤) وليم الصوري ص ٦٣٩.

جانب منحهم حق إقامة علاقاتهم العسكرية الخاصة مع المسلمين[١]. وفي العام ١١٤٧ انفرد الداوية بأنفسهم في المسيرة التي قادها الملك لويس السابع مع الصليبيين الفرنسيين من أتباعه عبر آسيا الصغرى، وعندما اتفقت الحملة على ضرورة توفر القيادة والانضباط عدت صلاحيات مقدم الداوية في المرتبة الثانية بعد الملك[٢]. وفي النصف الثاني من القرن أصبحت فرق إحدى الأخويتين أو كلتاهما تشكل قسماً هاماً في أي جيش يجنده ملوك القدس، وفي العام ١١٥٣ كان للداوية مكان بارز في حصار عسقلان[٣]. وفي العام ١١٥٧ نظم الاسبتارية رتلاً قام بمحاولة غير ناجحة لنجدة بانياس عندما حاصرها نور الدين[٤]، وكان هنفري (همفري) صاحب تبنين Humphrey of Toron قد منحهم نصف المدينة آنئذ[٥]، ولكن بلدوين الثالث هو الذي تمكن من رفع الحصار. وبينما كان عائداً من بانياس باتجاه القدس تعرضت قوته لكمين نصبه لها نور الدين أعلى وادي الأردن وتكبد فرسان الداوية، الذين كانوا من جملة القوة، خسائر فادحة[٦]. ووجد فرسان الاسبتارية في محاولات أملريك الاستيلاء على مصر فرصة سانحة للحصول على أملاك ذات ثراء فتعهدوا بتقديم عون عسكري كبير المستوى في مقابل الوعد بمنحهم امتيازات مناسبة في مصر عندما يتم الاستيلاء عليها[٧].

---

١) السجل رقم ٢١٢ Cart. Hosp. No. 144

٢) أنظر Odo, PP. 71-2. حدثت مناسبة واحدة طلب فيها القائد الذي عينه الداوية الأذن قبل بدء الهجوم.

٣) وليم الصوري ص ٨٠٥. أنظر فيما يلي ص ١٦٦ — ١٦٨.

٤) وليم الصوري ص ٨٠٥.

٥) سجل رقم ٣٢٥، Cart Hosp. No. 258، وليم الصوري ص ٨٣٧.

٦) رسالة البابا هادريان الرابع إلى رئيس أساقفة ريمس، سجل رقم ٣٢٦. ويوجد النص الكامل في كتاب Bouquet بعنوان Recueil des historiens des Gaules.

٧) سجل رقم ٤٥٢ و ٤٦٦، Cart. Hosp. No. 402. كان على الاسبتارية تقديم خمسمئة فارس وخمسمئة تركوبول بمعداتهم الكاملة. وفي العام ١١٦٧ خاض أملريك في مصر معركة البابين مع ٣٧٤ فارساً فقط، أنظر وليم الصوري ص ٩٢٥.

كانت القوة التي حققت النصر الكامل لبلدوين في العام ١١٧٧ على صلاح الدين في تل الجزر Mont Gisard تضم الداوية الذين كانوا يستوطنون غزة في الحالات الاعتيادية[١]. ويلقي المعاصرون اللوم على اثنين من مقدمي الداوية تعاقبوا على زعامتها ويحملونهم مسؤولية الكوارث التي لحقت بالفرنجة في مرج عيون (مرجعيون) في العام ١١٧٩ وعين الجوزة Ain Gozah في الأول من أيار من العام ١١٨٧[٢]. وكان دور الأخويات المذكور متميزاً بشكل خاص في الأحداث الحربية التي جرت في أواخر عهد الملكة؛ وسلك أفرادها سلوكاً لا بأس به (!) في أكثر المواضع مسؤولية على خط المواجهة في كل من حطين وأرسوف. وكانت أهمية الأخويات الرهبانية لكونها مصدراً من المصادر العسكرية الفرنجية في سورية، تزداد باضطراد مع انصرام سني القرن الثاني عشر، شأنها شأن المرتزقة.

٢ ــ عيوب المؤسسة العسكرية الفرنجية

وفرت مصادر التجنيد آنفة الذكر القوة اللازمة لتشكيل الجيوش التي كانت إحدى العُمد الرئيسية لإقامة السلطة اللاتينية في سورية. ولكنها ــ في الوقت نفسه ــ ولدت عدداً من نقاط الضعف في التنظيم العسكري أدت الى إنقاص فاعلية الفرنجة في الحرب، ولا بد من التطرق اليها هنا.

لم يكن أي من الحكام المسيحيين في القرن الثاني عشر يملك جيشاً يمكنه من تلبية احتياجاته بكاملها. وكانت خدمة الفروسية في معظم أنحاء أوربا محدودة من حيث استمراريتها بسبب من التقاليد الاقطاعية، ومفيدة في بعض الأحيان بمناطق معينة. وهي على هذا النحو لاتخدم سوى غايات الحرب الخاصة وعمليات الغزو

---

١) وليم الصوري ص ١٠٤١.

٢) ألقي اللوم على أودو سانت أماند في المرة الأولى (وليم الصوري ص ١٠٥٧) وعلى جيرار دو ريدفورت في الحالة الثانية (أرنول ص ١٥٢). ومن أجل مطابقة موقع نبع الرشاد Fountain of cresson مع عين الجوزة أنظر Abel في كتابه Geographie de la Palestine المجلد الأول ص ٤٤٥. وتورد المصادر الاسلامية المعركة عند الصفورية.

المحدودة وبعيدة جداً عن أن تكون فعالة بالشكل الذي تتطلبه الحملات طويلة المدى والمنفذة على مستوى كبير. أما النفير العام arrière ban أو أي شكل آخر من أشكال التعبئة الشعبية ــ التي كانت تفيد في الملمات على كل حال ــ فكانت غير ملائمة لتلبية المتطلبات الاعتيادية طالما أنها تقدم قوات لا تملك الخبرة القتالية وضعيفة التسليح غالباً. ولم يكن للمرتزقة مثل هذه العيوب لأنهم كانوا في الغالب محاربين موسميين، يودون لو ظلوا في الخدمة طالما أنهم ظلوا يتلقون أعطياتهم، أو ظل لديهم الأمل في الحصول عليها. إلا أن تنظيم مثل هذه القوة، مهما كان شأنها، ولمدة طويلة، كان يتسبب في إرهاق التنظيم المالي البدائي لدويلات العصور الوسطى إرهاقاً شديداً.

لقد كانت معظم نقاط الضعف هذه بادية للعيان في سورية اللاتينية، ويؤكد المؤرخون الحديثون كذلك أن الحكام الفرنجة ــ وبخاصة ملوك بيت المقدس ــ لم يكونوا يتمتعون بالسلطات الكاملة قادة لقواتهم العسكرية. ومع مضي السنين، خلال القرن الثاني عشر، كانت هذه النقطة تزداد وطأة. ويسوق دودو، تأييداً لهذا القول، عدداً من المناسبات فشل فيها ملوك بيت المقدس في السيطرة على الأمراء والإقطاعيين من الحكام القادمين من أوربا الغربية مع قوات لهم بهدف القتال في سورية الى جانب الفرنجة ولموسم واحد[1]. ويشير لامونت أيضاً الى رفض الداوية التعاون مع أملريك في غزوه لمصر[2].

إن هذه الأمثلة تدل فقط على أن ملوك اللاتين كانوا يفتقرون الى السيطرة في ظروف معينة. وعلى كل لم يكن الحجاج من أصحاب الوجاهة مقيدين بالتبعية لأولئك الملوك، وكذلك الأمر فيما يخص الأخويات الرهبانية العسكرية الى درجة ما. ولا يورد دودو أية حالة فشل فيها الحكام اللاتين في السيطرة على أتباعهم في الحرب مع أنه كانت هنالك حالات من هذا القبيل، ويظهر غياب الزعامة العسكرية الفعالة بشكل خاص خلال السنوات الخمس التي توجت بهزيمة حطين. إلا أن ما حدث

---

١) أنظر Dodu, institutions, PP. 173-7

٢) أنظر La Monte, Feudal Monarchy, P. 140

في هذه الفترة أن الملك بلدوين الرابع كان يعاني من تفشي مرض الجذام في جسده، وخلفه طفل في بادىء الأمر ثم شقيقته من بعد. وقد أدت مشكلات الوصاية والخلافة على العرش الى حدوث الشقاق وتقليص السلطة الملكية بنتيجة ذلك. ويعد التحدي الذي جابهه غي لوزينيان Guy de lusignan مجرد استثناء، إذا ما نظر إليه على خلفية الأجيال الثلاثة السابقة. وكان ملوك بيت المقدس الستة الأوائل ــ كقاعدة عامة ــ يسيطرون سيطرة تامة على القوى الاقطاعية والعسكرية. ويؤيد ذلك تحليل الأحداث العسكرية التي سيتناولها الفصل القادم. وتبقى ــ على كل حال ــ الحقيقة الثابتة بأن هؤلاء الملوك لم يكونوا يملكون السلطة ذاتها على الحجاج وعلى الأخويات الرهبانية العسكرية، الى درجة تعرقل عملياتهم الحربية بسبب نقص السيطرة.

يمكن إجمال نقاط الضعف العسكري الفعلية المتأصلة في مصادر التجنيد بكاملها بالطريقة التالية. ففي جيل الاحتلال الفرنجي الأول حقق أمراء الفرنجة نجاحاتهم الحربية باستغلال مواردهم الاقطاعية بصورة رئيسية. ولم تكن الأخويات الرهبانية من الاسبتارية والداوية قد تحولت الى منظمات عسكرية بعد، كما لم يكن للمرتزقة من ذكر كما في السنوات التي تلت. وكان الأتباع من الفرسان متوفرين بأعداد كافية لحماية الأراضي التي يحتلها اللاتين ولتوسيعها، وقد عرف عنهم ولاؤهم وإخلاصهم على وجه العموم؛ ولم تكن خدمتهم تخضع للقيود التي كانت شائعة في الغرب، وكل ما كان يطلب منهم البقاء في الخدمة طوال العام إذا دعت الضرورة لذلك(١). بيد أن مشكلات الفرنجة السوريين أخذت تزداد صعوبة بمضي الوقت

---

١) La Monte, Feudal Monarchy, P. 141, Dodu, institutions, P. 184 . الذي يذكر في ص ١٤٢ ما سجله وليم الصوري (ص ٩٠٤) بأن الجيش الذي غزا به أملريك مصر في العام ١١٦٧ (وليس العام ١١٦٦ كما يقول لامونت) كان يحمل مؤونة معه "ad dies constitutos" . ومن رأي لامونت (ص ١٤١) أن هذا إنما يشير إلى وقت معين قد حدد (هو مدة الحملة) .

ويبدو أنه لاضرورة للافتراض بأن وليم كان يعني أكثر مما قاله . فعندما كانت تجند جيوش الكارولنجيين كانوا يؤمرون أحياناً بجلب طعامهم لفترة محدودة . وعندما كانت تستنفذ هذه المؤن كان يتم الحصول على المؤن من مسرح الحرب . وثمة تدابير مماثلة كانت تتخذ في زمن الاقطاع وكان

خلال ذلك القرن، إذ كانت النجاحات الأولى التي حققها هؤلاء محصلة التفرقة والضعف السياسي في ديار الاسلام. وما أن أعيد توحيد سورية المسلمة في بادىء الأمر، ثم اتحدت مع مصر بعد ذلك، حتى أصبح الفرنجة بحاجة الى قوة عسكرية متزايدة، ولو من أجل المحافظة على الأراضي التي استولى عليها أسلافهم. ولكن الخدمة الملتزمة servitium debitum لم تتسع أبداً الى درجة كافية إن لم تكن قد تقلصت. وكان الحكام بالتالي مضطرين الى الاعتماد على المرتزقة، الذين كانت تكاليف خدماتهم باهظة وترهق مواردهم المالية الضئيلة، وكذلك الاعتماد أيضاً على الأخويات الرهبانية، التي لم يكن باستطاعتهم فرض سيطرتهم التامة عليها.

كانت الموارد العسكرية الاقطاعية لدى الفرنجة تتقلص مباشرة باسترداد المسلمين للأراضي. وقد تمكن زنكي ونور الدين ـــ خلال الفترة ما بين العامين ١١٣٥ و ١١٥٠ ـــ من استخلاص الأراضي الشمالية التابعة لأمارة أنطاكية، والأراضي الواقعة شرقي نهر العاصي وكونتية الرها بكاملها من أيدي الفرنجة. وفي العام ١١٦٤ استرد نور الدين أيضاً بانياس والمقاطعات المحيطة بها من مملكة بيت المقدس. وفقد الحكام المسيحيون على هذا النحو القوة العسكرية التي كانت تعززها ملكيتهم لتلك الأراضي[1].

من الممكن أن يكون هؤلاء قد حصلوا على بعض التعويض عن خسائرهم

جيش أملريك بحاجة إلى حمل مؤنه لمدة معينة لاضطراره لعبور صحراء سيناء بين جنوب فلسطين ومصر.

١) كانت مكانة جيش الرها بارزة في الحروب التي دارت في سورية اللاتينية وحتى وفاة جوسلين الأكبر في العام ١١٣١. ومعظم الفرق الاقطاعية التي ذكرها Albertus Aquensis(٦٨٢ ـــ ٣) كانت من الأراضي التي فقدها الفرنجة قبل العام ١١٥٠. ولاحظ وليم الصوري (ص ٧٨٩) ذلك وعلق على فقد أراضي أنطاكية الشمالية. ويمكن الرجوع إلى الصفحة ـــ ١٠٩ ـــ للاطلاع على نتائج خسارة بانياس من وجهة نظر الفرنجة.

تلك بتطبيق الاقطاع النقدي[1] وربما كان هناك مصدر آخر لزيادة الخدمة الملتزمة servitium debitum ، ولكن ليس من دليل على أن مثل هذه المحاولة كانت تجري دائماً. بل على العكس تماماً فإن ثمة علامات تدل على أن الأتباع العسكريين في سورية اللاتينية غالباً ما كانوا يكرهون إكراهاً على أداء ما هو مطلوب منهم، ناهيك عن تلبية خدمات أكثر من طاقتهم. وكانوا مستضعفين بسبب الفقر الذي حل بهم على يد الانسان أو الطبيعة. وتشير المصادر التي وصلت الينا عن تلك الفترة الى تكرر حدوث الزلازل في سورية الى جانب القحط وكوارث الجراد والحروب الاقطاعية صغيرة المستوى بين سادة الفرنجة والأمراء المسلمين[2]. ويذكر فلتشر، في معرض حديثه عن الوسائل التي عاقب الله بها الفرنجة على آثامهم بحق « بأن سلط عليهم المسلمين saracens والجرذان والجراد أدوات لإفقارهم »[3]. وكان من نتائج ذلك شح المحاصيل وبوار الأراضي الصالحة للزراعة وركود التجارة. ولم يعد في وسع الفلاحين والمستأجرين تسديد ما عليهم من التزامات الى السادة الملاك الذين تضاءلت مداخيلهم الى درجة خطيرة، وهم الذين يتوقف عليهم تنظيم الحكومة والعمل العسكري بشكل فعال. وثمة اعتراف بهذه الحقائق المرة في الاتفاق التجاري الذي

---

١) يستند هذا الاحتمال على اعتبارين اثنين: أولهما أن المخصصات المالية التي يمكن أن تضمن الاقطاعات النقدية أصبحت متوفرة تماماً في سورية اللاتينية نتيجة تطور التجارة خلال القرن، وثانيهما أن الإقطاع النقدي في المجتمع الاقطاعي البريطاني كان عسكري الطابع من حيث الجوهر. أنظر B.D. Lyon, "the money fief under the English Kings 1066-1485".

٢) حدثت في العام ١١١٤، على سبيل المثال، هزة أرضية كبرى مع غزو الجراد، فلتشر ص ٤٢٨، غالت Galt ص ٦١ — ٦٢، ١٢٢. وللاطلاع على شواهد أخرى عن سلسلة الكوارث هذه خلال السنوات ١١١٦ — ١١٢٠ أنظر وليم الصوري ص ٥٣١. كما جرت سلسلة من الهزات الأرضية في الأعوام ١١٣٨، ١١٥٧، ١١٧٠ أنظر تاريخ مملكة القدس لروهريخت Rohricht ص ٢١٢، ٢٩٠ — ٢٩١، ٣١٩، ٣٤٨ — ٣٤٩. وكانت النتائج العسكرية للقحط كافية لدفع الحكام إلى عقد هدنة، وقد قبل صلاح الدين عقد هدنة في العام ١١٨٠، وليم الصوري ص ١٠٦٣، وكذلك فعل ريموند كونت طرابلس في أوائل العام ١١٨٥ على الأرجح، أرنول ص ١٢٤. ولمعرفة تاريخها أنظر بلدوين في كتابه ريموند الثالث كونت طرابلس ص ٧٠.

٣) فلتشر ص ٤٣٤، ٤٨٥.

صدقه ريموند كونت طرابلس في العام ١١٦٣[١] ، فقد تم تأجير دير جبل طابور Mount Thabor لمدة خمس وعشرين سنة الى أخوين يدعيان بطرس Peter مع كل الأملاك التي تملكها أسرته في المدينة . وفي كونتية طرابلس الى جانب قرية ذكر اسمها تقع « في أراضي جبل الغرباء » (جبل الحجيج) «in Territario Montis Peregrini» . وتوجب على المؤجّر لهما أن يدفعا لقاء ذلك مبلغ تسعماية بيزنت (دينار بيزنطي) نقداً ، وبدل إيجار سنوي قدره مئة بيزنت ولكنهما يعفيان من الايجار في كل فترة يتلف فيها المحصول بسبب من العدو .

لم يكن استثمار الممتلكات في سورية اللاتينية عملاً مستقراً . ومما يلفت النظر ، وبخاصة على خلفية الشروط المذكورة في عقد الايجار هذا ، أن القانونيين راعوا فيه الظروف التي يتسبب فيها فقر السيد أو تابعه في خلخلة العلاقات الاقطاعية الطبيعية مؤقتاً . والواقع أن كتب القانون القديمة بمناقشتها لمثل هذه الوضعية ، كما في « كتاب الملك » «Livre au Roi» الذي كتب فور سقوط القدس في يد المسلمين توحي بأن ذلك كان أمراً واقعاً خلال القرن الثاني عشر . وقد ذكرت أسباب مثل هذا الفقر في ظروف قريبة الشبه لتلك التي ذكرها فلتشر : aucune mauvaise annèe, pestilenee, Sarasins[٢]. « يالها من سنة سيئة ، الفساد ، العرب .. » ولكن ثمة سبب أخر أيضاً ـــ هو دفع الفدية . ففي العام ٥٨ باع هيو إيبلين الثالث قلعتين الى رهبان الهيكل المقدس (الداوية) Captivitotis redemptione compulsus « ليفتدي نفسه » . وفي الوقت نفسه باع رالف Ralph ، وهو أحد الفرسان من أتباعه ، ممتلكاته أيضاً ليفتدي نفسه من الأسر[٣] . وبعد سنوات ثلاث مضت باع جون غوثمان John Gothman خمس قلاع Casales الى المشترين أنفسهم مقابل

---

١) سجل رقم ٣٨٩ ، النص الكامل في سجلات الاسبتارية Cart. Host, II. No. XXIII, PP. 904-5

2) "Le Livre au Roi" in RHC. Lois, "Les Assises de Jérusalem, I, 625" see. grandeclaude, «Etude critique sur les Livres des assises de Jerusalem,» PP. 46-50,

3) Reg, Nos. 332, 333, 335.

١٤٠٠ بيزنت للضرورة العاجلة من أجل افتداء نفسه من أسر المسلمين «Urgente necessitate videlicet redemptiove de paganorum captivitate»[1]

كان المستفيد الرئيسي من ذلك الوضع الرهبانيات الفرسانية العسكرية، فقد خلق الفقر الاقطاعي سوقاً رائجة للأراضي كان للفرسان فيها نصيب متزايد. وإذا بيعت قلعة المرقب للاسبتارية في العام ١١٨٦، وهي من أكبر القلاع في سورية وأمنعها جميعاً، فإنما فعل سيدها ذلك بسبب «نفقاتها الباهظة ووجود العدو في الجوار» «Prae nimiis expensis et nimia infideeum vicinitate»[٢]، وكانت الأرض التي تقع بالقرب من أراضي المسلمين تعني تحمل صاحبها أصعب المسؤوليات طراً مع عدم ضمانها مصدراً أكيداً للربح. وفي العام ١١٤٢ تخلى كونت طرابلس الى الأخوية ذاتها عن القلعة التي أصبحت تعرف منذئذ باسم حصن الفرسان (الحصن) Crac des Chevaliers مع جميع حقوقه في المنطقة الواقعة الى الشمال والشرق منها بما في ذلك الرَّفانية وبعرين[٣]. وكان هذان الموقعان قد سقطا في يد زنكي قبل خمس سنوات من ذلك التاريخ، وأصبحت القلاع والأراضي التي ذكرت اسماؤها في صك المنح معرضة لهجمات المسلمين المتكررة. وكانت هذه أول منحة من منح كثيرة لمناطق حدودية شاسعة وهبت إلى كل من الاسبتارية والداوية خلال ما تبقى من القرن[٤]. إذ لم يعد في وسع الحكام الاقطاعيين تحمل مسؤولياتها بعد ذلك. وانعكس هذا الضعف لاحقاً في منح الاسبتارية قلعتي عرقة وجبل عكار بعد تدميرهما بزلزال أرضي[٥]، وفي بيع قلاع أخرى غيرها، منها قلعة تل ابن معشر(*) Sarc على يد وليم

---

1) Reg. No. 369

2) Reg Nos. 647, 649, Cart. Hosp. No. 783.

3) Reg. Nos. 212; Cart. Hosp. No. 144

٤) حول سلسلة المنح هذه أنظر Cahen, "La Syrie du Nord" PP. 511-17 ، و Richard, Le Comté de Tripoli, P. 63 أنظر كذلك Beyer, "Die Kreuzfahrergebiete Sudwestpalastinas"

5) Reg. No. 477, Cart. Hosp. No. 411

*) حصن أقامه تنكريد فوق تلة تدعى ابن معشر في قبالة شيزر لمراقبتها ــ أنظر تاريخ الحروب الصليبية ــ رانسيمان (م ٠ م).

صاحب مرقية[1] William of Maraclea وقلعة صفد على يد باين صاحب حيفا[2] Payen of Haifa وقلعة كوكب Belvoir على يد ايفوفيلوس[3] Ivovelos . ولم تكن القلاع الحدودية «Castella cum pertienentiis» فقط هي التي لها قيمة في السوق. إذ تدل سجلات الأخويات الرهبانية العسكرية أن الأعطيات من الأراضي التي منحت للفرسان في أوائل أيامهم أفسحت المجال لعمليات البيع المتزايدة[4]. أما الأشخاص العلمانيون الواهبون لتلك الأراضي فلا تظهرهم تلك الوثائق متبرعين أتقياء وإنما فرقاء في صفقات تجارية غالباً ما يبادلون الأراضي مقابل راتب تقاعدي أو لقاء مبلغ نقدي.

ومع زيادة المشكلات العسكرية التي واجهت الدويلات اللاتينية أخذت الطبقة الاقطاعية الحاكمة تبرهن عن عدم جدارتها في مواجهة هذه المشكلات من ناحيتين. الأولى أن السلسلة الطويلة من طلبات الاستغاثة التي كانت توجه الى الغرب للحصول على التعزيزات تدل بوضوح على أن تلك الطبقة لم تكن كافية إطلاقاً في أي يوم من الأيام. والثانية أن الشواهد التي مررنا على ذكرها تدل على أن تلك الطبقة كانت تفتقر الى المصادر المادية المناسبة والكافية. وكان على أمراء اللاتين بالتالي أن يبحثوا عن القوة العسكرية في مصادر أخرى لم يكن باستطاعة الاقطاعيين توفيرها لهم، وقد وجدوا ضالتهم في صفوف الجنود المرتزقة والأخويات الرهبانية العسكرية. ولكن رواتب المرتزقة كانت تلقي أعباء مالية على عاتق الحكام الذين يتحملونها بصعوبة كبيرة جداً وقد لا يتحملونها إطلاقاً. ورغم عدم توفر أية معلومات دقيقة لدينا عن مداخيل الحكام اللاتين أو نفقاتهم، فإن كثيراً من معاصريهم يشهدون على ضآلة مواردهم[5]. ولقد غطى تحول الأخويات من رهبان

---

1) Reg. No. 378; Cart. Hosp. No. 317

2) Reg. No. 447

3) Reg No. 448; Cart. Hosp. No 396

٤) أنظر Cart. Hosp. and Marquis d'Albon (ed.), Cartulaire général de l'ordre du Temple, 1119-1150.

٥) ذكر الكثير عن هذه الناحية في القسم السابق حيث نوقشت مسألة استخدام المرتزقة أنظر أعلاه

القديس يوحنا (الاسبتارية) وفرسان الهيكل (الداوية) الى تنظيمات عسكرية نقص القوات الاقطاعية والمأجورة جزئياً، وأصبحت فرقهم في أواخر القرن الثاني عشر موضع ترحيب دائم لكونهما تعزيزات للجيش المسيحي في تلك الحقبة. وكان لهذه الفرق ثمنها على كل حال، فقد كلفت الحكام الاقطاعيين سيطرتهم العسكرية التامة على قواتهم في ميدان القتال. ولم تكن الأخويات العسكرية خاضعة تماماً لأي سيد لاتيني سواء كان علمانياً أم من رجال الاكليروس، وكانوا يعتزون كثيراً باستقلالهم هذا. ويسجل وليم الصوري مناسبات هامة كان سلوكهم فيها ــ ولو حيال ملوك القدس ــ سلوك الحلفاء المستقلين[1]، كما يشاهد وجه آخر لانتهازهم الفرص من أجل التحرر من السيطرة عليهم في عدد من الاتفاقات التي عقدوها مع الأمراء اللاتين. وكانوا دائماً يتطلعون الى السلطة من أجل فرض سياستهم العسكرية الخاصة على الحكام المسلمين المجاورين. فإذا ما علنت الأخويات الحرب أو عقدت الهدنة توجب على الحاكم اللاتيني التقيد بها؛ بينما لا يمكنه هو من جهته أن يعقد هدنة إذا لم يكن الرهبان الفرسان راغبين بها، وإذا ما فعل ذلك فإنهم لا يعدون أنفسهم مقيدين بها[2]. كذلك لم يكونوا ليرضوا بتطبيق الممارسات التقليدية للعصور

ص ، ويقول وليم الصوري (ص ٨٣٦) أن ديون بلدوين الثالث هي التي دفعته إلى نقض المعاهدة مع نور الدين والإغارة على قطعان البدو المسلمين ومواشيهم أثناء رعيها في غابات بانياس، كما يشير أيضاً (ص ٨٤٦) إلى أن الملك المذكور أراد أن يزيد من ثروته بسبب رغبته في الحصول على زوجة من البلاط البيزنطي .

١) وليم الصوري ص ٨٠٥ . قاد بلدوين الثالث حصار عسقلان في العام ١١٥٣ ، ولكن عندما تمكن الفرنجة من تحطيم السور حاول الداوية احتكار الثغرة وعدم السماح لأحد باستثناء رجالهم بالنفوذ إلى المدينة . وليم الصوري ص ٩٤٩ . في العام ١١٦٧ رفضت الجماعة نفسها المساهمة في غزوة املريك على مصر . كما أصر الاسبتارية على الحصول على امتيازات ضخمة بالأراضي التي سوف يتم الاستيلاء عليها لقاء تقديم العون العسكري بالمناسبة ذاتها . أنظر Reg. Nos. 452, 466; Cart. Hosp. Nos. 402, 409 للاطلاع على الاتفاقية التي عقدت مع أملريك والتي كانت بالواقع معاهدة بين قوتين متكافئتين .

2) Reg. Nos. 212, 428, 649, Cart. Hosp. Nos. 144, 391, 783

الوسطى من حيث الإسهام في اقتسام الغنائم في نهاية كل غزوة أو حملة[1]. إذ كانوا ينتهزون كل فرصة لانتزاع امتيازات لهم والاحتفاظ بكل شيء حازوا عليه بأنفسهم[2]. وبالتالي وجد أمراء اللاتين في الأخويات العسكرية جنوداً ذوي تأهيل عالٍ مكنهم من التغلب على الضعف العددي للنظام الاقطاعي وعجزهم عن استئجار العدد الكافي من المرتزقة، إلا أن فرسان القديس يوحنا وفرسان الهيكل جاؤوا حلفاء وليسوا أتباعاً، وفقد الحكام الدنيويون بنتيجة ذلك سيطرتهم الكاملة على العمليات العسكرية وعلى السياسة بعد أن كانوا يمارسونها كاملة في العقود الأولى من القرن الثاني عشر.

كانت نقطة الضعف الأخيرة في التنظيم العسكري الفرنجي، التي لا بد من التحدث عنها في هذا القسم، أشد خطورة الى حد بعيد من أية مشكلة أخرى لكونها تتناول عن قرب الركيزتين الأساسيتين للاحتلال اللاتيني، وهما جيش الميدان والمعاقل الحصينة. فقد كان العسكر المجندون للجيش الميداني يجلبون من القلاع والمدن المحصنة[3]، وكانت هذه ملاذاً ومقراً للسادة الاقطاعية وللاسبتارية والداوية وللمرتزقة المأجورين، يقيمون فيها زمن السلم على الأرجح. كما كانت بالإضافة الى

---

١) كان اقتسام الغنائم بين جميع من ساهم في حملة ما حقاً طبيعياً وإجراءً تقليدياً يمكن أن يدعى "Lex belli" كما يقول كتّاب القرن الثاني عشر، ويقول وليم الصوري ص ١٠٤٦ كانت الغنائم توزع إلى حصص صغيرة "Sub ratiocinio" و aeque, و "Solito jure". ويقول فلتشر ص ٤١٤، أن الاقطاعيين كانوا يقدمون الهدايا إلى المؤسسات الدينية على شكل نسب ثابتة من حصصهم من الغنائم. أنظر هبة موريس دومونت ريال إلى الاسبتارية في العام ١١٥٢ (سجل رقم ٢٧٩) و أملريك إلى كنيسة سانت لازاروس في العام ١١٦٤ (سجل رقم ٣٩٧).

٢) لم يرد اسبتارية طرابلس اقتسام الغنائم التي حازوها مع أي شخص كان مالم يحضر الكونت شخصياً. كما رفضوا اقتسام الغنائم التي حازوها في أمارة أنطاكية مع أي شخص آخر. وفي السجل رقم ٤٥٢، لم يوافق الاسبتارية على تقاسم الغنائم ما لم يحضر الملك شخصياً.

٣) وليم الصوري ص ١٠٩٣ جهزت كل من حامية صفد وكوكب (بلفوار) وطبريا فرقاً للجيش الذي واجه صلاح الدين في غزوة العام ١١٨٢. ويقول ارنول (ص ١٤٥ — ١٤٦) و إيراكل (ص ٣٩) أن القوة التي دمرها المسلمون عند عين الجوزة Cresson في الأول من أيار عام ١١٨٧ كانت مجمعة من حاميات الداوية في قاقون (Qaqun, Caco)، والفولة al-Fule (La Feve)، وفرسان الملك في الناصرة، وقام بجمعها جيرارد ريد فورت.

ذلك، أماكن ترتكز اليها ممتلكات الفرنجة في سورية. وكان الحفاظ عليها عند الغزو الاسلامي أمراً جوهرياً لبقاء الدويلات اللاتينية. وكانت مقاومة هذا الغزو تتم بمجابهة الجيش الميداني للقوات الغازية، فإذا ما هزم ذلك الجيش أضحى من الضروري تأمين الدفاع عن أسوار المعاقل حتى يقدم لنجدتها جيش جديد أو يعاد تشكيل الجيش السابق، أو حتى ينسحب العدو.

واجه الفرنجة بمواردهم المحدودة مأزقاً صعباً كان إيجاد المخرج الصحيح له هاماً كل الأهمية لوجودهم في سورية. فقد كان خصمهم شديد البأس، ويسعى الى تدمير جميع الاتصالات الاجتماعية والتجارية في ذلك الحين، والى تقليص موارد السلطة الضرورية لممارسة الحكم بتخريب المناطق الريفية ومصادر الدخل التي يعتمدها تنظيم الدفاع العسكري في خاتمة المطاف، الأمر الذي كان يستلزم إرسال جيش ضده. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بسحب حاميات المدن والقلاع. وتشير دلائل كثيرة على أن وجود جيش ميداني قوي مع حاميات مناسبة في آن واحد كان أمراً مستحيلاً للفرنجة في الحقبة الأولى من احتلالهم لسورية وقبل أن يُنموا مواردهم إلى حد الكمال، كما كان صعباً للغاية في العهود المتأخرة عندما أخذت تلك الموارد تعجز تدريجياً عن تحويل المقاومة ضد القوة الصاعدة لسورية المسلمة.

وعندما كان اللاتين يدفعون جيشاً الى الميدان في أيامهم الأولى كانوا يدركون أنهم يعرضون معاقلهم للخطر، حيث تكاد تخلو من المدافعين عنها[1]. وعندما كانت قوات بيت المقدس تشتبك في القتال في الشمال كانت حامية عسقلان المسلمة تغتنم الفرصة غالباً للاغارة باتجاه المدينة، ليقينها أن الفرسان الذين يقيمون فيها عادة موجودون مع الجيش هناك[2]. وقد قرر إيلغازي مرة في أثناء حملته المظفرة ضد أنطاكية في العام ١١١٩ مهاجمة تل الأثارب لأنه نمي إليه أن سيد القلعة مع فرسانه أطاع أوامر الملك والتحق بأنطاكية كما فعل جميع أصحاب القلاع الفرنجية

---

١) فلتشر ص ٣٨٣ وص ٤١٢ .

٢) أنظر المناسبات التي سجلها فلتشر ص ٤٢٧ (١١١٣ م) وص ٤٢٩ (١١١٥ م) و ٤٦٠ (١١٢٤ م) .

الآخرين[١]. وبعد جيلين من ذلك التاريخ تكرر الموقف عينه مرة أخرى عندما احتاجت المملكة الى تركيز أقصى قواها لمواجهة هجمات صلاح الدين. وقد لخص مؤلف الإيتنيراريوم[٢] Itinerarium كل ذلك تلخيصاً جيداً. وتأتي الشواهد التي أثبتتها السجلات المعاصرة متفقة مع ما توصل اليه[٣]. فعندما علم جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort، مقدم الداوية أن قوة مسلمة سوف تجتاز جبال الجليل في اليوم التالي دون معارضة، وبإذن من ريموند أمير طرابلس، صمم على مهاجمتها. فجند ضدها حاميات قاقون qaqun (Caco) والفولة al-Fule والناصرة Nazareth. وفي اليوم التالي وجد أرنول Ernoul قلعة الفولة خالية ـــ وكان باليان ايبلين قد أوفده إليها ليقف على من فيها ـــ وكان لا يوجد فيها سوى شخصين اثنين مريضين[٤]. وقد تأثر المؤرخون كثيراً بدرامية هذه الحالات، ولكنها لم تثبت تميزها عارضاً من أعراض الضعف الرئيسية في القوة العسكرية الفرنجية. إذ كانت القلاع تترك خالية بالمعنى الحرفي للكلمة من أجل مواجهة المسلمين في الميدان[٥].

بعد انصرام شهرين على ذلك جرت معركة حطين بغية إنقاذ طبرية، التي باتت معرضة للسقوط في يد صلاح الدين بصورة مؤكدة إن لم ينجدها الجيش، لأن فرسانها كانوا مع ذلك الجيش[٦]. وعندما ذهب باليان إيبلين Balian de Ibelin للدفاع عن القدس بعد المعركة لم يجد فيها سوى فارسين اثنين، واضطر الى منح رتبة فارس الى ستين ابناً من أبناء المواطنين فيها معالجة يائسة لذلك الواقع[٧]. وكانت عكا

---

١) أنظر Galt, P. 99.

٢) أنظر اتينيراريوم Itinerarium ـــ ص ١٧

٣) أنظر ليبليوس Libellus ص ٢١٨ وهو يصف تجنيد الجيش المسيحي من أجل خوض معركة حطين .

٤) ارنول ص ١٤٩ ـــ ١٥٠ .

٥) حول أهمية القلعة أنظر Beyer, ZDPV, LXVII (1944-5) 231

٦) أنظر Ernoul, P. 158

٧) Eracles, P. 70 , Ernoul, P. 175 تقول بعض نسخ Eracles أنه منح أبناء الفرسان الرتبة مثل أبناء المدينة .

واحدة من بين مدن عديدة تركت بدون حامية تكفي لتلبية احتياجات الجيش الميداني. وعندما دمر ذلك الجيش في حطين استسلم مواطنوها دونما مقاومة[١].

كان وجود سورية اللاتينية مرهوناً في خاتمة المطاف بوجود جيش ميداني مناسب وحاميات للقلاع في آن واحد. وكانت تلك مشكلة الحكام اللاتين الذين عجزوا آخر الأمر عن حلها بعد أن أعجزهم ضعفهم العسكري الذي تناوله هذا القسم بالبحث.

٣ ـــ أجناد الخيالة والمشاة «Milites Pedi tesque»

بعد أن انتهينا من مناقشة مصادر التجنيد لا بد من إعارة بعض الاهتمام الى قدرة العسكر القتالية. ويذكر الكتّاب عادة من القرن العاشر وحتى القرن الثاني عشر أعداد الجيوش وتركيبها باستخدام مصطلحي «الخيالة المدرعة Milites و «المشاة» Peditesque[٢]. ولا يشكل مؤرخو الدويلات الصليبية استثناء هنا أيضاً. ولم يكن التباين ـــ على كل حال ـــ مرتكزاً على مجرد الفارق بين الخيّال المدرع تدريعاً كاملاً كما تصوره المنحوتات والأختام والنقود والرسوم العائدة الى تلك الحقبة[٣] وبين عسكرة المشاة Pedes بعدته الكاملة كما يصفه مؤلف الإيتنيراريوم Itinerarium وبهاء الدين[٤]. وإنما لكل مصطلح في هذه العبارة معناه الواسع.

---

١) أنظر Libellus, P. 235

٢) Delbruck, III, P. 255 ، يقصد بمصطلح Miles وجمعها Milites الجندي الراكب المحمي بالدرع والمسلح بالسيف أو الرمح ، أما مصطلح Peditesque فيقصد به المشاة أو الرجالة السائرين على الأقدام . (م . م)

٣) للاطلاع على أفضل مجموعة صور معاصرة من دروع القرن الثاني عشر أنظر G. Demay في كتاب Le Costume au moyen âge de apres les sceaux

٤) أنظر itin. P. 99 ، وبهاء الدين بن شداد في كتابه النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية ص ٢٥١

فقد كان الخيّال (الاسوار)* من الجند Miles حتى نهاية القرن الحادي عشر محارباً تقيه زردية (قميص زرد) (ويسميها الفرسان المسلمون كزاغندة إذا ما كسيت باللباد) وخوذة فولاذية وترس (مجن)، ويقاتل على متن راحلة بالسيف والرمح. وفي أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرن الثاني عشر حدث تطوران هامان. أولهما أن «الفروسية أو الفرسانية» Knigthood أضحت تمايزاً اجتماعياً ومرادفة لكلمة «النبالة» nobility بحيث أصبح العسكر من الخيالة المدرعين milites يشكلون طبقة اجتماعية أو شبه طائفة متميزة رفيعة المقام. وكان قبول أحد الفتيان فيها، عندما يبلغ سناً تؤهله حمل السلاح، يتم باحتفال رسمي يرسم خلاله بهذه الصفة. ويبدو جلياً من مراجع القرن الثاني عشر أن الرجل منهم لا يصير فارساً إلا إذا كان والده من سلالة فرسانية بالوراثة أيضاً، أي من أسرة نبيلة[١]. وثانيهما أن الدرع الواقي لجسمه أصبح أكثر إتقاناً. إذ تطورت الزردية التي كانت تغطي جسمه حتى الركبتين لتشمل أطرافه أيضاً، كما وأطيلت الأكمام والحاشية المتدلية من أسفل الزردية وضيقت حتى غطت الساعد والرسغ وكف اليد والساق والقدم. كذلك أضيفت قلنسوة من الزرد mail coif تحمي الرقبة ومعظم أجزاء الوجه. وفي نهاية القرن أخذ من يستطيع من الرجال يستبدل الخوذة المخروطية مع واقي الأنف بخوذة مدببة (على شكل القدر) Pot helm. وهكذا أصبح الدرع، وبالتالي الحصان المطلوب لحمله، أثقل وزنا وأبهظ تكلفة[٢].

---

*) عن لسان العرب الاسْوارُ والإِسْوارُ : قائد الفرس، وقيل هو الجيد الرمي بالسهام، وقيل : هو الجيد الثبات على ظهر الفرس والجمع أُساوِرَةُ وأساوِرُ،

ووتَّر الأساور القياسا صُغْدِيَّةً تنتزع الأنفاسا .

والإسوار والأُسوار الواحد من أساورة الفرس وهو الفارس من فرسانهم المقاتل والهاء عوض عن الياء وكأن أصله أساوير (م.).

١) لدراسة هذا التبدل أنظر : Guilhiermoz, Essai sur l'origine de la noblesse en France du moyen âge PP. 370, 462 ؛ ومثله M. Bloch, la Société féodale ص ٤٦ — ٧٧ .

٢) بالنسبة لهذه التطورات أنظر Demay, op. cit. ، و G.F. Laking في كتابه a Record of Européan armour and arms through Seven céntüries.

تعني حالتا التطور هاتان أن مصطلح « الخيّال المدرع » «miles» الذي كان يطلق قبلاً للدلالة على مجموعة كاملة من المحاربين الراكبين أصبح يستخدم خلال القرن الثاني عشر للدلالة على جزء واحد فقط من تلك المجموعة تتميز عن بقية الأجزاء بنبل محتدها وجودة معداتها . وفي نهاية القرن الثاني عشر أضحى هذا الفصل واضحاً جداً الى درجة أن المعاصرين كانوا يميزون تماماً بين الجند من الفرسان milites من جهة وبين باقي الجند من الخيالة من جهة أخرى ممن يطلق عليهم اسم خادم راكب Servientes Loricati أو سرجند خيّال Serjans á[1] . ولم يكن خادم هذا المصطلح مستخدماً في سورية اللاتينية حتى نهاية الفترة التي نحن بصددها ، ثم أصبح يستخدم عرضاً بعد ذلك . وعلى وجه العموم كانت جيوش اللاتين توسم دائماً باسم الفرسان المشاة «milites Peditesque» . ولما كان مفهوم كلمة الجندي الفارس miles دائم التبدل خلال ذلك القرن ، فليس من السهل التأكد على المعنى الذي يقصد من وراء كل كلمة من هاتين الكلميتن في كتابات المؤرخين .

لقد كان لهذه المسألة صلة وثيقة بقوة الجيش الذي يقاتل في سورية . إذ يتفق الاسبتارية على أن تقديرات القرن الثاني عشر لأعداد الحجاج المرافقين للحملات الصليبية الكبرى مبالغ فيها دائماً إلا أنهم لم يكونوا يسجلون أي تعليق يذكر عندما

---

١) إن اطلاق مصطلح فرسان وسرجندية على ذلك الجزء الراكب من القوات في العصور الوسطى لم يحدث إلا في أواخر القرن الثاني عشر . وحتى في ذلك الحين لم تشاهد نماذج عنها أو تقتبس إلا في يوميات كاتب واحد هو جيسلبرت مونز Giselbert of mons (Monumenta Germaniae Héstorica, Scriptores, XXI, PP. 520, 543, 552. واقتبس عنه بالتزر في كتابه : Baltzer, zur Geschichte des deutchen Kriegswesens, P. 57 وكوهلر Kohler, III, 2, 38-9 ، ودلبروك Delbruck, P. 259 وغيلهيرموز Guilhiermoz, op. cit. P. 229 m 15 . ولا يبدو أن هذين المصطلحين استخدما على نطاق واسع حتى أوائل القرن الثالث عشر .

نتجت عن زيادة وزن الدرع وتكاليفه حالة أخرى لا تقل أهمية ، ذلك أن الأتباع في المجتمع الاقطاعي في القرن الثالث عشر ممن تفرض عليهم خدمة الفروسية ولا تتوفر لديهم القدرة على تجهيز فارس كامل كانوا يملكون حق استبداله باثنين من السرجندية على الخيل إذ كانت عدة السرجند أقل اتقاناً وتكلفة ، ومن المرجح أنها كانت تتطابق مع عُدة الخيال في أوائل القرن الثاني عشر .

Chew, Ecclesiastical tenants-in-chief P. 90, Morris, Welsh Wars, P. 50

يواجهون بالأعداد الضئيلة للجند من الفرسان milites والمشاة (البيادة) Pedes، الذين كان يزج بهم الحكام اللاتين في المعارك[1]. بالرغم من أن الشواهد المتوفرة تدل على أن ذلك ـــ مثله مثل الأرقام الكبيرة ـــ يتطلب بعض التدقيق أحياناً لجعل تلك الأرقام أقرب الى حقيقة القوة القتالية للجيوش اللاتينية[2].

من المعقول أن نفترض أن الخيّال المدرع أو الفارس miles يرافقه في جميع الأزمنة خادم أو أكثر، وتؤيد السجلات وجهة النظر هذه. وثمة تساؤلات كثيرة عما إذا كان هؤلاء التابعون يتبعون سيدهم في المعركة أم لا، وقد أجمع رأي المؤرخين العسكريين عموماً على أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك[3]. كما أن دراسة الشواهد النادرة التي تقدمها بعض المصادر المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية توصلنا الى النتيجة ذاتها. إذ يذكر حاملو الدروع armigeri والأتباع ecuyers على أنهم سياس

---

(١) أنظر Prutz, Kultur geschichte, P. 182; Dobu, Institutions, P. 218

(٢) يرى Delpech, I, P. 410 ضرورة إجراء مثل هذا التدقيق ولكن لأسباب خاطئة. فمن المؤكد أن الفارس في القرن الثالث عشر كان يرافقه جندي راكب يتبعه في المعركة. وعندما تحدد قوة وحدة ما بعدد فرسانها يجب بالتالي ضرب الرقم بثلاثة أضعاف للتوصل إلى عدد القوة المقاتلة الراكبة (Morris, Welsh Wars, PP. 54-6)وقد طبق دلبش القاعدة ذاتها بالنسبة لجيوش اللاتين في سورية القرن الثاني عشر. ووجد عدداً من الأمثلة التي تدل على أن القوة التي تضم عدداً من الفرسان في أوربة كانت تشمل عدداً محدداً من السرجندية الراكبين يزيد أربعة أضعاف أو خمسة أضعاف. وتوصل بالتالي إلى رأي بأنه عندما يذكر تعداد أي جيش بعدد فرسانه فإن هذا العدد يجب أن يضاعف أربع أو خمس مرات والناتج هو عدد السرجندية الخيالة. وكل الأمثلة التي ضربها مأخوذة، على كل حال، من القرن الثالث عشر عندما أضحى التمايز بين الفرسان والسرجندية واضحاً. أما في القرن الثاني عشر فلم يكن ذلك أمراً طبيعياً ولا يمكن تطبيق قاعدة دلبش عليها بشكل مقنع.

(٣) اتفق Baltzer و Delbruck على أن هذا هو الحال في بداية القرن الثاني عشر، ولكن أثناء ذلك القرن أصبح مرافقوا الفرسان يحملون صفة المقاتل. وثمة صعوبة واحدة في هذه المشكلة هي أن المصطلحات التي استخدمت خلال القرن الثاني عشر لم يكن لها معناها الدقيق، وكان الكتاب المختلفون يستخدمونها بمعان مختلفة. وعندما حاول المؤرخون الحديثون تحديد معنى دقيقاً لها ـــ مثل كوهلر ـــ تورطوا في سلسلة من التناقضات. أنظر التعليق القاسي الذي ذكره دلبروك على هذا الجزء من عمل كوهلر (مجلد ٣ ص ٣٢١ ـــ ٣٢٨).

Foragers وكانوا يزودون غالباً بمرافقة مسلحة لحمايتهم. وكانوا أثناء الاشتباكات يتولون حراسة أعتدة الفارس ولايسهمون في القتال عادة.

ثمة دليلان آخران أورد فلتشر أحدهما والثاني موجود في نظام الداوية the Rule of the Templars وهما يُظهران أن المرافقين من خدم الفرسان لم يكونوا مقاتلين في الظروف الاعتيادية. ففي العام ١١٠١ كانت الحاجة ملحة للجنود من أجل مجابهة المصريين بحيث جند حاملو الدروع ضمن العسكر بأمر من الملك بلدوين «quicumque potuit de armigeri sue militem fecit»[1]. ولكن حاملي الدروع هؤلاء لم يكونوا مطلوبين للقتال في الأزمات اللااعتيادية. إذ ينص نظام الداوية أنه عند تشكيل سرايا* الداوية للدخول في المعركة يحتفظ كل فارس منهم بتابعين اثنين ecuyer يقف أحدهما أمامه ويحمل رمحه الطويل ويقف الآخر خلفه ممسكاً بقياد الأحصنة الاحتياطية[2] وقبل أن تبدأ المعركة كان التابع ecuyer المسؤول عن الخيل يجرها الى الصفوف الخلفية ويصبح بإمرة شخص يدعى Confanonier، ويمكن الافتراض هنا أن التابع الآخر ecuyer الذي يحمل الرمح كان يناوله الى سيده وينسحب الى الخلف كذلك ليخلي ساحة المواجهة[3].

ويبقى السؤال فيما إذا كان عدد الجند الفرسان milites المدون في السجلات يدل على عدد الخيالة الراكبين كلهم أم لا. والدليل هنا باهت أيضاً،

---

1) Fulcher. P. 391.

*) جاء في لسان العرب

السرية ما بين خمسة أشخاص إلى ثلثماية وقيل هي من الخيل نحو أربعمائة. والسرية قطعة من الجيش، ويقال خير السرايا أربعماية رجل، وأما السرية من سرايا الجيوش فإنما سميت كذلك لأنها تسري ليلاً في خفية لئلا ينذر بها العدو فيحذروا أو يمتنعوا، ويقال سرى قائد الجيش سرية إلى العدو إذا جردها وبعثها وهو التسرية. والمتسري الذي يخرج في السرية، وهي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة وجمعها سرايا وسموا كذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم (م. م).

2) Règle, No. 161

3) Frauenholz, P. 135, Règle No. 179

ولكن الظاهر أن عدد الفرسان milites المذكورين في سورية اللاتينية لم يكن يشكل سوى جزء من القوة الراكبة. فمثلاً: بعد أن هزم بلدوين الأول في العام ١١٠٢، أصبح موقف مملكة القدس من الناحية العسكرية يائساً. إذ أبيدت القوات التي اصطحبها الملك ليخوض بها المعركة، وضيقت القوات المصرية المظفرة الحصار على يافا، وهددت المواصلات بين تلك المدينة وبيت المقدس[1]. ولم يعد بالامكان استعادة الوضع السابق إذا لم تستنهض قوات جديدة لدحر المحاصرين ليافا. هنا أرسل بلدوين رسولاً منفرداً الى بيت المقدس فاستجاب لندائه واستغاثته تسعون رجلاً. «Tam de miltibus quam de illis qui equos habere potuerunt vel jumenta».[2]

وكان الرجال الذين التحقوا بالجيش في هذه المناسبة، من غير الفرسان، راكبين، والمعروف أنهم كانوا موجودين بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ. ففي تعبئة العام ١١٠٥ كان الفرسان milites يشكلون مرة أخرى جزءاً فقط من صفوف الأجناد الراكبين: «milites nostri erant quingenti exceptis illisqui militari nomine non censebantur, teman equitantes»[3] وهذا المثال واضح بشكل خاص لأنه عندما نقل وليم الصوري عن فلتشر في كتابة تاريخه، وسجل الحادثة نفسها كرر الأعداد التي ذكرها فلتشر، ولكنه لم يتكلم عن أولئك الخيالة الذين لا يمكن الاعتراف بهم فرساناً[4]. وكان وليم معنياً بإعطاء الأرقام التي يقصد بها

---

1) RKGJ. PP. 36-40 Grousset, I, PP 231-7

٢) Fulcher, P. 404 . سجل وصول التعزيزات من القدس وليم الصوري أيضاً ص ٩٧٧، ولم تكن تلك التعزيزات من الفرسان. وفي العام ١١٧٠ انضم إلى الجيش الذي جهزه أملريك لمواجهة صلاح الدين في داروم خمسة وستون شاباً من مقاطعة بيت المقدس "Ermat porro ibi juvenes expediti et ad arma prompti. . ." ولا يفهم من النص فيما إذا كان هؤلاء راكبين أم لا. ولكن بما أنهم حاولوا اختراق صفوف العدو "Viam ferro operire" ونظراً لأن التعزيزات الأخرى المذكورة في الجملة الختامية للفصل ذاته وصفت بأنها pedites فإنه من المرجح أن أولئك الفتيان كانوا يملكون رواحل مهما كان شأنها.

٣) فلتشر ص ٤١٣.

٤) وليم الصوري ص ٤٥٥.

الجند من الخيالة فقط militec peditesque بينما تجاهل وجود الخيالة الآخرين، ويمكن الافتراض بأن هذه لم تكن المناسبة الوحيدة التي تقصدها.

استخدم فلتشر ووليم مصطلح الخيّال المدرع miles في الأمثلة التي ساقاها، بمعناه الذي كان يقصد فيه في القرن الثاني عشر، للدلالة على الفارس كامل العدة من خيل وسلاح ومتحدر من طبقة اجتماعية عريقة نبيلة[1]. أما فيما يتعلق بوجود رجال آخرين كانوا يقاتلون على متون الخيل فلم يكشف عنهم إلا نادراً، كما في الأمثلة المذكورة. ولدى استخدام عبارات عرضية مثل الخيالة العاديين milites gregarii[2] والخيالة من الدهماء milites plebei[3]. وهذا واضح كذلك في وصف وليم الصوري لأعداد الاقطاعيين الذين قدموا من أوربا في الحملة الصليبية الثانية: (أنظر وليم الصوري ص ٧٣٨) «Nam ut constanter asserunt qui in eadem expeditione praesentes fuerunt, in sola domini imperatoris comitatu, ad septuaginta millia fuerunt laricatorum exceptis peditibus, parvulis et mulceribus, et equitibus levis armaturae. in execitu vero domini regis Francorum, Vivorum fortium laricis utentium numerus ad septuagenta millia excepta classe secunda».

وبما أن تركيب القوة مفصل تفصيلاً يتجاوز المعتاد فقد وصف الخيّال النظامي miles بأنه فارس مدرع miles loricatus ومعه خيّال خفيف الدرع equites levis armaturae أو خيال من الدرجة الثانية classis secundae. ويوصف هؤلاء عادة في نصوص القرن الثالث عشر بأنهم خدم servièntes وأتباع مدرعون equites loricati أو سرجندية على الخيل serjans à cheval، ولكنهم يعدون عادة غير

١) أصبحت احتفالات تقليد مرتبة الفروسية تقليداً في سورية اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر. وعندما جاء حامل دروع جوسلين الأكبر في العام ١١٢٤ بنبأ وفاة بلق بن أرتق إلى بونز أمير طرابلس كافأه الكونت الذي غمره الفرح بأن أنعم عليه برتبة فارس (فلتشر ص ٤٦٣).

٢) Raimundus de Aguilers P. 242 ؛ Albertus Aquensis, P. 698، رغم أن رايموند كان يصف قوة تركية فهو إنما كان يفعل ذلك مستخدماً المصطلحات التي يفهمها قراؤه اللاتين.

٣) المصدر السابق ص ٢٧٤.

جديرين بأن يذكروا بشكل خاص في المذكرات التاريخية العائدة للقرن الثاني عشر في سورية .

لم يكن المكان الأساسي للخيّالة خفيفة التسليح في القتال ليختلف كثيراً عن مكان الفرسان . وكان تعبير Levis armaturae يعني أنهم لم يكونوا جيدي العدة كالفرسان الذين يفوقونهم غنى . ولا يعني ذلك أنهم كانوا يستخدمون في العادة خيالة خفيفة بينما يستخدم الفرسان خيالة ثقيلة ، وفق ما يمكن أن يتصوره القارىء الحديث من فروق في الاستخدام التكتيكي لهؤلاء . وقد تكون حقيقة كونهم خفيفي العدة بهدف تحقيق غايات عسكرية خاصة معينة[١] ، إذ كانوا يرسلون « أعيناً » speculatores ، أو مستطلعين ، أو يستخدمون للمناوشة والمطاولة « skirmichers »[٢] . وعلى كل حال لم تكن النصوص تذكر لهم وظائف متخصصة عادة ، ويبدو أنهم كانوا يخوضون القتال مع الفرسان جنباً الى جنب[٣] .

كان الفرنجة في سورية يجندون أجناداً من السكان المحليين أيضاً[٤] . وكان هؤلاء الجند متحدرين غالباً من والدين يعتنقان دينين مختلفين ، ويعرفون باسم التركبولية Turcopoles[٥] . وبمرور الزمن أصبح هؤلاء يشكلون جزءاً طبيعياً من القوات اللاتينية ، بحيث راح المعاصرون يذكرونهم الى جانب الخيالة المدرعة والجند المشاة (البيادة) في مجرى وصفهم التقليدي للجيش[٦] . وعندما تعهد مقدم الاسبتارية بتزويد أملريك بفرقة لغزو مصر ، وعد بتقديم مفارز من الفرسان والتركبول مع أسلحتهم « quingentos milites et tatidem Turcopolos bene armatos »[٧] . وقد أصبح هؤلاء

---

١) وليم الصوري ص ٥٨٢ ، استخدم Equites levis armaturae لإعداد كمين .

2) Oman, I, P. 372

3) Fraunholz, Heerwesen, PP. 119-20

4) Dobu, PP. 205-15

5) RA, P. 246, AA, P. 434.

٦) أنظر مثلاً رسالة Gaufredus Fulcherius مستشار الداوية إلى لويس السابع في Bouquet Recueil des historiens des Gaules, XVI. No. 195, P. 60

7) Reg. No. 452

الجنود المحليون جزءاً نظامياً من الأخويتين الرهبانيتين العسكريتين ، وأخذت كل منهما تضم الى صفوف ضباطها الكبار ضباطاً من التركبولية .

كان التركبول يضمون رجالاً راكبين ويستخدم بعضهم القوس والنبل[١] . وقد جمع المؤرخون شتاتاً من المعلومات عنهم ، وراحوا يشيرون الى أنهم جميعاً كانوا رماة نبل راكبين متخصصين بمهام عسكرية معينة . وقيل إنهم كانوا يُستخدمون بشكل خاص للقيام بمهام الاستطلاع[٢] ، وأنهم كانوا يطبقون الطرائق التركية في استخدام النبّالة الراكبة المتحركة لصالح الفرنجة[٣] . والواقع أن هؤلاء كانوا يُستخدمون في بعض الأحيان لمثل هذه الغايات ، رغم أنه لا يوجد إلا القليل من المبررات التي تدعونا الى الافتراض بأن التركبول كانوا خيالة ورماة نبل . ولكن المؤكد أنه لم يكن بالإمكان تجنيدهم لأعمال الاستطلاع فقط ، ولو كانت تلك مهمتهم الرئيسية . ولم يعرف عن الفرنجة تفوقهم عادة بهذه الناحية من فن الحرب[٤] ، ولم تكن متطلباتها كافية لتفسير الأهمية التي حازها التركبول في الجيوش اللاتينية . كما لم يكن هؤلاء ضروريين للعمل رماة نبل راكبين ومتحركين ضد المسلمين . إذ كانت هذه المهارة بالذات شيئاً مميزاً لدى المحاربين من التركمانية ، وليس من سبب يدعو للافتراض أن العديد من الجنسيات المحلية العديدة التي كانت تقيم في سورية قد تبنت استخدامها . فلم يكن اسامة ورفاقه يقاتلون بتلك الطريقة ، ولم يكن الجنود المصريون يفعلون ذلك أيضاً[٥] . والأكثر من ذلك أن اجراءات الفرنجة المضادة للهجمات التركمانية كانت ترتكز الى الطرائق الحربية التي تمكنهم أعتدتهم وأساليب تدريبهم من تطبيقها . وقد عدلت تلك الطرائق لمواجهة المشكلات التي يتسبب بها رماة النبل المتحركين ، ولكنهم لم يتركوها إطلاقاً

---

١) أسامة ص ٧٩؛ و Galt, P. 74 يصف معركة سرمين وقد استخدم العبارة التالية Turcopoli contra ipsos sagittantes.

٢) أنظر Frauenhol Tz, Heerwesen P. 106.

٣) أنظر Monro, Kingdom, P. I06, Prutz, Kultugeschichte P. 186

٤) أنظر فيما يلي ص (٢٦٢) ، بوغت الفرنجة كذلك في العام ١١١٩ (فيما يلي ص ٢٦٤) والعام ١١٤٩ (ص ٢٦٢) والعام ١١٧٩ (فيما يلي ص ٢٦٦) .

٥) أنظر أعلاه (ص ١٤٥)

ليتبنوا الطرائق التركانية . ويبدو أن التركبول كانوا خيالة مدرعة خفيفة equites levis armoturae في الشرق اللاتيني . وقد وصفهم وليم الصوري بهذه العبارة بالذات[1] . وكانوا يجندون لتكملة أعداد الفرسان الفرنجة ، التي لم تكن تكفي أبداً ، ويشكلون جزءاً طبيعياً من الجيوش التي تطبق اساليب التكتيك الغربية المعدلة وفق متطلبات العصر . وكان من يقاتل منهم على الخيل ينضاف الى عدد الخيالة اللاتين milites ويساويهم في الوزن ويواكبهم عادة ويقاتل معهم بطبيعة الحال .

كانت الأسلحة الهجومية الرئيسية لدى الفرسان Knights والجند الخيّالة الآخرين تتألف من الرمح الطويل (الخطل)[*] والسيف Lance and sword[2]. وكان الهجوم الأول ينفذ بالرمح الذي تتوقف فاعليته بالدرجة الأولى على الفرس وراكبها . فالراحلة تعزز وزن الخيال المدرع وسلاحه ، وتؤمن باندفاعها وعزمها القوة الدافعة الضرورية لطعنة الرمح . وكان الفارس يمسك العنان والترس بيده اليسرى ويقبض باليمنى على رمحه ويهزه وهو يطعن به ، أو يتأبطه بشدة وثبات تحت ذراعه[3]. وليس لنا علم

---

١) وليم الصوري ص ٩٢٥ ، ١٩٧ .

*) الخطل الرمح الطويل الذي يضطرب في يد حامله لافراطه في الطول ، ولا يحمله إلا الرجل القوي (أنظر الجيش العربي في عصر الفتوحات ص ٧٨) وقد أطلق أسامة بن منقذ عليه الرمح الألفي مبالغة في طوله .

٢) ذكر ذلك بوضوح في جميع مصادر تلك الفترة ، وللاطلاع على الأسلحة التي يقبل بها الحاكم الاقطاعي فرسانه أنظر : Henry II of England's Assize of Arms in stubl's select Charters (9 the ed. by H.W.C. Davis) P. 183, and Frederick Barbarossa's Lex pacis castrensis in Frauenholz, Heerwesen, P. 254

٣) إن الوضعية الاعتيادية للقبض على الرمح في القتال غير واضحة إطلاقاً في أوائل القرن الثاني عشر فقد يقذف به كا الحربة ، أو يطعن به العدو بحركة من ذراع الفارس ، أو يقبض عليه بشدة تحت إبط الفارس بحيث تكون قوة الطعنة مكتسبة من اندفاع الفرس نحو الأمام فقط . وتدل رسوم السجاد الجدارية Bayeux Tapestry على استخدام الرمح بالطرائق الثلاث المذكورة . وتظهر الرماح فيها أسلحة مقذوفة (رغم كونها لا توضح جميعها أن الفرسان هم من يقذفون بها) ، كا تظهر أيضاً وقد قبض الفارس على الرمح بقبضته وارتد بذراعه الأيمن إلى الخلف وهو يتهيأ للطعن به أو قذفه ، كا تبدو

بسرعة الفارس من اللاتين عندما ينطلق للعمل، إلا أن اندفاعه والعنف في هجومه يبدوان واضحين تماماً في كل النصوص، ومن المرجح أن سرعة الهجوم كانت مرهونة بأقصى سرعة عدو يستطيعها الحصان[1]. فإذا ما تحطم الرمح في الهجوم الأول يتابع الفارس القتال بسيفه[2]. ولم يكن شروع صفوف الفرسان بالهجوم في العصور الوسطى هو ذاته الذي تطبقه سرايا الخيالة المدربة في الظروف الحديثة. إذ أن الأجناد النظامية من الأجيال السابقة لعصرنا كانت تدرب على العمل وحدة مقاتلة، ويمكن السيطرة عليها ولو بعد شنها الهجوم الأساسي، كما تمكن إعادة ترتيبها وتوجيهها نحو مهام جديدة أثناء المعركة. أما هجوم الخيالة في العصور الوسطى فقد كان في أساسه

أحياناً وقد شدد الفارس قبضته عليه بثبات، وهي الهيئة التي صور فيها وليم النورماندي ورمحه الطويل في يده على زجاج نوافذ كنيسة القديس دينيس العائد للقرن الثاني عشر.

ولا يتوفر لدي الدليل على أن فرسان الغرب كانوا يقذفون الرمح قذفاً في سورية اللاتينية. ولكن المسلمين، كانوا يفعلون ذلك أنظر (Anonym gesta Francoram, ed. Brehier ص ٤٦، ٩٠، ١٥٤) ولكن لم يرد ذكر أي عمل مماثل له من قبل الفرنجة. وكان الفعل الذي يستخدم عادة لوصف التعامل مع الرمح باللاتينية هو Vibrare أو palpare وهي تعني الهز أو الرهز واللمس. ويعتقد هيرمان (Gefechtsfuhrung P. 118) أن هذه الكلمة تعني ضربة رهازة swinging blow يسددها الفارس إلى عدوه، إلا أن هذا الاستنتاج بعيد عن الاقناع. لأن الفارس المدرع لا يستطيع أن يهز الرمح إلا إذا كان خفيفاً. أما الخطل أو الرمح الثقيل الذي وصفه أسامة (ص ١٣١) فلا يمكن امساكه إلا ثابتاً تحت الإبط. ونظراً لأن الأسلحة وعدة القتال أخذت تزداد ثقلاً خلال القرن الثاني عشر فإن الظاهر هو التعامل مع الرمح على الأرجح حسب الوضعية الثالثة الموصوفة أعلاه في الفقرة الأولى من هذه الحاشية. أنظر: Hagenmeyer in Galt. P. 214 No. 35; J. Schvietering, zur Geschichte vom speer und schwert in 12 jahrhundert; R. Glover "English warfare in 1066 in EHR, LXVII (1952), P. 14 and No. 3.

١) قبل أن يشرع الفرسان بالانقضاض كانوا يتقدمون نحو العدو ببطء: paulatim, gradatim gradu lento, pedetemptim الخ..، أنظر Heermann P. 118. ولا تؤيد المصادر ملاحظات دلبروك (III, P. 293)، حيث يقول إن الفرنجة كانوا ينقضون على العدو بخطى بطيئة، وهو يؤيد قوله هذا باقتباس أقوال هيرمان غير الدقيقة المنقولة عن بالدريك. ولكن ما نقله دلبروك ليس مناقضاً للواقع لأن بالدريك لا يتحدث عن الانقضاض بالذات وإنما عن الاستعداد للمعركة.

٢) من أحسن أوصاف هجوم الفارس التي وردت في مصادر تاريخ الحروب الصليبية ذلك الذي قدمه غالتيريوس .Galt ٨١ — ٨٢ (أنظر النص في أصل هذا الكتاب ص ١١٤).

مجموعة من الهجمات الفردية الكثيرة رغم أنه يعول في تأثيره على كتلة المشتركين فيه ، ويتوقف نجاحه على قوة الصدمة مع العدو الذي تتزعزع صفوفه تحت وطأتها في حال المقاومة . فإذا كان العدو قادراً ــ مثل التركانية ــ على الجنوح بنفسه عن طريق هذا الهجوم ، فإن الفرنجة يصبحون والحالة هذه معرضين للهجوم المعاكس بينما تتفكك تشكيلاتهم أثناء التقدم . ولا يمكن لأي قائد أن يسيطر عليهم بعد أن يشرعوا هجومهم الأساسي . ويمكن تشبيه «صفوف» الفرسان ، من هؤلاء بقذيفة في يد القائد ، يمكن أن تصيب العدو إذا ما وجهت نحوه من المرة الأولى . ولا بد بالتالي ، من أجل تحقيق النجاح ، من ضرب العدو وتحطيمه بانقضاض واحد «uno impetu» . وقد خلقت الأساليب التكتيكية المضللة التي كان يتبعها المسلمون مشكلة حقيقية في وجه الفرنجة هي تحديد وقت انقضاضهم ، الذي كان أقوى سلاح تكتيكي لديهم ، بحيث يتمكنون من تحقيق الصدام مع الكتلة الرئيسية من قوات العدو . وقد ذاع صيت الانقضاض الفرنجي في جميع أرجاء الشرق الأوسط وكان أخصامهم يهابونه فعلاً[1] .

بعد أن تحدثنا عن الجند الراكبين ننتقل الى الحديث عن **الجند الراجلين** . وكان المؤرخون العسكريون عندما يتكلمون عن العسكري من «البيّادة» (Pedes) في القرون الوسطى فإنهم يعدونه غالباً جندياً مدرباً ويغفلون الى حد ما المعنى الواسع لذلك المصطلح . إذ أن هذه الكلمة ــ مثلها مثل كلمة الفارس المدرع miles ، تعني رجالاً مقاتلين مختلفين جداً في خبراتهم العسكرية ومهاراتهم ومعداتهم . فإذا كان الرجل منهم بدون سلاح كان يدعى «الأعزل أو السوقة» imbellis ، وفرداً من أفراد الجند «الجند العزل من السلاح» vulgus inerme ، ولكن ما إن يتسلح ويصبح

(١) Anna ص ١٢٢ ــ ١٢٣ « الصدمة الأولى التي لا تقاوم » (للفرنجة) ، وهي توضح ذلك بقولها أن الانقضاض الأول لا يمكن أن يرد أو يقهر (ص ٢٨٣) ثم يصبحون بعد ذلك معرضين للضرب (ص ٣٤٢) !! « إن الفرنجي على متن فرسه قادر على فتح ثغرة في سور بابل » . ويردد ابن القلانسي ص ١٧٦ « الهجوم الشهير » وص ٢٨٤ « الانقضاض الشهير » وص ٢٩٢ « الانقضاض الشديد » ولكن أبرع وصف لهجوم الفرنجة هو الذي يذكره بهاء الدين ص ٢٥٨ ــ ٩ في تسجيله لمعركة أرسوف .

مهيأ لقتل العدو بتوجيه من قائد المجموعة التي يجد نفسه معها حتى يضحى اسمه جندي مشاة (بيادة) Pedes بالمفهوم العسكري لهذه الكلمة[1]. إن أي رجل لا يملك خبرة في الحرب، ولكنه يملك قوساً أو حربة أو هراوة لا بد وأن تكون له قيمة عسكرية ما، بيد أنه إذا توفرت مجموعة كبيرة الى درجة كافية من مثل هؤلاء الرجال فإن قيمتها تصبح كبيرة جداً[2]. إلا أن ثمة رجال تعد الحرب لهم مهنة من المهن، وهم يقاتلون على أقدامهم بانتظام وهم مسلحون تسليحاً حسناً ويرتدون دروعاً تقيهم جيداً، وقد تزودوا بخبرة تتيح لهم مهارة لابأس بها في استعمال سلاحهم في القتال على وجه العموم. وكان هؤلاء أيضاً يعرفون باسم المشاة (البيّادة) «Pedites»[3]. لقد كان هذان النقيضان كلاهما موجودين في الشرق اللاتيني. فعلى الدرجة الأولى من السلم كان يقف جندي المشاة بعدته التي تصورها هنري بلانتاجينيت Henry Plantagenet في كتابه Assize of Arms، أو وصفها مؤلف الايتنيراريوم Itinerarium[4] وبهاء الدين[5]. وكان يرتدي خوذة حديدية ويحمي جسمه درع أو جلد أو لباد مضرّب، وربما حمل ترساً أيضاً، وكان يتسلح بحربة (قناة) spear أو بقوس bow أو بقوس أنبوبي crossbow. وفي الدرجة الأخيرة من السلم يقف الحاج القادم مع الصليبية بثوبه المعتاد ولكنه يحمل رمحاً أو قوساً بدلاً من عصا

---

١) Odo(ص ٥٧) تمنى أن يأمر البابا ، الذي تولى بنفسه تفتيش أسلحة الفرسان وأمتعتهم في الحملة الصليبية الثانية ، كل الناس السائرين على أقدامهم بحمل السلاح .

٢) إن القاعدة العامة المذكورة أعلاه سارية المفعول حتى في أيامنا هذه حيث فرص النجاح المتاحة للرجل المسلح تسليحاً بسيطاً هي أقل بكثير من فرصه في العصور الوسطى عندما يقاتل ضد جندي من الدرجة الأولى مزود بعتاد من الدرجة الأولى . وتشاهد هذه واضحة في وضع الحرس الوطني .

٣) كان يشار إلى وجودهم أحياناً في النصوص القديمة بعبارات أخرى كما فعل فلتشر ص ٤٤٧ "habens secum (sc. Rex Baldwinus) Trecentos milites lectissimos, et clientes advectitios quadringentos probissimos; وكذلك وليم الصوري ص ١١٢٢ : «Erant enim eis equites ad mille trecentos; peditum vero armatorum egregie quindecim milium summam dicebatur numerus excedere.»

٤) أنظر Itin. P. 99 .

٥) بهاء الدين ص ٢٥١ .

الحاج. وهنالك الفرنجي السوري (البلدي)، الذي كان فرداً من العامة يحمل السلاح في حالات نادرة يدعو اليها ملك بيت المقدس.

عدَّ بعض الكتاب سورية اللاتينية مسرحاً للحرب يستلزم تشكيل قوة فعالة من المشاة[1] فيه، ووجدوا أن الدروس التي تعلموها في الحرب ضد المسلمين أثرت تأثيراً كبيراً على الممارسات المعاصرة في أوربا الغربية[2]. ومهما تكن خطة مناقشة هذا الموضوع فلابد من أن يوضع في الاعتبار سؤالان اثنان على علاقة بها: يدور أولهما عما إذا حدث تطور ونمو في مهارة المشاة ومعداتها في سورية اللاتينية وثانيهما عما إذا كان القادة أَوْلوا المشاة دوراً أكثر أهمية في العمليات أو أنهم تفننوا في استخدامهم في خططهم التكتيكية.

أما ما يتعلق بالسؤال الأول من هذين السؤالين فمن السهل الاستنتاج أن الأتباع من البيادة الأشداء «Pedites satellites rigidissimi» الموصوفين في المصادر الشرقية[3] على حد سواء، والذين أحبطوا عنف هجمات المسلمين على مؤخرات اللاتين في أرسوف، كان لهم شأن، في الحملة الصليبية الثالثة، أبرز بكثير جداً من نظرائهم في الحملة الأولى[4]. ورغم أنه يمكن إيجاد تباين واضح جداً فيما بين مشاة العام ١١٩١ ومشاة العام ١٠٩٨، فإن هنالك تشابهاً كبيراً من بعض النواحي الهامة بينهما أيضاً. ولقد قدم شهود عيان انطباعاً لا يمحى أثره عن انضباط الرجال المشاة وثباتهم خلال الحملة الثالثة، ولكنهم لم يكونوا جميعاً متمتعين بهذه الصفات[5]، وربما تسبب حصان جامح في حدوث هلع وذعر مفاجىء بين صفوف

---

١) أنظر Kohler, III, PT. 3, P. 209.

٢) Delpech, II, P. 224 حيث وصف فرسان الرهبانيات العسكرية وكأنهم أساتذة يدربون الفرسان القادمين من أوربة بصفة حجاج على فن الحرب.

٣) Itin. P. 263 ؛ بهاء الدين ص ١٩٩، ٢٥١.

٤) أجرى المقارنة دلبش Delpech, II, P. 154

٥) Itin. P. 263، ألقى الكثير من النشابين أسلحتهم عند أرسوف وتركوا خط الرماية.

« البيادة » عند عكا في العام[١] ١١٩٠ لا يقل عن ذلك الهلع الذي أصابهم في العام ١٠٩٧ عند أنطاكية[٢]. كذلك لم تتبدل عدتهم أيضاً، إذ كان القوس والقوس الانبوبي crossbow سلاحين فعالين بين يدي النشابين في أرسوف[٣] كما كان حالهما عندما استخدمهما الحجاج في الحملة الصليبية الأولى[٤]. وكان الرمح سلاح المشاة الاعتيادي طوال ذلك القرن.

يرى دلبروك أن جنود المشاة في القرن الثاني عشر لم يتجاوزوا في أدائهم ما قاموا به في دوريليوم[٥]. ويستند في حكمه هذا أساساً على جملة غير مقنعة أخذها عن رالف كان Ralf of Caen إلا أن الحقائق الأخرى تؤدي بنا الى الاستنتاج ذاته. إذ أن عدم كفاءة جنود المشاة المفترضة في بداية الحروب الصليبية نابعة من مساهمتهم الضئيلة في معركة دوريليوم[٦]. فعندما نشبت المعركة قاد بوهمند الفرسان فقط من قومه الى المعركة وترك الراجلين منهم في المعسكر[٧]. وقد وصف ترتيبات

---

١) Itin, P. 70 ،

٢) RA, P. 243 Fulchre, P. 329 ، وتعطي آنا كومنينا (ص ٢٥٥) فكرة واضحة عن القسي الانبوبية التي كان يحملها اللاتين في الصليبية الأولى .

٣) حول استخدام القوس الانبوبي في الصليبية الأولى أنظر Anon, P. 38 ، فيما يخص النشابين في المعركة أنظر Anon. P. 212 .

٤) Delbruck P. 421 ، ولكن رالف حاول أن يصف مأساة حدثت بسبب بلبلة شديدة عندما طُعن الفرسان الفارون من القتال برماح أتباعهم غير الراكبين ، وربما كان الناتج الأخير للكارثة إياها إيقاف هجوم المسلمين ولكن ما حدث ــ مثلها مثل أية حادثة أخرى في المعركة ــ لم يكن سوى نتيجة عارض طارىء وليس مخططاً . وما ملاحظة دلبروك عن ذلك (ص ٤٢٩) سوى جزء من الحقيقة .

٥) أنظر Delbruck, III. P. 429.

٦) كان دور المشاة في هذه المعركة أساس الحجج التي ساقها المؤرخون حين اعتبروا مشاة القرن الثاني عشر في حالة تطور نحو الأمام Kohler, III, PT. 3, P. 209, Heermann P. 122, Delpech, II, P. 154, 186

٧) Anon P. 44 وحجة كوهلر (III. PT. 3. P. 141 No. 5) أن هذه المعلومات التي قدمها فلتشر هي بلا قيمة ، لأن فلتشر ــ كما يقول كوهلر ــ ذكر بأن أعداداً كثيرةً من اللاتين الراجلين قتلوا في المعسكر ، وهذا ما يؤكد معلومات الكاتب مجهول الأسم بأن جميع المشاة ظلوا في المعسكر . إن التبريرات غير المقنعة من هذا النوع هي عادية بالنسبة لكل من دلبش وكوهلر .

بوهمند هذه الكاتب مجهول الأسم الذي كان يستقي معلوماته الصحيحة دائماً من الوثائق الخاصة بذلك الأمير النورماندي[1]. فعندما حدث التماس مع التركمان ظن بوهمند أنه خائض معركة مرتبة فأعطى أوامره بإقامة المعسكر. ويلفت المؤرخون الانتباه الى الحقيقة القائلة بأنه عندما نشبت المعركة انطلق الفرسان لملاقاة العدو بينما ترك المشاة للقيام بواجبات المعسكر، وقد فسر هذا الترتيب وكأنه يخص رجالاً غير مناسبين للقتال بهذا العمل المتواضع[2]. ولكن تبين على كل حال أن بوهمند أصدر مجموعتين من الأوامر. فأوعز للفرسان في بادىء الأمر بالترجل وترتيب المعسكر، وقبل أن يتمكن من انجاز ذلك اضطر الى تنظيم المقاومة الفورية لمجابهة أخطار هجوم السلاجقة. وتم بالتالي تقسيم المهمتين الأساسيتين على النحو التالي: يقوم الفرسان بمهاجمة الأتراك بينما يتابع المشاة إقامة المعسكر[3]. ورب قائل يقول إنهم إنما أعطوا المهمة الثانوية، ولكن هذه المهمة كانت قد أعطيت في أول الأمر الى الفرسان، رغم قرب العدو، وكانت مهمة حيوية من أجل التوقف ودخول المعركة. وهي لا تدل بأي حال من الأحوال على أن جنود المشاة كانوا غير صالحين للحرب.

ولم يكن الموقف هذا هو الوحيد من نوعه لأن موقفاً آخر مشابهاً له حدث في حصار أنطاكية. ففي الأسبوع الأول من شهر شباط عام ١٠٩٨ علم الفرنجة أن قوة مسلمة في طريقها لنجدة الحامية المحاصرة. ونبعت للمرة الثانية مهمتان عسكريتان كان لا بد من تأديتهما: فقد كان لا بد من دحر جيش الميدان المعادي مع منع الحامية المحاصرة من شن إغارة مفاجئة للاتصال مع القوة القادمة لنجدتها أو لتدمير معسكر الفرنجة. وهكذا قرر القادة اللاتين أن يتولى الفرسان الذين ما زالت لديهم خيول صالحة ملاقاة العدو المقترب، بينما يبقى باقي الجيش في المعسكر في حالة الجاهزية للتعامل مع أي هجوم مباغت قادم من جهة المدينة المحاصرة[4]. وفي

1) Bréhier in «Anon» P. ii.

2) Brehier in Anon P. 45, n. 7.

3) Anon. P. 44

4) Anon. P. 82

التاسع من شهر شباط من عام ١٠٩٨ خاضت كلتا الفرقتين الفرنجيتين المعركة معاً. وحقق الفرسان نصراً قرب بحيرة العمق (the lake of Antioch). ولم يكن نجاح الجنود المشاة في صد غارة شنتها الحامية بأقل من ذلك النصر[1]. مع أن العمل الذي قام به المشاة هنا، مثله مثل عملهم في دوريليوم، أقل أهمية مما قام به الفرسان، ولكن الحقيقة في كلتا الحالتين أنهم كلفوا بمهمة حربية أساسية وأنهم نفذوا تلك المهمة.

إذا لم تبرهن تسجيلات شاهد العيان في دوريليوم بالضرورة عن عجز الرجالة من جيش اللاتين وعدم صلاحيتهم للقتال في العام ١٠٩٧ فإن أية نظرية ترمي الى تصور تطورهم اللاحق تبقى قائمة على أسس واهية. كما يعدّ بقية الحجج التي تطرح لتأكيد ذلك مقنعة. وقد صور كل من دلبيش وهيرمان نمو قوة المشاة بالرجوع الى الحالات التي ذكرت فيها مشاة الفرنجة في المصادر المختلفة خلال القرن الثاني عشر لقيامهم بخدمات مميزة[2]، ولكن كثرة هذه الأمثلة لا تعني تطوراً بالضرورة[3]. إذ أن مثل هذه الأعمال لم تزدد بصورة مضطردة مع مرور الزمن. وتقوم نظرية التطور التي

---

1) Anon. P. 86; RA, P. 247

2) Heerman PP. 122-3

٣) يمكن أن يؤخذ مثال عن حجة دلبش من كتاب التكتيك Tactique, II, PP. 195-9 . وتعتبر إعادة بنائه لمعركة هاب قليلة القيمة لأنه يتجاهل أفضل مصدر معاصر وهو والتر Walter ، ولا يأخذ إلا عن وليم الصوري فقط. والمعروف أن جند المشاة في معركة هاب قاموا بعمل جيد، رغم أنه لا يختلف كثيراً عن الأعمال الأخرى التي قام بها سابقوهم، وذلك بأن صدوا هجوماً سلجوقياً (Galt, P. 103). ولكن دلبش يربط بين أدائهم هنا وبين حادث وصفه وليم الصوري ص ٥٦٦ "Sub anno 1124". ففي ذلك العام كان جيش بيت المقدس يحاصر صور. وقامت حامية عسقلان بما اعتادت عليه في هذه المناسبات بأن أغارت على اتجاه بيت المقدس. ولم يكن في المدينة أي فارس، ولكن بعض السكان المدنيين حملوا السلاح وانطلقوا لمواجهة المغيرين واضطروا المصريين للانسحاب بصمودهم. وقد استعان دلبش مرة أخرى بوليم الصوري هنا رغم أن الحادث سجله أولاً أحد المعاصرين له وهو فلتشر ص ٤٠٩ ـــ ٦٠.

يربط دلبش الحادثتين بهذه الطريقة (م ٢ ص ١٩٧): قام المشاة (البيادة) بعمل جيد في معركة هاب، وحققوا حتى ذلك الحين تقدماً ملحوظاً بحيث أصبح في استطاعتهم في العام ١١٢٤ دخول الميدان عند القدس، بدون الخيالة. إن عدم صحة هذه الحجة بدهي في حد ذاته.

طرحها هذان المؤرخان بكاملها تقريباً على التفسير التقليدي لعدم صلاحية جند المشاة للحرب في العام ١٠٩٧ وأوائل العام ١٠٩٨. ونحن لا نعتقد أن فكرة نمو مهارات المشاة باضطراد فكرة عقيمة، لا لأن تفسير عملهم عند دوريليوم غير مقنع فحسب بل ولأن صنائعهم في المعارك المختلفة لا تقدم أي دليل على توفر الخبرة المهنية لديهم. فهم لم يظهروا قوة إطلاقاً في الهجوم أو في المناورة. وكانت قدرتهم الكلية طوال القرن مقتصرة على الدفاع، إذ كانوا قادرين بتراصهم وبرماحهم ونشابهم على إبقاء خيالة المسلمين بعيداً عنهم. وكل الأعمال التي قاموا بها ممكنة لأية مجموعة من الرجال الصامدين المسلحين بالقوس وبالرمح في أي زمان على مر التاريخ. ففي دوريليوم كان المشاة يشكلون كلتة متراصة لا عن عمد وإنما بنتيجة الارتباك. ولكن الأتراك لم يستطيعوا تحطيمها على كل حال[1]. وقد تسببت رماحهم المشرعة في إيقاع إصابات بفرسان الفرنجة أنفسهم أيضاً بيد أن قتالهم وضع على المحك وانقضى اليوم على خير[2]. وفي ٢٨ حزيران (يونيو) ١٠٩٨ وكذلك عند يافا عام ١١٠٢[3] كان عليهم أن يظهروا مقدرتهم ذاتها في وقف هجمات الخيالة، وظلت وظيفتهم الأساسية على هذه الحال طوال القرن الثاني عشر بأكمله.

على هذا النحو نكون قد توصلنا الى الإجابة عن السؤال الثاني: حول ماإذا أوجد القادة العسكريون استخداماً جديداً لجنود المشاة، أو منحوهم دوراً أكثر أهمية ليقوموا به في العمليات الحربية. إذ من المؤكد أنهم كانوا يشكلون جزءاً من كل جيش تم جمعه في سورية اللاتينية تقريباً خلال القرن الثاني عشر، إلا أن تشكيلهم ظل مثل عدتهم بدون تبدل طوال ذلك القرن. فقد تقدم المشاة في ميدان القتال في ٢٨ حزيران (يونيو) من العام ١٠٩٨ أمام الفرسان، وغطوا الخيالة بتكتلهم وأسلحتهم من هجوم العدو حتى تهيأ هؤلاء للكر وشن هجومهم الهام والحاسم.

١) فلتشر ص ٣٣٥. يتحدث عن اللاتين قائلاً إنه رغم كونهم سيقوا إلى تلك الورطة فقد تمكنوا من إيقاف تقدم السلاجقة. وكان من الطبيعي لكوهلر أنه وجد في العبارة التي استخدمها فلتشر «نتيجة لمناورة مخططة تنفيذاً جيداً» (م ٣ قسم ٢ ص ٢٥٧ — ٨).

٢) أنظر أعلاه ص ١٨٦ حاشية رقم ٤.

3) Heermann, P. 44; RA, P. 260

وكذلك فعلوا في العام التالي عند عسقلان، وفي معركة ساحة الدم، وعند هاب ــ في العام ١١١٩ ــ حيث قاتلوا أمام جبهة الفرسان. وفي كل تلك المناسبات قاومت القوة اللاتينية هجمات المسلمين بصمودها وتماسكها كما فعلت في الأعوام ١١٤٧ و ١١٧٠ و ١١٨٢، وربما جاز لنا أن نخمن أن تشكيلتهم هنا كانت مشابهة لتلك التي تبنوها في أرسوف في العام ١١٩١، حيث شكل جنود المشاة ما يشبه الجدار quasi murus ما بين الفرسان والعدو. ومما لا شك فيه أن جند المشاة ظلوا حتى السنوات الأخيرة من عهد مملكة القدس وفي معارك حطين وعكا يمارسون الدور نفسه الذي أعطي لهم قبل ثلاثة أجيال من ذلك التاريخ على أبواب أنطاكية وعسقلان.

٤ ــ أفكار حربية

سيتم تركيز الاهتمام في هذا القسم على الأفكار التي عامل القادة اللاتين قواتهم بموجبها في ميادين القتال. ففي العصر الحاضر توجد مجموعة كاملة من المذاهب العسكرية المتبناة، التي يجري تدريب الجند وتربية القادة على أساسها. أما في العصور الوسطى فكانت توجد مؤلفات تبحث في النظريات الحربية إلا أنها لم تكن موضوعة لغاية الاستخدام التطبيقي ذاته.

إن أفضل الأعمال المعروفة من هذا النوع هو المؤلف المسمى Epitoma rei militavis لواضعه فيجيتيوس Vegitius. وقد نقلت أجزاء منه خلال العصور الوسطى في مؤلفات عدد كبير من الباحثين[1]. إلا أن تطبيق المبادىء التي حواها يتطلب على كل حال جنداً مدربين يملكون درجة من المهارة والانضباط تمكنهم من تبني تلك التشكيلات التي وصفها، والقيام بالحركات الضرورية لذلك في مواجهة العدو. ولم تكن مثل تلك القوات متوفرة لا في سورية اللاتينية ولا في أية دولة إقطاعية كانت قائمة في القرن الثاني عشر، وما برح تأثير فيجيتيوس على الطرائق العسكرية

1) Delbruck, III, PP. 669-77

المتبعة في العصور الوسطى بحاجة الى برهان مقنع[1]. ويدّعي دلبش أن هذا المنظّر الروماني أوحى بأفكار كثيرة للفرنجة السوريين حول خوض الحرب، إلا أن آراءه ترتكز الى مقدمات خاطئة الى درجة تجعلها عديمة القيمة[2].

خاض الصليبيون معاركهم وفي جعبتهم مصدر واحد غني بالأفكار الحربية. فقد كانت قضايا الحرب تعالج معالجة علم قائم بذاته في الامبراطورية الرومانية الشرقية قروناً عدة، بحيث كتبت عنها مجلدات وكتب نصوص وبحوث نظرية تغطي جميع فروع فن الحرب[3]. ومن أفضلها كتابان وضعهما امبراطوران: الاستراتيجية Strategicon، الذي كتبه موريس Maurice في العام ٥٨٠ تقريباً، والتكتيك Tactica وكتبه ليو الحكيم Leo the Wise، الذي تولى الحكم في الفترة بين العام ٨٨٦ والعام ٩١٢[4]. وقد ناقش الكاتبان تنظيم الجيش وإدارته وتسلسل القيادة فيه وتقسيمه الى وحدات، والاستخدام التكتيكي لتلك الوحدات في الميدان، والاعتبارات الاستراتيجية الواجب مراعاتها من قبل القادة[5]. ولم تكن تلك القضايا

---

١) Delpech, II, PP. 127-46 كانت طريقة هذا المؤرخ البحث عن الأفكار الحربية والترتيبات التي طرحها فيجيتوس في نصوص العصور الوسطى. لأن ذلك كان كافياً له للبرهان على تأثير هذا الكاتب على تطبيقات العصور الوسطى الحربية. حتى أنه استخدم التشابه في استعمال الأفعال بينة على حججه التي ساقها، ومن ذلك مثلاً (ص ١٣٥) استخدام العبارة "quasi murus" أي مثل الجدار لوصف المشاة من قبل فيجيتوس وعدد من مؤرخي العصور الوسطى. ولم يترك دلبيش أي دور ابتكاري للعصور الوسطى حتى ولا في معناه العام. وكان القادة في العصور الوسطى يختارون حقل المعركة بحيث يستطيعون خوض القتال على أرض أعلى من أرض العدو أو القتال والشمس من وراء ظهورهم: "c'est encore à Végèce que le Moyen-Age doit Le consiel de choisir ainsi ses champs de bataille' (P. 140)" وكان استنتاجه الأخير يعتمد على هذه الحجة وغيرها من الحجج الواهية "Le role de Végèce aupres du monde féodal dut donc avoir quelque analogie . (ص ١٤٦) auec celui des officiers européens que les princes asiatiques appellent de nos jours, à organiser leurs armées".

2) Runciman, Byzanline civilization, P. 137.

3) Jahns Geschichte de Kriegswissenschaften, I, 152.-6.

4) Lot «l'Art lmititaire, I ; PP. 43-73 Oman, Art of War, I,PP. 171-217.

5) Oman, I, PP. 204-16.

تناقش من الناحية النظرية فقط، لأنها كانت تدخل في صلب حقائق المشكلات العسكرية التي تواجه تلك الامبراطورية. وقد درست الطرائق الحربية المميزة لمختلف الشعوب دراسة وافية وحُللت بعناية، واستنبطت أساليب تكتيكية تمكين البيزنطيين من الإفادة استفادة كاملة من نقاط ضعفهم.

هنالك مناسبات استفاد فيها الصليبيون من منافع المشورة البيزنطية في القضايا العسكرية. إذ تقول آنا كومنينا أن والدها ألكسيوس كومنين — على سبيل المثال — ساعد قادة الحملة الصليبية الأولى بهذه الطريقة[1]. وثمة حملات كذلك خاض فيها الفرنجة القتال الى جانب قوات بيزنطية[2]. وهنا يتساءل المرء الى أي مدى كان هؤلاء تلاميذاً للبيزنطيين في قضايا الحرب.

رغم نقص البيانات الصحيحة حول هذه القضية يكاد يكون من المؤكد أن الروابط المباشرة بين الطرائق العسكرية لكلا الشعبين ضئيلة. إذ أن التطبيق العقلاني والدائم لمنظومة متكاملة من الأساليب التكتيكية يتطلب وجود قوات نظامية ممتهنة مكيفة بالتدريب ومتحلية بالانضباط بحيث تتحول الى أداة جاهزة للاستجابة لإرادة القائد. وكان هذا الشرط الأساسي متوفراً لدى الأمبراطورية البيزنطية بدرجة أكبر بكثير مما كان عليه في سورية اللاتينية أو في أي مجتمع إقطاعي آخر. ففي روما الشرقية حوفظ على الفكرة المطلقة للدولة. وكانت وظائف الدولة متسقة ومترابطة بشكل واضح، ومجسدة في الإدارات الحكومية التي يتولى العمل فيها موظفون يتقاضون رواتب شهرية. وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية أكثر الدول استقراراً وأفضلها إدارة في العالم حتى اجتاح السلاجقة الاتراك آسية الصغرى بعد العام ١٠٧١، وكان جيشها يشكل إدارة من إدارات الدولة ذات تنظيم عالي المستوى. فقد كان جيشاً دائماً محترفاً يتقاضى مخصصاته من الدولة ومنظماً في وحدات نظامية[3]. ويمكن بالتالي تدريبه واستخدامه طبقاً لتطورات العلم العسكري. ولم تكن

1) Anna, PP. 264, 267.

٢) في الأعوام ١١٣٨، ١١٦٤، ١١٦٩ م.

٣) بالنسبة للمؤسسات السياسية في الامبراطورية الرومانية الشرقية أنظر L. Bréhier في Les institutions de l'Empire byzantin (١٩٤٩). وباختصار أكثر أنظر: W. Ensslin, in Byzantium (edited by

جيوش المجتمعات الاقطاعية في أوربا الغربية أو سورية اللاتينية على هذه الشاكلة، لأنها كانت جيوش هواة مؤقتة، تعتمد على الخدمة التي يلتزم بها أفراد وتعد جزءاً من واجباتهم كأتباع اقطاعيين وتدعم أحياناً بعناصر مجندة ترفدها مصادر أخرى سبق ذكرها. إن قوات كهذه لا يمكن تدريبها بالمستوى الذي يؤهلها للقيام بمناورة منسقة كتلك التي يتطلبها العلم العسكري البيزنطي.

وعلى كل، يمكن أن يكون الفرنجة قد تبنوا، ضمن الحدود التي يقدرون عليها، بعض الأفكار الحربية البيزنطية. وثمة تشابه ما بين الخطط التكتيكية التي تبناها بوهمند في المعارك التي دارت حول أنطاكية في عامي ١٠٩٧ ــ ١٠٩٨ والطرائق التي ابتكرها البيزنطيون لتكون إجراء مضاداً للهجوم الحركي الذي يطبقه النبّالة الراكبون[1]. والمعروف أيضاً أن اليكسيوس كومنين تبنى في حملته ضد التركان نظام المسير المنظم the close marching order، الذي كان الفرنجة السوريون يطبقونه كثيراً[2]. ومن المحتمل، من هذه الناحية، أن يكون اللاتين قد تعلموا من الإغريق، ولكن لا يمكن اعتبار هذه المسألة مثبتة ما لم يقم الدليل عليها. ويمكن أن يكون ذلك التشابه ناجماً عن ردود الفعل في مواجهة التكتيكات التركية التي كانت مشتركة إزاء الإغريق البيزنطيين والقادة اللاتين.

ويبدو أنه لم تكن لدى الفرنجة السوريين أية نظريات مدروسة عن فن الحرب ــ سواء كانت تلك النظريات مكتوبة أم تقليدية ــ رغم أنه لا يمكن لأي قائد كبير أن يقود ولو قوة صغيرة في القتال بدون خطة تكون وليدة أفكاره عن الحرب. وكان تطبيق بعض هذه الأفكار في سورية مجرد نتيجة لتصرف منطقي بدهي في ظروف معينة. وهاكم مثالاً بسيطاً عن ذلك، لقد كان الفرنجة يعرفون طموح الجنود لانتهاز الفرص الفورية من أجل الحصول على غنائم ولو قبل انتهاء المعركة؛ وكان القادة بالتالي

(Baynes and Moss) PP. 268-307، وفيما يتعلق بالجيش أنظر Brehier المصدر السابق ص ٣٣٤ ــ ٤٠٣، و Ensslin ص ٢٩٤ ــ ورانسمان ص ١٣٤ ــ ١٤٩.

١) أنظر فيما يلي ص ٢٥٣

٢) أنظر فيما يلي ص ٢٣٥

يتخذون اجراءات احتياطية لضمان عدم تنحي أي رجل عن القتال بحثاً عن الغنائم[1].

كذلك كان قبول المعركة ضد عدو يتمتع بتفوق عددي كبير يُعدّ عملاً خالياً من الحكمة. وبما أن المعاصرين كانوا يبالغون دائماً في تقدير أعداد المسلمين فإن توفر هذا المبدأ البدهي لم يكن واضحاً جلياً في نصوصهم وكتاباتهم. إذ توحي سجلاتهم وكأن الفرنجة قابلون لخوض القتال ضد العدو مهما كان عدده كبيراً. ولكن أعتى قادة الجيش اللاتيني وأشدهم خبرة قرر عدم دخول المعركة في مناسبة واحدة على الأقل بسبب التفوق العددي الكبير لدى المسلمين[2].

ألقى وليم الصوري ضوءاً آخر على الأفكار البسيطة نسبياً والعائدة للقرن الثاني عشر باستخدامه عبارة كانت تتردد كثيراً في الكتابات الكلاسيكية وفي مؤلفات فيجيتيوس وهي النظام (الترتيب) الحربي «disciplina militaris». ويقول وليم أن أفكاراً وأعمالاً حربية بعينها كانت تراتيب حربية صرفة «Juxta disciplinam militarem» وبعضها على العكس من ذلك «contra». ولم يكن بعضها أكثر من مجرد تدابير وقائية بدهية[3]؛ فقد قيل إن العلم العسكري يتطلب — على سبيل المثال — أن يكون القائد يقظاً على طول الخط وأن يحتاط لكل مفاجأة. وعندما نصب نور الدين كميناً في العام ١١٥٧ للملك بلدوين الثالث وفرسانه قرب بحيرة الحولة في أعلى وادي الأردن ذكر وليم أنه لم يكن هنالك حراسة في معسكر اللاتين: «ubi

١) RA, P. 259، وفيما يتعلق بالتراتيب التي ذكرت للقديس أندرو قبل المعركة يوم ٢٨ حزيران ١٠٩٨، ومن أجل حصار عسقلان في العام ١٠٩٩ أنظر AA., PP. 491-2 وقد كتب دامبرت Daimbert أن هزيمة المصريين في تلك المعركة يمكن أن تكون أشد مما كانت عليه لو لم يلتفت الكثير من الفرنجة إلى جمع الغنائم Spolia castrurom. وما زال ترك خط المسير للبحث عن أسلاب جريمة في الجيش البريطاني بموجب الفصل السادس من نظام الجيش.

٢) وليم الصوري ص ١٠٣٨، كانت المناسبة غزو جنوبي فلسطين من قبل صلاح الدين في العام ١٠٧٧. وهي تدل على الأفكار التي طبقها الفرنجة في المعركة باعتبارها إحدى طرائق خوض الحرب.

٣) وليم الصوري ص ٥٢٩، ٧٢٥، ٨٩٠، ١٠٤٢، ١١١٩،.

nocte illa long aliter, quam disciplina militairis exigeret, et imprudenter se habens, non observata castrorum lege, requieuit exercitus »[١].

ويتضح من جميع الأوصاف التي قيلت في العصور الوسطى عن العمليات الحربية أنه كان من الأمور المبدئية اللازمة لأي اشتباك يخوضه الفرنجة تقسيم الجيش الى عدد من الوحدات الصغرى وترتيبها في الميدان بنظام مقرر سلفاً[٢]. وعلى هذا النحو كان الشروع في القتال بتشكيل جيد التنظيم معلماً أيضاً من معالم « الترتيب الحربي » . وكانت مثل هذه التدابير ضرورية آنذاك كما هي لكل قوة عسكرية في كل زمان ومكان من أجل تحقيق السيطرة ، إذ لايمكن لأي قائد كبير أن يصدر أوامره الى كتلة قواته بكاملها إلا إذا مارس ذلك من خلال القادة المرؤوسين . والأهم من ذلك أن القائد في سورية اللاتينية كان يخوض المعركة بنفسه بالسيف والرمح ، وإذا ما شرع فرسانه بالهجوم فإنه لا يملك القدرة بعدها على السيطرة عليهم ، وكان يهمه من أجل ادارة العمليات ـــ حتى الانقضاض النهائي ـــ أن يحتفظ بقوته بترتيب قتالها الأصلي أطول مدة ممكنة . وثمة دافع آخر يدفعه لسلوك هذا المنهج مبعثه الأساليب التكتيكية التي يطبقها المسلمون . وقد رأينا أن السلاجقة يعتمدون على النبالة (النشابين) وعلى الحركة في خلخلة التشكيلات اللاتينية وزعزعتها قبل الالتحام بها في محاولة لحسم المعركة . وكان الدفاع ضد مثل هذه الأساليب التكتيكية يستند الى

---

١) المصدر نفسه ص ٨٤٠ .

٢) يمكن العثور على مراجع لهذه الأعمال في جميع مصادر تاريخ الحروب الصليبية . ومنها مثلاً مذكرات الكاتب المجهول ص ١٥٠ ، و فلتشر ص ٣٩٢ ، ٤٥١ وغالتريوس ، ص ٧٠ و ٧٣ ، ووليم الصوري ص ١٣٠ ، ٢٦٨ ، ٥٢٩ ، ٩٢٥ ، وغيرها . ويمكن مضاعفة هذه المراجع خمسين ضعفاً . ولكن العبارة الأكثر شيوعاً المستخدمة في الوصف هي aciès ordinaré (الصفوف المنتظمة) والأسماء البديلة لكلمة صفوف باللاتينية هي السرايا turmae والأرتال agmina والمجموعات catervae والتنسيق ordinane . « أما الأفعال الأخرى فهي يرتب disponere ويشكل ، componere ، ويقيم (يضع) instruere ، يدعم (يسند) statilire ، و « يرصف (يسوي) dirigere » ، وكانت العبارة المؤلفة من اسم وفعل ترافق أحياناً بظرف يعكس هو أيضاً أفكاراً عسكرية معاصرة مثل « بلياقة decenter » ، بشكل مناسب competenter ، بشكل منسق ordinatissime ordinatin, ordinate ، وغير ذلك .

المحافظة على هذه التشكيلات وعدم إظهار أية نقطة ضعف يمكن أن يستثمرها المسلمون. وهكذا كان «الترتيب الحربي» لا يفرض على القادة تنظيم سراياهم وتحريكها بترتيب منظم فحسب وإنما المحافظة على تشكيلها حتى الاقتحام الحاسم والأخير.

عبر فلتشر كذلك عن أفكار مماثلة لتلك التي عرضها وليم الصوري حول «الترتيب الحربي» وكذلك عندما عرض الأسباب التي أدت الى هزيمة بلدوين الأول عند الرملة في العام ١١٠٢، وعند جسر الصنبرة في العام ١١١٣. ففي المناسبة الأولى أنحي باللوم على الملك لعدم تريثه بانتظار وصول جميع القوات والتحاقها بإمرته، ولقيادته رجاله الى القتال دون أن ينظمهم بترتيب القتال، ولتركه جند المشاة خلفه أيضاً. وتوجه إليه عبارات اللوم كذلك في ظروف مماثلة جداً لتسرعه في الهجوم الذي قاده الى الهزيمة بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ. كذلك بدأت الأحداث التي أدت الى تلك الهزيمة النكراء في العام ١١١٩ التي لحقت بالأمير روجر وجيش أنطاكية عندما لم يأبه الأمير المذكور بنصيحة البطريرك فلم ينتظر وصول قوات الملك بلدوين الثاني والكونت بونز أمير طرابلس وغادر قاعدته المحمية جيداً والمليئة بالمؤن في «أرتاح» ليتخذ له موضعاً مكشوفاً ومعرضاً للهجوم عند ساحة الدم. وبعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ فقد أمير آخر من أمراء أنطاكية، هو ريموند، جيشه وحياته في ظروف مماثلة. وكانت خطيئته أنه تقدم لمواجهة العدو قبل أن تتحشد جميع القوات المتوفرة لديه، وظل بعد ذلك في موضع يغري المسلمين بالهجوم، دون أن يغتنم الفرصة ويلوذ بإحدى القلاع القريبة التابعة له. وفي العام ١١٧٨ وقبيل معركة حطين مباشرة أشار ريموند أمير طرابلس على الملك غي ألا يغادر قاعدته المليئة بالمؤونة في الصفورية، وتقول السجلات ذاتها أنه نصحه بخوض المعركة قريباً من المدن الفرنجية الواقعة على الساحل والممكن الدفاع عنها.

تسوق المصادر أيضاً أدلة على عدد من الأفكار المعاصرة البسيطة والفجة حول إدارة الحرب. وربما تكون أعمال القادة العسكريين متأثرة بقوة خصمهم العددية، فهم يدركون أهمية جمع كل ما يتوفر لهم من أجناد قبل أن يبادروا الى

ملاقاته. وكانوا يقدرون جيداً عدم الحكمة في ترك القواعد المحمية جيدة التموين لخوض القتال إذا لم يكن هنالك سبب وجيه. كما كانوا يعرفون قيمة المناطق المجاورة لقلاعهم حيث يمكن أن يجدوا فيها ملاذاً لهم في حالة الطوارىء، وغالباً ماكانوا يفعلون ذلك[1]. وفوق ذلك كله علمهم مذهبهم الحربي أنه يجب تقسيم كل جيش الى وحدات أصغر وأنه تجب المحافظة على التشكيلة المتخذة حتى تنفيذ عملية الانقضاض الحاسمة.

لقد كان الحفاظ على التشكيلة مشكلة من أهم المشكلات التي واجهت الفرنجة السوريين طوال القرن الثاني عشر، ولم تكن تلك المشكلة تنحصر في تمكين القائد من ممارسة السيطرة فحسب، وإنما في مواجهة أساليب المسلمين التكتيكية التي سبق وصفها في فصل سابق. ويمكن تلمس الأهمية التي كان يوليها الفرنجة للمحافظة على صلابة قواتهم وتماسكها في القتال أو في ترتيب المسير في عبارة الأرتال ogmen أو الصفوف المفككة aciem dissolvere التي استخدمها وليم الصوري، إذ كان تفكك تشكيل الكراديس المنتظمة مقدمة للهزيمة، إن لم تكن علامة دالة عليها[2]. وكان ذلك من الأمور المبدئية في مقاومة المسلمين ومنعهم من فصل الفرنجة

---

١) بعد انتصار المصريين في الرملة لاذ بعض الفرنجة المنهزمين ببرج ضعيف البنيان في الجوار، (فلتشر، ص ٤٠١) وبعد انتصار ايلغازي في ساحة الدم فر ريجينالد مانسوير Riginald Mansoer مع عدد قليل من أتباعه واعتصم في برج عند سرمدا Sarmeda(غالت ص ٨٩).

وفي العام ١١٣٧ قاد الملك فُلك قوة لنجدة بعرين التي يحاصرها زنكي، فهوجم الجيش الفرنجي وتشتت في الأرجاء مع اقترابه من القلعة وتمكن الملك من اللجوء إليها مع من بقي معه من الأحياء. (وليم الصوري ص ٦٤٤).

بعد الكمين الناجح الذي نصبه نور الدين في العام ١١٥٧، هرب بلدوين الثالث من القتال والتجأ إلى صفد الحصينة (وليم الصوري ص ٨٤٢). وفي العام ١١٧٩ فر الناجون من مرجعيون إلى قلعة شقيف أرنون (وليم الصوري ص ١٠٥٧). وقبل ذلك بعامين، عندما غادر صلاح الدين مصر وغزا جنوب فلسطين، اتخذ الملك وجيشه ملاذاً مؤقتاً لهم في عسقلان (وليم الصوري ص ١٠٣٨).

٢) وليم الصوري ص ٧٤٨. عندما كبد الترك الفرنجة هزيمة في آسيا الصغرى عام ١١٤٧، وعندما دحر نور الدين الاسبتارية في العام ١١٥٧، (وليم الصوري ص ٨٣٨). وعندما هُزم الفرنجة في

بعضهم عن بعض[1]. ففي العام ١١٧٠ قاد أملريك قوة لمواجهة غزو صلاح الدين جنوبي فلسطين. وحاول المسلمون تدمير الفرنجة دون جدوى لأن هؤلاء حافظوا على أنفسهم بتماسك صفوفهم وصمودها. ويصف ذلك وليم الصوري قائلاً:

«Ilei (SC. Turci) statim im nostros irruentes, tentabant, si unquam eos ab inuicem separare; sed nostri,propitiasdivinítate, solidius inter se conglobati;et hostium sustinebant impetus, et iter maturatis gressibus conficiebant»[2].

كانت حاجة الفرنجة للبقاء متماسكين متراصي الصفوف «salidius inter se conglobati» أكثر من ضرورية عندما يقاتلون أثناء المسير منه في ميدان القتال. إذ أن وجود ثغرة في الرتل مهما كان شأنها قد تمكن المسلمين من الانفراد بجزء من القوة اللاتينية ومهاجمتها. وقد تم إدراك ذلك بعد دفع ثمن باهظ على حساب الجيش الذي قدم بقيادة لويس السابع ملك فرنسا في العام ١١٤٧ عبر آسيا الصغرى ففي احدى النقاط لم يراع قائد المقدمة جوفري دو رانكون Geoffrey de Rancogne أوامر الملك وابتعد كثيراً أمام كتلة الجيش الرئيسية. وهكذا تمكن السلاجقة من شن هجوم قوي على القوة التي كانت تتبعه وبث الفوضى في رتل المسير بكامله وتكبيده خسائر فادحة. ولتفادي تكرار مثل هذه الكارثة أصبح رتل المسير ينظم بعناية أكبر مع تعيين حرس متقدم وجانبي وخلفي (مقدمات ومجنبات ومؤخرات) وأعطي رماة السهام السائرين على الأقدام معها دوراً بارزاً فيها. وبهذا تم تجنب المفاجآت تجنباً تاماً «fiebat Juxta preceptum processio».

حقق المسلمون نجاحاً مماثلاً في العام ١١٩١. ففي اليوم الذي شرع فيه

حارم عام ١١٦٤ (ص٨٩٦). وعندما تكبدوا خسائر في مسيرهم إلى بصرى عام ١١٤٧ اتخذ الفرنجة بقيادة بلدوين إجراءات دفاعية خاصة (وليم الصوري ص ٧٢٥).

١) أثناء المسير عبر آسية الصغرى في الحملة الصليبية الثانية تكبد السلاجقة في مناسبة واحدة خسائر فادحة بسبب تماسك الفرنجة divisi sunt alter ab altero. Odo. P. 69 ،.

٢) وليم الصوري ص ٩٧٦.

الملك ريتشارد مسيرته باتجاه الجنوب منطلقاً من عكا ، هاجمت قوة من جيش صلاح الدين رتل الفرنجة الذي كانت تحرسه مفرزتا حراسة في المقدمة والمؤخرة . وتباعد الرتل الى درجة كبيرة ولم يُرَد هجوم المسلمين إلا بشق الأنفس. تم تعلم الدرس وتابع الجيش المسيحي تقدمه بترتيب أشد تماسكاً . وكان أفضل تقدير يعطيه أمبرواز Ambroise لقوة ما هو وصفها بالتلاحم والتنظيم «Serè e rengié» . وقد سجل مناسبتين كان فيهما ترتيب القتال متراصاً الى درجة أنه «كان من المستحيل رمي تفاحة أو ثمرة برقوق عبر صفوف الجند دون أن تصيب رجلاً أو فرساً»[1] .

كان الإبقاء على الترتيب المتراص في وجه استفزازات العدو إنجازاً لم يوف المؤرخون قادة القرن الثاني عشر في سورية حقهم منه . إذ أن الصمود في وجه الهجوم دون الاندفاع في إثر العدو كان يتطلب ضبطاً شديداً لغرائز الانسان الطبيعية . ولم يكن الجند يتحملون مثل هذا الموقف على مر العصور إلا بصعوبة فائقة . ولم يكن أحد بأمس الحاجة الى تحمل ذلك مثل فارس العصور الوسطى الذي كان فرداً غيوراً جداً على شجاعته وشرفه الشخصي. ويكاد يكون من المستحيل أن نتلمس في المصادر التاريخية تلك الصعوبات التي كان يعاني منها القادة في سورية خلال القرن الثاني عشر في كبح جماح الفرسان واقناعهم بالبقاء ضمن الصفوف في مواجهة هجمات العدو . وقد تحدث رالف كان Ralf of Caen ، الذي اعتمد تسجيله لمعركة دوريليوم على المعلومات التي استقاها من تنكريد نفسه ، عن الجهود التي بذلها بوهمند من اجل كبح اندفاع تنكريد وغيره من الشبان المتحمسين[2]. وبعد قرن من ذلك تقريباً واجه الملك ريتشارد المشكلة نفسها في يوم أرسوف. إذ استاء فرسان الاسبتارية المعينون في حرس المؤخرة لمنعهم من الكر إثر هجمات المسلمين الشديدة خشية العار الذي قد يتعرضون له لبقائهم ساكنين بدون فاعلية رغم إرادتهم ،

١) تاريخ الحرب المقدسة Estoire de la Guerre Sainte طبعة باريس ص ٣٩٧٥ ــ ٣٩٨٦ ، في وصف صفوف الفرنجة يوم عيد القديس مارتن عام ١١٩١ ، وص ٦١٦١ ــ ٢ في وصف ترتيب الفرنجة عند أرسوف .

٢) أنظر Radulfus Cadomensis ص ٦٢٣

وبسبب عجزهم عن منع الرماة المسلمين من الحاق خسائر باهظة بخيولهم. وقد أبقاهم ريتشارد مشدودين الى أماكنهم قدر ما يستطيع ولكن التوتر بلغ أشده في خاتمة المطاف فشرع فرسان حرس المؤخرة هجومهم قبل أن يعطي الملك اشارته لذلك.

لاقى الملك بلدوين العنت نفسه في مسيرته الى بصرى في ربيع العام ١١٤٧. فقد تعرض رتل اللاتين في ذهابه وفي إيابه الى ضغط شديد من جانب المسلمين، واتخذت الاجراءات الطبيعية في هذه الحالة لضمان بقاء التشكيل متماسكاً. وأعطيت أوامر صارمة بمنع أي رجل من ترك الصفوف تحت طائلة العقوبات المشددة[١]. ولم يستطع أحد الخيالة الترك في الجيش اللاتيني تحمل الهجمات المتتالية. فانطلق على فرسه وقتل أحد المسلمين فدب الفزع في صفوفهم وتشجع الفرنجة الى درجة أوجدت له العذر في مخالفة الأوامر[٢].

ويعترف الداوية في صيغ تشريعاتهم بوجود مثل هذه المشكلة. إذ كانت قيادة الفرسان عند ترتيب كراديسهم منظمة بعناية تامة، ويمنع منعاً باتاً أن يترك أحدهم الصفوف بدون إذن[٣] والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو أن الفارس يستطيع اختبار فرسه وعدته بالعدو مسافة قصيرة، أو الاندفاع لانقاذ صليبي من خطر الموت الفوري على يد المسلمين دون إذن خاص[٤]. وإلا فإن أية مخالفة للأوامر المعطاة

---

١) وليم الصوري ص ٧٢٥.

٢) المصدر نفسه. إن الانطلاقة المفاجئة لفارس واحد غير قادر على كبح رغباته في طرد العدو وتحمسه لتحقيق مأثرة فردية هي أكثر بكثير مما سجلته المصادر على الأرجح. ويمكن الرجوع إلى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ للاطلاع على مقال عنها. وقد حدث ذلك في حملة العام ١١١١ عندما تجنب الجيش الفرنجي كله أي عمل هجومي، أنظر كذلك ديرنبرغ Derenbourg في كتابه «حياة أسامة» Vie d'Ousâma ص ٨٩ — ٩٣.

٣) المادة رقم ١٦٢ من نظام الداوية. «ne nul frere ne doit poindre ne desranger sans congié»

٤) المصدر السابق المادتان رقم ١٦٢ و ١٦٣.

تعرضه للعقوبات الصارمة[1]. وإن وجود مثل هذه العقوبات بكثرة يدل، الى درجة ما، على صعوبات فرض تلك القاعدة. وفي العام ١١١٥ أجبر الأمير روجر أمير أنطاكية جنده على مقاومة الاستفزازات من جانب المسلمين بأن ركب فرساً سريعة وراح يجوب معسكره وقد استل سيفه مهدداً بقتل أي رجل يجرؤ على مغادرة المعسكر.

كان الإجراء الأساسي المترافق مع الهدف الرئيسي، الذي هو تحقيق تماسك الجيش والمحافظة عليه، هو التعاون الوثيق بين الجند الخيالة والجند المشاة. ولقد تفرد هذا العامل بمكانة خاصة على يد المؤرخين العسكريين. إذ قيل، أولاً: بأن الارتباط المتبادل بين هذين السلاحين في ميدان القتال كان أمراً جوهرياً لتحقيق نجاح الفرنجة في الحرب[2]، وثانيهما: بأنه عندما يكون هذا الأمر مفهوماً من جانب المسلمين فإنهم كانوا يركزون جهودهم على الفصل بين فرسان اللاتين وجند المشاة، وإذا ما نجحوا في ذلك كانوا يحققون انتصاراً باهراً عليهم وقد حدث ذلك في حالات كثيرة[3].

وكان فرسان الفرنجة ومشاتهم يكملون بعضهم بعضاً من بعض النواحي. فكان المشاة يتخذون مواقعهم سواء في رتل المسير أم في ميدان القتال ما بين العدو والفرسان الذين يبقون على هذا النحو تحت حماية سدٍ حي مسلح بالرماح والأقواس حتى تحين لحظة انقضاضهم الحاسمة. ومن جهة أخرى لم يكن المشاة أنفسهم بقادرين عموماً على العمل الهجومي الناجح، ولم يكونوا قادرين وحدهم على مقاومة هجمات العدو الراكبة لفترة غير محددة. وكانوا يتطلعون دائماً الى فرسانهم

---

١) لقد كان في ذلك إهانة شديدة للفارس من الداوية أن يتخلى عن عادة له، المادة رقم ٢٤٣. والقاعدة ذاتها كانت مطبقة على فرسان القديس يوحنا الاسبتارية itin ص ٣٧١ — ٢. ولكن في هذه المناسبة كما هو الحال في المثال الذي قدمه وليم الصوري المذكور أعلاه، أوجد العذر لذلك الفارس لوجود سبب وجيه لعمله وكان إقدامه على الهجوم ناجحاً، أنظر كذلك المواد رقم ٦١٣ — ٦١٥.

٢) أنظر Oman, I, PP. 296, 320; Delpech, I, P. 359; II, PP. 186-7.

ووافق على ذلك Kohler, III, PT. 3, PP. 138, 213, 215; Delpech, ut supra, M.W. Baldwin,

٣) Raymond III of Tripolis, P. 99

لتخليصهم من ضغط المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان ضروريين لهم أيضاً لتحقيق النصر النهائي في المعركة . لقد كانت فكرة العون المتبادل بين الجند الخيالة والمشاة التي سادت القرن الثاني عشر مفهومة تماماً وعبرت عنها الكتابات المعاصرة آنئذ[1] .

تخطى المؤرخون الحديثون المصادر التي استندوا إليها وراحوا يبالغون في التأكيد على هذه الناحية الى حد استبعاد العوامل الهامة الأخرى . وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة لدلبش Delpech والمؤرخين الآخرين الذين تقبلوا أفكاره حول هذا الموضوع . إذ اختار دلبش ، في معرض تعليقه على هزيمة بلدوين الأول في الرملة عام

---

١) يتحدث فلتشر في تسجيله لمعركتين خاضهما بلدوين ، الأولى قرب الرملة ويافا في العام ١١٠٢ ، عن الخطأ الذي ارتكبه الملك في خوض المعركة بدون مشاته Pedites أول الأمر ، ثم خطؤه الثاني باستخدام المشاة الذين هم بحاجة إلى حماية الفرسان : "sed, absque peditibus. . . acceleravit hostes appetere"(P. 400), ، ثم Pedites nostros obsque protectione militum videbant (P. 405)

إن فكرة العون المتبادل بين الخيالة والمشاة التي استخدمت في هاتين الجملتين موضحة بصورة مباشرة أكثر في تسجيل فلتشر لمعركة مرج الصفّر في العام ١١٢٦ : "Ordinatae sunt in parte nostra tam militum quam peditum acies duodécim, ut ab alterutra corroboraretur caterva, si necessitas admoneret" (P. 477)

ولمعرفة المعنى الدقيق لهذه الجملة أنظر هيرمان ص ٩٩ . وأومان ، ١ ، ص ٣٠٣ رقم ١ .
أنظر كذلك غالت في وصف معركة « هاب » ١١١٩ ، ص ١٠٣ .

«tribus aciebus antepositis, manus pedestris, ut has protegat et ab his protegatur, retro sistitur'.

Odo, P. 72: 'Ultimi quoque milites et pedites hostibus fere mixti transierunt sine dampno, mutua probitate defensi.'

Libellus, P. 213: battle of 1 May 1187, '. . . milites et pedites in duas partes diviserunt, ut nec isti illis, nec illi istis mutuo adjutorio adjuvarent.'

Libellus, P. 224: battle of Hattin, 1187, 'Cum autem ordinati essent, et per acies distincti, preceperunt peditibus ut sagittando munirent exercitum, quatinus milites levius hostibus obstarent, ut milites muniti per pedites a sagittariis hostibus, et pedites per lanceas militum ab incursu hostium essent adiuti; et ita utrique mutuo adiutorio defensi salutem obtinerent'.

Libellus, P. 225: battle of Hattin, 'Rex autem et ceteri, ut viderunt quod. . . ipsi sine servientibus contra sagittas Turcorum non possent subsistere. . .'.

١١٠٢، أن يكون السبب الأكثر أهمية لتلك الهزيمة حقيقة دخول الملك المعركة بدون جند مشاة[1]. وطبقاً للآراء المعاصرة، التي عبر عنها فلتشر، فإن الملك لم يهزم لهذا السبب وحده وإنما لأنه هاجم دون أن ينتظر تجمع كل ما لديه من جند، ولأنه لم يرتب قوته بترتيب القتال أيضاً[2]. ولا يمكن اعطاء أحد هذه العوامل أهمية أكثر من الآخر، وبالتالي لايملك دلبش أي سبب وجيه ليؤكد واحداً منها على حساب الباقي. وثمة أساس أقوى للافتراض بأن السبب الحقيقي للهزيمة كان الاطار الفكري المتهور الذي توصل به الملك لحل المشكلة.

كذلك رأى دلبش أن المسلمين بعد العام ١١٤٥ كانوا يبذلون جهدهم لفصل الخيالة اللاتين عن المشاة. ونظم لائحة مدهشة بالانتصارات التي حققها المسلمون ــ من وجهة نظره ــ لأنهم نجحوا في تحقيق هذا الغرض التكتيكي[3]. إلا أن أبحاث دلبش لم تكن موضوعية على أية حال لأنه راح يقرأ المصادر بحثاً عما يساعده في تطوير فكرته، ويبدو أنه كان مصمماً على العثور عليها بأي ثمن. ويقدم بحثه في معركة البابين انموذجاً صحيحاً لتفكيره هذا[4]. إذ جرت هذه المعركة خلال حملة أملريك الثالثة على مصر في العام ١١٦٧. وكان في مواجهة الملك في تلك البلاد جيش أرسله نور الدين من سورية بقيادة شيركوه[5]. ولو استطاعت إحدى هاتين القوتين تدمير الأخرى، لكان في مقدور المنتصر أن يصبح سيد مصر بلا منازع. وبما أن أملريك كان حليف الحكومة الفاطمية وحارساً اسمياً لها في هذه المناسبة فقد كان من مصلحته استغلال تلك الميزة التي يملكها بأن يجتذب شيركوه الى خوض المعركة، بينما كان القائد المسلم من جهة أخرى يفكر في تجنبها.

نجح شيركوه عدة أسابيع في إبقاء النيل حائلاً بينه وبين الفرنجة. وعندما نجح

---

١) أنظر Delpech, II, PP. 187-90.

٢) أنظر أعلاه ص ١٩٦ وكذلك، Fuhcher, P. 400.

٣) أنظر Delpech, II, P. 187.

٤) المصدر نفسه ص ٢٠٩ ــ ١٣.

5) Schlumberger, ; RGKJ, PP. 322-30, Grousset, II, PP. 480-504 Campagnes du roi Amoury, PP. 107-68.

أملريك أخيراً في عبور النهر بصعوبة انسحب المسلمون على جناح السرعة متوغلين في مصر العليا . وطاردهم أملريك على الفور وكان شديد الحماسة للحاق بهم ومفاجأتهم حتى أنه سار على رأس فرسانه وترك مشاته تتبعه عن بعد بأسرع ما تستطيع ذلك[1] . وقبل أن تتمكن المشاة من اللحاق به استدار شيركوه على حين غره واشتبك معه في معركة البابين . لم يدمر الفرنجة جيش شيركوه في هذه المعركة طبعاً . ولكن دلبش لم يعز هذه النتيجة الى عدم توفر جند المشاة فحسب[2] ، وإنما حاول أن يوحي لقرائه بأن شيركوه نجح في فصل الخيالة الفرنجة عن مشاتهم عن سابق تصميم . فقد كتب عنوان الفصل الذي ناقش فيه هذه المعركة على النحو التالي : «Bataile de Babein (1167), les Musulmans separent les dus armes des Chrétiens pour les battre isolément»[3] أي ما معناه «معركة البابين (١١٦٧)، فَصَلَ المسلمون سلاحي المسيحيين كي يقاتلوهما معزولين»[4] والواقع أن فصل فرسان أملريك عن مشاته لم يكن بسبب من المسلمين كما يقول دلبش، وإنما كان بترتيب من أملريك وباختياره الشخصي. كما لم يحطم المسلمون القوتين منفصلتين، ولم يقيموا التماس إطلاقاً مع قوة المشاة اللاتينية . ولكن الذي حدث دونما شك في تلك المعركة أن شيركوه نجح في تحطيم ترتيب قتال الفرنجة بإغراء جزء من جيشهم على مغادرة ميدان القتال لمطاردة صلاح الدين الذي أخذ يتراجع طبقاً لخطة وضعت قبل نشوب المعركة . ويبدو أن دلبش كان مقيداً تماماً بالفكرة التي طغت عليه بحيث حصر تفكيره فقط بظروف انفصال الخيالة عن المشاة.[5]

وعند مرج عيون (مرجعيون) في العام ١١٧٩ تقدم جيش بلدوين الرابع ليهاجم مفرزة من قوات صلاح الدين على جناح السرعة بحيث تجاوز فرسانه معظم

---

١) وليم الصوري ص ٩٢١ .

٢) أنظر Delpech, II, P. 212.

٣) المصدر السابق ص ١٨٥ ،

٤) وليم الصوري ص ١٠٥٥ ، أنظر فيما يلي ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

٥) أنظر Delpech, II, P. 216.

القوة الفاعلة لجند المشاة. وكانت هذه الحقيقة كافية لدلبش من أجل تبرير هزيمة اللاتين[1]. والواقع أن المعركة على ما يبدو جرت على مرحلتين. إذ أن الهجوم الأول الذي شنه الفرنجة حقق نجاحاً سهلاً رغم انفصال الخيالة عن المشاة، ذلك لأن الهجوم كان موجهاً ضد مفارز المسلمين المغيرة. وبنتيجة ذلك تخلى الفرنجة عن يقظتهم وتشكيلتهم القتالية. وعندما برز لهم صلاح الدين مع القوة الرئيسية من جيشه كانوا غير متأهبين لخوض قتال لاحق فهزموا شر هزيمة[1].

سمح دلبش لنفسه، في مجرى تحليله للأحداث العسكرية التي وقعت في سورية اللاتينية، بأن يبين انفصال المشاة عن الفرسان وكأنه السبب الوحيد والرئيسي لهزائم الصليبيين، والحقيقة أن ذلك الفصل كان على الأغلب عارضاً دالاً على السبب. ففي معركة الرملة في العام ١١٠٢[2]، وعند عين الجوزة (نبع الرشاد) في العام ١١٨٧[3]، كان ذلك أحد أعراض الحماقة المتهورة التي ارتكبها قائد جيش اللاتين؛ وعند الحولة[4] وحارم كان ذلك بسبب اللامبالاة وقلة الحذر في مجاورة العدو؛ وفي حطين كان ذلك بسبب انهيار الروح المعنوية لجند المشاة بعد تعذيبهم في الليلة السابقة[5]. ولم تكن هزيمة الفرنجة قط لمجرد خطأ ميكانيكي في تشكيلهم القتالي، لا ولا يوجد أي مثال مثبت وموثوق عن حدوث مثل هذا الخطأ بسبب من مهارة المسلمين العسكرية (!!)*. لقد كانت الهزيمة دائماً بسبب من فشل القيادة أو لسبب معنوي كان يكشف نفسه أحياناً في انفصال الفرسان عن جند المشاة في وقت غير.

---

١) وليم الصوري ص ١٠٥٥ — ٦؛ RGkJ, PP. 384-5 Grousset, II, PP. 674-6.

٢) أنظر أعلاه ص ١٩٦.

٣) أنظر فيما يلي ص ٢٨٦

٤) أنظر أعلاه ص ١٩٤؛ دلبش ص ٢٠٦ — ٧.

٥) أنظر فيما يلي ص ٢٨٥ — ٢٨٦.

* (ملاحظة: (يلفت الانتباه إلى تناقض المؤلف هنا مع نفسه في تبرير هزائم الفرنجة مع محاولته نفي دور الجيش الاسلامي في ذلك) م. م

مناسب[1]. وكانت الأفكار الحربية لذلك العصر تتطلب أن يرتب القائد قواته في صفوف منتظمة، ولما كان المسلمون يعتمدون في نجاحهم التكتيكي على العثور على نقاط ضعف في تشكيل الفرنجة أو خلق نقاط الضعف هذه، فقد كان من الضروري جداً أن يحافظ الفرنجة على ذلك التشكيل حتى الانقضاض الأخير الذي يشنه الفرسان. وكانت الفكرة التي تتحكم بهم هي المحافظة على تماسك القوة بكاملها وصمودها، وكان التعاون الوثيق بين الخيالة والمشاة عاملاً هاماً وضرورياً لبلوغ تلك النهاية.

أشير في فصل سابق بأن الرجوع الى الأحداث البارزة في تاريخ فن الحرب في سورية اللاتينية يكفي للدلالة على أن المجهود الحربي كان محدداً بالهدف الفوري والمباشر لكل حملة، ولم يكن قط مكرساً لتدمير العدو تدميراً تاماً[2]. ولعل أحداث العام ١١٦٤ أفصح بيان عن وجود هذا المفهوم عن الحرب المحدودة باعتبارها جزءاً من النظرة المعاصرة الى الحرب. ذلك أنه عندما هاجم نور الدين حارم في أمارة أنطاكية[3]، هب كلامان Calaman حاكم قليقية البيزنطي، وطوروس أعظم أمراء الأرمن المستقلين لنجدة الفرنجة الشماليين وشكلوا معاً حلفاً قوياً ضده (نور الدين)[4]. ولم تكد قواتهم تقترب حتى رفع نور الدين الحصار. ويجزم المؤرخون المسلمون أنه رغب في اجتذاب الفرنجة لمطاردته، إلا أن عمله في الواقع لم يكن أكثر من تطبيق لممارسات القرن الثاني عشر (!!). ولم يشأ المخاطرة في معركة ـــ على الأرجح ـــ من أجل متابعة خطته الأساسية التي وضعها للغزو فعمد الى سحب قواته منجزاً الهدف الذي حدده للغزو، بينما ظلت حارم في يد الفرنجة.

---

١) من الحقائق الثابتة أن الفرنجة حققوا انتصاراتهم بانقضاضهم الشهير أي بفصل السلاحين عن بعضهما في الوقت المناسب.

٢) أنظر أعلاه ص ٥٣ ـــ ٥٧.

٣) Grousset, II, PP. 459-64 . RGKJ, PP. 317-19 وفيما يتعلق بحارم أنظر Rey, Colonies, P. 341 و Dussaud Topographie, PP. 171-2 ، و Cahen, Syrie du Nord, P. 135.

٤) وليم الصوري. ص ٨٩٦ ؛ ابن الأثير ص ٥٣٨ ، ابن الأثير ـــ أتابكة الموصل ص ٢١٩ ، ٢٢١ ، كمال الدين ص ٥٣٩.

بيد أن القيادة الخاطئة ـــ على كل حال ـــ ورطت الفرنجة في عملية مطاردة لقوة نور الدين. وتمت هذه الحركة على عجل وبدون تحفظ، فتصدع رتل الفرنجة وانقسم وفقد تشكيله بحيث أصبح في وسع المسلمين الكر على الجيش المسيحي وتحطيم مفارزه بعد أن انفصلت كل على حدة. وكانت نتيجة هذا النصر أن استرد نور الدين حارم ثم أتبع بها بانياس في العام نفسه. ويقول المؤرخون العرب أن نور الدين ربح المعركة بفضل خطة مدروسة وضعها تضمنت عمليتي تراجع زائفتين وكمين[1]. وقد نهج بعض المؤرخين المحدثين على هذا النهج وصوروا المشهد بكامله على أنه عمل آخر تمكن فيه نور الدين بفضل تفوقه في الدهاء من فصل الخيالة المسيحية عن جنود المشاة، الأمر الذي أتاح له النصر المؤزر[2].

لقد تم تسجيل ذلك بالاستناد الى الشواهد التي قدمها المؤرخون العرب في كتاباتهم بعد سنوات كثيرة من حدوثه، ولكنه لا يعكس تعليق الملك أملريك نفسه عليه بعد خمسة أشهر فقط من تلك المعركة (!!)*. بيد أن المؤرخين العرب والمؤرخون المحدثين الذين نحوا نحوهم أغفلوا الحقيقة، التي قد تجعل خطط نور الدين تذهب أدراج الرياح فيما لو لم يعمد الفرنجة الى مطاردته. وأن الأفكار الحربية في تلك الأيام كانت تشجب مثل هذه المطاردة وترى أن أمراء اللاتين حققوا مهمتهم الحربية عندما تمكنوا من رفع الحصار عن حارم (!!).

فقد كتب أملريك في رسالة وجهها الى الملك لويس السابع قائلاً[3]:

...factum et ut Comes Tripolitanus et Princeps Antiochenus cum multo

---

١) ابن الأثير، ص ٥٣٩، ابن الأثير أتابكة الموصل ـــ ص ٢٢٢.

2) Kohler, III, PT. 3, PP. 211-13, Delpech, II, 207-8

٣) أرخت الرسالة بتاريخ الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١١٦٥. بينما جرت المعركة في العاشر من شهر آب من العام السابق، سجل رقم ٤١١. أما النص الكامل فيمكن الرجوع إليه في مجموعة Bouquet, Recueil des historiens des Gaules, المجلد السادس عشر ص ٧٩، رقم ٢٤٣.

*) يحاول المؤلف هنا الاستناد إلى القواعد الأساسية المطبق في التكتيك دون مراعاة الظروف الموضوعية التي دفعت الفرنج إلى مطاردة نور الدين، والتي لا بد أن يكون هذا الأخير قد راعاها عند انسحابه (م. م).

exercitu ad liberandum castellum prope Antiochiam situm, nomine Haring, quod Noradinus cum innumera multitudine obsederat, irent, et, auxilio divino, hostibus eorum adventui cedentibus, liberarent. Accidit autem ut, dum praefati Princeps scilicet et Comes, non contenti tanto Dei beneficio, superbe hostes ad loca naturaliter munitissima insequerentur, ipsos ab hostibus capi, et omnem eorum exercitum partim capi, partim occidi.

كذلك حكم وليم الصوري على أحداث هذه الحملة مستخدماً أفكاراً مماثلة لتلك التي عبر عنها مليكه[1].

كانت هذه الأفكار متوفرة وواضحة لدى المسلمين أعداء الفرنجة في القرن الثاني عشر وهي مثبتة فيما سجله ابن الأثير وكمال الدين بن العديم، عند إنقاذ حلب على يد آقسنقر البرسقي أمير الموصل. ففي الثامن من شهر تشرين الأول (اكتوبر) من العام ١١٢٤ حاصر بلدوين الثاني المدينة. ولم يحل شهر كانون الثاني حتى أصبح سكان المدينة في حال يرثى لها ودب فيهم اليأس ولم ينقذهم إلا جيش قدم الى سورية بقيادة البرسقي. وعندما تواترت الأنباء عنه الى بلدوين عمد الى الانسحاب بجيشه ورفع الحصار عن حلب. ويشير المؤرخون العرب الى أن العديد من المسلمين رغبوا في مطاردة الفرنجة، ولكن البرسقي كان يعلم أن هدفه العسكري المباشر كان نجدة حلب وأنه أنجز ذلك. وبما أن الفرنجة غادروا أراضي المسلمين، فيمكن تركهم يمضون بسلام في الوقت الحاضر[2].

---

١) برر وليم الصوري أسباب الهزيمة وشرح الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة قائلاً (ص ٨٩٦):

'Sane Noradinus, et qui cum eo erant Parthorum principes, communicato consilio, tutius opinantes, obsidione sponte soluta, discedere, quam cum hostibus pene jam instantibus incaute congredi, compositis sarcinis, recedere moliebantur; nostri vero nihilominus eis instantes, dato successu et prosperis abutentes, dum eis non sufficit, quod oppidanos obsidione tantorum principum expedierant, dum incautius insequuntur, dissolutisque agminibus et contra disciplinam militarem passim discurrentibus evagantur, recurrentibus subito animumque et vires resumentibus Turcis, quibusdam locorum palustrium angustiis comprehensi, primo franguntur impetu.'

٢) ابن الأثير ص ٣٦١، كمال الدين ص ٦٥٠.

كانت فكرة الحرب المحدودة وانجاز الهدف العسكري مع الاقتصاد بالقوى هي التي تفرض نفسها على الفرنجة. إذ لم يكن لديهم عدد كاف من الرجال أو الوسائل لتشكيل جيش كبير العدد؛ وكانت ممتلكاتهم في سورية ترتكز الى المدن المحصنة والقلاع المنيعة، وإذا ما هزموا في الميدان فإنهم يتعرضون لخطر فقدان جيشهم ومعاقلهم في آن واحد. ولم يكن من مصلحتهم بالتالي خوض معركة غير مفروضة عليهم أو ضرورية لهم[*].

أضف الى ذلك أنه يمكن تحقيق النجاح كاملاً في حملة دفاعية دون خوض معركة أو مع خوضها سواء بسواء. لأن هزيمة القوات الغازية تعني ـــ بطبيعة الحال ـــ نهاية الحملة، إلا أن قيام دولة مسلمة قوية في بلاد الشام على يد زنكي ونور الدين وصلاح الدين جعل فرص تحقيق مثل هذا النصر في المعركة أقل قليلاً. لأن هؤلاء القادة كانوا يملكون احتياطات تمكنهم من دفع قوات جديدة الى الميدان دون تأخير يذكر[1]. ولم يكن للمعركة الناجحة، بكل المخاطر التي تنطوي عليها، أكثر من تأثير فوري ومؤقت على العدو العازم على القتال. وفي هذه الحالة قد لا يكون للمغامرة ما يبررها إذا ما تذكر المرء أن التأثير نفسه قابل للتحقيق بدون خوض المعركة. إذ كانت جيوش المسلمين الضخمة طوال ذلك القرن تطلب التفرق كل إلى بيته مع حلول الخريف وإثر كل غزوة ناجحة. وعندما تتوفر إمكانية منعهم من فرض حصار ناجح خلال موسم الحملات فإن غزوتهم لم تكن تحقق نتائج ذات ديمومة. وكان ذلك يتحقق بالإبقاء على جيش في الجوار يهدد عمليات حصارهم ويقطع طرق إمدادهم. ويمكن بالتالي بلوغ الهدف الأساسي للحملة الدفاعية دون خوض معركة، إذا أمكن

---

* ملاحظة: يستند المؤلف في استنتاجاته السابقة كلها إلى النتائج التي أسفرت عنها معركة حطين والتي كادت تعصف بدويلات الفرنجة، وهو يتجاهل عن عمد الظروف الموضوعية المحيطة بكل معركة كما يتجاهل بداهة القادة التي تستند بالدرجة الأولى على تلك الظروف. م. م

١) كانت هزيمة نور الدين في البقيعة نتيجة لحصره تفكيره في الانتقام فقط. ابن الأثير ـــ أتابكة الموصل ص ٢٠٩ ـــ ١٠، وفي العام الذي تلا ذلك مباشرة توفرت له القدرة على تحقيق نصر أهم من ذلك بكثير على الفرنجة عند حارم. وفي العام ١١٧٧ تكبد صلاح الدين هزيمة نكراء على يد بلدوين الرابع عند تل الجزر ولكنه ثأر لنفسه ثأراً كاملاً في العام ١١٧٩.

التريث والمماطلة بانتظار اضمحلال قوة المسلمين وتفرقها إلى بلادها من تلقاء ذاتها. ومما لا شك فيه أن المراقبين المعاصرين كانوا يعون هذه الحقائق التي أثرت تأثيراً قوياً على النشاط العسكري[1].

وأخيراً كان مفهوماً في سورية اللاتينية أن للحظ دوراً كبيراً دائماً في تحديد محصلة المعركة. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. فقبل بدء الاشتباك كان في

---

١) سبق أن أوضحنا في فصل سابق كيف أن جيوش المسلمين كانت تتفرق من ذاتها دون أن تكره على ذلك بعمليات يقوم بها العدو . وللبرهان على أن المعاصرين كانوا يدركون ذلك ، وأنه يقلل من الجهود المطلوبة من أجل الدفاع أنظر :

آ) ابن الأثير ص ٢٩٦ . يقول ابن الأثير في تسجيله لحملة العام ١١١٥ أن الحكام السوريين أي حكام الدويلات اللاتينية وطغتكين حاكم دمشق ، ولؤلؤ حاكم حلب ، كانوا يتجنبون الاشتباك لسببين : أولاً : أن جيش السلطان بقيادة برسق بن برسق كان كبيراً جداً (أنظر أعلاه ص ...) وثانياً : أن الشتاء كان على الأبواب وأن ذلك سيؤدي إلى تفرق الجيش طوعاً — وقد ترجم هذا النص إلى الفرنسية على النحو التالي : (وهو بنفس المعنى أعلاه) .

'Il fut convenu entre les confédérés qu'on éviterait de se trouver en présence de l'armée du sulthan, à cause du grand nombre de ses guerriers. L'armée musulmane, se dirent-ils dès que l'hiver approchera, se dispersera d'elle-même.'

ب) ابن الأثير ص ٥٠١ وكمال الدين ص ٥٢٩ ، ويقص كلا المؤرخين قصة عن معسكر الفرنجة عند حارم . فعندما حاصر نور الدين المدينة في العام ١١٥٦ أو ١١٥٧ أرسل أمير الفرنجة رسالة ، إلى أنطاكية على الأرجح ، يقول فيها بأنه يستطيع مقاومة الحصار وليس من الضروري إرسال جيش لنجدته . ويقول بأنه يرى أنه إذا هزم مثل هذا الجيش على يد نور الدين فسوف يستولي على حارم وأماكن أخرى غيرها . وسواء حدثت هذه الوقائع أم لم تحدث فإن هذه الرواية تدل دلالة واضحة على التفكير المعاصر في القضايا الحربية .

و) أرنول ، ص ١٥٩ : ينصح ريموند كونت أنطاكية الملك غي في الثاني من تموز عام ١١٨٧ بألا يحاول نجدة طبريا مستنداً في ذلك إلى فكرته ذاتها ، فالمسلمون سوف يحتلون طبريا ويخربونها بالتأكيد ، ولكنهم لن يحتفظوا بها لأنهم سوف يتفرقون بطبيعة الحال . وكانت نصيحة ريموند أن من الخير لهم فقدان طبرية من فقدان الجيش وربما المملكة كلها . وفيما يلي نص النصيحة بالفرنسية .

'Et si sai bien que se li Sarrasin le prendent qu'il ne le tenront pas, ains l'abateront, puis si s'en iront. . . t s'il prendent me feme et mes hommes et mon avoir, et il abatent me cité, jou les raverai quant je porrai, ét refremerai me cité quant je porai. . .'

مقدور القائد استخدام فنه ليضمن لنفسه ولرجاله الأرض والطقس والعدد والمؤن وطرق الاتصال الضرورية والملائمة، وكان يستطيع تحديد التشكيلة التي يرى أنها الأفضل لهم ليشرعوا القتال، كما يمكنه أن يحدد الوقت والترتيب والاتجاه الأنسب لهجومه. ولكن ما إن يطلقهم على العدو حتى يغدون خارج طوعه وسيطرته، والأكثر من ذلك أنه نفسه كان يسهم بدور مميز وفعال في القتال. وهكذا كانت معظم الاشتباكات معارك جنود مرهونة بعوامل أخرى غير عزيمة القائد وإرادته. وقد وصف وليم الصوري في تاريخه الكثير من الأحداث الحربية بكلمات رددها مراراً مثل «dubii» وتعني «محتمل أو غير مؤكد» و «oncipetes» وتعني «له وجهان»[1]. وقد تكون مثل هذه التعابير اعتيادية الى حد ما إلا أنها تأتي متفقة مع ظروف معروفة ومن المستبعد أن تكون فقدت مدلولها الحرفي بكامله.

1) E.g. WT, P. 840, '(Noradinus) nolens se dubiis bellorum submittere casibus'; P. 845, '(Noradinus)tamen bellorum declinans insidias et casus praeliorum ancipites. . . .' Similar expressions are to be found on PP. 584, 926, 1038, 1041. AA, P. 682.

الفصل السادس

جيش المدارز اللاتيني في العمل



١ ـــ خلفية الأعمال الحربية

يقول أسامة بن منقذ[١]: «الفرنجة هم أكثر الرجال حذراً في الحرب». وقد يبدو هذا القول للوهلة الأولى أشد الأحكام إدهاشاً بالنسبة لأناس اشتهروا بضراوتهم وتهورهم في القتال، رغم أن هذه الكلمات كتبها شخص خاض قتالاً متواصلاً ضد الفرنجة في سورية، وكان لخبرته أثرها الكبير في ذلك. وسوف نحاول من خلال المسائل التي ستتناولها الفصول التالية ايضاح رأيه هذا. إذ واجه الفرنجة في سورية العديد من المشكلات الحربية على المستويين الاستراتيجي والتكتيكي أملت عليهم حذرهم وتحفظهم.

كان الفرنجة يقاتلون من أجل أهداف محددة: وهم في استيطانهم على أطراف آسيا المسلمة لم يكن في وسعهم أن يحلموا إطلاقاً بالتفوق على قوة الإسلام كلها. وكانوا قد قدموا في الأصل بقصد الاستيلاء على مناطق بذاتها لها قيم دينية فريدة في رأيهم، وظلوا يدافعون عن الأراضي التي استولوا عليها ضد الهجمات المعاكسة المتكررة. وكان الاستيلاء والاستيطان يعنيان امتلاك الأرض والسيادة على سكانها، ولكي تبقى هذه السيادة مستمرة كان لا بد من الاستناد الى القلاع والمدن الحصينة. وهكذا كانت حيازة المعاقل والأماكن المنيعة أو الدفاع الناجح عنها أعلى مكافأة يمكن

---

١) أسامة ص ٤٢.

الحصول عليها في الحرب، وفيما عدا ذلك فإن النجاح في المعركة يبقى أمراً ثانوياً. إذ أن النصر في الميدان ـــ كما أثبتت أحداث الحملة الصليبية الأولى وسنوات الاستيطان الأولى ـــ قد يساعد الغزاة في إطلاق يدهم في مهاجمة القلاع دون معارضة، ويعود الفضل في ذلك الى تدمير الجيش المعادي فقط. أما ما يخص المدافعين فكانت المعركة أقل أهمية. إذ أن هدفهم الأول هو المحافظة على جيشهم قائماً، لأن مجرد وجوده يعد عائقاً هاماً أمام تحرك قوات الغزو وخطراً يتهددهم باستمرار. وبعد جيل الاحتلال الأول أخذ الفرنجة السوريون يطبقون في أكثر الأحيان هذا النوع من الحروب الدفاعية.

كان للاتين أسباب أخرى تدعوهم للحذر. فقد كانوا يعلمون أن محصلة أية معركة هي موضع شك ولا بد، وأن عواقب الهزيمة قد تكون فادحة هائلة. فقد يقتل عدد كبير من الفرسان، وهم على ما هم عليه من القلة في سورية، أو يقعون في الأسر. وقد تتعرض القلاع، بما لها من أهمية كبرى، لتهديدين اثنين: فلن يوجد ما يمنع العدو المنتصر من حشد كل موارده ضدها، بينما تقف هي محرومة من حامياتها اللازمة للدفاع عنها بعد أن استهلكت هذه في تعزيز الجيش الميداني. كذلك اتضح للجميع ـــ وفي هذه الظروف بالذات ـــ أن السوريين من مسيحيين ومسلمين لم يكونوا يبالون بمصير حكامهم من الفرنجة، أو أنهم كانوا يرحبون بخيبتهم وهزيمتهم. وعلى العكس من ذلك، فإن ما يجنيه الفرنجة من ربح بنتيجة النصر لم يكن يشكل حافزاً كافياً لركوب مركب المخاطر. ففي سني الجيل الأول للاحتلال الفرنجي وحتى ظهور زنكي في حلب في العام ١١٢٧ وشروعه في توحيد سورية المسلمة، كان النجاح في المعركة أمراً جوهرياً من أجل تأسيس الدويلات اللاتينية والحفاظ عليها. ولكن فوائد ذلك النجاح أخذت تتضاءل بعد ذلك. فلم يكن يحقق الخلاص الدائم من ضغط المسلمين، لأن زعماءهم من أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين كانوا يملكون موارد كافية لتكرار هجماتهم. صحيح أن النصر في الميدان يشكل خاتمة الحملة وضماناً لانسحاب الغزاة، ولكن النهاية ذاتها ممكنة التحقق في مجرى الأحداث الطبيعية بحلول الشتاء ورغبة الأجناد المسلمين في العودة الى بيوتهم

وأهليهم . وكانت هذه الرغبة تزداد قوة إذا ما كان ثمة جيش لاتيني يمنعهم من تحقيق نصر كاسح ويحدد من فرص تحقيقهم أهدافهم . وهكذا كان بالإمكان الحصول على جوائز النصر في معظم الحروب الصليبية بوسائل أخرى غير المعركة ولا تحمل في طياتها عواقب الهزيمة .

كان الفرنجة يحتاجون الى الحذر واليقظة الشديدين لدى إقامة التماس مع أخصامهم . ولكي يتجنبوا دخول المعركة ضد أعدائهم التقليديين من مسلمي الشمال (!!) والذين كانوا يحترمونهم أشد الاحترام ، لم يكن عليهم الامتناع عن اللجوء الى الأعمال الهجومية فحسب ، وإنما عليهم أيضاً مقاومة مختلف أشكال الاستفزاز التي سبق ذكرها . فقد كان لزاماً عليهم أن يكبحوا جماح أنفسهم لرد الضربة في وجه النبالة المسلمين ، أو الاندفاع خلفهم في تراجعهم المزيف أو رد هجماتهم الجانبية والخلفية السريعة والمرتدة سواء كان ذلك أثناء المسير أم أثناء الفتح بترتيب القتال ، وألا يظهروا من قوتهم إلا ما يكفي لمقاومة التطويق والاستفزاز حتى يصبحوا قادرين على استخدام سلاحهم الرئيسي في القتال الذي هو انقضاض الخيالة . من هنا نرى أن القول المأثور عن أسامة له ما يبرره تماماً . إذ كان الفرنجة طوال القرن الثاني عشر مضطرين الى ممارسة الحذر ، لا في اتخاذ القرار لخوض المعركة أو عدمه فحسب ، وإنما في المعركة ذاتها أيضاً . وكانت طرائقهم العسكرية سواء في غزواتهم أم في قتالهم نابعة من العوامل التي سبق ذكرها في الفصول المتقدمة . ولقد جرى عزل تلك العوامل ودراستها هناك متفردة كل على حدة ، بيد أن الأحداث الحربية كانت تجري بتداخل العديد من تلك العوامل وتفاعلها فيما بينها . وقد كرس ما بقي من هذا الفصل لاستعراض هذه الحالات من نواح ثلاث ، أولاها : حملات معينة نجح فيها الفرنجة في رد غزو المسلمين عنهم ، رغم تجنبهم أو رفضهم خوض القتال ؛ وثانيها : وصف المعارك التي خاضوها بترتيب المسير ، وهو شكل من الاشتباكات التي كان لها صفتها الخاصة في سورية اللاتينية ؛ وثالثها : وصف معارك الالتحام (أو المعارك الفاصلة Pitched Battees) .

٢ ــ حملات بدون معارك

جرى تنظيم الهجوم المعاكس المسلم ضد الدويلات اللاتينية المنفذ في العام ١١١١[١] بأمر من السلطان[٢] السلجوقي (في بغداد) ، الذي اختار لقيادته مودود بن ألتنتاش أمير الموصل، وأمر باقي أمراء الاقطاعات في الجزيرة والعراق بالإنضمام إليه بفرقهم العسكرية[٣]. ويدل تقدم هذه القوة المركبة داخل سورية على مدى انكماش السيطرة الفرنجية داخل الأماكن الحصينة المسورة خلال الحملة كلها وعلى عجز القلاع عن وقف تقدم قوة المسلمين التي كانت تمر بجوارها. إذ اجتاز مودود بقواته قلب كونتية الرها، وهاجم عاصمتها، كما هاجم تل باشر ووصل في آخر الأمر الى حلب[٤].

كشفت الأحداث التي تلت ذلك انقسام العالم الاسلامي. الأمر الذي كان له الأثر الأكبر في النجاحات الحربية التي حققها الفرنجة خلال الجيل الأول من الاحتلال اللاتيني. فقد وجد حكام سورية المسلمة في هذه الحملة القادمة من

---

١) كان أسامة (ص ٩٧ ــ ٩٨) شاهد عيان للأحداث عند قلعة شيزر . وللاطلاع على سجلات المعاصرين الذين كانوا في سورية أنظر فلتشر ص ٤٢٣ ــ ٤ ، وابن القلانسي ص ١١٤ ــ ١١٩ ، وماثيو الرهاوي ص ٩٦ ــ ٩٧ . ومن تسجيلات من لم يكن في سورية من المعاصرين ألبرتوس الاكويني Albertus Aquensis ص ٦٨١ ــ ٤ ، الذي كان على اطلاع جيد على حصار تل باشر فقط . أما من لم يكن من المعاصرين في سورية فانظر وليم الصوري ص ٤٨٠ ــ ٤٨١ ، وابن الأثير (الكامل في التاريخ) ص ٢٧٩ ــ ٨٣ ، (وأتابكة الموصل) ص ٣٣ ــ ٣٤ ، وكمال الدين ص ٥٩٩ ــ ٦٠١ ، وبالنسبة للتسجيلات الحديثة أنظر تاريخ مملكة القدس لروهريخت ص ٨٩ ــ ٩٢ ، و StevensonCrusaders in the East ص ٩١ ــ ٩٣ و Derenbourg, vie d 'Ossamah و Cahen, Syrie du Nord, PP. 261-3 و Grousset, I, PP. 460-72 ص٨٩ ــ ٩٤

٢) ابن القلانسي ص ١١١ ، ابن الأثير ص ٢٨٠ ، كمال الدين ص ٥٩٩ .

٣) كان من بين هؤلاء سكمان بن أرتق (أمير أرمينيا وديار بكر) وبرسق بن برسق أمير همذان وأحمديل ، أنظر ابن القلانسي ص ١١٤ وابن الأثير ص ٢٨٠ .

٤) ابن القلانسي ص ١١٥ ، ابن الأثير ص ٢٨١ ــ ٨٢ ، فلتشر ص ٤٢٣ ، ماثيو الرهاوي ص ٩٦ ، وليم الصوري ص ٤٨١ .

الجزيرة والعراق محاولة من السلطان لإعادة سيطرته المباشرة عليهم بالإضافة الى مهاجمته الفرنجة[1]. وبالتالي فقد رفض رضوان صاحب حلب دخول حلفائه، الذين كان يخشاهم، الى مدينته، رغم أن الجيش الكبير الذي جند في العام ١١١١ إنما نظم الى حد ما نتيجة لاضطرابات حدثت في بغداد، وأثارها بعض مواطني حلب بالذات إثر تهديدها من جانب تنكريد[2]، ورغم الترحيب الذي أبداه الرأي العام فيها بجيش مودود عندما عسكر خارج بواباتها[3]. إنضم الى مودود بجوار حلب طغتكين أتابك دمشق، وكان هذا بدوره يخشى جيش السلطان. ويذكر جميع المؤرخين العرب كيف كانت العلاقات متأزمة بين طغتكين وباقي أمراء العراقيين[4]. وعند هذه النقطة بالذات أخذ جيش مودود يعاني أسوأ حالات الضعف التي تتعرض لها مثل هذه القوى المركبة؛ إذ بدأ بالتفكك والتفرق كل في حال سبيله. وكان برسق وسكْمان القطبي كلاهما مريضين منذ البداية، ولم يكن أحدهما يوافقِ على خطط الآخر[5]. وازدادت حالة سكمان سوءاً فسلك طريق العودة الى الوطن مع رجاله ولكنه مات قبل أن يبلغ نهر الفرات[6]. وهكذا تفرق قسم كبير من قوى مودود «أيدي سبأ»[7] كما يقول ابن القلانسي. أما أحمديل فكان يطمح في أراضي سكمان إقطاعة له من السلطان، فانسحب بقواته تأكيداً لمطاليبه. كما ارتد برسق عائداً الى بلاده وقد اشتد به المرض فحمل على محفة[8]، ولم يبق سوى عسكر مودود وطغتكين في مسيرتهما الى

---

١) كمال الدين ص ٦٠٨ .

٢) ابن القلانسي ص ١١١ ، ابن الأثير ص ٢٧٩ .

٣) ابن القلانسي ص ١١٥ ، كمال الدين ص ٦٠٠ .

٤) ابن القلانسي ص ١١٦ — ١٧ ، ابن الأثير ص ٢٨٢ ، أتابكة الموصل ص ٣٣ ، كمال الدين ص ٦٠٠ — ٦٠١ .

٥) ابن القلانسي ص ١١٥ ، ابن الأثير ص ٢٨٢ ،

٦) ابن القلانسي ص ١١٦ ، ابن الأثير ص ٢٨٢ .

٧) ابن القلانسي ص ١١٧ ،

٨) ابن القلانسي ص ١١٧ ، ابن الأثير ص ٢٨٢ .

شيزر استجابة لطلب المساعدة من آل المنقذ[1] . وبالمقابل أخذ الفرنجة يستعرضون قوتهم في هذه الأثناء. وراح تنكريد يعمل طبقاً للأفكار المعاصرة الحكيمة آنذاك، فبادر على الفور الى حشد طاقات إقطاعه لمواجهة الغزو ولكنه لم يعرض قوته للهجوم قبل أن يصل لنجدته باقي الحكام اللاتين، فانتقى لنفسه موقعاً جيداً في الرجية Rugia، قرب جسر الشغور، والقلاع المجاورة لها[2]، وراح ينتظر وصول الملك بلدوين وبرتراند كونت طرابلس وبلدوين أمير الرها. وما إن التأم شمل هؤلاء حتى توجه الفرنجة باتجاه أفامية ودخلوا في التماس هناك مع قوات المسلمين المعسكرة قرب شيزر[3].

تذكر المصادر بوضوح وبالخطوط العريضة الطرائق التي تبناها كلا الطرفين دون تفاصيل. إذ طبق المسلمون أساليبهم التكتيكية الاستنزافية المرهقة، التي فطروا عليها، بحيوية ونشاط، وكانت تهدف الى قطع خطوط الامداد عن الفرنجة ومنعهم من إيراد خيولهم مياه العاصي[4]. واصطبر الفرنجة من جهة أخرى على جميع الاستفزازات التي خلقها لهم النبّالة من المسلمين وصمدوا أمام هجماتهم المستمرة محاذرين خوض المعركة[5]. ويبدو أن المسلمين شددوا الضغط عليهم في عدة مناسبات فخاضوا القتال لتخفيف وطأة ذلك الضغط عنهم[6]، إلا أنه لم تنشب معركة فاصلة من النوع الذي سجله ألبرت إيكس Albert of Aix ولم يؤيده فيها شهود فضل[7].

---

١) كان آل المنقذ حكام شيزر يتعرضون دائماً لهجمات تنكريد الذي شرع ببناء قلعة قرب المدينة عند تل إبن معشر أنظر Derenbourg, Vie d'Ousâma ص ٩١ ، ابن القلانسي ص ١١٤ ، كمال الدين ص ٥٩٩ .

٢) كان لأمراء أنطاكية ممر يصلهم بأراضيهم عبر نهر العاصي عن طريق جسرين هما جسر الحديد الذي يربط الطريق الرئيسي المؤدي إلى حلب وجسر الشغور الذي يؤدي الطريق المار منه باتجاه الجنوب الشرقي إلى كفر طاب ومعرة النعمان وأفامية، وشيزر بالتالي، وحماة وحمص. أنظر Dassaud, Topographie, PP. 165-78

٣) أورد فلتشر كل ذلك كما نقل عنه وليم الصوري ص ٤٨١ . أنظر كذلك ابن القلانسي ص ١١٨ .

٤) ابن الأثير ص ٢٨٣ ، كمال الدين ص ٦٠١ .

٥) ابن الأثير ص ٢٨٣ ، ماثيو الرهاوي ص ٩٧ ، فلتشر ص ٤٢٤ .

٦) ابن القلانسي ص ١١٩ .

٧) ألبرتوس الاكويني (ص ٦٨٤) وهو لم يحصل على معلومات كافية عن هذه الأحداث بينما يبدو أن غروسيه (م ١ ص ٤٧٠) حاز شهرة لا يستحقها في تأكيده على أن ثمة معركة حدثت آنئذ .

انتهت الحملة في هذه الظروف . إذ أخذت المؤن في معسكر الفرنجة تتضاءل بسبب النشاط الذي مارسه المسلمون فشرعوا بالانسحاب الى مناطقهم عن طريق أفامية ، بينما تابع المسلمون ملاحقتهم وارهاقهم لأعدائهم . بيد أن اللاتين ظلوا حتى النهاية محافظين على ترتيبهم المتراص ، وتجنبوا كل عمل هجومي يمكن أن يؤدي الى تفكك تشكيلاتهم باستثناء بعض الحالات الفردية[1] . وما إن قارب موسم الحملات على الانتهاء ، مع فوات الفرص المتاحة للاستيلاء على معقل أو الحصول على غنائم ، حتى انطلق الحلفاء المسلمون في طريق العودة كل الى دياره .

حاول المسلمون في العام ١١١١ الاستيلاء على أجزاء من دويلات اللاتين ، إلا أنهم فشلوا كلية بسبب القوة الدفاعية السلبية للأماكن الحصينة المسورة مثل الرها وتل باشر ، وبسبب تفرق القسم الأكبر من جيش المسلمين حتى قبل إقامة التماس مع الفرنجة ، وبسبب رفض الفرنجة القاطع المخاطرة بجيشهم في خوض معركة سعى المسلمون جهدهم الى تحريضهم عليها .

بعد اغتيال مودود وفشل آقسنقر البرسقي في قيادة الهجوم على الرها عام ١١١٤ عين السلطان برسق بن برسق حاكم همدان لقيادة حملة جديدة ضد الصليبيين في سورية اللاتينية في العام الذي تلا[2] . ولكن المسلمين السوريين أوجسوا

---

١) أسامة ص ٩٨ .

٢) إن أفضل مصدر لحملة العام ١١١٥ هو ما كتبه مستشار الأمير روجر المدعو والتر Walter ، الذي ساهم في الأحداث شخصياً ووصفها وكان شاهد عيان لها . وكان فلتشر في سورية في العام ١١١٥ أيضاً ولكنه لم يغادر القدس . بينما استخدم وليم الصوري ما سجله هذان الاثنان في مؤلفه . أما المعاصرين من المسلمين فلم يذكر ابن القلانسي شيئاً عن ذلك ، بينما لم يذكر أسامة سوى وصف مفصل لحصار برسق لكفر طاب ، أنظر "Albertus Aquensis, PP. 701; Fulcher, PP. 429-31; Galt, PP. 56-76. وليم الصوري ص ٤٩٣ ــ ٤٩٨ ؛ ابن الأثير ص ٢٩٥ ــ ٨ ، كمال الدين ، ص ٦٠٨ ــ ١٠ ، ماثيو الرهاوي ص ١١٤ ــ ١٦ ، تاريخ الحروب الصليبية Rohricht ص ١٠٧ ــ ١٢ ؛ Stevenson, Crusaders in the East ص ٩٧ ــ ١٠٠ ؛ Cahen, Syrie de Nord ص ٢٧١ ــ ٥ ، Derenbourg, Vie de Ousâma ص ٩٨ ــ ١٠٧ ؛ Grosset, I, PP. 495-510 ; Runciman, II, PP. 130-3

خيفة من هذه الحملة الضخمة، مثلهم مثل الفرنجة. وهنا لم يكتف حكام سورية المسلمة برفض التعاون مع جيش السلطان أو استقباله بفتور كما حدث في عام ١١١١، وإنما تحالفوا في العام ١١١٥ مع الفرنجة ضد جيش برسق[١].

وصف والتر (غالتريوس) مستشار كونت أنطاكية استعدادات روجر من أجل ملاقاة تلك الحملة وصفاً كاملاً، وقد أسهم في الأحداث مباشرة، وترك لنا صورة واضحة ومفصلة للحالة التي يمارس فيها حاكم لاتيني مسؤولياته العسكرية[٢]. إذ تسببت الزلازل الأرضية العظيمة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١١١٤[٣] بأضرار بالغة في شمالي سورية. وفي ربيع العام التالي راح روجر يشرف بنفسه على أعمال ترميم القلاع في أمارته، وبخاصة تلك المتاخمة والقريبة من أراضي المسلمين، وحشد جيشه في الوقت نفسه، عند جسر الحديد وأرسل عملاءه الى الجزيرة لجمع المعلومات عن تحركات العدو، وتشاور مع رالف دي آكون حول الاجراءات الضرورية من أجل إعداد مدينة أنطاكية لحالة الدفاع[٤]. وعندما تم له ذلك أرسل عِدَداً ومؤناً لجيشه، ثم انضم هو نفسه إليه عند جسر الحديد. وتلقى هناك تقارير عملائه الذين قد بعث بهم من قبل ad Parthorum Partes، ولما سمع بأن السلطان قرر توجيه حملة الى سورية طلب النصح حول أفضل نهج ينهجه. وبنتيجة ذلك سلك الجيش طريق أنطاكية ـــ حلب حتى تل الأثارب[٥]. حيث توصل روجر الى اتفاق مع طغتكين وإيلغازي وصاحب حلب لمقاومة جيش السلطان بصورة مشتركة[٦].

١) لم يكن ضمير ابن القلانسي وهو المسلم الورع مرتاحاً لتصرف طغتكين، فلم يسجل شيئاً عن هذه الحملة ولكنه تحدث مطولاً عن طغتكين ومصالحته مع البلاط في بغداد في العام الذي تلا. كذلك لم يستسغ والتر مستشار روجر هذا التحالف ولكنه سجله. Fulcher, P. 429, Galt, P. 67، ابن الأثير ص ٢٩٦، كمال الدين ص ٦٠٨، ماثيو الرهاوي ص ١١٥.

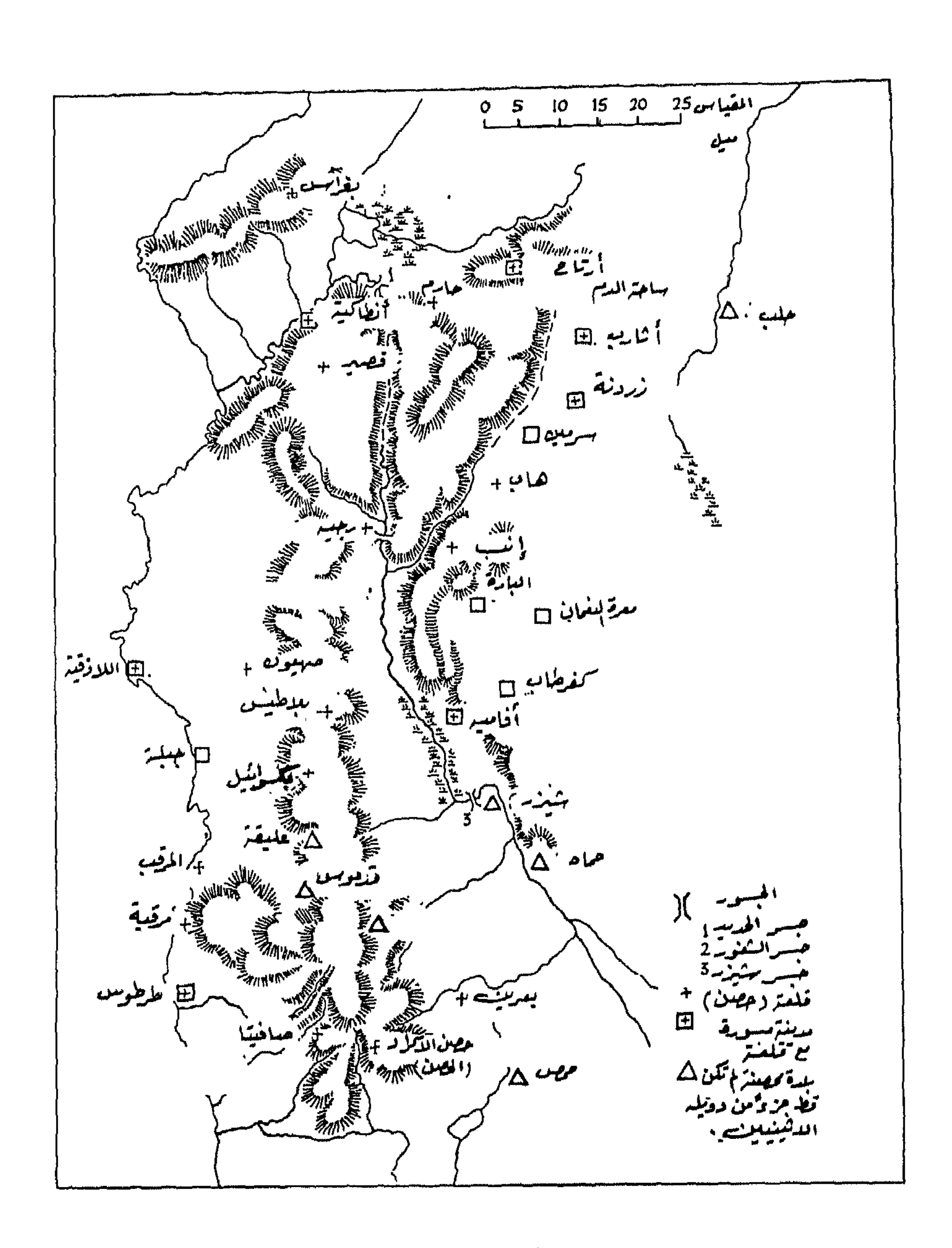
٢) أنظر Galt, PP. 65-70

٣) Galt, P. 63، ماثيو ص ١١٠ ـــ ١٢،

٤) أنظر Galt. P. 65.

٥) Galt, P. 66 فيما يخص الأثارب أنظر راي Rey, Colonis, P. 330، و Dussaud, Topographie, P. 219 و Cahen, Syrie de Nord P. 154

٦) Galt. PP. 66-7. لقد كان الكثير من المسيحيين يشاطرون والتر شعوره إزاء هذا الحلف، ويدل



خريطة رقم ١ سورية الشمالية

يقول ابن الأثير إن الحلفاء قرروا التماس فرصة التفرق المحتمل لجيش برسق المركب مع حلول فصل الشتاء، وتجنيب أنفسهم التعرض لهجماته[1]، فحشدوا قواهم على هذا النحو عند أفامية، حيث المكان ملائم تماماً ليكون قاعدة للجيش. إذ كان وافر المؤون جيد الحماية وقريباً من حمص وشيزر اللتين كان أميراهما حليفين ضمنيين للبرسقي، كما كان ذلك المكان يصلح لانطلاق الجيش في مسيرة للتصدي للهجمات المحتملة ضد حلب أو أنطاكية أو دمشق. والواقع أن برسق لم يضع الوقت في جمع حلفائه من السوريين، فاحتل حماه بهجمة مفاجئة ووهبها لقراجا صاحب حمص ثم قاد جيشه نحو شيزر[2]. وأقام رجاله التماس دون تلكؤ مع روجر وحلفائه الذين كانوا يترقبون الغزو عند أفامية منذ شهرين. وحاول الجيش القادم جر الفرنجة الى شن هجمات مبتسرة سواء باستنزاف معسكرهم أو بتنفيذ إغارة مضللة على مدينة كفر طاب التي كانت في يد اللاتين[3]. وكان الوضع العام للجيشين في هذه المرحلة مشابهاً تماماً لموقفهما قبل أربع سنوات في الحملة التي سبق وصفها.

لم يكن روجر (روجيل) أقل حنكة من تنكريد في تنظيم المقاومة ما استطاع. وما إن علم بدخول برسق سورية ـــ ولكن ليس قبل ذلك ـــ حتى طلب المساعدة من الملك بلدوين (بغدوين) والكونت بونز صاحب طرابلس[4]. وأبدى بلدوين تلهفه

صمت ابن القلانسي حول هذه الأحداث على أن الكثير من المسلمين يحملون الشعور نفسه. ولكن والتر كان يواجه مشكلة حقيقية من حيث تسجيله الحلف مع التعبير في الوقت نفسه عن أفكاره المناوئة للإسلام. وبالتالي جاء ما كتبه في ص ٦٦ ـــ ٦٧ مشوشاً وغير مبسط، أنظر كذلك Grousset ج ١، ص ٤٩٩ ـــ ٥٠٠.

١) ابن الأثير ص ٢٩٦ ـــ ٢٩٧، Derenbourg, Vie d'Ousâma ص ٠٠

٢) Galt. P. 68، يقول ابن الأثير (ص ٢٩٦) أنه لما منح برسق جميع ما استولى عليه في سورية إلى حليفه قراجة عم الاستياء باقي الأمراء الذين قدموا مع فرقهم للالتحاق بالجيش وتقلص اهتمامهم بتلك الحملة. وقد تسبب تدمير بزاعة فيما بعد في دب الغيرة والشقاق في الجيش، ابن الأثير ص ٢٩٧، كمال الدين ص ٦٠٩.

٣) ابن الأثير ص ٢٩٧.

٤) أنظر Galt. P. 67.

على التصدي للغزو الذي كان من المقدر له أن يبرز ملوك بيت المقدس ويرفع من شأنهم طوال القرن . فبادر في اليوم الذي تلقى فيه رسالة روجر الى تحذير بونز (بنص) وابلاغه ضرورة الاستعداد لمرافقته من أجل الانضمام الى روجر ، كما أرسل تعليمات مشددة الى روجر بألا يشن أية هجمات ضد العدو قبل وصول جيشي القدس وطرابلس[1] . وقد سجل والتر تطبيق روجر لهذه التعليمات بدقة . فعندما أخذ رجال برسق يشددون الخناق على معسكره أصدر أمراً يمنع بموجبه أياً من جنده من قبول تحدي العدو تحت طائلة سمل عينيه[2] . وعندما ازداد ضغط المسلمين راح يجوب المعسكر على حصانه ممتشقاً حسامه ومانعاً أي هجوم معاكس من جانب رجاله[3] .

لقد سبق وأشرنا الى الصعوبات التي كان يعانيها القادة اللاتين في إكراه فرسانهم على الحذر في مواجهة أعدائهم[4] ، وكان مثل هذه السياسة لا يحظى بشعبية أولئك الرجال الذين يتعرضون لهجمات العدو وأذاه دون أن يكيلوا له بالمثل ، أو أولئك الذين يعدون الشرف الحربي هو الشجاعة والقوة الوحشية ، والذين يزدرون

---

١) أنظر .Galt. PP. 67-8

٢) أنظر أعلاه ص ٢٠٠

٣) أنظر أعلاه ص ١٩٩ .

٤) كان أمراً طبيعياً بالنسبة لفارس من العصور الوسطى أن يتحلى بالفضائل الحربية المستقيمة من حيث الشجاعة والعنف وكان بالتالي يزدري كل مكر (دهاء) أو حذق . ويبدو أن أومان Omanبالذات كان ضحية هذا الرأي المسبق . وهو يتحدث عن الاستراتيجية البيزنطية في كتابه فن الحرب Art of War المجلد الأول ص ٢٠٢ ، فيقول أنهم (البيزنطيين) كانوا ولوعين بالخدع الحربية والكمائن والتقهقر المزيف . وبالنسبة للضابط الذي يقاتل بدون أن يضمن لنفسه بادىء ذي بدء جميع الميزات المناسبة فإنه ينال أكبر عار . « ولا يجدر بنا أن نلومهم كثيراً على وجهة نظرهم هذه » ، كما يقول إن الرومان الشرقيين « لا يشعرون بأي خجل لأن بعضهم ارتكب بعض الخدع والمكر في الحرب » . ويصف والتر الاختلاف في العام ١١١٥ بالعبارات التالية : (Galt. P 69) 'quidam etiam nostrorum id facti timiditati reputant, nonnulli autem capacioris ingenii hoc fieri de principis industria coniiciunt, ut, explorato congrui temporis articulo, non admonitione hostium nec praesumptione virium, sed sui regisque in proximo advenientis dispositione provida ingenioque experienti eos inpetere praevaleant. Saepius enim, ut expertum est, praevalet in bello cum audacia et ingenio pugnatorum paucitas, quam infrunita et vacillans armatorum multitudo'.

جميع أشكال الحذق والبراعة. لقد كان ثمة رجال في جيش روجر يعتقدون أن تصرفاته نابعة من خوفه، رغم أنه كان يوجد من يفهم ما يرمي إليه وأنه يتحين الفرصة المناسبة لمهاجمة المسلمين بعد وصول الملك[1]. وقد حدث انقسام مماثل في الرأي حول السياسة العسكرية في حملتي العام ١١٨٢ والعام ١١٨٧[2].

عندما علم برسق باقتراب بلدوين وبونز ــ وحتى قبل أن يبلغا معسكر روجر ــ شرع بالابتعاد عن شيزر متجهاً نحو الشرق. وعندما تبين للاتين أن غزوة أخرى ردت عن سورية بنجاح قاموا هم وحلفائهم بمهاجمة مدينة شيزر السفلى وأحرقوها ثم انطلق كل حاكم فرنجي مع فرقته عائداً الى بلده بعد أن تأكد من عدم ظهور الجيش الغازي مجدداً. نظم روجر استطلاعه بعناية فائقة طوال هذه الحملة، بحيث يدهش المرء من جهل الفرنجة لتحركات برسق. إذ لم يكد هؤلاء يتفرقون حتى ظهر برسق مجدداً ليستولي على كفر طاب ويخطط لمهاجمة زردنة. حشد روجر جيشه من جديد وغادر أنطاكية ليعبر العاصي عند جسر الشغور وليجعل من الرجية Rugia قاعدة لتحركاته التالية ضد جيش المسلمين كما فعل تنكريد من قبل في العام ١١١١[3]. وفي الرابع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) بلغته معلومات بأن المسلمين شرعوا بالتعسكر قرب عين ماء في وادي سرمين دون استعداد للقتال[4] ورغم أنه كان في موقف دفاعي فقد اغتنم روجر هذه السانحة لمفاجأتهم، وهاجمهم في اليوم نفسه وهزمهم في أرض معسكرهم. وأنهى هذا النصر حملة ذلك العام.

تدل الأحداث العسكرية التي حدثت في العام ١١١٥ على كبر حجم العبء العسكري الذي يلتزم به الأتباع من الاقطاعيين. فقد تم حشد جيش أنطاكية في الربيع، وظل مدة طويلة عند جسر الحديد حيث كان روجر يتولى تعزيز

---

١) أنظر فيما يلي ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥.

٢) Fulcher, P. 429, Galt, PP. 69-70. ، وليم الصوري ص ٤٩٤ ، ماثيو الرهاوي ص ١١٥ ــ ١٦.

٣) كل ذلك في . Galt, PP. 70-1

٤) يتضح من جميع ما سجل أن روجر حقق مفاجأة تامة. فعندما شن الهجوم كان المسلمون ما زالوا يقيمون معسكرهم، وكان الجند ما يزالون يردون إلى أرض المعسكر. Galt. P. 72 ، ابن الأثير ص ٢٩٧ ــ ٨ كمال الدين ص ٦٠٩ ــ ١٠ ، ماثيو الرهاوي ص ١١٦.

دفاعات أنطاكية وينهي استعداداته للحملة المنتظرة. ثم سار بعد ذلك الى تل الأثارب ومنه إلى أفامية، حيث عسكر هناك لمدة شهرين قبل ظهور قوات برسق[1]. وشن من هناك هجوماً على شيزر ثم انكفأ مرتداً الى أراضي أنطاكية، وبعدها انصرف الأتباع والجند كل الى أهله وداره. ولم تمض أيام قليلة حتى استدعوا مجدداً للخدمة من اجل التصدي لهجمات برسق المعاودة. وعلى ضوء مثل هذه الظروف قد يسهل على المرء إدراك الخطأ في تفرق الجيش اللاتيني السابق لأوانه عندما رحل برسق لأول مرة عن شيزر.

كانت الخدمة العسكرية عند اللاتين مرهقة أيضاً أثناء هجمات صلاح الدين على المملكة في أواخر القرن[2]. ففي العام ١١٨٠ عقد صلاح الدين معاهدة مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس، وبعد سنتين من ذلك التاريخ تجدد العداء بينه وبين بلدوين نتيجة الأعمال الاستفزازية التي ارتكبها أرناط (ريمون دوشاتيون) صاحب الكرك آنئذ بقطعه طريق القوافل وممارسته القرصنة. فغادر صلاح الدين مصر بجيشه في الحادي عشر من شهر أيار من عام ١١٨٢ وسار قاصداً دمشق عبر أيلة (العقبة)، سالكاً الطريق الصحراوي. توصل الفرنجة الى معلومات عن تحركاته هذه، وعلموا أن صلاح الدين كان في طريقه لعبور أراض تسيطر عليها طبيعياً معاقل شرقي الأردن في الكرك والشوبك. فطلب الملك بلدوين (بغدوين) نصيحة أتباعه حول المشكلات التي خلقها مسير صلاح الدين، فأوصى بعضهم بتسيير الجيش عبر الأردن وحماية الأراضي التي لا بد وأن يمر بها صلاح

---

١) أنظر .Galt. P. 67

٢) كان وليم الصوري آنئذ في سورية مستشاراً للمملكة ورئيس أساقفة صور. ويعتبر تسجيله لأحداث هذه السنة أفضل مرجع متوفر (وليم الصوري ص ١٠٨٧ ـــ ١١٠١) ومن المعاصرين الذين توصلوا إلى معلومات جيدة ولكنهم لم يشهدوا الحوادث عياناً بهاء الدين (ص ٦٨)، وابن الأثير (ص ٦٥١ ـــ ٣)، وأبو شامة (ص ٢١٧ ـــ ٢٢) الذي نقل عن سجلات معاصرة. وثمة مرجع مختصر لدى كمال الدين في تصنيف المؤرخين المجلد الرابع ص ١٥٩ ـــ ٦٠ أنظر كذلك Stevenson, Crusaders in the, East ص ٢٢٥ ـــ ٧، Lane-Poole, Saladin ص ١٦٧ ـــ ٦٩، Grousset, II, PP. 701-12.

الدين، ولكن ريموند كونت طرابلس دلل على أن مثل هذا السلوك سيؤدي الى تعرية المملكة من جندها.

تجاهل الجميع نصيحة ريموند وانحاز غروسّيه Grousset بشدة الى قرار المسير الى ما وراء نهر الأردن. ويبدو أنه لم يكن مطلعاً على الصعوبات التي يخلقها التعارض بين العادات الاقطاعية والمنافع الحربية. فإذا ما هاجم المسلمون إقطاع تابع من الأتباع توجب على السيد أن يبذل جهده لحمايته ولو اضطر الى استرداد الاقطاع ذاته. وإذا ما فشل في ذلك عدّ التابع نفسه متحللاً من جميع الخدمات الملتزم بها[1]. وكان معلوماً أن صلاح الدين قد يدمر في طريقه عبر إقطاعه شرقي الأردن كل المحاصيل التي كانت قد نضجت آنئذ وأصبحت جاهزة للحصاد، أو قد يحتل أحد المعاقل التي يسيطر اللاتين من خلالها على تلك المنطقة[2]. وهكذا قاد بلدوين جيشه حتى البتراء مستعداً للتصدي لأي تحرك يقوم به صلاح الدين، الذي كان خط سيره محدداً بنقاط الامداد بالمياه على طول درب الحج[3]. ولو استطاع اللاتين منعه من ارتياد تلك المياه لأمكنهم إجباره على الابتعاد والتوغل في الصحراء مؤمنين بذلك حماية الأراضي الزراعية قرب الشوبك والكرك، ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك.

في خضم هذه الأحداث استخدم صلاح الدين طريقتين متميزتين في فن الحرب وراح يطبقهما في جميع حملاته التالية ضد الفرنجة. أولاهما أنه أخذ يشن هجمات ثانوية في أماكن متفرقة منتهزاً كل سانحة لتخريب أراضيهم، وهو على يقين

---

١) Livre au Roi ص ٦٢٥ — ٦؛ Dodu, Institutions ص ١٩١ — ٢؛ La Mont, feudal Monarchy ص ١٥١ — ١٥٢. طرأ موقف مشابه لهذا في إمارة أنطاكية في العام ١١١٩، حين غادر روجر قاعدته الآمنة في أرتاح ليحمي أراضي أتباعه المهددين. وكانت حركته هذه من أرتاح إلى ساحة الدم السبب المباشر في هزيمته ومقتله. أنظر Galt, PP. 19-80. وتجد الإشارة إلى أن غروسيه (٢، ص ٧٤٠) أثنى على ترتيبات مماثلة اتخذت في العام ١١٨٤، عندما سيق أحد الجيوش لنجدة الكرك فتهيأت الفرصة لصلاح الدين لاكتساح المملكة التي فقدت حمايتها. وكانت الخطة في هذه المرة الثانية من عمل ريموند كونت طرابلس، وهو بطل في نظر غروسيه، الذي كان يميل إلى ابداء رأيه بشدة في الشخصيات التي يكتب عنها بحيث يبين حكمه على عملهم وتصرفاتهم.

٢) وليم الصوري ص ١٠٨٨.

٣) غروسيه، ٢، ص ٧٠٤ — ٥؛ C.P. Grant, Syrian Desert PP. 225-4

بأن الفرنجة كانوا بحاجة الى حشد جميع قواهم العسكرية لمواجهة جيشه ، وليس لديهم بالتالي أية مصادر أخرى يصدون فيها تلك الهجمات[1]. وثانيهما أنه كان يلجأ الى اتلاف المناطق الريفية الزراعية إذا لم يستطع تحقيق أهدافه الرئيسية من الحرب والتي كانت تنصب على استرداد الأراضي التي يحتلها اللاتين من خلال تدمير جيشهم والاستيلاء على معاقلهم[2]. وقد سبق وأشرنا الى أن الفرنجة كانوا يرون في مثل هذا النشاط سبباً أولياً لافقارهم وما ينتج عنه من عجزهم عن تنظيم المقاومة العسكرية المناسبة[3]. كما أن اصرار صلاح الدين الملح على تنفيذ سياسة الغارات التخريبية هذه يدل على أنه كان يدرك أيضاً مدى ما يسببه من متاعب للفرنجة بلجوئه الى هذه الأساليب. وقد طبق صلاح الدين في حملته التي قام بها في العام ١١٨٢ هاتين الطريقتين معاً. فعندما قاد بلدوين جيشه لملاقاته في شرقي الأردن ترك المملكة دون أية قوات فيها. فاغتنم الفرصة عز الدين فروخشاه إبن أخي صلاح الدين وواليه في دمشق ، فغزا الجليل بصحبة أمراء كل من بصرى وبعلبك وحمص حيث وجدوا سكان تلك المنطقة عزلاً من كل حماية ، واكتسحوا الدبورية وعدداً من الأماكن الأخرى القريبة منها ، واستردوا في طريق عودتهم الى دمشق قلعة حبيس جلدك في السواد التي كانت في يد الفرنجة[4].

في تلك الأثناء كان صلاح الدين قد وطد وضعه بنجاح قرب عين ماء جربا Jerba ، وأصبح في مقدوره اكتساح المناطق المزروعة المجاورة لقلعة الشوبك[5]. وكان في الشوبك قوات فرنجية وفيها وليم الصوري الذي كان من رأيه أن يستخدم الجيش

١) غزا المملكة في العام ١١٧٧ لأن بلدوين أرسل مئة فارس وألفي راجل إلى أنطاكية لمساعدة كونت الفلاندر في حصار حارم ، وليم الصوري ص ١٠٣٧ .

٢) أقام صلاح الدين معسكر جيشه في العام ١١٧٩ قرب بانياس وأرسل مفارز منه لتعيث في أرياف صيدا وبيروت . وطبقت اجراءات مماثلة في حملات العام ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٧ .

٣) أنظر أعلاه ص ١٦٤ والمراجع .

٤) حول هذه الحملة أنظر وليم الصوري ص ١٠٨٩ ــ ٩١ ، ابن الأثير ص ٦٣١ ــ ٢ ، أبوشامة ص ٢١٧ ــ ١٨ .

٥) وليم الصوري ص ١٠٩١ ، ابن الأثير ص ٦٥١ ، أبو شامة ص ٢١٧ .

لاحتلال مناهل المياه على درب الحج، واكراه صلاح الدين بالتالي على التوغل في الصحراء. وربما كانت هنالك خطة لفعل ذلك إلا أنها لم تنفذ إطلاقاً ولم يعترض مسيرة صلاح الدين شيء من هذا القبيل[1]. ورغم النقد الذي وجهه وليم الصوري حافظ الفرنجة على معاقلهم دون تعريض جيشهم لتدمير محتمل، وتم لهم ذلك على حساب بعض الأضرار المؤقتة التي لحقت بهم. وكان ذلك إنجازاً عسكرياً جوهرياً.

ما إن بلغ صلاح الدين دمشق حتى بادر الى غزو مملكة القدس دون إبطاء[2]. فعسكر في الأقحوانة al-Quhwana عند الطرف الجنوبي لبحرية طبرية[3]، وبعث بمفارز من جيشه لتعيث فساداً بالمناطق الريفية هناك[4]، وفشلت إحدى تلك المفارز في مهاجمة بيسان في وادي نهر الأردن[5] ، وعندئذ عبر صلاح الدين نهر الأردن وتسلق المرتفعات المطلة على مجرى النهر فيما بين بحيرة طبرية وسهل بيسان حيث كانت تنتصب قلعة كوكب (بلفوار Belvoir) المشادة حديثاً[6].

قابل الفرنجة هذه الغزوة بطرائق كانت تقليدية لتطبيقاتهم العسكرية الطبيعية وقبل الشروع بذلك أعيد تجميع جيش الميدان فور عودته من شرقي الأردن في منطقة الصفورية. وكان اختيار تلك القاعدة موفقاً كالعادة. فقد كانت وفيرة المياه، جيدة المواصلات مع عكا ومع السهل الساحلي، وتمكن الفرنجة من إقامة التماس على جناح

وليم الصوري ص ١٠٩٢ .

٢) يقول أبو شامة ص ٢١٧ أن صلاح الدين وصل دمشق في ٢٢ حزيران ، ويقول في ص ٢١٩ أنه غادر المدينة في ١١ تموز (يوليو) ، أنظر ستيفنسون « الصليبيون في الشرق » ص ٢٢٥ ، رقم ٣ و ص ٢٢٦ رقم ٣ .

٣) وليم الصوري ص ١٠٩٣ ، ابن الأثير ص ٦٥٢ (مجلد ٩ ص ١٥٦ طبعة ١٩٦٧ دار الكتاب العربي) .

٤) يقول ابن الأثير (ص ٦٥٢) أن المناطق التي تعرضت للإغارة هي وادي الأردن واللجون Lejjon ، وجنين ومنطقة عكا .

٥) وليم الصوري ص ١٠٩٣ ، ابن الأثير ص ٦٥٢ .

٦) وليم الصوري ص ١٠٩٣ ــ ٤ . كانت القلعة وما تزال تحمل بالعربية اسم كوكب الهوى ، روهريخت ص ٢٩١ المجلد العاشر .

السرعة مع أي جيش غاز يأتيها عبر نهر الأردن من شمالي بحيرة طبريا أو جنوبيها[1]. وتم الحصول على المعلومات عن تحركات صلاح الدين بتنظيم الاستطلاع السريع، وتقررت إقامة التماس معه دون تمهل[2]. وكان ذلك قراراً طبيعياً لأنه كان حرياً به أن يزيد من قوة الجيش اللاتيني بحيث تنضم اليه جميع القوات المتوفرة على الفور، وكان معظمها معسكراً في القلاع المجاورة[3]. سار الفرنجة قاصدين طبرية ومنها تحولوا باتجاه الجنوب على امتداد وادي الأردن قبل أن يباشروا صعود المرتفعات المجاورة لقلعة كوكب الهوى.

١) وليم الصوري ص ١٠٩٢. كانت الصفورية في العقدين السابقين للعام ١١٨٧ قاعدة طبيعية للحملات الدفاعية في شمالي فلسطين، وليم الصوري ص ٩٨٧ — ٨. آبل، جغرافية فلسطين، ١ ص ١٤٠، ٤٤٥.

٢) وليم الصوري، المصدر السابق. من المفيد أن نقارن بين ما كتبه وليم الصوري حرفياً مع الترجمة التي نشرت مؤخراً. كتب وليم باللاتينية "Quod ubi nostris Per exploratores cognitum est, ad. urbem praedictam sub omni celeritate exer citum dirigunt, ut militares copias quae ad ejus loci et finitmorum municipiorum saphet videlicct et Belveir tuitionem deputatae erant, secum assumerent, hostem protinus insecuturi".

وقد ترجم هذا القول إلى الانكليزية من قبل أميلي بابكوك و أ. سي. كراي في كتابهما « تاريخ المآثر التي أنجزت وراء البحار، History of Deeds done beyond the sea, II, P. 473

« أبلغ الكشافون هذه الحقيقة إلى قادتنا **للتو**، وتمرر على الفور شن **هجوم فوري**، وأرسلت القوات على جناح السرعة إلى طبرية لتتحد مع **الفرقة التي كانت قد أرسلت إلى هناك** لحماية تلك المدينة والأماكن الحصينة في الجوار وهي صفد وكوكب بالذات.

إن التأثير الضمني لتصرف المترجمين بالترجمة في هذه الفقرة (الحرف الأسود) حري به أن يعطي القارىء صورة زائفة عن الموقف العسكري، ولا بد من ملاحظة مايلي :

آ) لم يذكر وليم شيئاً عن قرار لشن هجوم ما. وكان القرار «المسير إلى طبريا على جناح السرعة» "hostem protinus insecuturi'، أي بمعنى اللحاق الفوري بالعدو لاقامة التماس معه وليس مهاجمته. وكان تجنب الهجوم المبتسر السمة الرئيسية لفن الحرب الفرنجي.

ب) أظهر المترجمان الجيش اللاتيني وهو يتعجل الوصول إلى طبرية « للانضمام إلى الفرقة التي كانت قد أرسلت إلى هناك » ويفهم من هذا أنها فرقة أفرزت من الكتلة الرئيسية للجيش وليس في النص ما يشير إلى هذه المفرزة. إذ أن المعنى واضح فيه وهو انضمام القوات إلى الحاميات المتمركزة هناك بصورة طبيعية.

٣) كانت قلعة كوكب إحدى القلاع التي سحبت منها القوات، وقد هدمها صلاح الدين في هذه الحملة.

وبعد ليلة مؤرقة وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع عدوهم[١]. وهنا تطور الموقف التكتيكي بصورة طبيعية: إذ حاول المسلمون إجبارهم على الاشتباك معهم، ولكن الفرنجة رغبوا في المحافظة على تشكيلتهم ورفضوا الانجراف وراء التحدي وخوض معركة فاصلة. وراح النشابون المسلمون الراكبون يغيرون عليهم حتى ليكادوا يلتحمون بهم بين الحين والآخر[٢]. وكان الفرسان اللاتين يردون على تلك الإغارات بمناوشتهم، وهذا هو السبب الذي حدا ببعض الكتاب الى الإشارة الى ما حدث وكأنه معركة[٣]. ولكن الأرجح هو عدم وقوع التحام فاصل رغم لحظات قصيرة نشب فيها قتال شديد. وبعد أن فقد صلاح الدين الأمل في تحقيق نجاح تكتيكي انسحب قاصداً دمشق، إلا أن المهام العسكرية لأتباع ملك القدس الاقطاعيين والمرتزقة من جيشه لم تنته بعد. إذ خطط صلاح الدين لمهاجمة بيروت بالتعاون مع الأسطول المصري، وعندما شاهد رصاده على جبل لبنان السفن قادمة اجتاز صلاح الدين تلك السلسلة على عجل عن طريق ممر المنيطرة وهاجم المدينة. وتحرك الفرنجة مرة أخرى من الصفورية، وتوجهوا هذه المرة باتجاه صور، حيث نظم الملك كل ما توفر لديه من السفن من أجل نجدة بيروت من البر والبحر. وعندما علم صلاح الدين بما قام به ملك الفرنجة رفع الحصار عنها وانسحب من أراضي الفرنجة. وقد ترافق هذا الهجوم بهجوم مضلل قام به أجناد مصريون في جنوبي فلسطين وبأعمال التخريب المعتادة في الريف السوري.

بعد عام من العمليات العسكرية تمكن خلاله صلاح الدين من ضم العديد من مدن الجزيرة والعراق مع مدينة حلب الى سلطنته، توجّه عائداً الى دمشق ووصلها في ٢٤ آب ١١٨٣، حيث مكث شهراً ثم عاود هجومه على الفرنجة ودخل

---

١) وليم الصوري ص ١٠٩٤ .

٢) ابن الأثير ص ٦٥٣، أنظر كذلك الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى الخليفة والتي ذكرها القاضي الفاضل ونقلها أبو شامة ص ٢١٨ — ٢٢ . وهي تشير إلى الصعوبات التي يواجهها في إغراء الفرنجة بخوض المعركة رغم أنهم خاضوا المعركة في خاتمة المطاف، وأنهم لم يفعلوا ذلك برغبة منهم وإنما اضطرتهم الحاجة إليها (ص ٢٢١) .

٣) ستيفنسون بشكل خاص ص ٢٢٧ .

أراضي المملكة من الطريق عينه الذي سلكه في العام ١١٨٤[1]، فعبر نهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية وقاد جيشه الى قلب المملكة على طريق نهر جالوت. وبعد أن استباح بيسان التي هجرها أهلها وحاميتها أقام معسكره عند منابع المياه قرب رأس الوادي على بعد نحو ثمانية أميال عن الفولة (العفولة). نهج صلاح الدين طوال هذه الحملة تطبيق سياسته المعتادة بدفع مفارز من قواته لتعيث بالمناطق الريفية الفرنجية وتلحق بها أكبر الأضرار. وقد سجلت بعض أعمال تلك المفارز المغيرة: فدمرت المفارز قريتي جنين وعفربالا Afrabala'، وهاجمت دير جبل طابور، وأشرفت على الناصرة من ذرى التلال المحيطة بها، وقطعت الطريق على فرقة فرنجية من الكرك ودحرتها في شرقي الأردن بينما كانت تتحرك للانضمام الى الجيش اللاتيني عند الصفورية. وبعد أن حقق الجيشان التماس بينهما قطعت تلك المفارز الإمداد عن معسكر الفرنجة وتسببت في معاناته الشديدة من نقص المؤن[2].

توقع الفرنجة الهجوم مجدداً، وعندما بلغتهم أنباء الغزو كان الجيش قد تحشد عند الصفورية بقيادة غي لوزينيان. ولما كان السبيل الذي سيسلكه صلاح الدين لدخول المملكة معلوماً فقد قاد غي جيشه الى الفولة عن طريق الناصرة. وكان أن هاجمت قوة من قوات صلاح الدين الفرنجة في جوار هذه القلعة الصغيرة. ولم تذكر المصادر تفاصيل تحركات كلتا القوتين بدقة تمكن من إعادة تركيبها، لذلك خرج المؤرخون بصور مختلفة قليلاً عن هذه الحالة. وبالاعتماد على أفضل تلك المصادر إطلاعاً ـــ وهما وليم الصوري وبهاء الدين بن شداد ـــ يكاد يكون من المؤكد أن همّ الفرنجة الأول كان اتخاذ وضعية مناسبة لهم تتوفر فيها المياه عند رأس الوادي. وبما أن صلاح الدين سبقهم إلى احتلال منهل المياه عند عين جالوت وربما عند عين التبانية Ain Tubaun أيضاً فقد كان لزاماً على غي لوزينيان أن يتحداه مقابل هذين

---

١) وليم الصوري ص ١١١٨ ـــ ١٩ ، أرنول ص ٩٨ ، أبوشامة ص ٢٤٤ ـــ ٤٥ ، بهاء الدين ص ٧٤ .

٢) كل ما سبق ذكره موجود في وليم الصوري ص ١١١٩ ـــ ٢٠ ، أبو شامة ص ٢٤٦ ، بهاء الدين ص ٧٦ .

المكانين. ومن الواضح أن الفرنجة شكلوا أرتالهم بعناية شديدة وشرعوا يتقدمون وقد وطدوا العزم على احتلال مناهل الماء تلك[1]. بينما راح المسلمون يرهقونهم بالرمي بالنشاب وبهجماتهم المرتدة المتكررة ــ وكان هؤلاء يزيدون من ضغطهم أحياناً الى درجة تدفع الفرنجة الى شن الهجمات المعاكسة للمحافظة على صفوفهم. وقد خاض الفرنجة هنا ــ كما كان شأنهم في عام ١١١١ وعام ١١٨٢ ــ مسيراً قتالياً لم يتحول إطلاقاً الى معركة نظامية.

ويذكر هذان أن المصدران الرئيسيان بوضوح أن صلاح الدين تخلى عن نبعي الماء وتحرك بجيشه منحدراً على مجرى الجدول. وظل الجيشان يراقبان بعضهما بعضاً من هذين الموضعين الجديدين لمدة ثمانية أيام تابع خلالها المسلمون إزعاج الصليبيين[2] واستفزازهم واعتراض قوافل الإمداد التي كانت تحاول الوصول الى معسكر اللاتين. بينما حافظ الفرنجة على صمودهم السلبي الذي لم يتح للمسلمين أية فرصة لتحقيق نجاح تكتيكي. وعندئذ حاول صلاح الدين تحريض الفرنجة على مغادرة الموقع بأن تحرك هو نفسه باتجاه جبل طابور ولكن غي لم يلحق به، وإنما انطلق مباشرة باتجاه الفولة. وسارع المسلمون مجدداً الى مهاجمتهم ولكن صلابة اللاتين قصرت أعمالهم على الرمي بالنبال وشن الهجمات الخفيفة والمتكررة، وعندما تيقن صلاح الدين أنه لن يحظى بشيء من وراء ذلك وأخذت مؤنه بالتناقص أنهى حملته تلك بينما كر الفرنجة عائدين الى الصفورية.

إن هذا الحدث يدل على أن سياسة الفرنجة الدفاعية كانت تتطلب تمركز الجيش في قاعدة جيدة الإمداد وفيرة المؤن. وقد تسببت مفارز الإغارة من جيش

---

١) ارنول ص ٩٩، أبو شامة ص ٢٤٧، بهاء الدين ص٧٥ « حافظ الفرنجة على صفوفهم متراصة وتولت مشاتهم حماية الفرسان ولم يقوموا بأي انقضاض إطلاقاً كما لم يتوقفوا أبداً، وإنما ظلوا يتقدمون حتى وصلوا النبع وعسكروا حوله ».

٢) بهاء الدين ص ٧٥، أبو شامة ص٢٤٥.

صلاح الدين في إحداث أزمة حادة في معسكر اللاتين بسبب نقص الطعام[1] . ونظم قادتهم نقل المؤون من المقاطعات المجاورة ، رغم أن جلب تلك المؤون الى المعسكر عبر منطقة ريفية تجوب أرجاءها مفارز صلاح الدين لم يكن سهلاً ، وأضحت الظروف في المعسكر أسهل عندما كُشف عن وجود سمك بكميات وفيرة في عين التبانية تكفي لإطعام الجيش بكامله إلى أن أنهى وصول قوافل الإمداد خطر المجاعة[2] .

كان هنالك تعارض بين الفرنجة حول استراتيجية قادتهم طوال الحملة وبعدها[3] . وقد نقل وليم الصوري الآراء المتعلقة بهذه القضية بكل صدق وأمانة . وكان يعتقد أن على غي أن يبادر بمهاجمة المسلمين لأن الجيش اللاتيني كان أكبر جيش تم جمعه على ما يذكر[4] ، ولأن صلاح الدين كان معسكراً داخل أراضي المسيحيين وهو يعيث في أرجائها دون أن يتصدى له أحد . وكان الآخرون ممن يرون رأيه يعتقدون أن البارونات المحليين مسؤولون عن عدم فاعليتهم ، وأنهم كانوا يغارون من غي لوزينيان ويودون لو يفوتوا عليه نصيبه من النصر . أما أنصار السياسة العسكرية في العام ١١٨٣ فيتفقون على أن المسلمين تمركزوا في أرض شديدة الوعورة تجعل أي هجوم ضدهم عملية كثيرة المخاطر ، أضف الى ذلك أن أية حركة من هذا القبيل سوف تستدعي شن هجوم معاكس من جانب المفارز التي بعث بها صلاح الدين الى جوانب معسكر اللاتين لهذه الغاية .

كان البروفسور بلدوين واحداً من المؤرخين الحديثين الذين ناقشوا هذه الحجج ومنح الغيرة الشخصية من الملك غي ، والتي كان يكنها له الاقطاعيون المحليون ،

---

١) وليم الصوري ص ١١٢١ . كان الموقف خطيراً لأن الفرنجة السوريين لم يدخروا من المؤن إلا ما يكفي ثلاثة أيام بينما لم يجلب البحارة الإيطاليون والحجاج الذين انضموا إلى الجيش أي طعام معهم . أنظر كذلك أرنول ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

٢) وليم الصوري ص ١١٢١ ــ ٢ ، أرنول ص ١٠٠ .

٣) بالنسبة للمقطع التالي أنظر وليم الصوري ص ١١٢٢ ــ ٣ .

٤) وليم الصوري ، ص ١١٢٢ . كان هنالك ١٣٠٠ خيال وعدد من الرجال المشاة المسلحين يتجاوز ١٥٠٠٠ رجل .

أعظم الأهمية. ذلك لأنه «لم تمض على وصوله الى الأراضي المقدسة ثلاث سنوات ... حتى تزوج شقيقة الملك وأصبح الوريث المحتمل للعرش، بل وعُيِّن فعلاً وصياً على العرش bailli»[1]. وكان بلدوين ميالاً بالتالي وبشدة الى اعتبار السياسة العسكرية خلال الحملة محصلة لمحاولات جناح البارونات السوريين تجريد غي من شعبيته. أما غروسّيه، من الناحية الأخرى، فوافقه على استراتيجيته الدفاعية معتبراً إياها أكثر السياسات التي يمكنه النهج عليها حكمةً، وأنه لو تكرر تطبيقها بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ لأمكن تجنب الكارثة المدمرة في حطين[2].

إذا ما نظرنا الى هذه الحملة على خلفية الأحداث العسكرية الكاملة في سورية اللاتينية خلال القرن الثاني عشر لاتضح لنا أنه لم يكن ثمة شي غير عادي أو غير متوقع سواء في السياسة الدفاعية التي طبقت في العام ١١٨٣ أم في النقد الذي وجه إليها. ولقد سبق وبينا أن العدو التقليدي الذي كرس للجيش اللاتيني عند مواجهة غزوة كبيرة المستوى هو التربص في جوار العدو مع عدم إتاحة أية فرصة له لتحقيق نجاح تكتيكي رئيسي. ولكن مثل هذه السياسة لم تكن تحظى على مر التاريخ بشعبية بين صفوف الجنود العاديين. وقد تعرض روجر أمير أنطاكية بالذات، وهو القائد المحنك والجريء والمتمتع بكامل السلطة على جيشه، لمثل هذا النقد في العام ١١١٥[3]. وقد يدهشنا بعض الشيء أن لا يُلام غي لتبنيه نهجاً مماثلاً في العام ١١٨٣، وهو الذي كان ضعيف السلطة وكثير الأعداء.

٣ ــ القتال أثناء المسير (المسير القتالي)

سبق وأوضحنا أن حركية المسلمين وخفتهم كانت تساعدهم على مهاجمة الأرتال السائرة[1]. وعندما كان الفرنجة يحافظون على تشكيلتهم ولا يتركون نقطة

---

١) بلدوين "Raymond III of Tripolis" ص ٥١ .

٢) غروسيه ، ٢ ، ص ٧٣٠ .

٣) أنظر أعلاه ص ٢٢٥ .

٤) أنظر أعلاه ص ١٣٢ .

ضعف واحدة يستغلها المسلمون كان هؤلاء يضيقون عليهم من مدى رمي قسيهم أو يشنون هجمات آنية ترد بسرعة . وكان الفرنجة يجدون في مثل هذه الظروف مناسبات كثيرة يمكنهم فيها متابعة المسير وشق طريقهم عبر صفوف أعدائهم «inter Turcos» ,[1] «per medias hostias acies»[2] « per hostes medis» «inter»[3] «condensissimas Turcorum acies» . وكان الهدف التكتيكي للمسلمين في مثل هذه المناسبات هو ايقاف رتل العدو أو تمزيقه واختراق صفوفه. وكان الفرنجة يجاهدون بالانضباط وضبط النفس للبقاء صامدين «salidius inter se conglati» وليتابعوا مسيرهم بأرتال متراصة. وكثيراً ما كان جيش اللاتين الميداني يجد نفسه مشتبكاً في قتال من هذا النوع. وعندها كان يكره على شق طريقه ككتلة من جديد «Viam aperire ferro» خلال عدو مزعج. إن هذه الحقيقة لم تذكر بشكل واضح في المؤلفات الرئيسية عن فن الحرب في العصور الوسطى، كما لم يوضح كذلك أن المعارك الفاصلة في حطين وأرسوف كانت اشتباكات من هذا القبيل، ولكنها تمت على مستوى كبير.

كان القادة اللاتين، منذ الأيام الأولى للاستيطان اللاتيني في سورية، يعيرون اهتماماً خاصاً الى تشكيل الجيش في المسير. ففي شهر آب (أغسطس من العام ١٠٩٩، وعندما أخذ الصليبيون يقتربون من ميدان القتال عند عسقلان، قسمت قوتهم الى تسع كراديس (سرايا Squadrons)، نظمت في ثلاثة أنساق (صفوف Ranks) في كل نسق ثلاثة كراديس، وهي تشكيلة مربعة يمكنها ملاقاة الهجوم بقوى متكافئة مهما كان الاتجاه القادم منه. وقد بينت أبحاث هيرمان الدؤوبة أن بلدوين الثاني اتخذ تشكيلة مماثلة لذلك قبل أن يخوض المعركة ضد ايلغازي في الرابع

---

١) وليم الصوري ص ٩٢٧ .

٢) وليم الصوري ص ٧١٩

٣) تاريخ حملة الأمبراطور فريدريك الثاني HEF .

عشر من شهر آب (أغسطس) عام ١١١٩ . وأن الفرنجة قاتلوا بتشكيل مربع من ثلاثة أنساق في كل منها ثلاثة كراديس كان أوسطها مؤلفاً من المشاة[١] Pedites .

ومن المحتمل أن يكون المؤرخون قد بالغوا بالتأكيد على أهمية هذين المثالين، لأن التشكيلة المربعة لم تكن متبناة دائماً في المسير. فهي تتطلب جبهة عريضة ولا يمكن بالتالي تطبيقها عملياً إلا في الأراضي المكشوفة فقط، وهي التشكيلة الملائمة للسهل الساحلي قرب عسقلان، إلا أنها لم تكن ممكنة في الأراضي التلية المتقطعة الشائعة في جميع أرجاء سورية. لقد كانت تشكيلة اللاتين التقليدية هي الرتل مع تعيين حرس مجانب أحياناً، أو التقيد كلية بالطريق أو الدروب أحياناً أخرى؛ ولم يكن هدف هذه التشكيلة التحفظ ضد المفاجآت فحسب، بل والمحافظة على تقدم الرتل حتى في حال اعتراض المسلمين أو مضايقتهم له.

إن التوصل الى مثل هذه التشكيلة غير ممكن لو تتوفر لدى اللاتين درجة عالية من التنظيم ولإنضباط والسيطرة. وقد برز ذلك جلياً في مسيرة الفرنجة عبر آسية الصغرى في شتاء العامين ١١٤٧/١١٤٨ أثناء تحرك القوة التي يقودها لويس السابع ملك فرنسا من الحملة الصليبية الثانية[٢]. إذ جابه الفرنسيون قوات السلاجقة منذ اللحظة التي انطلقوا فيها من أفسوس وسلكوا طريق نهر الماياندر the Maeander, واستغل الأتراك مزايا الموانع الطبيعية لعرقلة مسيرة الفرنجة[٣]. وكان لويس واعياً لضرورة وجود حرس مقدمة ومؤخرة، وكان يعينهما يومياً[٤]. إلا أن التنظيم البسيط من هذا النوع لم يكن كافياً. ولدى المرور في أحد المضائق الجبلية تسببت مخالفة قائد

---

١) هيرمان ص ٨٩ــ ٩١ . وهو يستخدم الدليل الذي ساقه غالتيريوس المستشار (والتر) ص ١٠٣ Galterius Cancellarius، طبعة هاغنماير. أنظر كذلك هاغنماير في كتاب غالتريوس ص ٢٧٨ ــ ٩ .

٢) أودو، ص ٦٥ ــ ٧٣، وليم الصوري، ص ٧٤٤ ــ ٥٠ . توصل وليم إلى معلوماته من شاهد عيان وقبل بها كوهلر في كتابه Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs, PP. 21-34 واعتبره مرجعاً أساسياً، أنظر كذلك غروسيه، ص ٢٤٠ ــ ٤ .

٣) أودو ص ٦٥، وليم الصوري ص ٦٤٦ ــ ٧ .

٤) وليم الصوري ص ٧٤٧ .

حرس المقدمة للأوامر في انفصال قواته عن الكتلة الرئيسية للجيش. فاغتنم التركمانية هذه السانحة لشطر رتل الصليبيين في أرض صعبة الاجتياز وتمكنوا من تكبيدهم خسائر فادحة. واضطر القادة الفرنسيون بسبب هذه الحادثة الى اعادة تنظيم خط سيرهم بالكامل، وقدم لنا أودو تسجيلاً دقيقاً للترتيبات الجديدة. فقد أعطيت أوامر مشددة تمنع أي ابتعاد عن الرتل في غير محله. وكان لا بد من تحمل استفزازات العدو «Usque ad prcceptum» فإذا أعطي الأمر بالهجوم توجب على فرسان اللاتين أن يكونوا جاهزين ليعودوا أدراجهم بمجرد استدعائهم، كما روعي آنئذ تعيين حرس المقدمة والمؤخرة والمجانب مع التشديد على أن يلزم كل رجل مكانه في الرتل، وأن يتجنب إثارة البلبلة بمحاولته تقديم العون أو مد يد المساعدة الى نقطة غير النقطة التي كلف بالذود عنها. أما واجب تعزيز القطاعات المهددة (وهي الوظيفة الطبيعية للاحتياط في العصور الوسطى)[1] فقد عهد به الى فرقة قوية يقودها الملك بنفسه[2]. وهكذا أمكن متابعة التقدم بنجاح أكبر بعد تطبيق الانضباط والنظام والسيطرة.

قبل تلك الأحداث بوقت قصير جابه الملك الشاب بلدوين الثالث مشكلات مماثلة في سورية. ففي العام ١١٤٧ استحكم العداء بين ألتُنتاش أمير بصرى وصلخد ومعين الدين أنر حاكم دمشق النشيط. فعرض الأول تسليم المدينتين اللتين بيده الى الفرنجة نتيجة ذلك[3]. وكان قبول العرض الذي تقدم به ألتنتاش يعني القيام بمسير لتسلم بصرى منه. وكانت المشكلة العسكرية التي نتجت عن ذلك هي مواجهة مقاومة أجناد دمشق الذين يأتيهم العون من نور الدين[4]. أدهشت قوة المسلمين الفرنجة في أول مسيرهم، وأبدى هؤلاء استعداداً لخوض المعركة إلا أن

١) دلبروك ، ٣ ، ص ٣٠٧ ــ ٨ .

٢) أودو ص٧٢ .

٣) للإطلاع على أكثر التسجيلات أصالة حول هذه الأحداث أنظر وليم الصوري ص ٧١٥ ــ ٢٨ ، ابن القلانسي ص ٢٧٦ ــ ٩ ؛ أنظر كذلك أبو شامة ص ٥٢ ــ ٣ ؛ تاريخ مملكة القدس ، RGKJ ص ٢٣٨ ــ ٤١ ، غروسيه ، ٢ ، ص ٢١١ ــ ٢٥ ؛ دلبش ، ٢ ، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥ ، رانسيمان ، ٢ ، ص ٢٤١ ــ ٣ .

٤) ابن القلانسي ص ٢٧٧ .

حكماءهم نصحوا بإقامة معسكر لهم، وباتوا ليلهم ساهرين متيقظين. وفي اليوم التالي عقد مجلس حربي وتقرر تبني العمل الايجابي. وكان النهج الذي اختاروه متابعة المسير وشق طريقهم عنوة نحو غايتهم[1].

قدم كل من وليم الصوري وابن القلانسي وصفاً لمعالم مسيرة الفرنجة. إذ حافظ الفرسان الراكبون على خطوتهم البطيئة بحيث تتماشى مع خطوة الجند المشاة من أجل الإبقاء على تشكيلتهم متماسكة. وتطلب ذلك منهم أربعة أيام كاملة حتى وصولهم الى بصرى. وكابد اللاتين خلال ذلك العطش ورمايات النبل ومناوشات المسلمين التي كانوا يردون عليها بسهامهم أيضاً. وعندما بلغوا بصرى وجدوا فيها ماء جارياً فتنعموا به، وغمرهم السرور عندما علموا أنهم نجحوا في مسعاهم[2]. وهنا تواترت الأنباء بأن زوجة ألتنتاش أذنت لجنود قادمين من دمشق بدخول القلعة، وأن السبيل الوحيد الذي بقي لهم هو الارتداد على أعقابهم[3]. كانت الظروف في طريق العودة أشد قسوة من ذي قبل. فأضيف العجاج والحر الشديد والعطش الى سهام المسلمين وهجماتهم. وطبق المسلمون في المرحلة الأولى من المسير المكيدة التي طبقت في المعركة خارج أنطاكية في الثامن والعشرين من حزيران من العام ١٠٩٨، والتي تكرر تنفيذها بعد ذلك في حطين في عام ١١٨٧، حيث أضرموا النار بالحشائش على الطريق وأرهقوا رتل الفرنجة باللهيب والدخان[4].

حرص الفرنجة، خلال جميع هذه المحن المتنوعة التي مروا بها، على المحافظة على تشكيلتهم المتراصة. ونقلوا جرحاهم وجثث قتلاهم ضمن تشكيلة الرتل كي لا ترتفع معنويات أعدائهم بإطلاعهم على الخسائر التي تكبدوها. واتخذت اجراءات مشددة جداً لضمان عدم ترك ثغرة في ترتيب المسير يمكن أن يستغلها المسلمون وهُدد كل رجل يغادر مكانه في الصفوف بأقسى العقوبات.

---

١) وليم الصوري ٧١٩.

٢) وليم الصوري ص ٧٢٠ — ٧٢١.

٣) المصدر السابق.

٤) وليم الصوري ص ٧٢٣، ابن القلانسي ص ٢٧٨.

حدث ــ على كل حال ــ أن عصى أحد الترك (المتعاونين مع الفرنجة) الأوامر وخرج عن الصف، ولكن خروجه كان ناجحاً بحيث خلص رتل اللاتين من أسوأ ضغط تعرض له. وعندما عزز المسلمون ضغطهم على مؤخرة الرتل ــ باقتراب الفرنجة من أراضيهم ــ لم يصب مسعاهم أي نجاح. تفرق الفرنجة عند انتهاء المسير كل الى بلده. ورغم أنهم فشلوا في السيطرة على بصرى إلا أنهم حافظوا على حركتهم وأنفسهم مدة اثني عشر يوماً ضد هجمات المسلمين المتكررة.

بعد ثلاث سنوات تورط الملك في عمل مماثل. ففي العام ١١٥٠ نشب نزاع في أنطاكية حول مستقبل الأماكن التي كانت تابعة لكونتية الرها، والتي ظلت في يد الفرنجة إثر سقوط عاصمتها منذ أربع سنوات مضت. وكان الأمبراطور البيزنطي عمانويل كومنين يطمح الى ضمها الى امبراطوريته بينما كان بعض الفرنجة في سورية يرون أنهم عاجزون عن المحافظة عليها بعد ذلك أمام هجمات مسعود قرة أرسلان ونور الدين. ويرى آخرون وجوب بقائها جزءاً من دويلات اللاتين[١]. وهنا قرر الملك بلدوين الثالث التنازل عنها الى البيزنطيين الاغريق[٢]. فتقابل على رأس قوة عسكرية مع ممثلي الامبراطور عند تل باشر، حيث دارت المفاوضات حول انتقال ملكية الأماكن موضوع البحث. واستعد مواطنوها من الفرنجة والأرمن، الذين رغبوا في البقاء تحت الحكم اللاتيني، لمرافقة الملك بصحبة أسرهم ومتاعهم المنزلي. وهكذا انتظم الرتل من عدد كبير من الأشخاص غير المسلحين مع أمتعتهم وخمسماية فارس milites تحت قيادة بلدوين[٣].

جند نور الدين قواته لمنع مثل هذه الهجرة، وشن هجومه الأول ما بين دلوك Duluk وعينتاب . واستعد الفرنجة لملاقاة هذا الهجوم بأن نشروا قواتهم بترتيب

---

١) وليم الصوري. ص ٧٨٥ .

٢) وليم الصوري، المصدر نفسه. اعتقد بلدوين أن المسلمين كانوا واثقين من استيلائهم عليها في وقت قصير. وكان يفضل أن يحدث ذلك عندما يكون بهمانويل، وليس هو، مسؤولاً عن الدفاع عنها.
أنظر كذلك شالاندون Chalandon Jean II, commène et Manuel commène, P. 425.

٣) وليم الصوري ص ٧٨٦ ــ ٧٨٧ .

القتال واستطاعوا على هذا النحو الوصول الى عينتاب[1]. وفي اليوم الثاني ظهر المسلمون على كلا جناحي رتل الفرنجة جاهزين لمهاجمة جميع الاتجاهات. اتخذ القادة الفرنجة حيال ذلك تدابير مماثلة لتلك التي أعطيت للجيش الفرنسي عندما مر بأزمة شديدة خلال اجتيازه آسيا الصغرى قبل سنوات ثلاث تقريباً. فانتظم الفرسان بحيث كان لكل واحد منهم مكانه المعين في الرتل، وتولى الملك قيادة حرس المقدمة بينما اتخذ فرسان أنطاكية أماكنهم على كلا الجناحين، واختير ريموند الثاني أمير طرابلس وهمفري صاحب تبنين Toron لقيادة حرس المؤخرة ومعهما نخبة من الفرسان الأشداء «cum majoribus et fortioribus militum copiis» ليقينهم بأن المسلمون يركزون جهودهم الرئيسية ـــ على الأرجح ـــ على مؤخرة الرتل. وهكذا أصبحت غالبية السوقة والعزل من السلاح مع متاعهم محمية بحراسة مرافقة من جميع الجهات. ولم يذكر وليم الصوري شيئاً عن مكان المشاة في هذا العمل.

ظل الفرنجة طوال اليوم الذي غادروا فيه عينتاب يتعرضون لمناوشات الأجناد المسلمين من جميع الجهات، وكان هؤلاء يقاتلون بأسلوبهم التقليدي: هجمات متكررة واشتباكات قصيرة وسهام تنهال كرذاذ المطر سرعان ماأحالت متاع الرتل الى ما يشبه «القنافذ ذات الشوك» والفرنجة مصطبرون تحت وطأة الحر والغبار والعطش في يوم قائظ من أيام شهر آب (أغسطس) في سورية. إلا أن تنظيمهم الجيد وتقدمهم الحثيث لم يتيحا لأعدائهم أية فرصة لفرض معركة حاسمة عليهم. وكان نور الدين نفسه غير متحمس لذلك، كما كان يعاني نقصاً في المؤن، فترك الفرنجة بعد غروب الشمس لشأنهم ولم يعد لمشاكستهم بعدها.

بعد أربعين سنة من ذلك، وأثناء حصار عكا قام الفرنجة بمسير اتسم بالكثير من الملامح التكتيكية المماثلة لما جرى في بصرى. ففي الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١١٩٠ انطلق الجيش الفرنجي في مسيرة قاصداً معسكر

---

١) وليم الصوري، المصدر نفسه. بالنسبة للمكانين المذكورين أنظر Rey, Colonies ص، ٣١٥ ـــ ٣٢٢ و Dassaud, Topographie ص ٤٧٢، ٤٧٨ و Cahen, Syrie du Nord ١١٥ وما يليها.

صلاح الدين[1]، يستحثه نقص المؤن والتعب والانهاك الذي أصاب الجند . وهنا بادر صلاح الدين بالانسحاب أمامه[2] ولم ينشب أي قتال بينهما الى أن اتجه رتل الفرنجة نحو حيفا في محاولة للحصول على مُؤنِهِ من هناك ، وأقام معسكره عند مناهل المياه على نهر نعمين N'amein ما بين رأس العين وتل كردانة Tell Kurdaneh[3] (يذكره ابن الأثير باسم تل ميمون م . م) .

وعندما خابت آمالهم في العثور على المؤن شرع اللاتين في المسير عائدين أدراجهم الى معسكرهم ، وساروا بمحاذاة النهر الذي كان يؤمن لهم الحماية على ما يبدو من جانب واحد[4] .

أمر صلاح الدين رجاله أن يناوشوا الفرنجة من جميع الجهات ، وظلت خيالته على تماس مباشر مع رتل جيش اللاتين ، بينما راح رماة النبل الراكبين في جيشه يمطرونهم بوابل قذائفهم طوال النهار[5] . ورغم سهام المسلمين والهجمات القصيرة المتكررة الى درجة الالتحام بقي الفرنجة[6] متحلقين حول نواة جيشهم وهم يتقدمون ببطء نحو الأمام في صفوف متراصة . وكان الجنود المشاة يحمون الفرسان كما السور

---

١) بهاء الدين ص ١٩٥ — ٢٠١ ، العماد في أبي شامة ص ٥١٠ — ١٣ ، .itin ص ١١٥ — ١١٩ .

٢) بهاء الدين ص ١٩٦ ، itin ص ١١٦ ، تاريخ الحروب المقدسة — باريس ص ٣٩٩٢ — ٤ .

٣) بهاء الدين ص ١٩٧ — ٩٨ . itin ص ١١٧ ، تاريخ الحروب المقدسة — باريس ص ٤٠٠٧ . (ويذكر ابن الأثير التل باسم تل ميمون على ثلاثة فراسخ من عكا ج ٩ ص ٢٠٩ . أنظر أيضاً الروضتين ج ٢ ص ١٧٩ م . م) .

٤) Itinerarium peregrinorum, ed. Stulbs ص ١١٨ ، بهاء الدين ص ١٩٩ .

٥) بهاء الدين ص ١٩٩ ، أبو شامة ص ٥١٢ .

٦) ينقل أبو شامة في الروضتين قول العماد ج ٢ ص ١٧٩ : « وكان المراد أن يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم (صلاح الدين) ويبوروا ، فما راموا مكانهم وأصبحوا يوم الأربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النهار والرجل محدق بهم كالأسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم وأرادوا يباسطونهم والسلطان يمد الرماة بالرماة والكماة بالكماة وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم ... » .

المنيع[1]، مبرهنين عن جدارتهم مع رماة السهام، وبخاصة في مؤخرة الرتل. وكان المسلمون هنا يطبقون تكتيكهم الاعتيادي ويشنون أعنف الهجمات، وغالباً ما كانوا يضطرون مشاة الصليبيين إلى الدخول في مواجهة معهم ــ كما حدث في أرسوف في العام الذي تلا ــ والى القتال وهم يسيرون القهقرى[2]. وكانوا يخفون خسائرهم ــ كما كانوا يفعلون في العام ١١٤٧ ــ بحمل خسائرهم وإحراق قتلاهم أثناء المسير[3]. وكان الفرسان أنفسهم يضطرون في بعض النقاط الى الاسهام في القتال، إما لأن عبء هجمات المسلمين يفرض عليهم ذلك، وإما لغايات كانوا يرونها كما حدث عندما شقوا طريقهم عند جسر الداعوق D'auk bridge[4].

قام جند المشاة بدور متميز أيضاً في معركة أرسوف، التي دارت في السابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) في العام التالي[5]. وقد تمت إعادة تركيب هذه المعركة بكاملها على يد المؤرخين وبخاصة أومان وغروسيّه. ولا يتناولها البحث هنا لتوفر مواد جديدة عنها، أو لاحتمال وجود تفسير جديد لها، وإنما لاستعراض أحداثها لكونها اشتباك طبيعي معتاد في سورية اللاتينية ناتج عن الصدام مع أعداء ظلت طرائقهم الحربية دون تبدل في جوهرها طوال القرن (!!). وبما أنها وصفت وصفاً تاماً على يد معاصرين وأنها كانت معركة فاصلة في الحملة فقد عالجها المؤرخون الحديثون على أنها لقطة متكاملة، واغتنموها فرصة لدراستها دراسة تفصيلية بكلمات أدبية جميلة. وقد أدى ذلك الى القاء ظلال من الغموض على الحقيقة الهامة، وهي أن العملية بكاملها، والتي شكلت معركة أرسوف ذروتها، تظهر الكثير من الملامح المميزة لفن الحرب في سورية اللاتينية التي سبقت مناقشتها.

بعد أن استولى الفرنجة على عكا كان هدفهم الحربي التالي تأسيس قاعدة

---

١) بهاء الدين ص ١٩٩ .

٢) Itineraruim ص ١١٨ . تاريخ الحروب المقدسة ــ باريس ص ٤٠٦٠ ــ ٤ .

٣) بهاء الدين ص ١٩٩ ، أبو شامة ج ٢ ص ١٧٩ .

٤) Itinerarium ص ١١٨ ــ ١٩ ، تاريخ الحروب المقدسة ص ٤٠٣٩ ــ ٤٢ ، ٤٠٧٠ ــ ٩٠ .

٥) Itinerarium ص ٢٤٩ ــ ٧٥ ، تاريخ الحروب المقدسة ص ٥٦٦٩ ــ ٦٦٥٨ ، بهاء الدين ص ٢٤٤ ــ ٦١ ، أبو شامة ص ٣٣ ــ ٤٠ .

ينطلقون منها لمهاجمة القدس. فقاموا على هذا الأساس بمسير من عكا الى يافا سالكين الطريق الساحلي. وظل جيش صلاح الدين[1] يرهق الرتل بهجماته طوال الطريق، ولكن هجمات المسلمين أصبحت أشد وطأً مع حلول الأول من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١١٩١ عندما غادر الفرنجة قيسارية[2]. وترك لنا كل من بهاء الدين ابن شداد ومؤلف كتاب Itimerarium سجلاً حياً للصراع الذي دار طوال يومين من المسير ما بين قيسارية ونهر المالح Salt Rives. جرى تنظيم الخيالة في الجيش الفرنجي في ثلاثة فرق، وظلت الكتلة الرئيسية منهم في وسط الجيش. وتولى رجال مسلحون على أقدامهم خط الدفاع الخارجي للجيش، بحيث كان نصفهم يسير بين الفرسان وبين المسلمين، بينما يرتاح الباقون من القتال بالسير بين الفرسان وساحل البحر. وكان هؤلاء المشاة يرتدون أثواباً واقية جيدة الوقاية، وكان المسلحون منهم بالقسي يناوشون المسلمين ويوقعون بهم الخسائر. وكان هؤلاء بدورهم (أي المسلمون) يسعون الى استفزاز الفرنجة الى شن هجوم عشوائي برمايات نشابيهم، ولكن المسيحيين ظلوا يتقدمون وهم يقاتلون رغم تباطؤ خطاهم بسبب تكتيك المسلمين، وأظهروا انضباطاً والتزاماً يثيران الاعجاب. وفي اليوم التالي ازدادت هجمات المسلمين شدة. وحث صلاح الدين كراديسه على الالتحام بالفرنجة كما شن عدداً من الهجمات السريعة[3] حتى اضطر فرسان الفرنجة ومن بينهم الملك ريتشار إلى القتال التراجعي[4] بينما غادر قسم من الفرسان الرتل لمهاجمة

---

١) في اليوم الأول من المسير هوجم رتل الفرنجة ونشب قتال شديد قبل أن يرد المسلمون على أعقابهم أنظر Itinerarium ص ٢٥٠ ـــ ٢٥١ ، وتاريخ الحروب المقدسة ـــ باريس ص ٥٧٥٩ ـــ ٩٩ ، وبهاء الدين ص ٢٤٥ وأبو شامة في الروضتين الجزء الثاني ص ٤٨ ـــ ٩ .

٢) Itinerarium ص ٢٥٦ حيث ذكرت على النحو التالي : (Eaitaque die, solito vehementius ifestabant exercitum)

يقول بهاء الدين ص ٢٤٦ أن صلاح الدين كان يستطلع أرضاً تصلح لمعركة حاسمة ، ويبدو مما ذكره بهاء الدين في ص ٢٥١ أنه اختار تلك الأرض مباشرة إلى الجنوب من قيسارية .

٣) كل ذلك مذكور في بهاء الدين ص ٢٥١ ـــ ٢ ، العماد في أبو شامة مجلد ٥ ص ٣٤ .

٤) بهاء الدين ص ٢٥٣ .

المسلمين[١]. ورغم ذلك ظل الدفاع الأساسي للمسيحيين مرتكزاً على تراص صفوفهم، الأمر الذي كان في ذلك اليوم أشد تماسكاً من المعتاد[٢].

كانت معركة أرسوف ذروة تلك العملية طويلة الأمد[٣]. وكانت ظروفها العامة هي نفسها التي سادت في الأول والثاني من شهر أيلول (سبتمبر). ولكن صلاح الدين، الذي وجد أن العدو يقترب من يافا، حث رجاله في السابع من الشهر نفسه على بذل جهد أكبر، بينما نظم ريتشارد خط مسيره بعناية كبيرة وهو يتوقع ازدياد حدة الهجمات المسلحة[٤] وكانت الطريقة التي طبقها الجانبان هي ذاتها التي اتبعاها في الأيام السابقة وفي مناسبات سابقة في سورية خلال الأجيال الثلاث التي سلفت. وقد وجد المسلمون في الرماة النشابين وسيلة لاستفزاز تشكيلة اللاتين وانهاكها يحثهم قائدهم على ذلك، وأتبعوا جهودهم هذه بعدد من الهجمات السريعة والمناوشات المتقطعة على مسافات قريبة[٥]، وصبوا جهودهم الرئيسية على مؤخرة رتل جيش اللاتين[٦]. وعانى الفرنجة من جانبهم من هجمات المسلمين كثيراً، رغم أن الكثير من الفرسان المنفردين أبدوا تذمراً عنيفاً من الأنظمة التي كانت تجبرهم على تحمل هجمات المسلمين دون الرد عليها، وبخاصة من بين صفوف الاسبتارية في حرس المؤخرة، فقد حافظ هؤلاء ساعات طويلة على تشكيلتهم وتابعوا مسيرتهم دون

---

١) Itinerarium ص ٢٥٨.

٢) بهاء الدين ص ٢٥٣.

٣) Itinerarium ص ٢٥٧.

٤) Itinerarium ص ٢٦٠ — ٧٥، تاريخ الحروب المقدسة ص ٦١٢٦ — ٦٥٨. بهاء الدين ص ٢٥٨ — ٦١.

٥) تنكبوا قسيهم وشرعوا يهاجمون عن قرب: Itinerarium ص ٢٦٥، تاريخ الحروب المقدسة ص ٦٣٧٤.

٦) استخدمت العبارة المألوفة "a Tergo" للدلالة على اتجاه هجوم المسلمين، وهي تستخدم على نطاق واسع في كتاب الايتينراريوم، أنظر ص ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، أنظر كذلك كتاب Epistola regis ad abbatem ص ١٣١.

توقف. وقاتل المشاة والنشابون قتالاً شديداً لصد هجمات المسلمين وبخاصة تلك التي كانت توجه ضد المؤخرة[1].

كان أكثر الأعمال فعالية وحيوية في ذلك اليوم هجوم شديد لا يقاوم شنه فرسان الصليبيين، وهو نتيجة طبيعية للظروف التي سبق ذكرها[2]. فمن جهة أولى كان من الطبيعي للفرسان أن يسهموا في القتال خلال المسير عندما يزداد ضغط العدو ويقترب جداً من الرتل، ومن جهة أخرى أن الهجوم نفذ عندما أصبح الخصم متورطاً جداً بحيث لم يعد في مقدوره تجنب الصدمة كاملة، ومن جهة ثالثة كان هناك حد لضبط النفس والتحمل لدى بعض الفرسان بلغ ذلك ذروته يوم أرسوف. لهذه الأسباب جميعها أصبح من المحتم أن يطلب من المشاة فتح صفوفهم وإفساح الطريق للخيالة لشن هجومهم الذي رد المسلمين بعيداً عن رتل اللاتين.

كانت نتيجة ذلك نجاحاً تكتيكياً مدهشاً ومؤقتاً ليس غير، لقد شن الهجوم على نطاق واسع ولكنه لم يحقق أكثر مما حققه الفرسان في الأعوام ١١١١ و ١١٨٢ و ١١٨٣ و ١١٩٣، إذ أزال ضغط المسلمين عن الجيش القائم بالمسير، دون استثمار للنجاح[3]، لأن الفرنجة كانوا يخشون من الكمائن[4]. وهكذا أعاد صلاح الدين ترتيب رجاله في اليوم نفسه[5]، وأصبح في اليوم التالي جاهزاً للقتال[6]، وراح في اليوم الذي بعده يزيد في ارهاقهم أثناء المسير وهم يقتربون من نهر العوجا **Nahr Auja**[7]. لقد كانت معركة أرسوف مشهداً رائعاً ولكنه طبيعي في ظروف المواجهة

---

١) Itinerarium ص ٢٦٣ ــ ٤ . كانت الهجمات الأشد موجهة كالمعتاد إلى مؤخرة الرتل .

٢) المصدر السابق ص ٢٦٩ ، بهاء الديم ص ٢٥٨ ــ ٩ ، ابن الأثير ، ص ٤٩ ، العماد في أبي شامة ، ٥ ، ص ٣٨ .

٣) Itinerarium ، ص ٢٧٢ ، تاريخ الحروب المقدسة ــ باريس ص ٦٥٤٠ .

٤) بهاء الدين ص ٢٦٠ ، ابن الأثير ٢ ، ص ٥٠ ، .Est ص ٦٥٦١ ــ ٦٢ .

٥) بهاء الدين ، المصدر السابق ، ,Itin ص ٢٧٣ ــ ٤ .

٦) بهاء الدين ص ٢٦١ .

٧) بهاء الدين ص ٢٦٢ ، .Itin ص ٢٨١ ، .Est ص ٦٩١٨ ــ ٢٢ ،

الحربية الاعتيادية. وكل محاولة لتصويره على أنه «مؤشر نصر» أو «ضربة ساحقة» لا تعدو كونها سوء فهم لمكانة هذه المعركة في الأعمال الحربية لتلك الفترة[1].

٤ ــ معارك فاصلة

إن الموضوع الذي يتناوله هذا القسم مكرس للمعارك الحاسمة التي خاضها الفرنجة السوريون ما بين العامين ١٠٩٧ و ١١٩٢. وقد بحثت هذه المعارك هنا باختصار شديد يفوق معظم ما كتب في التاريخ العسكري لأنها سبق وحظيت بنسبة كبيرة من الاهتمام وخضعت لأبحاث كثيرة جداً. لقد عدّ مؤرخو فن الحرب، وبخاصة ما كتب تحت تأثير أفكار القرن التاسع عشر، أن الأحداث التي وقعت في ميادين القتال هي أكثر ما يستحق الدراسة من قضايا الحرب. وطبقوا على سجلات المعارك في القرون الوسطى كل الوسائل التقنية في بحوثهم العلمية، وعنوا بتحليل المصادر المتوفرة والموازنة بينها بمهارة لا تنكر. وتوصلوا في النتيجة الى استنتاجات تفصيلية مغرقة في تعمقها حول الطرائق التكتيكية التي طبقتها الجيوش المتحاربة. إلا أن المعركة ــ بطبيعة الحال ــ ليست سوى جزء من طرائق خوض الحرب المعروفة وواحدة من الطرائق التي استخدمها معظم القادة في سورية القرن الثاني عشر بحذر وعلى كره شديد في بعض الأحيان. والأكثر من ذلك أن طبيعة المصادر التي اعتمدت لم تكن تثمر عن نتائج مكافئة للتحليل الدؤوب والدقيق الذي خضعت له.

هناك سببان رئيسيان يفسران، عدم إمكان تبني الوصف الأدبي أو السجلات الرسمية للمعارك على أنها تسجيل دقيق وصحيح للأحداث العسكرية. أولهما ينبع من الإغراء الذي يشعر به الراوي ــ أيُّ راو ــ لأعمال العنف، وبخاصة من نوع المآثر التي تتحقق في ميداني الرياضة والقتال، عندما يروي القصة الى مستمعيه ليثيرهم. والمستمعون من جهتهم يتوقعون الإثارة على هذا النحو أيضاً، لأن

١) أومان Oman، ١، ص ٢٦٣.

الأعمال الحربية كانت ، ومازال حتى أيامنا هذه، تُعد شيئاً حياً ومثيراً بالضرورة. ولا شك بأن الرواة وكتاب القصص يقعون تحت تأثير هذا التقليد ، ويحققون تأثيرهم بالمبالغة وتحريف الوقائع[1]. كذلك نجدهم يتعرضون الى إغراء آخر قوي كما الأول. إذ أن أحداث المعركة غالباً ما تتداخل وتتحول الى نموذج غير واضح تماماً. ومن الطبيعي أن يتولى المؤرخ ترتيبها بحيث تشكل قصة متسلسلة فيحور اللامعقول ليصبح معقولاً ويحيد عن الحقيقة الصحيحة والمعقدة جداً في سبيل تحقيق الوضوح .

إن الميل المزدوج نحو إفراغ الحادثة في قالب قصصي مسرحي وإضفاء المعقولية عليها يترك الباب مفتوحاً لعناصر التحريف. وهذا الميل موجود الى حد ما في تسجيلات شهود العيان لمعارك العصور الوسطى ، وهي أفضل مصادر معلوماتنا عنها. وتأتي بعدها من حيث الأفضلية ما يسجله الكاتب الذي يتلقى معلومات مباشرة من شاهد عيان ، ولكن إذا ما أراد هو أيضاً أن يقولب الرواية .ويضفي المعقولية عليها فسوف يصبح التحريف أشد وأدهى . وتصلح وصوف معركة الرملة التي دارت

١) قدم تولستوي تعليقات ذكية كثيرة عن القضايا الحربية هي أقرب للتطبيق في الجيوش الحديثة عنها في الجيوش التي كانت تحت قيادة كوتوزوف أو بغراتيون . ولقد أشار أكثر من مرة في كتابه « الحرب والسلم » إلى الصعوبات التي يعانيها المرء في تقديم تسجيل دقيق للأعمال الحربية وبخاصة في الأعمال التي يسهم فيها بنفسه . ووصف هذه الناحية في طبيعة الانسان في المشهد الذي يروي فيه نيقولا روستوف لأصدقائه معركة بين الفرنسيين والروس في العام ١٨٠٥ حيث قال :

« أخبرهم عن قضية شون غرابرن Schon Grabern تماماً كما يصف المعركة أولئك الذين ساهموا بها ، أو بالأحرى ، كما يرغبون أن تكون ، وكما يسمعون وصف الآخرين لها ، وكما تتناقله الألسن عنها ، ولكن ليس كما كانت عليه في الواقع إطلاقاً . وكان روستوف شاباً صادقاً ولن يروي بأي حال من الأحوال كذبة ملفقة . فبدأ قصته وفي نيته أن يروي كل شيء تماماً كما حدث ، ولكنه انزلق إلى متاهة الكذب تدريجياً دون وعي منه ورغم إرادته . ولو كان روى الحقيقة لمستمعيه ـــ الذين كانوا مثله يتسقطون قصص الهجمات كثيراً وتكونت لديهم فكرة محددة كيف يكون الهجوم ويتوقون إلى سماع مثل تلك القصة ـــ لما كانوا صدقوه ، أو ـــ وهو الأسوأ ـــ لاعتقدوا أن روستوف نفسه هو الجدير باللوم ، لأن ما روي لهم عن هجمات الخيالة لا يتفق مع ما حدث له (الحرب والسلم ، ترجمة Louiso and Aylmer Maude, P. 258 ـــ أنظر الحرب والسلم طبعة دار اليقظة السورية ص ٤٩٩ ـــ م . م)

في العام ١١٠١ مثالاً لهذه المسألة. فكان ممن وصفها ألبرت آيكس Albert of Aix الذي حصل على معلوماته عن الأحداث التي دارت في الأراضي المقدسة من الحجاج الذين كانوا هناك، أي يمكن أن نعد هذه المعلومات وفقاً للمعاير الطبيعية مصدراً موثوقاً. ولكن فلتشر Fulcher ، القس الخاص بالملك بلدوين الأول، واكب الملك طوال اليوم وخاض معمعان القتال، ويجب بالتالي أن يعطى تسجيله للمعركة أفضلية أولى على ما سجله ألبرت المذكور. وبما أن الوصف الذي قدمه كل من هذين الكاتبين يختلف عن الآخر من جميع أوجهه تقريباً فقد رفض أفضل المؤرخين الحديثين[1] ما سجله ألبرت، رغم أن الشواهد التي قدمها ألبرت تبقى مصدراً موثوقاً جديراً بالاهتمام فيما عدا حادثة شهود فلتشر المعركة.

يمكن تتبع التحريف المضطرد ذاته في عمل دلبش Delpech . فقد عمد في كتابه «التكتيك في القرن الثالث عشر Tactique au Treizième siècle» الى اعادة تركيب ثلاث معارك جرت في أنطاكية في العامين ١١١٥ و ١١١٩، وهي معركة سرمين Sarmin ، ومعركة ساحة الدم Agev Sanguinis ، ومعركة هاب Hab . وكان والتر Walter مستشار الأمير روجر صاحب أنطاكية حاضراً في المعركة الثانية من تلك المعارك ومن المرجح أن يكون قد حضر الأولى أيضاً[2]، بينما حصل على معلوماته عن معركة هاب من رجال أسهموا فيها[3]. وقد سجل فلتشر الأحداث ذاتها دون روية، وكان موجوداً آنئذ في بيت المقدس عندما حدثت. وبالتالي فإن الشواهد التي ساقها هذان الرجلان هي أفضل مادة لدراسة المعارك الثلاث فيما بعد، واستفاد منها وليم الصوري بعد جيلين من ذلك التاريخ عندما كتب تاريخه المعروف[4]. قدم وليم وصفاً واضحاً لتلك المعارك، ولكن الواضح أن تلك الصورة التي رسمها تختلف في أوجه كثيرة عن تلك التي قدمها والتر[5]، رغم أنه استخدم الكلمات والعبارات التي

---

١) Heerman ص ٥٨ . Kohler م ٣ الجزء ٣ ص ١٨٢ .

٢) Hagenmeyer in Galt ص ٦ .

٣) Heerman ص ٧٨ .

٤) Hagenmeyer in Galt ص ٤٨ رقم ٩٣ .

٥) Heerman ص ٧٨ .

استخدمها الكاتبان وفي نيته تكرار ما كتبوه وسجلوه. وعندما أراد دلبش بعد قرون سبع إعادة تركيب المعارك المذورة لم يعتمد ما كتبه والتر مصدراً له، وإنما اختار وليم الصوري. وكانت النتيجة أنه إذا ما قورن عمل دلبش هذا حول المعارك الثلاث بما كتبه هيرمان Heerman ، الذي اختار والتر، فمن الصعب جداً التعرف إليها على أنها المعارك المقصودة ذاتها[1].

من المرجح إذنً أن التسجيل الأول لمعركة ما يقدم لنا الأحداث بصورتها الأصلية ولكن غير تامة، بيد أن التسجيل المركب من رواية ثانية وثالثة يكون أشد تحريفاً وأكثر بعداً عن الحقيقة. صحيح أن وسائل البحث العلمي الحديثة يجب أن ترتكز على هذه التسجيلات، مهما كان الخطأ فيها، إلا أنه لا يجوز أن تعامل الكلمات والتعابير المأخوذة من النصوص الأدبية الرفيعة التي تصف المعارك، والتي تستند الى الأقوال المتناقلة كما لو كانت مأخوذة من وثيقة قانونية معدة بعناية. أو أن تعتمد أساساً استنتاجات تفصيلية دقيقة حول الطرائق التكتيكية والمعلومات الأخرى. وسوف نجد أمثلة من مثل هذه التجاوزات في الدراسة التي تلي.

اصطدم الفرنجة بالمسلمين من الأتراك السلاجقة في أول معركة عند دوريليوم Dorylaeum[2]. ويستخدم المؤرخون الحديثون المصادر الكثيرة المتوفرة لهم ليعيدوا

---

١) دلبش، م ٢ ص ١٨٢ ــ ١٨٤، ١٩٥ ــ ١٩٧، هيرمان ص ٧٦ ــ ٩٥. وصف دلبش معركة أرسوف (م ١ ص ٣٨١ ـ٣٩٣) بالطريقة ذاتها وكذلك فعل كوهلر (م ٣ جزء ٣ ص ٢٣٤ ــ ٢٤٨) ولديه بعض الأشياء المشتركة مع وصف أومان لها (م ١ ص ٣٠٥ ــ ٣١٨) أو ماذكر أعلاه (ص ١٦٢ ــ ١٦٥). واعتمد كوهلر ودلبش بصورة رئيسية على مؤلف Gesta Ricardi الذي كان حسن الاطلاع على الأحداث في فلسطين، ولكن كاتب ماورد في الاتينراريوم Itinerarium كان حاضراً تلك المعركة، أنظر كوهلر، م ٣، جزء ٣، ص ٢٣٨ رقم ١، أومان، م ١، ص ٣٠٨ رقم ١، دلبروك، م ٣ ص ٤٢٧.

٢) هذه المصادر هي الكاتب المجهول ص ٤٤ ــ ٥٠، فلتشر ص ٣٣٤ ــ ٣٣٦. ريموند Raimundus de Aguilers ص ٢٤٠ Epestulae et chartae ed. Hagenmeyer ص ١٤٥ (أنسيلم) وكل هؤلاء كانوا شهود المعركة. أما رادولفوس كادومنسيس Radulfus Cadomensis فأحيط علماً بها من رجال حضروا المعركة (ص ٣٢٨ ــ ٦٢٩). ومن المرجح أن يكون ألبرتوس آكينسيس

تركيب هذه المعركة بتفصيل كبير ، ووجدوا شواهد لعدد من التحركات والتشكيلات التكتيكية[1] . والواقع أنه يمكن تتبع هذه المعركة ، مثلها مثل معظم معارك تلك

Albertus Aquensis قد علم بها من رجال حضروا المعركة (ص ٣٢٨ — ٣٣٢) ، وليم الصوري ص ١٢٩ — ٣٤ ، دلبش ، م ٢ ص ١٥٠ — ١٥٤ ، هيرمان ص ٥ — ٢٤ ، كوهلر ، م ٣ ج ٣ ص ١٤٠ — ١٤٩ . أومان م ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٨ ، دلبروك ، م ٣ ص ٤٢١ ، شالاندون ، Premiere Croisade ص ١٦٩ — ١٧٠ غروسيه م ١ ص ٣١ — ٣٦ ، رانسيمان م ١ ص ١٨٤ — ١٨٦ .

١) تشكل إعادة تركيب دلبش لهذه المعركة مادة ممتازة لدراسة قضية التحريف . فبالرغم من أن المعركة وضعت خلال القرن من قبل شهود عيان كثيرين فقد اعتمد دلبش على تودبود Tudebod و رادلفوس كادومنسيس Rodolfus Cadomensis ووليم الصوري Willermus Tyrensis ولم يكن أي من هؤلاء حاضراً . واستخدم الوصف الذي ذكره وليم الصوري عن طرائق الترك في الهجوم (وليم الصوري ص ١٣١) مع الرجوع مرتين إلى ما أشار به وليم الصوري حول "agmina Turcorum" (ص ١٣٠ و ١٣٢) ليقدم صورة للهجمات المتعاقبة على الرتل Saccessives charges en colonne التي شنها الخيالة الأتراك من رماة النبل . وهذه الحالة عادية بالنسبة لطريقة دلبش . وبتحديد المعنى الدقيق لكلمة "agmen" وهي كلمة كان يستخدمها كتاب القرون الوسطى كثيراً بمفهومها العام وكمرادف غير دقيق لكلمة صفوف أو تراتيب "acies" و "Turma" و "Caterva" (حول هذه النقطة أنظر Frauenholz, Heerwessen ص ١١٠ — ١١٣) حقق دلبش إعادة تركيب للمعركة فيها الكثير من المبالغة والتحريف أنظر نقد هيرمان ص ١٨ رقم ١ .

ثمة استعراض آخر مفيد لطرائق كتابة التاريخ العسكري قدمه كوهلر Kohler م ٣ ص ١٤٥ — ٦ . فعندما ضغط الترك بشدة على بوهمند أرسل هذا يطلب العون من قادة القسم الآخر من الجيش الصليبي ، الذي لم يهاجمه الترك . وقد وصف الكاتب المجهول (ص ٤٦) وصولهم إلى ميدان المعركة بالعبارات العامة التالية : "ac Hugo Magnus sinul venerunt prius"... "Dux itaque Godfridus" "et comes de sancto Edigio"... "episcopus quoque Podiensis prosecutus est illos"... . وبتحري المعنى الدقيق لهذه العبارات ثم توسيع هذا المعنى حتى حدوده القصوى أصبح في مقدور كوهلر الاستنتاج أن الرتل الآخر سارع إلى نجدته في الوقت المناسب وبتشكيلة مدروسة (ص ١٤٥ — ١٤٦) . ولكن ما كتبه الكاتب المجهول (ص ٤٦) يوحي بأن القادة طبقوا تعليمات بوهمند العاجلة بأن يأتوا إليه بأسرع ما يستطيعون وأنهم وصلوا بأفضل ترتيب استطاعوا إليه سبيلاً . وهنا يبدو كوهلر مثل دلبش مبالغاً في الشكلية وفي التحريف . وقد كان على حق في ضرورة تحري كل كلمة في النص بعناية تامة ، ولكن كان عليه في الوقت نفسه أن يكون مهيأ نفسياً للاعتراف بأن الدليل القائم لديه لا يكشف في حقيقة الأمر فيما إذا كانت القوة القادمة للنجدة قد وصلت ميدان المعركة بترتيب القتال أو أنها باغتت المسلمين من الجانب .

الفترة ، بخطوطها العامة فقط . فبعد أن غادر الصليبيون نيقية Nicea انقسموا الى رتلين ، هاجم الأتراك واحداً منها في الأول من شهر تموز (يوليو) سنة ١٠٩٧ . ولم يكن الفرنجة بقيادة بوهمند متعجلين لخوض معركة كما لم يكن الأتراك متشوقين لقبول ذلك[١]. وبينما كان المشاة يقيمون معسكرهم بادر الفرسان من الفرنج الى مهاجمة الأتراك ، إلا أن مراوغة الأتراك وحركيتهم ورماية نبلهم لم تكن مألوفة لهم[٢]، فاضطر الفرسان الصليبيون بنتيجة ذلك الى التقهقر داخل كتلة الحجاج المسلحين وغير المسلحين (السوقة)[٣]. ظل الفرنجة فترة منطوين على أنفسهم وقد أصابهم الذهول ، وفشل أكثر المغامرين من الفرسان في الاستمرار في محاولته الالتحام مع الترك[٤]، ومع ذلك فقد كانت حقيقة تجمع الفرنجة بعضهم مع بعض حركة مميزة لتطوير طرائقهم في المستقبل. فبالرغم من عدم قدرتهم على تنظيم دفاع مرتب، وفقدهم كل قدرة على رد الضربة للعدو ، لم يكن باستطاعة المسلمين تدميرهم[٥]. وتحولت كتلة الفرنجة المتراصة الى قوة دفاعية هائلة . استمرت المعركة على هذه الحالة المعلقة مدة ساعتين أو ثلاث ساعات حتى تحطم الجمود بوصول فرسان من رتل الفرنجة الآخر . وقد فاجأت هذه التعزيزات التي قادها غودفري Godfrey ، وريموند كونت تولوز Reymond de toulous وأسقف باي Puy المسلمين السلاجقة مفاجأة تامة فسارعوا الى الانسحاب من ميدان المعركة[٦].

سرعان ما تبين لقادة الحملة الصليبية أنه من الضروري ، من أجل دحر عدو

---

١) الكاتب المجهول ص ٤٤ ، فلتشر ص ٣٣٤ ، في السنوات التي تلت ، وعندما ازدادت معرفتهم بعضهم ببعض ، أصبح الفرنجة يستفيدون من صلابة صفوفهم ومتابعة مسيرهم شاقين طريقهم بين صفوف العدو . وصار المسلمون يسعون إلى إضعاف العدو بإنهاكه واستنزافه ومنع المؤن عنه قبل محاولة تدميره .

٢) وليم الصوري ص ٤٤ .

٣) الكاتب المجهول ص ٤٦ ، فلتشر ص ٣٣٥ ، رادلفوس كادومنسيس ص ٦٢١ ـــ ٢٢ .

٤) رادلفوس ص ٦٢٣ .

٥) فلتشر ص ٣٣٥ .

٦) الكاتب المجهول ص ٤٨ ـــ ٤٩ ، فلتشر ص ٣٣٥ .

لا يعرفون طرائقه،تطبيق إجراءات مضادة تكتيكية . وأول ما يجب عمله هو تجنب الوقوع في طوق المسلمين وضمان تسديد الضربة الى الكتلة الرئيسية من جيش العدو عندما يشرع اللاتين هجومهم . كما أملت عليهم فطرتهم الاحتفاظ بجزء من القوة احتياطياً ، زيادة في الحذر ، لمقاتلة أي قوة من العدو تسعى الى الالتفاف حول الجانبين ، ولتقديم المساعدة الى أي قطاع ، في خط القتال ، يتعرض لضغط شديد[1] . وخلال الأشهر التي تلت معركة دوريليوم كان القادة يعالجون المشكلة بذكاء ، فكانوا يتجنبون الوقوع في الطوق بالبحث عن حماية مانع طبيعي يقي جناحي خط الصليبيين في المعركة .

لم يشترك القائد الميداني في الانقضاض الأول في الاشتباكات الثلاث التي جرت في جوار أنطاكية ، وإنما ظل قائماً على رأس الاحتياط التكتيكي . ومما يلفت النظر أن القائد في كل حالة من الحالات الثلاث كان بوهمند ، ويبدو واضحاً أنه طوال وجوده مع الحملة الرئيسية كان يتولى قيادة الشؤون العسكرية فيها بنفسه . وإذا كان الدليل على ذلك موجوداً فقط في التسجيل الذي تركه الفارس المجهول لمن جاء بعده لكان الأمر موضع شك ، ولكن ثمة شواهد أخرى كثيرة تؤيد قوله في مراجع ثانية ، وبخاصة في الصفحات التي كتبها ريموند أجيل Raymand of Agiles . ويمكن أن يعزى الى بوهمند ـــ بحق ـــ الفضل في إيجاد الوسائل المعاكسة لطرائق المسلمين ، وهي وسائل لم تدرس نظرياً ، ولكن من الممكن لقوة مكبلة بحجاج غير مسلحين ولا تعرف من الانضباط أو التنظيم إلا قليله ، وليس لديها التدريب العسكري الكافي ، أن تمارسها في الميدان . لقد كان ذلك أداء مدهشاً من جانب بوهمند جعل منه قائداً من أبرز قادة عصره ، ورسم لنا الكثير من خصائص البراعة العسكرية في العصور

---

١) كان استخدام الاحتياط أمراً طبيعياً في جيوش العصور الوسطى . أنظر الدور الذي اسند إلى الملك لويس السابع في آسيا الصغرى عام ١١٤٧ (أودو ، ص ٧٢) ، والوصف الذي كتبه وليم الصوري حول تنظيم جيش بلدوين في تل الجزر في العام ١١٧٧ (وليم الصوري ص ١٠٤٢) ، أنظر كذلك دلبروك م ٣ ص ٣٠٧)

الوسطى، على قدم المساواة مع الانتصار الذي حققه نورمندي آخر في انكلترا قبل جيل واحد من الزمان.

ففي الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٠٩٧ اصطدمت مفرزة كبيرة لنقل المؤن بقيادة بوهمند وروبرت كونت الفلاندر بقوة مسلمة شرقي نهر العاصي قرب البارة على الأرجح[١]، وتشير أفضل التسجيلات عن هذه المعركة أن الفرنجة تمكنوا من التقرب بسرعة والالتحام مع أعدائهم وتبديد هجومهم بهجوم مباغت قاده روبرت كونت الفلاندر رغم محاولة المسلمين تطويقهم.

كانت إجراءات الحيطة التي اتخذها الفرنجة ضد التطويق أكثر إتقاناً في معركة دارت بعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ ضد جيش مسلم كان يحاول نجدة أنطاكية، ويبدو أن بوهمند كان هو واضع الخطة، وهو قائد الكردوس الذي خصص ليكون احتياط وحرس مؤخرة في آن واحد[٢]. وعهد للجنود الراجلين وللفرسان ـــ كما كان الأمر عند دوريليوم ـــ بمهام مختلفة[٣]. إذ ترك الأولون لحراسة المعسكر بينما أرسل الخيالة فقط لملاقاة القوات القادمة للنجدة. وقرر الفرنجة ملاقاة عدوهم على مسافة أميال قليلة عن أنطاكية، عند نقطة يصبح فيها نهر العاصي على بعد ميل أو أقل من شواطىء البحيرة[٤]. وقد جاء اختيارهم هذا بسبب رغبتهم في منع التعاون بين حامية المدينة والقوة القادمة لنجدتها[٥] ولحماية جانبيهم من أية محاولة يقوم بها المسلمون

---

١) الكاتب المجهول ص ٧٢، رايموندوس ص ٢٤٤ ـــ ٥، شالاندون Premiere Croișade ص ١٨٨ ـــ ٩. غروسيه، ١، ص ٧٧، رانسيمان، ١، ص٢٢.

٢) أنظر الكاتب المجهول ص ٨٢ ـــ ٦، رايموندوس ص ٢٤٦ ـــ ٧ حول هذه المعركة التي جرت قرب بحيرة العمق بتاريخ ٩ شباط من العام ١٠٩٨. وكذلك دلبش، ١١، ص ١٦١ ـــ ٦، هيرمان، ص ٢٥ ـــ ٣٣، كوهلر، ٣، ج، ٣ ص ١١٥ ـــ ٩ أومان، ١، ص ٢٧٩ ـــ ٨١، دلبروك، ٣، ص ٤٢١ ـــ ٢، شالاندون، ١٩٤٠ ـــ ٦، غروسيه ١، ص ٨٥ ـــ ٨، رانسيمان ص ٢٢٥.

٣) المصدر السابق ص ١١٨،

٤) رايموندوس ص ٢٤٧،

٥) رايموندوس ص ٢٤٦.

لتطويقهم[1] مستفيدين من الموانع الطبيعية التي يهيؤها نهر العاصي والبحيرة . وكانت الخطة ناجحة حقاً ، بحيث كان باستطاعة الفرنجة منذ البدء الاشتباك مع المسلمين بالالتحام . ففي البدء تزعزع موقف سبعماية من فرسان الفرنجة أمام هجوم الكتلة الرئيسية لجيش المسلمين ، إلا أن بوهمند أسرع بإرسال عون لهم من حرس المؤخرة وأنهى هجوم الفرنجة القتال[2] .

---

١) الكاتب المجهول ص ٨٤ .

٢) الكاتب المجهول ص ٨٤ — ٦ . إن عمل هيرْمان Heerman حول هذه المعركة يدل على مدى ما يستطيعه باحث قدير ودقيق من انقاص قيمة عمله بمحاولته التعمق كثيراً في الشواهد الموجودة . فقد اعتبر هيرمان أن أبحاثه تكشف ناحيتين هامتين من صفات الفرنجة : أولهما أن القوة المتوفرة لهم قبل بدء المعركة كانت منظمة بصورة طبيعية في ثلاث فرق (drei Treffen) ، وثانياً أن مختلف الكراديس اتخذت ترتيبها وهاجمت على نسق (Stuffelformig) أنظر هيرمان ص ١١١ — ١٢ ، ١٣ — ١٤ .

وهو يدعي أنه وجد الترتيبين في السجلات المعاصرة لهذه المعركة . ويمكن إيجاد مبرراته في كتابه (Gefechtsfuhrung) ص ٣٠ ، رقم ٣ منقولة عن رايموندوس (ص ٢٤٧) وهو يشير إلى ترتيب الجيش بكلمة "Ordinatio" ولكنه استخدم في صفحة أخرى كلمة (Ordo) بمعنى فرقة . واعتبر هيرمان أن كلمة "Ordinatio" تعني التنظيم في فرق وأن هذه الفرق كانت ثلاث ، واستنتج ذلك من دليل ساقه رايموندوس (ص ٦٤٧) ، الذي لم يكن حاضراً المعركة . ولكن المعروف من مصادر أفضل أن بوهمند كان يقود الاحتياط . واعترف هيرمان بأن ما سجله رايموندوس غير موثوق ولكنه كان مضطراً لقبول ما سجله حول هذه النقطة . وعزز استنتاجه من دليل آخر ضعيف ساقه تودبود Tudebod الذي يعتبر مصدراً أقل ثقة من رايموندوس .

يقول هيرمان في النصوص ذاتها أن الفرنجة لم يتخذوا تشكيلتهم على خط قتال وإنما كانت الفرقة الأولى أقرب إلى العدو وكانت الفرقة الاحتياط أبعد عنه من الفرقة المتوسطة . ولم يكن في مقدورهم على كل حال أن يتخذوا ترتيبهم بعضهم وراء بعض مباشرة لأنه كان من الضروري لهم شغل السهل الفسيح بين النهر والبحيرة بعرضه الكامل . وبالتالي فإن التشكيلة كانت على نسق . أنظر هيرمان ص ٣٠ رقم ٣ ، ص ١١٢ ، ١١٤ .

إن تفكيراً من هذا القبيل مكن هيرمان من استنتاج ذلك الترتيب في ثلاث فرق عن دوريليوم . وحججه الواهية هذه موجودة في كتابه Gefechtsfuhrung ص ١٣ رقم ٣ .

إن طريقة هيرمان في بحثه بعيدة عن النقد ولا شك ، ولكنه في استنتاجاته كان ضعيفاً إزاء الحجج المرتكزة إلى مصادر أكثر ثقة وإلى المنطق . أنظر كوهلر ، ٣ ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، ودلبروك ، ٣ ، ص ٤٢١ — ٢ .

بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية أوقعوا أنفسهم في التطويق داخل المدينة التي حاصرها جيش كربوقا. وفي ٢٨ حزيران (يونيو) من العام ١٠٩٨ غامر الفرنج بكل شيء في هجوم مباغت ضد المحاصرين وخاضوا معركة معهم[١]. وكانت خطتهم محددة بضرورة مغادرة كل القوة المقاتلة من بوابة واحدة، فاصطفوا في ميدان القتال برتل واحد بينما كانت الكتلة الرئيسية لقوات المسلمين تنتظرهم على جانبهم الأيمن. وتعرضوا خلال انتشارهم هذا لهجوم المسلمين، ولكن كربوقا ـــ طبقاً للآراء المعاصرة ـــ كان عازماً على ترك القوة بكاملها تغادر المدينة بحيث يتمكن من تحقيق نصره كاملاً[٢].

انتظم الفرنجة في أربع فرق كل منها مؤلفة من كردوسين يضم كل منهما خيالة ومشاة وكان المشاة مرتبين في صفوف أمام الفرسان بحيث وقفوا حائلاً بين الفرسان والعدو[٣]. ولأول مرة في ميادين القتال في سورية اتخذ المشاة مواضعهم القتالية المناسبة والتي أضحت طبيعية لهم طوال القرن[٤]. وكان بوهمند هو القائد مرة أخرى وربما كان واضعاً خطة العَملية[٥]، وكان يقود الفرقة الرابعة والأخيرة التي يفترض أنها احتياط الفرق الثلاث الأولى التي كانت تشكل الخط الرئيسي للمعركة[٦]. ما إن

---

١) هذه المصادر هي نفسها التي ذكرت في المعركة السابقة. وكان رايموندوس شاهد عيان (ص ٢٥٩ ـــ ٦١)، أما الكاتب المجهول (ص ١٥٠ ـــ ٦) وغيره فقد اعتمد على أقوال شهود العيان مثل رادولفوس كادومنسيس ص ٦٦٦ ـــ ٨، وألبرتوس آغينوس ص ٤٢١ ـــ ٨، أنظر كذلك ابن الأثير ص ١٩٤ ـــ ٦، وكمال الدين ص ٣٨٢ ـــ ٥، وماثيو الرهاوي ص ٤٢ ـــ ٣، ودلبيش، ٢، ص ١٥٥ ـــ ٦١؛ وهيرمان ص ٣٣ ـــ ٤٩ الخ ...

٢) الكاتب المجهول ص ١٥٢، رايموندس ص ٢٦٠، هيرمان ص ٤٦.

٣) رايموندوس ص ٢٥٩

٤) أنظر فيما يلي ص ٢٨٩ ـــ ٢٩١.

٥) رايموندوس ص ٢٥٨.

٦) رايموندوس ص ٢٥٩، مرة أخرى تخلى هيرمان عن منهجه ليصور كل تشكيلات القتال في نموذج واحد هو النسق الواحد لثلاث فرق الذي اعتبره أمراً طبيعياً والصحيح أنه كانت هنالك عدة فرق ولكن هيرمان كان راغباً في التعامي عن هذه الحقيقة في تعميمه معتبراً أن الفرقة الرابعة كانت احتياطاً بقيادة بوهمند.

اجتازت الفرقة الأولى بوابة المدينة وعبرت نهر العاصي حتى توجب عليها أن تبدل ترتيبها وتواجه العدو على خط، وأن تسير صعوداً مع التيار محاذية ضفة النهر من جانبها الأيمن. أما الفرقة الثانية فسارت متجاوزة مؤخرة الفرقة الأولى، وانعطفت لتواجه العدو عندما أصبحت في وضع يمكنها من التقدم على خط واحد مع الفرقة الأولى وعلى جانبها الأيسر. وفعلت الفرقة الثالثة مثل سابقتها واتخذت ترتيبها على خط الجانب الأيسر للفرقة الثانية[1]. وقد ضمنت الخطة أن تبدل كل فرقة تشكيلها من الرتل الى خط القتال بمجرد مغادرتها المدينة وفي أول لحظة ممكنة بحيث تواجه العدو جاهزة للهجوم، وتغطي بذلك انتشار الرتل الذي يليها عندما يخرج من البوابة.

كرر بوهمند اجراءاته الوقائية ضد التطويق في هذه المعركة مؤمناً حماية الجوانب بالموانع الطبيعية، وكانت لديه خطط جاهزة لمجابهة أية مفرزة سلجوقية قد تهاجم مؤخرة اللاتين. وكانت ثمة أرض مرتفعة على بعد نحو ميلين أمام الفرنجة غب مغادرتهم المدينة[2]. فأعطيت الأوامر الى مقدمة الفرقة الثالثة بالوصول الى ذلك المرتفع قبل أن تدور بتشكيلة الخط، وبعد أن قامت بذلك أصبح جناح الفرنجة الأيسر محمياً بينما كان جناحهم الأيمن مستنداً الى النهر. وكان بوهمند بالذات يراقب المؤخرة[3].

تطورت المعركة طبقاً لخطة بوهمند تقريباً، فقاوم السلاجقة محاولات الفرقة الثالثة التي كان يقودها أسقف باي Puy، والتي كانت تهدف للوصل إلى المرتفع. وكان في مقدورهم إرسال مفرزة تعترض مقدمة رتل اللاتين. وعندما استدار الفرنجة على خط لمواجهة الجيش الرئيسي لكربوقا أصبحت المفرزة السلجوقية في مؤخرتهم، فأمرت مجموعة من الصليبيين بمواجهة هجوم هذه المفرزة، وبرهن المشاة Pedites عن

---

١) تقدم المصادر تفصيلات أكثر دقة فيما يتعلق بهذه المعركة أكثر من أية معركة أخرى دارت رحاها في سورية اللاتينية خلال القرن الثاني عشر. وهي أيضاً موضوع أجمل فقرة كتبها هيرمان في بحثه وما ذكر أعلاه مأخوذ عنه بكل دقائقه.

٢) رايموندوس ص ٢٦٠.

٣) رايموندوس ص ٢٥٩، هيرمان ص ٤١.

قدرتهم الجيدة على الدفاع عن أنفسهم في هذه المواجهة[1]، وتحت حماية مؤخرتهم على هذا النحو ، بينما أصبح في مقدور الفرق الثلاث المتقدمة من قوات الصليبيين شن الهجوم على نسق[2]. أما السلاجقة الذين انهارت معنوياتهم بسبب فرار الكثير من التركمانية، والشجار الذي شجب بين قادتهم[3] فبادروا الى الانسحاب دون مقاومة تذكر في وجه الهجوم اللاتيني[4].

بعد استيلاء الفرنجة على بيت المقدس مباشرة اضطر هؤلاء الى مواجهة هجوم معاكس شنه الفاطميون بقوى الجيش المصري، وفي الثاني عشر من شهر آب (أغسطس) العام ١٠٩٩ التقى الجيشان قرب عسقلان[5]. ولقد سبقت الإشارة الى أن الخيالة العرب والبربر في الجيش المصري لم يكونوا يقاتلون بالطريقة ذاتها التي يتبعها الترك. وكان تفوقهم العددي يمكنهم أحياناً من الالتفاف على جناحي الفرنجة، ولكنهم لم يكونوا يشكلون جيشاً من النشابين الخيالة، وكان سلاحهم الرئيسي الرمح والسيف. ولم يكونوا يستخدمون التفرق أسلوباً تكتيكياً رئيسياً، فكانوا يشكلون بالتالي هدفاً صلباً أمام الهجوم اللاتيني[6]. وكان ذلك هو العامل الحاسم في عسقلان. إلا أن المعركة لم تخضع لإعادة بناء تفصيلية. والحقائق المؤكدة الوحيدة هي أن الفرنجة تبنوا أثناء تقربهم من المسلمين ترتيب مسير منظم جيداً أمن لهم

---

١) رايموندوس ص ٢٦٠ ،

٢) هيرمان ص ٤١ — ٢ ، وفقرات من ص ٤٢ و ٤٣ .

٣) كمال الدين ص ٥٨٢ — ٣ .

٤) رايموندوس ص ٢٦١ ، الكاتب المجهول ص ١٥٦ .

٥) الكاتب المجهول ص ٢٠٨ — ١٨ ، رايموندوس ص ٣٠٣ — ٥ ، فولتشر ص ٣٦٢ — ٣ ، رودولفوس كادومنسيس ص ٧٠٣ ، ألبرتوس آكوينسيس ص ٤٩٠ ، وليم الصوري ص ٣٨٠ — ٢ . دلبروك ، ٣ ، ص ٤٢٤ — ٤٤ ، كوهلر ، ج ٣ ، ص ١٧٥ — ١٧٩ ، أومان ص ٢٨٨ — ٩١ ، غروسيت ص ١٧٥ — ١٧٦ ، رانسيمان ١ ص ٢٩٦ — ٧ .

٦) أنظر أعلاه ص ١٤٥ .

دفاعاً دائرياً تاماً[1]، وأنهم رتبوا المشاة أمام جبهة الفرسان، وشنت كراديس الفرسان هجومها الحاسم بالتتابع بعد أن اشتبكت مشاتهم مع العدو بقسيها[2]. وقد ضمن الهجوم لوحده انتصار اللاتين. وتتفق أفضل المصادر على أن المعركة كانت قصيرة الأمد.

لم ينجم عن الهجمات المعاكسة اللاحقة التي شنها الجيش الفاطمي من عسقلان في السنوات التي تلت أكثر من نشوب معارك من نوع مماثل، كان أولها معركة قرب الرملة في السابع من شهر أيلول (سبتمبر) العام ١١٠١[3]. ورغم أبحاث هيرمان يمكن القول إننا لا نعرف شيئاً عن التشكيلة التي تم تبنيها من جانب الفرنجة قبل المعركة[4]. ويقول فلتشر الذي كان حاضراً، والذي تعد سجلاته مصدر

---

١) رايموندوس آغيليس ص ٣٠٣ . من حيث الدليل المناقض لما جاء به الكاتب المجهول ص ٢١٢ ، الذي كان أفضل مصدر للمعركة ، ويقول كوهلر في المجلد الثالث ج ٣ ص ١٧٧ أن تشكيلة المسير كانت تشكيلة قتال أيضاً وهذا لا يعدو كونه إفتراضاً .

٢) الكاتب المجهول ص ٢١٤ ، هيرمان ص ٥٤ ، تقدم إعادة تركيب هذه المعركة التي بحثها هيرمان عرضاً مثيراً لطريقته كمؤرخ عسكري ، وبمعنى ما كتبه فلتشر الذي كان في الرها عندما جرت المعركة واعتبره مصدره الرئيسي . أما الكاتب المجهول والذي يرجح أنه كان حاضراً المعركة فاعتبره أقل أهمية . ومن أقوال فلتشر استنبط هيرمان (ص ٥٢ ــ ٤) أن الفرنجة كانوا في ثلاث فرق مرتبة على نسق ويقود غودوفروا آخرها . ورجع هيرمان بعدئذ إلى الكاتب المجهول ليسوق الدليل على أن غودفروا كان يقود الجناح الأيسر من قوات اللاتين ويقود رايموند الجناح الأيمن ، وأن الأمراء الآخرين كانوا في الوسط . ولكن الحجج ليست مقنعة .

٣) فلتشر ص ٣٩١ ــ ٥ ، ألبرتوس آكينسيس ص ٥٤٩ ــ ٥٣ ، وليم الصوري ص ٤٢٤ ــ ٧ ، هيرمان ٣٨ ــ ٦٣ ، كوهلر ، ٣ ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ــ ٢ ، أومان ، ١ ، ص ٢٩٢ ــ ٤ ، دلبروك ٣ ، ص ٤٢٥ ، رهريخت ص ٢٥ ــ ٧ ، غروسيه ١ ص ٢٢٥ ــ ٨ رانسيمان ٢ ، ص ٧٤ ــ ٥ .

٤) يدعي هيرمان مرة أخرى أن الفرنجة كانوا مقسمين إلى ثلاث فرق هاجمت على نسق واحد . وبمقارنة حججه مع جملتين كتبهما فلتشر واعتمدهما هو نستنتج مدى ضعف حججه . بينما يقول كوهلر أنها كانت خمسة كراديس على خط واحد وكردوس واحد في الاحتياط ، وما ذلك إلا افتراض أيضاً ، وما من وسيلة تمكننا من تحديد أي من هاتين التشكيلتين المختلفتين هي الأدق ، أنظر الملاحظة التالية .

المعلومات الموثوق الوحيد، أن قوة اللاتين كانت تتألف من ٢٠٦ راكباً و ٩٠٠ جندي مشاة، وكانت مقسمة الى ستة صفوف acies، وأن هؤلاء زجوا بأنفسهم ــ كما يقول ــ في وسط العدو. لم تهاجم الكراديس في آن واحد[1] لأن اثنين منها كانا يقاتلان أمام الباقين.

وعندما تشتتت هاتان الوحدتان أمام المقاومة الضارية التي أبداها المسلمون جاء الملك مع قسم من القوة «apart postrema» ليعدل الموقف ويربح المعركة. وهنا وجد قسم من القوة المصرية طريقاً قاده الى مؤخرة التشكيلة اللاتينية حيث هاجم المشاة الصليبية ودمر القسم الأعظم منهم. واعتقدت هذه الثلة من المسلمين أن المعركة دارت في صالحهم في جميع نقاطها فساقت خيولها قاصدة يافا، وعندما عادت في اليوم التالي للانضمام الى القوة الرئيسية اصطدمت ــ واقع الأمر ــ بقوة بلدوين المنتصرة وأذهلتها المفاجأة فتفرقت. ولم يعرف عن الطرائق العسكرية التي طبقت في هذه المعركة ــ بالتالي ــ أكثر من أن الفرنجة حققوا نجاحهم ذلك اليوم نتيجة الجهود التي بذلها فرسانهم. وأن جموع المسلمين امتصت هجوم الكراديس الأمامية ولكنها لم تستطع الصمود أمام الهجوم الداعم الذي قاده الملك.

على كل حال، لم يكن بإمكان الفرنجة تحقيق أي نصر لهم بهجوم واحد مباغت ــ ولو ضد المصريين ــ لولا اعتمادهم خطة عمل ذكية. فعند التصدي لهجوم شنه الفاطميون في العام ١١٠٢، بادر بلدوين الى الهجوم، وهو شديد الاعتداد بنفسه، قبل أن تتجمع كل قواته وفي غياب جند المشاة ودون أن يحاول

---

١) فسر كوهلر (٣ ، ج ٣ ص ١٨٠) قول فلتشر بمعنى أن قوة اللاتين كانت مؤلفة من خمسة كراديس على خط واحد وكردوس آخر يقوده الملك في الاحتياط . وحجته الوحيدة التي تؤيد ما ذهب إليه هي أن التشكيلة من هذا النوع هي التي كان يتبناها الفرنجة لتغطية جبهة واسعة وتجنب التفاف العدو عليها . وهذا افتراض غير مؤيد بشاهد ، وقد استخدم كوهلر استنتاجاته هنا ، وهذه توضح صفة أخرى من صفات المؤرخين العسكريين : تحويل الافتراضات إلى حقيقة مقبولة . وعند تلخيص نتائج بحثه استخدم كوهلر حقيقة افتراضية بأن كراديس اللاتين كانت على خط الرملة كجزء من حججه العامة . مجلد ٣ ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ــ ٥ .

ترتيب قوته الصغيرة بتشكيلة القتال[1]. فكانت النتيجة وبالاً عليه إذ أبيد جيشه وولى هو ناجياً بنفسه من ميدان القتال لا يلوي على شيء.

كان الحظ حليف الملك أكثر من أتباعه فالتجأ الى أرسوف ومنها الى يافا. وهناك تلقى تعزيزات من الجليل والقدس وأصبح في استطاعته مغادرة ملاذه في المدينة وتحدي المصريين في معركة، حائلاً بذلك دون اتمامهم استعداداتهم لمحاصرته فيها. وقد أورد فلتشر أفضل تسجيل عن ذلك الاشتباك الذي حدث آنئذ، ولكنه ذكر ذلك بعبارات عامة لا تمكن من إعادة تركيب المعركة بالتفصيل[2]. ونظراً لتفوق المسلمين العددي فقد أُحيط بالفرنجة وشُدِّد الضغط على الجند المشاة. وكان معظمهم يرتدون ثياباً واقية مناسبة ويتسلحون بالقوس والنشاب، لذا لم يكن باستطاعتهم الصمود في وجه رماة المسلمين فحسب بل والرد عليهم بالرمي أيضاً[3]. وبفضل تلك القدرة الدفاعية التي كانت تبديها كتل الفرنجة الراجلة المسلحة في تشكيلة متراصة، وبفضل التخفيف الذي كانت تؤمنه هجمات الفرسان الصليبيين، حافظ الجنود المشاة على تراصهم. وعندما تمكن الفرسان من اقتحام معسكر الفاطميين ولى هؤلاء الأدبار لا يلوون على شيء[4].

١) أنظر أعلاه ص ١٩٦ وبالنسبة للمعركتين اللتين خاضهما بلدوين ضد الجيش الفاطمي في العام ١١٠٢ أنظر فلتشر ص ٤٠٠ ــ ٠٥. ولكنه لم يكن شاهد عيان في أي منهما وإنما كان في القدس آنئذ. أنظر كذلك ألبرتوس أكينسيس ص ٥٩٢ ــ ٧، ووليم الصوري ص ٤٢٩ ــ ٣٥، دلبش ٢٩٥، دلبروك ٣، ص ٤٢٥ ــ ٦، غروسيه ١، ص ٢٢٩ ــ ٣٦، رانسيمان ٢، ص ٧٦ ــ ٨٠.

٢) فلتشر ص ٤٠٤ ــ ٥.

٣) فلتشر ص ٤٠٥.

٤) فلتشر ص ٤٠٥، وجد دلبش (٢، ص ١٩١ ــ ٣) في هذه المعركة نقطة انعطاف في تاريخ مشاة العصور الوسطى. (لاحظ تقسيمه للقرن إلى فترات تطور تكتيكي، م ٢، ص ١٨٥ ــ ٧). وقد اعتبر أن القتال عند يافا نقطة انطلاق في تطوير التركيب التكتيكي للخيال وجندي المشاة وفيه اتخذ الفرسان وضعيتهم داخل دائرة المشاة لا يغادرونها إلا للهجوم، وعندما ينفذ الهجوم يعودون إلى معتصمهم هذا. والواقع أنه لا يوجد دليل على مثل هذا التكتيك، الذي يتطلب مستويات تدريب عالية وسيطرة جيدة، يثبت أن الفرنجة طبقوه خلال القرن الثاني عشر.

كذلك لا يعرف سوى القليل عن تفاصيل دحر الجيش الذي أرسل من مصر في العام ١١٠٥[1] فقد لاقى بلدوين ذلك الجيش في مقاطعة الرملة وقسم جيشه الى كراديس مؤلفة من فرسان ومشاة بالطريقة المعتادة. وأحيط بالفرنجة مرة أخرى من جانب واحد، ومن المحتمل أن يكون ذلك بسبب تفوق المسلمين العددي، ولكن المؤكد أنهم تلقوا العون من فرقة من السلاجقة أرسلها طغتكين أتابك دمشق[2]. ويبدو أن الفرنجة يدينون بنصرهم هنا الى فاعلية بلدوين ونشاطه. فهزم القوة السورية أولاً عندما أصبحت تشكل خطراً جدياً على مؤخرته، ثم ارتد الى أرض المعركة الرئيسية ليقود الهجوم الحاسم الذي أدى الى اندحار المصريين[3].

في تلك الأثناء كان الفرنجة في شمالي سورية مشتبكين مع القوات السلجوقية. ولا تقدم التسجيلات المتبقية عن الهزيمة النكراء التي لحقت بهم في حران العام ١١٠٤[4]، وانتصار تنكريد على رضوان صاحب حلب في أرتاح في العام ١١٠٥ إلا

---

١) فلتشر ص ٤١١ ــ ١٤ وكان في القدس إبان المعركة ؛ ألبرتوس أكينسيس ص ٦٢١ ــ ٣ ؛ وليم الصوري ص ٤٥٤ ــ ٦ ؛ دلبش ٢ ، ص ١٩٣ ــ ٥ ؛ هيرمان ص ٧٢ ــ ٦ ؛ كوهلر ٣ ، ج ٣ ص ١٨٤ ــ ٦ ؛ دلبروك ٣ ، ص ٦٢٤ ؛ غروسيه ١ ص ٢٤٢ ــ ؛ رانسيمان ٢ ص ٨٩ ــ ٩٠ .

٢) فلتشر ص ٤١٣ ، ابن القلانسي ص ٧١ .

٣) فلتشر ص ٤١٤ ، وجد هيرمان مرة أخرى أن اللاتين اتخذوا ترتيب قتالهم للمعركة في ثلاث فرق على نسق واحد . وتعليله لذلك خاضع للاعتبارات ذاتها التي سبق ذكرها وهي مهارة تقنية في حد ذاتها إلا أنه فشل في تجاوز اختبار الحكم السليم على الأشياء . ويستطيع أي قارىء لما كتبه هيرمان أن يرى ذلك بنفسه . وهو يعترف بأن برهانه على ذلك غير مؤكد ، ومع ذلك نجده يضيف في الصفحة ١١٤ دليل هذه المعركة إلى لائحة أمثلته التي ساقها لتأييد نظريته . استنتج كوهلر (م ٣ ، ج ٣ ، ١٨٦) بدون أي دليل ، مهما قل شأنه ، أن الخيالة اللاتين أمنوا حماية تشكيلتهم بأن أحاطوها بالمشاة .

٤) لا يعرف شيء تقريباً عن مجرى هذه المعركة الهامة التي أمحت بسطر واحد أعمال الفتح التي حققها بوهمند وتنكريد في السنوات الخمس الماضية وأنهت إلى الأبد التوسع الفرنجي باتجاه نهر الفرات . أنظر رايموندوس ص ٧١٠ ــ ١١ ، فلتشر ص ٤٠٨ ــ ٩ ، ألبرتوس ص ٦١٤ ــ ١٦ وليم الصوري ص ٤٤٣ ــ ٧ . ماثيو الرهاوي ص ٧١ ــ ٢ ، ابن الأثير ٢٢٠ ــ ٢ ، ابن القلانسي ص ٦٠ ــ ١ ، هيرمان ، ص ١٩ ــ ٧٢ ، أومان ١ ، ص ٣٢٠ ــ ٤ ، غروسيه ١ ، ص ٤٠٥ ــ ٦ . كاهن ص ٢٣٧ ــ ٨ ، رانسيمان ٢ ، ص ٤١ ــ ٤ .

معلومات ضئيلة عن الطرائق التكتيكية التي طبقت في هذه الفترة. ولكن مستشار الأمير روجر استطاع أن يسجل ثلاث معارك ـــ كان هو شاهد عيان في اثنتين منها ـــ عندما غزا برسق بن برسق أراضي أنطاكية في العام ١١١٥، وعندما غزاها أيضاً إيلغازي بن أرتق في العام ١١١٩.

سبق وأشير الى الظروف التي هزم فيها روجر أمير أنطاكية جيش برسق قرب سرمين بمساعدة بلدوين كونت الرها[1]. إذ فاجأ روجر خصمه مفاجأة تامة، وكانت تلك سبب انتصاره السهل هذا. وقد استطاع هيرمان ببراعة أن يعيد تركيب تشكيلة الفرنجة القتالية التي دخلوا بها المعركة بالاستناد الى ما سجله والتر، وكان هؤلاء بقيادة الأمير روجر نفسه، بينما منح كونت الرها شرف الشروع بالهجوم حين قاد الجناح الأيسر الى القتال، فانطلقت هذه الفرقة متقدمة خط الوسط. إلا أن الجناح الأيمن ظل أبعد الجميع، لأنه تعرض لهجوم شنته جماعة مؤلفة من ثلاثمائة فارس سلجوقي، تمكنوا من تجاوز مواقع القوة الرئيسية «Post aciem principis». وبالتالي بلغت الفرق الثلاث، التي كانت تؤلف الجيش الصليبي، مواقع المسلمين وهي على نسق واحد (بفرجة مع مسافة نحو اليسار، م. م) بحيث كان الجناح الأيسر متقدماً والجناح الأيمن متأخراً[2]. وما إن بدأ القتال الذي لم يدم طويلاً حتى ظهرت بوادر النجاح. إذ حطم جناح الفرنجة الأيسر قوة السلاجقة الرئيسية فانسحب هؤلاء الى أرض مرتفعة تقع خلف معسكرهم بينما احتل روجر المعسكر بالذات. ولم يصادف

---

١) رادولفوس كادومنسيس ص ٧١٤ ـــ ١٥، فلتشر ص ١١٤، ألبرتوس آكينسيس ص ٦٢٠ ـــ ١، وليم الصوري ص ٤٥٣، ابن القلانسي ص ٦٩ ـــ ٧٠، ابن الأثير ص ٢٢٧ ـــ ٨، كمال الدين ص ٥٩٣. غروسيه ص ٤٢٠ ـــ ١. كاهن «سورية الشمالية» ص ٢٤٢، رانسيمان ٢، ص ٥٢، وقد علل رايموندوس انتصار تنكريد بفضل مهارته في استخدام الأرض.

٢) أنظر أعلاه ص ٢٢١، غالتريوس ص ٧٢ ـــ ٦، فلتشر ص ٤٣٠، ألبرتوس ص ٧٠٢، ماثيو الرهاوي ص ١١٥ ـــ ٦ وليم الصوري ص ٤٩٧ ـــ ٨، كمال الدين ص ٦٠٩، ابن الأثير ص ٢٩٧ ـــ ٨. هيرمان ص ٧٨ ـــ ٨٣، كوهلر ٣، ج ٣ ص ١٨٧ ـــ ٩٠، غروسيه ص ٥٠٦ ـــ. كاهن ص ٢٧٤، رانسيمان ص١٣٢ ـــ ٣.

الفرنجة متاعب سوى على الجناح الأيمن عندما تقهقر التركبول، الذين كان يستخدمهم الفرنجة نشابين على ظهور الخيل على الأغلب، أمام أول هجوم معاكس شنه المسلمون وطاردهم هؤلاء حتى مواقع الفرسان الذين كانوا خلفهم. وهنا حدثت بلبلة في صفوف الصليبيين لم تدم طويلاً، إذ استطاعوا بفضل جلدهم على القتال تصحيح الوضع بسرعة بينما أمن لهم جناحهم الكاسح في الوسط وعلى الجنب الأيسر انتصارهم الحاسم[1] .

بعد سنوات أربع من ذلك التاريخ، أي في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) العام ١١١٩، فقد روجر جيشه وحياته في معركة كانت بمثابة كارثة للفرنج ،وأطلق الكتّاب اللاتين على موقعها اسم «ساحة الدم»[2] Ager sanguinis . لم يقع روجر ضحية المفاجأة فحسب وإنما سمح لنفسه أن يقع في فخ داخل واد ذي منحدرات مشجرة غابية شديدة الانحدار[3]، حيث باغته إيلغازي مع رجاله من السلاجقة، وانقض عليه من جميع جوانب الوادي الذي نفذ إليه على جناح السرعة، مستخدماً الممرات القليلة المؤدية إليه. ولم يتح لروجر من الوقت سوى القليل لينظم قواته، وكان بصحبته سبعماية فارس وثلاثة آلاف راجل. أرسل روجر مفرزة بقيادة رينو مانسوير Renaud Mansoer لمجابهة قوة مسلمة كانت تتحرك باتجاه مؤخرته بينما رتب ما بقي من رجاله في خمسة كراديس (سرايا) وتعاون الخيالة والجند المشاة على تأمين الحماية المتبادلة، إلا أن موقع المشاة كان أقرب الى المسلمين من الخيالة لأنهم هم الذين بادروا القتال «Ut mos bellantium exigit» بالدخول في مبارزة مع رماة النبل السلاجقة وتبادلوا معهم الرماية[4] .

---

١) هيرمان ص ٨٠ ــ ٨١ ومرجعه هنا غالتريوس ص ٧٤ ــ ٥ .

٢) أنظر أعلاه ص ٦٣، والتر ص ٨٦ ــ ١٠ ، فلتشر ص ٤٤٢ ، وليم الصوري ص ٥٢٣ ــ ٦ ، ماثيو الرهاوي ص ١٢٢ ــ ٣ ، ابن القلانسي ص ١٦٠ ، ابن الأثير ص ٣٢٤ ، كمال الدين ص ٦١٧ ــ ٨ ، دلبش ٢ ، ص ١٨٢ ــ ٤ ، هيرمان ص ٨٣ ــ ٩ ، كوهلر ٣ ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ــ ٤ ، دلبروك ، ٣ ، ص ٤٢٦ ، غروسيه ١ ، ص ٥٥٢ ــ ٨ ، كاهن ص ٢٨٥ ــ ٦ ، رانسيمان ٢ ، ص ١٤٨ ــ ٥١ .

٣) ابن الأثير وكمال الدين وكلاهما يؤكد على عنصر المفاجأة .

٤) والتر ص ٨٧ .

كانت تشكيلة قتال القوة الفرنجية الرئيسية، كما وصفها والتر، على شكل الرقم «٧» بحيث كانت نقطة الذروة فيها هي الأبعد عن العدو. وأول من دخل القتال الكردوسان الموجودان على أقصى اليمين ــ قوة المبجل بطرس acies beati Petri ــ وعلى أقصى اليسار ــ بقيادة روبر دوسان لو Robret de st.lo ــ ودعمت الأول منهما فرقة الراهب جيوفري Geoffrey the Monk بينما دعمت الثاني فرقة الأمير روجر نفسه Prince Roger، ولم تكن فرقتا الخط الثاني هاتان مصطفتين خلف الخط الأول مباشرة بل مجانبتين له بفرجة مع مسافة، لأن جوفري لم يقد رجاله الى الهجوم بعد أن اشتبك الجناح الأيمن من قوة المبجل بطرس في القتال، وإنما قادهم ضد قسم آخر من قوة المسلمين. وعندما دُحر فرسان التركبول التابعون لروبير دوسان لو على الجناح الأيسر ــ كما فعل سابقوهم عند سرمين قبل أربع سنوات ــ تسببوا في احداث البلبلة في قسم من كردوس روبير، وفي هذه الأثناء شن الكردوس الخامس والأخير بقيادة غي فرينيل Guy Frenelle هجومه إثر هجوم جوفري واصطدم بقسم آخر أيضاً من قوات المسلمين. حقق هذا الهجوم المتتابع الثلاثي على الجناح الأيمن نجاحاً لابأس به، فتمكن الكردوس الأمامي الأيمن وكردوس جوفري كلاهما من التغلب على من في مواجهتهم مباشرة. أما غي فصادف صعوبات أكبر، وقبل أن يتمكن من التغلب عليها كان مصير المعركة كله قد تقرر على الجناح الأيسر. إذ أشاع التركبول من قوة «روبير دوسان لو» الفوضى في صفوف قوة الأمير روجر الى درجة فقد معها زعماء الفرنجة القدرة على السيطرة على قواتهم، وزاد في ارتباكهم هبوب ريح قوية من جهة الشمال حملت معها سحباً من الغبار غطت وجوه المقاتلين. وكان المسلمون سريعين الى استثمار أي فوضى أو انهيار للروح المعنوية في صفوف أعدائهم. فلم يتلكؤوا في ذلك هنا أيضاً، ووسعوا هجومهم الى جوانب قوة روجر ومؤخرتها الى أن سقط معسكر الصليبيين وأبيد معظم الجيش الفرنجي أو وقع أفراده في الأسر لقلة المنافذ المتوفرة للهرب، وكان روجر نفسه بين القتلى[1]. لقد حدثت هذه الهزيمة النكراء أولاً،

١) غالتريوس ص ١٠٢ ــ ٥، فلتشر ص ٤٤٣، وليم الصوري ص ٥٢٩ ــ ٣٠، ماثيو الرهاوي ص١٢٤، كمال الدين ص ٦٢٠ ــ ١، دلبش ٢ ص ٤٢٦، غروسيه ١ ص ٥٦٧ ــ ٧٠، كاهن ص ٢٨٩، رانسيمان ٢ ص ١٥٣ ــ د.

بسبب عدم مراعاة روجر قواعد الحذر، التي كان أمراء اللاتين يطبقونها عند مواجهة الغزو. وثانياً بسبب المفاجأة التكتيكية التي حققها إيلغازي صبيحة المعركة.

تعرض تقدم إيلغازي المظفر للخطر بوصول الملك بلدوين والكونت بونز صاحب طرابلس الى أمارة أنطاكية. وانطلق هذان من انطاكية في محاولة لرفع الحصار عن حصن زردنة. وعندما عسكرا عند تل دانث بلغتهما الأنباء بأن الحصن وقع في يد إيلغازي، فقرر الملك الانسحاب الى «هاب». وتوقع أن يجابه إيلغازي هناك. وما إن بدأ المسير في فجر الرابع عشر من آب (أغسطس) العام ١١١٩ حتى شن السلاجقة أول هجوم لهم. وصف والتر المستشار الترتيب الذي اصطفت بموجبه كراديس اللاتين[1] بتفاصيل أكثر بكثير من الكتابات التي اعتاد معاصروه تسجيلها. ففي تسجيله هذا تبدو الصفات التكتيكية التقليدية التي تميز بها السلاجقة في خوض القتال واضحة تماماً وهي: الهجوم من جميع الجهات، استخدام النبالة والقذائف في بداية نشوب المعركة، الهجوم المتعاقب بالالتحام في محاولة لحسم المعركة بالقوة[2].

كان لدى الفرنجة ثلاثة كراديس من الفرسان في المقدمة وكانت تقف خلفهم جموع المشاة بكاملها. اتخذ بونز كونت طرابلس موقعه مع فرقته على الجناح الأيمن

---

١) غالتريوس ص ١٣ . أنظر كذلك الفقرة التالية . وهذه الفقرة المأخوذة عن والتر هي أوضح وصف لترتيب القتال يقدمه كاتب لاتيني في سورية في القرن الثاني عشر . ويعالج المؤرخون العسكريون الحديثون مثل هذه النصوص على أنها تقرير واقعي دقيق . ومن الملاحظ أن كل من استخدم ما كتبه والتر عن معركة هاب قدم صورة مغايرة عن تشكيلة اللاتين القتالية . أنظر خطة هيرمان ص ٩١ وخطة أومان (١ ، مقابل ص ٢٩٠) . وقد اعتبر كوهلر (٣ ، جزء ٣ ص ١٩٧ ـــ ٨ ، ٢٠١) ، دون أن يكون لديه سبب مقنع ، أن الكراديس الثلاثة الأمامية من فرسان الفرنجة كانت حرس مقدمة ، وأنها انسحبت إلى الخلف في مرحلة مبكرة من المعركة . ووافق دلبروك (٣ ، ص ٤٢٦) عموماً على ما توصل إليه هيرمان ولكنه برر ذلك بأن الكراديس لم تتحرك على خط وإنما بالرتل . وليس من سبيل إلى الحكم بين هذه التفسيرات المختلفة . ولكن طالما أن الفرنجة كانوا في حالة مسير عند قرية « هاب » فإن المؤلف ـــ بعد تجوله على الأرض ـــ تأثر بمبررات هيرمان أكثر من حجج أومان .

٢) غالتريوس ص١٠٣ .

وتمركز روبرت فولكوي Robert Fulcoy مع قوته من فرسان أنطاكية على الجناح الأيسر بينما وضعت الكراديس الأخرى التي بعثت بها أنطاكية قرب المؤخرة. واتخذ الملك لنفسه مع أتباعه موقعاً يستطيع منه تقديم العون لأي قسم من ترتيب القتال في الميدان. والحقيقة أنه أراد من تشكيلته هذه أن يبقى ذلك النهار بأكمله في صالح الفرنجة. شن السلاجقة هجومهم الأول ضد مشاة اللاتين الذي أبدوا مقاومة جماعية شديدة فترة من الوقت كما هو متوقع منهم، بيد أن كراديس الفرسان الثلاثة المتقدمة التي كانت تغطي المشاة خلفها، وتحتمي بهم في الوقت ذاته، ما لبثت أن تشتتت تحت وطء هجوم المسلمين وتكبد المشاة خسائر فادحة بعد أن حرموا من القوة الداعمة لهم. كذلك اختفت الحراسة الجانبية عندما دمرت الفرقة التي كانت بقيادة بونز وفقدت قدرتها القتالية، وولى معظم فرسانها الأدبار هاربين، ناشرين الأنباء حول هزيمة اللاتين في هاب وأنطاكية وحتى في طرابلس، بينما التحق قسم ضئيل منهم مع بونز بالقوة التي يقودها الملك وتابع القتال هناك. أما على اليسار فتمكن روبرت فولكوي من دحر القوات الموجودة أمامه مباشرة، ولكنه لم يرتد بعد المطاردة الى ميدان المعركة وإنما توجه من هناك الى قلعة زردنة التي كانت قد سقطت مؤخراً في أيدي السلاجقة[1]. ولم ينقذ الصليبيين من مصيرهم سوى مهارة الملك بلدوين وفاعليته في قيادة التعزيزات وتوجيهه لها حيث تدعو الضرورة، فكان يجابه الهجمات في مقدمة صفوف اللاتين وفي مؤخرتهم حتى تمكن بعد لأي وبجهوده الفردية من إكراه المسلمين على تركه وشأنه ومغادرة أرض المعركة.

لا يعرف إلا القليل جداً عن معركتين أخريين خاضهما بلدوين، أولاهما عند إعزاز في الثالث عشر من حزيران (يونيو) العام ١١٢٥[2]، والثانية عند مرج الصفّر

١) تعتمد هذه الفقرة على ما سجله والتر ص ١٠٣ — ٤ . ولكن حادثة روبرت فولكوي وردت في مذكرات كمال الدين عن حلب ص ٦٢١ .

٢) فلتشر ص ٤٧١ — ٢ ، وليم الصوري ص ٥٧٩ — ٨٠ ، دلبش ٢ ، ص ١٩٩ ، هيرمان ص ٩٥ — ٨ ، كوهلر ٣ ، ج ٣ ص ٢٠٦ ، أومان ، ١ ، ص ٣٠١ — ٢ ، دلبروك ، ٣ ، ص ٤٢٦ ، روهريخت ص ١٧٦ غروسيه ١ ، ص ٦٣٤ ، كاهن سورية الشمالية ص ٣٠٢ ، رانسيمان ٢ ص ١٧٣ .

في الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) العام ١١٢٦[١]. وكل ما يعلم من المعطيات الضئيلة التي ساقها فلتشر أن جيش اللاتين في كلتا المعركتين كان منظماً في كراديس من جنود خيالة ومشاة، ولكن من غير الممكن الآن تحديد ترتيب القتال[٢]. ففي إعزاز تعرض السلاجقة أو أجبروا على خوض قتال قريب في مرحلة مبكرة من مراحل المعركة وهزموا بنتيجتها[٣]. وعند مرج الصفّر عانى الفرنجة كثيراً من رمايات المسلمين، ولكن هجوماً قوياً شنوه في أواخر النهار منحهم نصراً باهظ الثمن، ولم يمكنهم نجاحهم التكتيكي من تحقيق هدفهم في متابعة حملتهم التي كانت غايتها الاستيلاء على دمشق.

كانت المعارك التي دارت في السنوات المتوسطة من القرن الثاني عشر أقل تواتراً، كما كان وضعها أقل كمالاً من تلك التي خاضها الجيل الأول من الاحتلال اللاتيني[٤]. ففي العام ١١٤٩ ــ على سبيل المثال ــ هُزم ريموند أمير أنطاكية في

١) فلتشر ص ٤٧٧ ـــ ٨، وليم الصوري ص ٥٨٢ ـــ ٥، ابن القلانسي ص ١٧٤ ـــ ٧، ابن الأثير ص ٣٧٢ ـــ ٣، دلبيش ٣، ص ٢٠٠ ـــ ١، هيرمان ص ٩٨ ـــ ١٠٠، كوهلر ٣، ج ٣ ص ٢٠٦، أومان ١، ص ٣٠٢ ـــ ٤. دلبروك ٣، ص ٤٢٧، روهريخت ص ١٧٨ ـــ ٩، غروسيه ١، ص ٦٣٩ ـــ ٤٠ رانسيمان ٢ ص ١٧٤.

٢) بين هيرمان في خطته ص ٩٧ أن الفرسان كانوا أمام جبهة المشاة. وقد تبين أنه ليس من سبب وجيه لقلب ترتيب القتال الطبيعي على هذا النحو خاصة وأنه يناقض أقواله المكتوبة حول هذه القضية أنظر دلبروك ٣ ص ٤٢٦.

٣) طبقاً لأقوال كاهن في كتابه «سورية الشمالية» ص ٣٠٢ : "L'armée de méteir de Boursouqî pratiquait non la Tactique de l'altaque dlisperseé avec pluie de flèches, mais le corps à corps à cheval à la lance ou à pied à l'érée. فإنه لم يذكر مصدر هذا القول المثير للدهشة وليس في وسع الكاتب سوى أن يفترض بأنه استند في ذلك إلى فلتشر ص ٤٧٢. والتفسير المعطى أعلاه هو أقرب إلى تصورات فن الحرب في تلك الفترة.

٤) مثلاً. صد الفرنجة عن أسوار دمشق في العام ١١٢٩، وهزيمة زنكي للجيش الذي قاده الملك فولك لنجدة بعرين في العام ١١٣٧، وهذه معروفة بصورة أساسية من وصف وليم الصوري ص ٥٩٥ ـــ ٨ و ٦٤٣ ـــ ٥. ولكنه لم يقدم أية معلومات تكتيكية عنها وكذلك المؤرخون العرب. بالنسبة للعام ١١٢٩ أنظر ابن القلانسي ص ١٩٥ ـــ ٩، ابن الأثير ص ٣٨٥ ـــ ٦، روهريخت ص ١٨٦ ـــ ٧، غروسيه ١، ص ٦٦٢ ـــ ٥، وبالنسبة للعام ١١٣٧ أنظر ابن

ظروف تذكرنا بظروف معركة ساحة الدم قبل ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ[1]. وقتل فيها ريموند كما قتل روجر من قبل. وكانت عواقبها أشد قسوة على أمارته من سابقتها. لأنه لم يكن في وسع بلدوين الثالث تكرار ما فعله جده، والإفادة من عواقب الهزيمة. وقد سبق وبينا الخطأ الذي ارتكبه ريموند في هذه المناسبة[2]. فقد أجبر نور الدين على رفع الحصار عن حصن إنب Inib وظل معسكراً مع قوته في أرض مكشوفة. وكان نور الدين يرقب تحركات الفرنجة عن كثب، وعندما شاهد أنهم لم يتلقوا أي تعزيزات أحاط بمعسكرهم ليلاً وأباد جيشهم في اليوم التالي[3].

أوهت الهزيمة قدرة أمارة أنطاكية على مقاومة هجمات المسلمين، وبعد كارثة حارم الأشد أثراً في العام ١١٦٤ لم تعد أنطاكية تشكل قوة عسكرية ذات شأن[4]. ومن المعروف أن التحالف المسيحي الذي كان يواجهه نور الدين في تلك المعركة لم يكتف باجباره على رفع الحصار عن حارم فحسب، بل راح يتعقب جيشه أثناء انسحابه[5]. وفي هذه المرحلة من الحملة هاجم نور الدين الفرنجة وهزمهم شر هزيمة. وكان سبب ذلك تشتت تراتيبهم ومفاجأتهم من قبل المسلمين في أرض شديدة

القلانسي ص ٢٤٢ ـــ ٣ ، ابن الأثير ص ٤٢١ ، كمال الدين ص ٦٧٣ ، روهريخت ص ٢٠٥ ، غروسيه ٢ ص ٧٢ ـــ ٣ .

١) دارت معركة عين مراد في ٢٩ حزيران العام ١١٤٩ ، وليم الصوري ص ٧٧١ ـــ ٧٣ ، ابن القلانسي ص ٢٩١ ـــ ٢ ، روهريخت ص ٢٦٠ ، غروسيه ٢ ص ٢٧٥ ـــ ٨ ، كاهن ص ٣٨٣ ، رانسيمان ٢ ص ٣٢٦ .

٢) أنظر أعلاه ص ١٩٦

٣) وليم الصوري ص ٧٧٣ .

٤) أنظر كاهن Cahen ـــ سورية الشمالية ص ٤٠٩ .

٥) أنظر أعلاه ص٢٠٧ وبالنسبة لمعركة حارم (١١ آب أغسطس ١١٦٤) أنظر وليم الصوري ص ٨٩٥ ـــ ٧ ، ورسالة أملريك إلى الملك لويس السابع ملك فرنسا في بوكية Bouquet و Recueil des Historiens des Gaules ص ٧٩ ، رقم ٢٤٣ ، وابن الأثير ص ٥٣٨ ـــ ٤ وابن الأثير أيضاً في تاريخ أتابكة الموصل ص ٢١٩ ـــ ٩٣ ، ودلبش م ٢ ص ٢٠٧ ـــ ٨ ، وكوهلر ٣ ، ج ٣ ص ٢١١ ـــ ١٣ ، وروهريخت ص ٣١٧ ـــ ١٨ وغروسيه ، ط ، ص ٤٦٠ ـــ ٤ ، وكاهن ص ٤٠٨ ـــ ٩ ، ورانسيمان ٢ ص ٣٦٩ .

الوعورة[1]. ولكن يبقى من غير المؤكد فيما إذا كان مرد الهزيمة الى رعونتهم ولامبالاتهم في المطاردة أو بفضل فن الحرب الذي طبقه نور الدين[2].

في العام ١١٦٧ حاول الملك أملريك تدمير الجيش الذي بعث به نور الدين بقيادة شيركوه لينازعه ملكية مصر. وبعد مطاردة طويلة الأمد في وادي النيل اصطحب فيها الملك قواته الراكبة فقط، بوغت بارتداد المسلمين لمواجهته في أرض اختاروها بمهارة عند مشارف الصحراء[3]، وانتفت فيها الحياة الزراعية، على أمل أن تخفف السفوح شديدة الانحدار والرمال الناعمة من قوة الهجوم اللاتيني[4]. كان أملريك يقود جيشاً أنهكته المفازز[5]، ومؤلفاً من ٣٧٤ فارساً فرنجياً مسلحاً من مختلف الصنوف مع عناصر كثيرة العدد قليلة القيمة عسكرياً من التركبول والمصريين[6] (!!)، وكانت خطة شيركوه للمعركة تنصب على خداع الفرنجة بحيث يوهمهم أنه موجود مع النخبة من قواته في وسط ترتيب القتال. ولكن الحقيقة أن صلاح الدين مع عدد قليل من أتباعه هو الذي اتخذ مواقعه هناك، وصدرت إليه الأوامر بالتراجع أمام الفرنجة الذين يهاجموه والتوجه بهم بعيداً عن ميدان القتال[7].

لم تكن خطة شيركوه سوى حالة من الحالات التي يتبعها المسلمون كي

---

١) وليم الصوري ص ٨٩٦، ورسالة أملريك إلى لويس السابع.

٢) إن الدليل الذي ساقه ابن الأثير (ص ٥٢٩ — ٤٠) غير ثابت وقد كتب بعد فترة طويلة من حدوث المعركة وتعرض فيه لإغراء مزدوج هو تحويل الأحداث إلى نموذج والمبالغة في إظهار مهارة نور الدين عسكرياً.

٣) في معركة البابين (١٨ أو ١٨ آذار مارس ١١٦٧)، أنظر وليم الصوري ص ٩٢٥ — ٧، ابن الأثير ص ٥٤٧ — ٩ أبو شامة ص ١٣١ — ٢، دلبش ص ٢٠٩ — ١٣، روهريخت ص ٣٢٦ — ٧.

٤) وليم الصوري ص ٩٢٦.

٥) ليست مفارز المشاة فقط وإنما الفرق الموجودة على الضفة الأخرى لنهر النيل أيضاً، وليم الصوري ص ٩٢٧ — ٨.

٦) وليم الصوري ص ٩٢٥.

٧) ابن الأثير ص ٥٤٨ — ٩.

يضمنوا عدم وجود هدف ذي شأن في مواجهة الهجوم اللاتيني. وقد نجحت نجاحاً تاماً تقريباً حين اعتقد أملريك أن القوة الرئيسية لعدوه موجودة في الوسط وأن شيركوه هو من يقودها[1]. وهكذا وجه هجومه الرئيسي الى ذلك الاتجاه، وبما أن صلاح الدين نفذ التعليمات الصادرة إليه بحذافيرها، فقد سيق الملك بعيداً عن بقية قواته التي انقض عليها شيركوه وشتتها واستولى على متاع الفرنجة، وتجزأت المعركة فوق البطاح المتموجة الى عدد من الاشتباكات الصغيرة كان النجاح في بعضها حليف الفرنجة وفي بعضها الاخر حليف المسلمين. ترك وليم الصوري صورة جميلة لمعركة الجند هذه وسط الكثبان الرملية، والتي لا يعلم أحد كيف انصرم النهار فيها[2]. وعندما عاد أملريك من المطاردة نشر رايته ولم شعث ما استطاع من رجاله وشكل رتلاً سار به بالخطوة البطيئة المألوفة، والتشكيل المتراص، من خلال مواضع المسلمين مبتعداً عن ميدان القتال[3]، وهكذا لم يحقق أي من الجانبين نصراً كاملاً على الآخر، إلا أن الفرنجة خسروا مائة فارس وفاتهم فرصة السيادة المطلقة على مصر بسبب فشلهم في تدمير جيش شيركوه.

في العام ١١٧٧ لقي صلاح الدين أفدح هزيمة في حياته عند تل الجزر[4]. ولا تقدم سجلات العصور الوسطى هنا أيضاً أية معلومات تكتيكية عن هذه المعركة وتكتفي بذكر كيفية نشوب المعركة والسبب في كون بلدوين هو المنتصر.

---

١) عندما كتب وليم الصوري هذا الوصف كان ما يزال يعتقد أن شيركوه موجود في الوسط — وليم الصوري ص ٩٢٦ .

٢) وليم الصوري ص ٩٢٦ — ٧ .

٣) وليم الصوري ص ٩٢٧ .

٤) « هزيمة الرملة » (تل الجزر) في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٧ ، أنظر وليم الصوري ص ١٠٤١ — ٥ ، ارنول Ernoul ص ٤١ — ٥ ، رسالة روجر دي مولان Roger des Moulins مقدم الاسبتارية في Rohricht, Beitrage zur Geschichte der Kreuzzuge م ٢ ص ١٢٧ — ٨ . بهاء الدين ص ٦٣ — ٤ ، أبو شامة ص ١٨٤ — ٩ . ابن الأثير ص ٦٢٨ ، دلبش ٢ ص ٢١٤ — ١٥ ، روهريخت ص ٣٧٦ — ٨٠ غروسيه ٢ ص ٦٥٠ — ٦٢ ، رانسيمان ص ٤١٦ — ١٧ مجلد ٢ .

دخل صلاح الدين فلسطين قادماً من مصر على الطريق الساحلي. وكان بلدوين قد أرسل فرقة من فرسانه الى أنطاكية مع فيليب كونت الفلاندر Philip of Flanders. ورغم ضآلة ما بقي تحت تصرفه من قوات فقد بادر الى تحدي جيش الغازي[1]. وبسبب خشيته من التفوق العددي لقوات صلاح الدين قرر عدم خوض معركة ضدها ولاذ بعسقلان مع قواته. قرر صلاح الدين آنئذ تجاهل وجود الفرنجة، وسار متجهاً نحو الشمال ليعيث في الريف ويخرب مواردهم ويقطع طرق المواصلات بين القدس والساحل[2]. وهنا أظهرت أعمال بلدوين التالية مفهومه الخاص حول واجبه العسكري. فقد أبدى في عسقلان عدم استعداده لدخول المعركة ضد خصوم أقوياء، ولكنه فضل تحمل أعباء القتال على تحمل تخريب أملاك أتباعه دون رادع[3]. فسارع بالتالي الى اللحاق بصلاح الدين وحاول مباغتته[4] وقد تفرق رجاله في بحثهم عن المغانم[5]. لم ينجح بلدوين نجاحاً كاملاً، ولكن عندما دارت رحى المعركة، التي لا تتوفر عنها تفاصيل كثيرة، لم يكن باستطاعة صلاح الدين استدعاء كل مفارزه، بينما تمكن بلدوين من تحقيق مفاجأة جزئية ورد جيش المسلمين المشتت ناكصاً الى مصر.

في هذه المرحلة من تاريخ سورية اللاتينية كان النصر في ميدان القتال يضع حداً للحملة بكاملها تقريباً. ففي العام ١١٧٩ كان صلاح الدين على رأس جيشه مرة أخرى. واتخذ من بانياس قاعدة لقوته الرئيسية، وبعث بمفارزه للإغارة باتجاه

---

١) وليم الصوري ص ١٠٣٨ ،

٢) وليم الصوري ص ١٠٣٩ .

٣) وليم الصوري ص ١٠٤١ . إن الفكرة من وراء هذا واضحة تماماً هنا ، حيث أنه لا يمكن في حالات معينة تجنب مخاطر المعركة غير المشكوك فيها . واكتساح العدو للمناطق الاقتصادية دون رادع يخلق مثل هذه المناسبات . ومن المرجح أن وليم الصوري اتخذ مثل هذه المعايير أساساً للحكم على خطة غي لوزينيان الحربية الذائعة الصيت في العام ١١١٣ . أنظر أعلاه ص ٢٢٨

٤) وليم الصوري ص ١٠٤١ .

٥) هذا ما أكده وليم الصوري ص ١٠٣٩ ـــ ٤٢ وابن الأثير ص ٦٢٨ وأبو شامة ص١٨٤ .

صيدا والسهول الساحلية[1]. وطبقاً للافكار الحربية التي كان يتبناها الملوك اللاتين انطلق بلدوين مع قوته من الفرنجة قاصداً المناطق المهددة. فسار من طبرية مروراً بصفد وصور باتجاه منطقة تقع على الطرف الشرقي لسلسلة الجبال الساحلية، حيث يستطيع الإشراف على مرج عيون، وأن يراقب عن بعد خيام جيش صلاح الدين الرئيسي . قرر الفرنجة الهبوط الى السهل دون تمهل، ولم يستطع مجاراة الفرسان الراكبين في المسير السريع نزولاً على السفوح المتحدرة سوى عدد ضئيل من الجند المشاة ممن يتمتع بنشاط زائد. أما الباقون الذين أنهكهم التعب بعد طول مسير فثابروا على السير قدر المستطاع، فحدث انفصال بينهم وبين الفرسان فترة من الوقت .

بلغ الركبان ومرافقوهم السهل متأخرين بضع ساعات[2]. ونشب القتال في البدء ضد مفارز المسلمين العائدة من إغاراتها التي كانت تشنها موغلة باتجاه الغرب، وبما أنها لم تكن متأهبة وغير مرتبة للقتال فقد دحرت بسرعة وسهولة. وهنا أصبح سلوك الفرنجة وكأن المعركة انتهت في صالحهم، فطارد بعضهم المسلمين باتجاه معسكرهم، بينما قاد ريموند كونت طرابلس ومقدم الداوية رجالهما الى المرتفع القائم بين مرج عيون (مرجعيون) وخانق الليطاني، وراح المشاة يجمعون الغنائم ويستريحون.

---

١) بالنسبة للقتال في مرج عيون في العاشر من حزيران (يونيو) ١١٧٩ أنظر وليم الصوري ص ١٠٥٤ ــ ٧ . ابن الأثير ص ٦٣٦ ــ ٧ ، أبو شامة ص١٩٧ ــ ٢٠٣ ، دلبش ص ٢١٦ ــ ١٧ ، روهريخت ص ٣٨٤ ــ ٦ ، غروسيه ٢ ص ٦٧٢ ــ ٧ ، رانسيمان ٢ ص ٤١٩ ــ ٢٠ .

٢) وليم الصوري ص ١٠٥٥ ، وهي نقطة أبرزها دلبش بوضوح (٢ ، ص ٢١٦ ــ ١٧) حين عزا هزيمة الفرنجة إلى انفصال الفرسان عن المشاة خلال هبوطهم السريع من المناطق الجبلية ، وكذلك لامونت La, Monte في كتابه Feudal Monarchy ص ٢١٩ الذي وصف هجوم مقدم الداوية ، « أن المعركة كانت خاسرة بسبب قوته المنجرفة التي قسمت صفوف المسيحيين » . إن مصدر هذا القول غير مؤكد ما لم يكن قد قصد منه النزول إلى السهل والذي سبق نشوب القتال ببضع ساعات .

وعندما شرع صلاح الدين هجومه بالكتلة الرئيسية من قواته هزم اللاتين وشتتهم، لا لأن فرسانهم ومشاتهم كانوا منفصلين عن بعضهم بعضاً قبل ساعات قليلة وإنما لأن الفرنجة كانوا غير مستعدين كلية للمعركة.

سوف يناقش القتال عند عين الجوزة (نبع الرشاد) Cresson في الأول من أيار العام ١١٨٧، ومعركة حطين الكبرى التي دارت بعد شهرين من ذلك التاريخ في القسم الأخير من هذا الفصل، وعلى ذلك يمكن القفز الى مرحلة الصراع الرئيسي التالي المترافق مع حصار عكا. ففي الشهر الثاني من إقامة الحصار على المدينة في العام ١١٨٩ حاول الفرنجة ابعاد أنظار جيش صلاح الدين الميداني عنهم. وقد نشبت المعركة في الرابع من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، ووصفها معظم شهود العيان بتفصيل ساعد المؤرخين على إعادة تركيب المعركة في معظمها[١]. وهي تصلح قصة جديدة إلا أنها لاتتضمن من المعلومات عن الأفكار الحربية والطرائق التي كانت تطبق في ذلك العصر أكثر من جملة واحدة كرسها دلبروك لهذه المعركة.

كان ترتيب الجيش اللاتيني من فرق أربع، وكان الجنود المشاة فيها ـــ وكثير منهم مسلحون بالقسي العادية والأنبوبية (الزنبورك) ـــ يسيرون في مراكزهم التقليدية أمام الفرسان[٢]. وتتفق كل الروايات على نشوب معركتين: إحداهما اشتباك حدث بين الداوية على الجناح الأيسر وبين تقي الدين عمر (صاحب حماة م. م) على الجناح الأيمن للمسلمين، والثانية اشتباك بين وسطي الجيشين. وقد حدث هذا الانقسام في الجهود نتيجة النجاح المبكر الذي حققه الداوية، إما بسبب ثقل هجومهم[٣] أو لتراجع تقي الدين عمر لإبعادهم عن ميدان القتال، فراحوا يطاردون

---

١) Itin ص ٦٨ ـــ ٧٢، Est. ص ٢٩٥٧ ـــ ٣٠٥٤، Eracles ص ١٢٩ ـــ ٣٠، بهاء الدين ص ١٤٠ ـــ ٦، أبو شامة ص ٤١٥ ـــ ١ط، ٤٢٤ ـــ ٥، ابن الأثير ٢ ص ٩ ـــ ١٣، كوهلر ٣، ج ٣، ج ٣ ص ٢٢٨ ـــ ٣٤، أومان ١ ص ٣٣٤ ـــ ٤٠ دلبروك ٣ ص ٤٢٧، روهريخت ص ٥٠٧ ـــ ١٠ غروسيه ٣ ص ٢٤ـــ ٦.

٢) Itin ص ٦٩، بهاء الدين ١٤٢،

٣) Itin ص ٧٠.

القوات المعادية الموجودة أمامهم مباشرة الى مسافة ظنها المراقبون بعيدة جداً. وفي الوسط أخذ الفرنجة يتقدمون حتى أضحوا على مسافة مناسبة من خطوط صلاح الدين وبادروا بالهجوم[١]. وكان صلاح الدين قد بعث بقوات من الوسط لمساعدة جناحه الأيسر المتراجع فأضعف بذلك خطوطه التي انهارت أمام الانقضاض اللاتيني. وتوغل الصليبيون من فرسان ومشاة حتى معسكره عند تل العياضية.

في هذه المرحلة تبدل مصير المعركة. ويختلف المعاصرون في تحديد سبب لهزيمة الفرنجة. حيث يقول مؤلف الايتنيراريوم Itinerarium أن الفرنجة في الوسط أخذوا يبحثون عن الغنائم بعد هجومهم الناجح وفقدوا الرغبة في متابعة القتال[٢]. وهو يؤكد مع أمبرواز Ambroise ومؤلف الإيراكل Eracles بأن ذلك نتيجة تراكم الهلع بين صفوف الصليبيين وتناميه بسبب حصان جامح[٣]. وهو يعطي أيضاً مع ثيوبالد theobald وليو Leo أهمية مبدئية للهجمة المفاجئة الناجحة التي شنتها حامية عكا المسلمة ضدهم[٤]. ويتضح من جميع السجلات الموجودة ـــ مسيحية ومسلمة ـــ أن الفرنجة حققوا نجاحاً حاسماً في الوسط، بينما كانوا متماسكين على الجناحين[٥]. ولكن افتقارهم الى التركيز والانضباط مكن صلاح الدين من تنظيم هجوم معاكس وردهم على أعقابهم حتى معسكرهم.

كان آخر قتال نشب قبيل انتهاء الحملة الصليبية الثالثة ورحيل الملك ريتشارد عن سورية هو ذلك الذي تورط فيه الملك نفسه خارج يافا في الخامس من آب (أغسطس) العام ١١٩٢[٦]. وكان آنئذ معسكراً مع قوة صغيرة خارج أسوار

---

١) بهاءالدين ص ١٤١ .

٢) Itin. P. 69.

٣) Iitin ص ٧٠ ، .Est ص ٢٩٩٧ ـــ ٣٠٠٤ ؛ Eracles ص١٢٩ .

٤) Epistola theobaldi, Diceto ص ٧١ .

٥) بهاء الدين ص ١٤٢ ـــ ٤٣ ، أبو شامة ص ٤٢٤ ـــ ٥ .

٦) .Itin ص ٤١٣ ـــ ٢٤ ، .Est ص ١١٣٤٥ ـــ ٦٥٢ ، Radulphus de Coggeshall, Chronicon. anglicanam ص ٤١ ـــ ٥١ بهاء الدين ص ٣٣٧ ـــ ٨ ، ابن الأثير ٢ ص ٦٤ ـــ ٥ ، دلبش ١ ، ص ٢٨٤ ـــ ٩٠ كوهلر ٣ ، ج ٢ ص ٢٦٦ ـــ ٧ ، أومان ١

المدينة . ولم يكن مع فرسانه أكثر من عشرة رؤوس خيل ولكن قسماً كبيراً من الألفي رجل الذين قاتلوا على أقدامهم ــ خمسهم على الأرجح ــ كان مسلحاً بالقسي الأنبوبية . أراد المسلمون شن هجوم مباغت مع بزوغ الفجر إلا أن الانذار جاء في الوقت المناسب بالنسبة لريتشارد ، بحيث تمكن من تنظيم المقاومة ، فرتب رجاله بتشكيلة دفاعية ثابتة متماسكة . وكان الصف الأول يتألف من رجال راكعين جنباً الى جنب يحتمي كل منهم بترسه ، وقد زج رمحه (العقب) جيداً على الأرض والوشيج (قناة الرمح) مشرع بالميل نحو الأعلى والسنان باتجاه العدو . وكان كل رجل من هؤلاء الرجال ملاصقاً لجاره من الجانبين . وقد أكد الملك نفسه ضرورة الترتيب المتراص بحيث لا يترك ثغرة ينفذ منها العدو . وفي الصف الثاني رتب ريتشارد النشابين بحيث يغطي كل منهم الفرجة بين رأسي اثنين من الرماحة الراكعين . وكان هؤلاء يعملون أزواجاً ، فبينما يطلق الأول ــ الموجود الى الأمام ــ سهمه من أحد القسي الأنبوبية يكون زميله قد وتّر الآخر ، ويتبادل بعدها كل منهما سلاحه . وهكذا ظل الواحد منهما يقوم بمهمة الرامي والآخر بمثابة الملقم حتى نهاية المعركة[1] . أما الرجال الراكبون العشرة فاتخذوا مواضعهم خلف هذه التشكيلة ، التي يرجح أنها كانت محمية أيضاً بمتراس مرتجل من جذوع الأشجار جُمعت من أرض المعسكر[2] .

لم يحاول المسلمون إطلاقاً الاقتراب من هذا الترتيب الرائع[3] وربما أجفلهم ذلك الخط من نصال الرماح والنشابون الذين يدعمونه . ومن المحتمل كذلك أن تكون روحهم المعنوية متأثرة أكثر بسبب سخطهم على صلاح الدين . ولكن المؤكد

ص ٣١٨ ــ ١٩ ، دلبروك ٣ ص ٤٢٧ ــ ٨ ، روهريخت ص ٦٤١ ــ ٣ ، غروسيه ٣ ص ١١٤ ــ ١٦ .

١) Itin. ص ٤١٥ ــ ١٦ ، Est. ص ١١٤٥٥ ــ ٦٣ ، Rad Coggeshall, ص ٤٦ ــ ٧ .

٢) أنظر Rad Coggeshall, ص ٤٥ ولكن الاتينيراريوم ص ٤٠٨ وتاريخ الحروب الصليبية (Est.) ص ١١١٥٤ ــ ٨ تؤكد أن على وجود هذا المتراس المرتجل عندما تمركز الملك عند يافا قبل أربعة أيام . ويرجع كوغشال معلوماته إلى هيو دو نيفي Hugh de Nevill الذي كان أحد أتباع الملك العشرة الراكبين في الخامس من شهر آب (ص ٤٥) .

٣) بهاء الدين ص ٣٣٧ ، ابن الأثير ٢ . ص ٦٤ .

أنهم لم يحاولوا قط الانقضاض على القوة الصليبية[1] حتى اجتاز الملك ريتشارد نفسه الصفوف وانطلق بالهجوم.[2] وقد ساعدته بسالته الشخصية ذلك اليوم في كسب شهرته المعروفة .

٥ ـ حطين

تضمن القسم السابق تسجيلاً مفصلاً لمعركة حطين . ولقد تحقق ذلك العمل تحت رعاية البروفسور بلدوين Baldwin ومهارته المدهشة ، وهو أول مؤرخ ـ كما يقول هو ـ «يعالج الموضوع بكل تفاصيله المحتملة ، ويستخدم أكمل ما حوته المصادر المتوفرة كافة»[3]. ولكن إذا ما خيل إليه ـ كما يلمح هو ـ أنه أول من «أدرك المغزى السياسي والعسكري والتكتيكي الكامل لتلك المعركة»[4] فإن ادعاءاته هذه لا تقوم على أسس وطيدة . ويبدو أن معرفته عن فن الحرب في العصور الوسطى مستقاة بصورة أساسية من الصفحات التي كتبها دلبش ، وهي تعالج قضايا التكتيك فقط ومحشوة بالأخطاء .

إن من المتفق عليه أنه لا يمكن فهم مغزى المعركة إلا على خلفية التاريخ العسكري لسورية اللاتينية . وقد جرت محاولة رسم مثل هذه الخلفية في الصفحات التي سبقت . واختيرت حطين بالتالي موضوعاً للقسم النهائي لهذا السبب ، ولأنها توضح ظروف الحرب وطرائقها في الدويلات اللاتينية بصورة أكمل من أي حدث عسكري آخر . إن المشاهد المميزة لهذه المعركة هي : أولاً ـ قرار إنقاذ طبرية الذي تبناه الصليبيون ، ثانياً ـ نجاح المسلمين في إرغام الفرنجة على التوقف والتعسكر في

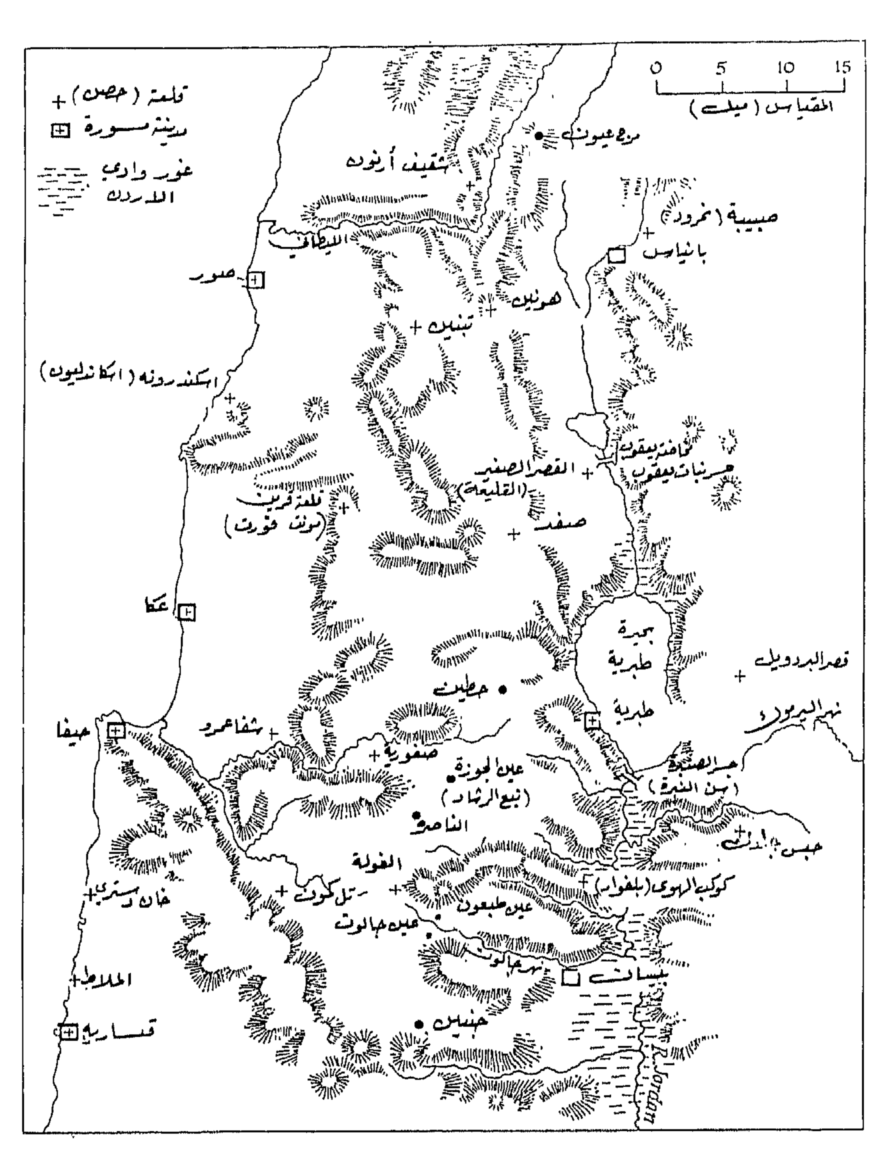
---

١) Itin. ص ٤١٧ ـ ١٨ ، Est ص ١١٤٩٩ ـ ٥٠٢ ، Rad. Coggeshall, ٤٧ .

٢) تقول الايتينيراريوم (ص ٤١٨) أن الملك هو الذي شرع الهجوم ، أما راد كوغشال (ص ٤٨) فيقول أن القوة كلها تقدمت مع بقاء النشابين في الطليعة .

٣) بلدوين : Baldwin, Raymond III of Tripolis, and the Fall of Jerusalem (1140-1187) P. 151.

٤) المصدر السابق ص ١٥٢



خريطة رقم ٢ الجليل

أرض غير ذات ماء ما بين الصفورية وطبرية، وثالثاً ــ انهيار الجيش الصليبي وتحطمه في صبيحة اليوم التالي. وسوف يتناول البحث كل مشهد من هذه المشاهد بدوره ويصور كل واحد منهما في إطاره التاريخي.

في الثاني من شهر تموز (يوليو) من العام ١١٨٧ علم الملك غي Guy، وهو في معسكره في الصفورية، أن صلاح الدين هاجم طبرية وأن زوجة الكونت ريموند Count Raymond، واسمها إيشيف Eschive، انسحبت الى القلعة[1] لعدم وجود فرسان يساعدونها مع المواطنين للدفاع عن المنطقة. ومن ملاذها الأخير هذا أرسلت سيدة القلعة بطلب النجدة من الملك غي. وفي تلك الليلة اجتمع الملك الى اتباعه الاقطاعيين يطلب المشورة، وكان أول من استدعاهم ريموند كونت طرابلس الذي كان أعظم إقطاعييه وصاحب طبرية. ومن المؤكد أن ريموند قدم أسباباً قوية يعارض فيها نجدة المدينة، ولكن لا يمكن الآن تحديد الحجج التي استخدمها بالضبط. وتأتي بالدرجة الأولى نسخ معاصرة لها كتبت مباشرة بعد الكارثة التي حدثت، ولكن يحتمل أن يكون بعض كتاب تلك اليوميات قد وقع فريسة الاغراء بتصوير ريموند وكأنه نبي ملهم. ومن جهة أخرى فإن تلك النسخ تختلف في تفاصيلها الهامة، ولا يزال

(١) حول معركة حطين أنظر Libellus ص ٢١٨ ــ ٢٦، Eracles ص ٤٨ ــ ٦٤، Ernoul ١٥٧ ــ ٧٠، وثمة أربع رسائل هامة هي : "Consules januenses Urbano III' ed. K. Hampe in «Neues. Archiv der Gesellschaft fur alter deutsche Geschichtskunde XXII» (1890) PP. 278-80, Reg No. 664 a; Fratres Hospitales ultramarini Archumbaldo, in HEF, PP. 2-4; Reg. No. 661; "Principes Transmarinae ecclesiae Fredericol" in Mon. Germn. Hist. SS. XXI, P. 475; Reg No. 658; "Terricus magnus praeceptor Templi Urbano III papae, in Mon. Germ. Hist. SS. XVII, P. 793; Reg. No. 660 وبهاء الدين ص ٦٠٩٢، ابن الأثير ص ٦٨١ ــ ٦، أبو شامة ص ٢٦٣ ــ ٨٨، دلبش ص ٣٦٩ ــ ٧٥، كوهلر ٣ ج ٣ ص ٢١٦ ــ ٢٤ ؛ أومان ١، ص ٣٢٤ ــ ٣٣، دلبروك ٣، ص ٧٢٧ ؛ روهريخت ص ٤٣٠ ــ ٩. لان بول Lane-Poole, Saladin ص ٢٠٤ ــ ١٤، Stevenson, Crusaders in the East ص ٢٤٠ ــ ٨، Groh, Der Zusamenbruch des Reiches Jerusalem ص ١٦ ــ ٢٢، غروسيه ٢، ص ٧٨٨ ــ ٩٩، بلدوين ص ٩٦ ــ ١٣٥ ١٥١ ــ ٥، رانسيمان ج ٢ ص ٤٥٥ ــ ٦٠، ٤٨٦ ــ ٩١.

المؤرخون حتى الآن غير قادرين على تقرير أي تلك السجلات هو الأكثر ثقة[1]. وسوف نعنى هنا بجميع الحجج المختلفة التي نسبت الى الكونت والتي تشمل فيما تشمل بالتأكيد الحجج التي ساقها فعلاً. ويمكن أن تعزى جميعها الى ظروف الحرب المعاصرة المعروفة ولا يمكن بالتالي إنكار أي منها[2].

استند ريموند في مشورته على توقعه احتمال انهيار المملكة بأكملها فيما لو جرت أية محاولة لنجدة طبريا. ولا يمكن القيام بمسير من الصفورية الى تلك المدينة إلا إذا أمكن التغلب على مقاومة المسلمين. إذ أن الهزيمة في المعركة المقبلة قد يؤدي

---

١) إن النسخ التي كتبها من تابع عمل وليم الصوري عن حملة حطين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ استيلاء صلاح الدين على مملكة اللاتين الذي كتبه أرنول Ernoul وهو حامل دروع باليان ابيلين Balian of Ibelin ، ولا يعرف حتى الآن أي التتمات حوت عمله الأصلي حتى بالنسبة لتلك المخطوطات التي حملت اسمه ، والتي ربما كانت تعديلاً واختصاراً لتاريخ أرنول الذي كتبه .

تقع نسخ الأحداث التي شملت حملة حطين في مجموعتين رئيسيتين . الأولى وتشمل المخطوطات التي جمعها ماس لاتري Maslatrie في مؤلفه Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésarier وتلك التي تدعى المجموعات C و G من قبل مؤلفي (RHC) Reeueil des historiens des Crusades Hist. occ II, والمجموعة الأخرى تشمل ما يسمى مخطوطات كولبرت وفونتنبلو Colbert and Fountanbleou MSS وهي المجموعة .A و .B من .RHC ، (Hist. occ II) . وكلتا المجموعتين مرتبطتان بعضهما ببعض ، ولكن المجموعة الثانية أكثر تفصيلاً وأكمل تطويراً من الأولى . ويميل ماس لاتري في Essac des Classification, in Ernoul ص ٤٩٩ ـــ ٥٠١ ، إلى وجهة النظر القائلة بأن المجموعتين .A و .B تتضمنان عمل أرنول الأصلي التي اختصرت عنها مؤلفه Chronique d'Ernol والمجموعتين .C و .G ، وثمة أرضية تدعونا لاعتبار المجموعتين .A و .B معالجة متقنة للتاريخ الأصلي الذي تتضمنه المجموعات الأخرى .

وبالنسبة للموضوع بأكمله أنظر تقدمة بونيوت Beugnot في تصنيف المؤرخين RHC. Hist. occ. II. وكذلك M.L. de Mas Latrie in Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier PP. 473-565 أنظر كذلك Cahen. Syrie du Nord, PP. 20-5

٢) طبقاً لما جاء في Eracles ص ٤٨ ـــ ٩ . عقد غي مجلسين للتشاور نوقش فيهما الموقف العسكري ، أحدهما في عكا والآخر في الصفورية ، وتحدث ريموند في كلتا المناسبتين . ويقبل رانسيمان هذا القول في تاريخه ج ٢ ص ٤٨٦ .

الى ضياع الجيش، ثم المملكة[1]. وقد اتفقت جميع السجلات على هذه النقطة[2]، ولكنها اختلفت في تنبئه بأعمال صلاح الدين بعد أن سقطت المدينة. فنجد في مجموعة أرنول Ernoul أن ريموند كان يرى أن صلاح الدين لن يتحدى الجيش الصليبي المعسكر في الصفورية. وهو يقول بأن المسلمين لا يستطيعون الاحتفاظ بطبرية وأنهم سوف يرتدون عائدين الى أراضيهم. وقد يعمد صلاح الدين الى تخريب أسوار المدينة التي يمكن إعادة بنائها، وقد يأخذ زوجة ريموند والرجال الذين معها أسرى لديه، ولكن من الممكن استعادة هؤلاء. وكان لا بد من تجنب محور المسير المعتاد في هذه المناسبة الى منطقة تجاور العدو ومباشرة. ويشمل ذلك عبور أراض لا ماء فيها ما بين الصفورية وطبرية، حيث تتناقص فاعلية الجيش بسبب الحرارة والعطش، وقد لا يصمد لهجمات العدو المحتمة هنا. ويقال أيضاً إن ريموند نصح قيادة الجيش قائلاً «لا تعرضوا المملكة للخطر بتعريض جيشها الميداني له، فلتذهب طبرية، ولنبق هنا في الصفورية»[3].

وسواء أعرب ريموند عن وجهات نظره هذه فعلاً أم لا فإن لها ما يبررها من أوجه عدة. إذ كان زعماء الفرنجة يستغلون طوال القرن احتمال تفرق كل قوة مسلمة كبيرة الى حال سبيلها في نهاية موسم الغزو، وبخاصة في حال عدم تحقيق فوائد من

---

١) Ernoul ص ١٦٠ ، Eracles ، .C و .G ص ٥٠ .

٢) هذا يعني كل المصادر الرئيسية ، ومن المثير الإشارة إلى أنه بالاستناد إلى مصدر لاتيني واحد ومصدر عربي واحد طلب ريموند من الملك نجدة طبريا Consules Januenses Urbano في Neues Archiv der Gesellschaft fur altere deutsche Geschichtskunde XXII. (1896) P. 278. وأبو شامة ص ٢٦٥ ومن المحتمل أن يكون حل هذا التناقض الظاهري موجود في أكثر نسخ Eracles تطويراً ، وتقول Eracles ، .A و .B ص ٤٩ ــ ٥ إنه بعد أن قدم ريموند نصيحته بعدم نجدة طبرية ، وبعد أن وصمه جيرار ورينو بالخيانة بأسلوب ساخر عاد فطلب من الملك أن ينجد طبرية .

٣) Ernoul ، ص ١٥٩ ــ ٦٠ ، C. Eracles و .G ص ٥٠ ــ ١ . من المفيد الإشارة هنا إلى أن أبن الأثير الذي قدم إلى فلسطين في هذه الفترة وكان على اطلاع جيد على الأحداث في معسكر الفرنجة على الأرجح ينسب إلى ريموند تأكيده بأن صلاح الدين قد يحتل طبرية ولكنه لا يستطيع الاحتفاظ بها . وأنه سيحتاج إلى جيشه بكامله ليقوم بذلك وأنه لا يستطيع إبقاء جيشه في الميدان إلى ما لا نهاية بسبب رغبة الرجال الطبيعية بالعودة إلى بيوتهم وعائلاتهم ، ابن الأثير ص ٦٨٢ .

النجاح الحربي، وكانت مهمة الفرنجة حرمان القوة من ذلك النجاح ومن إمكانية استيلائها على أراض بشكل دائم عن طريق إبقاء جيشهم الميداني على تماس مع العدو. ولقد اضحى التطبيق العملي الطبيعي هو عدم تعريض الجيش لهجمات المسلمين في ظروف قد تؤدي الى تدميره. فالحجج المنسوبة هنا الى ريموند لا تستند الى عدم وجود الماء بين الصفورية وطبرية فحسب، وإنما هي ثمار خبرة طويلة اكتسبها اللاتين حول الظروف التي كانت تتكرر طوال القرن.

يمكن أن ينسحب القول ذاته على النسخ التي وردت في Libellus وفي مجموعة كولبرت ــ فونتنبلو من مخطوطات الإراكل Eracles. والتي تنسب الى ريموند تنبؤه بأن صلاح الدين سوف ينتابه الغرور ويأتي لمهاجمة الجيش الصليبي بمجرد أن احتل طبرية، وإذا ما فعل ذلك فإن المسلمين سوف يتعرضون لمشاق الحر والعطش بينما يكون الفرنجة وخيولهم متأهبين لدخول المعركة وهم مستريحون جيداً وجاهزون تماماً. وسوف تتوفر لهم في هذه الظروف ــ كما تقول الحجة ــ كل فرص النجاح بينما يقع المسلمون المنهزمون في الأسر، كما حدث لصلاح الدين قبل سنوات عشر من ذلك الزمان عند تل الجزر (الرملة)، لعدم وجود نقطة استناد أو ملاذ يلجؤون اليه. إما إذا لم ترد السماء لهم ذلك وهُزِم الصليبيون، فإن معاقلهم المحصنة قريبة وجاهزة لاستقبالهم ــ كما حدث واستقبلتهم من قبل في ساعات الهزيمة ــ لتكون ملاذهم ونقاط استنادهم[1]. ويقال بأن ريموند حث على استغلال هذه الميزات بخوض المعركة قرب الصفورية ــ كما يقول الليبلّوس the Lebellus ــ أو في سهل عكا ــ كما تقول الإراكل[2]. ومن الثابت هنا أن ريموند ــ مهما كانت أسبابه ودوافعه ــ قد نصح بعدم نجدة طبرية وأيده في ذلك باقي المجلس ما عدا مقدم الداوية وأرناط (رينو دو شاتيون Renaud de Chatillon). وقد قبل غي المشورة، ولكنه عدل عن ذلك

---

١) أنظر أعلاه ص ١٩٧ حاشية رقم ١.

٢) Libellus ص ٢٢١ ــ ٢، Eracles، A و B ص ٥٠.

خلال الليل بتأثير من مقدم الداوية، وأمر فرسانه الذين اعترتهم الدهشة، بالتأهب للمسير الى طبرية[1].

أدان المؤرخون بشدة ـــ بعد أن خبروا مجريات الأحداث ـــ ما قام به الملك غي، وكان أشدهم لوماً في ذلك غروسّيه[2] Grousset. ومما لا شك فيه أن ثمة الكثير من النقد يمكن أن يوجه الى تردد الملك غي، ولكن من العدل الاعتراف بالمأزق القاتل الذي وجد نفسه فيه، والذي يمكن كشفه عند دراسة الأحداث الحربية السابقة. ففي العام ١١٨٢ ـــ مثلاً ـــ قدم ريموند نصيحة مماثلة الى الملك بلدوين الرابع ولكن ذلك القائد العسكري الناجح رفضها[3]. وفي السنة التي تلت علم غي، وهو يقود جيش بيت المقدس، أن صلاح الدين كان في جوار عين التُبانية* Ain Tubaniya فلم يحاول مهاجمته. ولم يوجه الانتقاد الشديد من أجل قراره هذا فحسب وإنما فقد منصبه وصياً على العرش بعد ذلك[4]. وقد قال أعداؤه في تلك المناسبة إنه يستحق اللوم الشديد بسبب تمنعه عن العمل وهو على رأس أكبر جيش صليبي تم حشده في المملكة. وفي العام ١١٨٧ كان ثمة رجال يرددون القول عينه حول القوة التي جرى حشدها في الصفورية[5]. كما أضافت حقيقة الاستغاثة التي وجهتها ليدي ايشيف متاعب جديدة الى متاعبه. إذ تنص أقدم نسخة باقية عن قوانين بيت المقدس بعبارات مشددة على التزام الملوك التزاماً كاملاً بمساعدة إقطاعييهم إذا ما هاجمهم المسلمون، وقد سبق أن التزم حكام أقوى من غي وأكثر نفوذاً بالاستجابة لمثل هذه الاستغاثة[6].

---

١) ارنول Ernoul ص ١٦٢، Eracles جميع النسخ ص ٥٢ و ٥٣.

٢) غروسيه ج ٢ ص ٧٩٢ اختار عنواناً للقسم المعني من عمله "Quos vult perdere".

٣) أنظر أعلاه ص ٢٢٦ ـــ ٢٢٧.

٤) بلدوين ص ٥٢ ـــ ٤،

٥) ايراكل .C و .G ص ٥٢.

٦) أنظر أعلاه ص ٢٢٧ حاشية رقم ١.

*) المترجم ص ٢٢٨ في موقع مدينة زرعين القديمة وذكرها ابن الأثير باسم الأقحوانة في حوادث سنة ٥٧٨ هـ ـــ أنظر رانسمان ج ٢ ص ٧٠٨ (م. م).

لا بد إذن من أن تؤثر حقائق من هذا القبيل على تفكير غي وهو يستمع الى مبررات جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort . وربما لم يلق مقدم الداوية إلا بعض الصعوبة في إقناع الملك بأن ريموند يسعى الى تحقيره، فقبل تسوية الأمر بينهما لأسابيع قليلة مرت كان ريموند عدواً للملك غي ومتمرداً ضده . وكان واحداً من اثنين من الاقطاعيين اللذين رفضا في العام ١١٨٦ البيعة لغي عند تتويجه ملكاً ، ناهيك عن علاقاته الدبلوماسية الوثيقة مع صلاح الدين . وهو هنا يطلب من الملك تنفيذ خطة حربية مماثلة لتلك التي وجه اللوم الى غي بسببها قبل أربع سنوات ، لذا فقد كان من الطبيعي أن ينظر الملك الى المشورة التي قدمت له في الصفورية على أنها محاولة لإلحاق الخزي به مرة أخرى[1] .

لقد كانت هذه أول حملة رئيسية يقوم بها غي بعد تنصيبه ملكاً ، فهل كان يستطيع ، وهو على رأس جيش كبير كهذا ، أن يقف مكتوف الأيدي يرقب ضياع عاصمة الجليل وهو على بعد خمسة فراسخ عنها لا سيما وأن سيدة المدينة تطلب المساعدة العاجلة ؟ . وإذا ما أصر الملك على سلوك هذا المسلك فهل يستطيع أن يضمن مستقبلاً مساندة فرسان الداوية الأشداء له ؟ إن ما سبق كله يوضح لنا وزن المبررات التي رجحت لدى الملك إذا ما نظرنا إليها ، كما فعل الملك غي نفسه ، من منظور الأحداث السابقة . .

بعد تقليب وجهات النظر على هذا النحو غادر الجيش الصليبي معسكره في صباح الثالث من شهر تموز قاصداً طبريا . ورغم أن القادة كانوا يعلمون بأن خطة العمل التي وقع الخيار عليها سوف تورطهم في قتال شديد ، فقد كان هدفهم الأول هو انقاذ طبرية وليس خوض المعركة . بيد أن فشلهم في ذلك وتدمير الجيش في اليوم التالي جاء نتيجة لحدث كان بمثابة نقطة التحول الثانية في تلك الحملة : إذ أجبر الجيش على التوقف قبل وصوله طبرية ، واضطر الى تأجيل مسيره حتى اليوم التالي . فأقام الفرنجة معسكرهم خلال ما بقي من نهار الثالث من تموز والليلة التي أعقبته ،

---

١) ارنول ص ١٦١ — ٢ ، ايراكل .C و .G ص ٥٢ — ٣ .

وليس لديهم سوى مخزون ضئيل جداً من المياه الصالحة لهم ولخيولهم، وقد نكأت جراحهم وأنهكهم التعب وأرهقهم القيظ والغبار والعطش في وجود عدو محدق بهم. وهكذا حطمت كل هذه المؤثرات القوية معنوياتهم وضمنت هزيمتهم كما ضمنتها سهام المسلمين وهجماتهم السريعة.

توقف الجيش الصليبي بسبب النجاحات التي حققها المسلمون بطرائقهم الحربية غير المتبدلة. إذ تورط الفرنجة في القتال من وضعية المسير منذ لحظة إقامة التماس مع المفارز المتقدمة لجيش صلاح الدين في صبيحة الثالث من تموز. وقد سبق وعرفنا كيف أن مثل هذه الاشتباكات كانت مألوفة آنئذ في سورية اللاتينية. وكان المسلمون في مثل هذه المناسبات يستفيدون من طرائقهم التكتيكية الطبيعية لإيقاف رتل اللاتين أو تحطيمه، بينما كان الفرنجة يحاولون الحفاظ على تشكيلتهم المتماسكة وصد الهجمات عنهم دون إيقاف تقدمهم نحو وجهتهم. تدل دراسة مثل حالات القتال هذه على أن المسلمين كانوا يستخدمون رماة النبل عندهم لاستنزاف العدو، ويركزون أقصى جهدهم ضد مؤخرات الرتل. وهذا ما كان منهم في الثالث من تموز (يوليو). فما أن شرع الفرنجة في مسيرتهم حتى تعرضوا لهجمات استنزافية ظلت تتتالى طوال النهار. وشن رماة المسلمين الراكبون هجمة عنيفة ضد رتل اللاتين[1]، تعرض فيها الدواية بقيادة باليان ايبلين Balian of Ibelin، وكانت مهمتهم حراسة المؤخرة، لضغط شديد فأرسلوا رسالة يخبرون الملك عدم استطاعتهم الصمود أمام ضغط المسلمين أكثر من ذلك. وهي الرسالة التي دفعت غي في خاتمة المطاف لأن يقرر التوقف مؤقتاً في جوار قرية لوبية Lubya[2]. ولما كانت الهجمات الشديدة الموجهة الى حرس المؤخرة تربك القادة اللاتين دائماً فقد اتخذ القرار في مناسبتنا هذه بدخول المعركة.

في الرابع من شهر تموز أبيد الجيش اللاتيني وانتهى أمره قوةً مقاتلةً. ويؤكد

---

١) Libellus ص ٢٢٣، Ernoul ص ١٦٧، C. Eracles و G. ص ٥٤، A. و B. ص ٦٢.

٢) Libellus ص ٢٢٣، Ernoul ص ١٦٣ وهو يقدم دليلاً على أن باليان كان في حرس المؤخرة وأنه فقد عدداً كبيراً من فرسانه هناك.

المؤرخ بلدوين أهمية انفصال المشاة عن الفرسان في ساعة مبكرة أثنا القتال في ذلك اليوم في محاولة منه لتبرير الهزيمة. ومن الطبيعي أن يفعل ذلك لأن دلبش أكد هذا العامل بنفسه وهو مرجعه الثانوي الأول في التاريخ العسكري للقرن الثاني عشر. كما أكد ذلك ليبلّوس Libellus وهو مرجعه الأساسي. بيد أنه استنتج وبشكل صحيح أن «انفصال السلاحين.. لم يكن نتيجة قتال جيد التخطيط أو شديد الوطء عندما نشبت المعركة، وإنما بسبب الإعياء الجسدي الشديد الذي أصاب المشاة اللاتين نتيجة مناورة صلاح الدين في اليوم السابق»[1].

لقد نوقشت هذه النقطة في مقطع سابق[2] وضرب المثل عنها في القتال الذي دار عند عين الجوزة Cresson في الأول من أيار في العام ١١٨٧، تماماً كما حدث في اليوم الأخير من حطين. ففي المناسبة الأولى[3] صمم جيرار دو ريدفور على مهاجمة قوة مسلمة يعتقد أنها كانت تتألف من سبعة آلاف مقاتل رغم أنه لم يكن تحت تصرفه سوى عصابة من ماية وأربعين فارساً، وعدد من الرجال الراجلين تم حشدهم على جناح السرعة. وسواء أغرى الفرسان تراجع المسلمين المخطط أم أنهم سيقوا الى القتال بتأثير تحمس قائدهم للهجوم فإنهم تورطوا في الهجوم بدون تحفظ، بينما صمد المسلمون للصدمة ومن ثم أبادوا الفرسان والجند والمشاة[4]. مما لا شك فيه أن الهزيمة كانت تحدث عندما ينفصل الركبان عن الرجالة، ولكن النصر قد يتحقق أيضاً إذا كان الهجوم ناجحاً. فالإنفصال في حد ذاته لا يعد تفسيراً كافياً للكارثة، وإنما هي نتيجة قرار متهور بشن هجوم في وقت غير مناسب وفي ظروف غير ملائمة.

إن ما قاله المؤرخ بلدوين حول أسباب هزيمة حطين «[كان] انفصال السلاحين عن بعضهما... العامل الحاسم حقاً في هذه المعركة» فيه كثير من المبالغة. ففي صباح الرابع من تموز (يوليو) تبخرت عزيمة القتال لدى العناصر الهامة

---

١) Baldwin، ص ١٣١.

٢) أنظر أعلاه ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤.

٣) Libellus ص ٢١١ ــ ١٦، Ernoul ص ١٤٥ ــ ٧.

٤) Libellus ص ٢١٣ ــ ٤.

في الجيش قبل أن يستأنف القتال . إذ تراكبت هموم الليل الطويل وتوقع تجدد القتال في حر الصيف الى جانب إحراق الأرض حولهم من قبل المسلمين لتولد فيهم روح الانهزام، التي كان من مظاهرها تمرد المشاة Pedites وخيانة الفرسان الستة وفرار الكونت ريموند . بينما ظل من يملك الشجاعة والبأس منهم يخوض القتال حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر ، بيد أنهم عجزوا عن الصمود في وجه عدو متفوق عليهم في عدده ومعنوياته"[1].

وهكذا انتهت معرك يمكن أن تنطبق مع مضمون كل قسم من الأقسام الثلاثة في هذا الفصل . فلو أخذ بنصيحة الكونت ريموند لانتهت حملة العام ١١٨٧ بدون معركة على الأغلب ، كتلك الحملات التي وصفت في القسم الثاني من هذا الفصل . وبما أن محاولة إنقاذ طبرية بدأت فقد تورط الفرنجة أولاً في اشتباك خاضوه في حالة المسير ، وأخيراً في معركة يائسة خاضوها وخسروها وهم يتحلقون حول خيامهم يتوسطها صليب الصلبوت فوق ذرى حطين .

٦ ــ الاستنتاجات

أصبح من الممكن الآن وبعد أن درست بعض المشاهد المميزة من حرب الفرنجة (في القرن الثاني عشر) التعليق على الطرائق التي استخدموها لحل مشاكلهم العسكرية التي سبقت الإشارة إليها في مقدمة هذا الفصل.

كان الفرنجة ، مدركين كما هو واضح ، أن من مصلحتهم تجنب المعركة في غالب الأحيان . وقد صدوا أكثر من غزوة رئيسية دون أن يعرضوا أنفسهم لمخاطر القتال وعواقب الهزيمة القاتلة . وكانت نتيجة ذلك ، أن أغفل المؤرخون العسكريون دراسة هذه الحملات ، رغم وجود نشاط عسكري مكثف في مثل هذه الحالات ، يشمل فيما يشمل حل المشكلات التي أثارها الغزو ، وإقرار خطط العمليات ، واتخاذ الإجراءات الضامنة لوصول المعلومات المبكرة عن تحركات العدو ، وحشد القوات في

---

١) Baldwin ص ١٣١ .

قواعد تختار بعناية بحيث يتوفر فيها الماء والمؤن وقريبة من المناطق التي يتوقع أن يوجه العدو هجومه إليها . وعندما كانت تتضح نوايا القوات الغازية وتثبت صحة المعلومات عنها ، كان يرسل في طلب العون من الدويلات اللاتينية الأخرى غير المعرضة للتهديد المباشر . وكان القائد يحظر شن هجمات ضد العدو قبل أن تتجمع كل القوة المتوفرة له . ولم تكن مثل هذه القرارات تحظى بشعبية ، ويتطلب فرضها حلولاً مرنة . وبذلك فإن عدم نشوب معركة حاسمة لم يكن يعني عدم القيام بأي عمل حربي ، إذ كانت الغايات الحربية الهامة تتحقق بالتطبيق الدؤوب لخطة الحملة المدروسة جيداً مهما كانت الصعوبات .

كانت حركية المسلمين تمكنهم من إرهاق أرتال العدو المتحركة . وكان الفرنجة يضطرون في هذه المناسبات لاتخاذ إجراءات يستطيعون بفضلها مواجهة الهجمات من أي اتجاه تأتي وبخاصة الجنب والمؤخرة . وكان عليهم أن يضمنوا كذلك عدم انفصال بعضهم عن بعض وعدم ترك ثغرة في صفوفهم يستغلها المسلمون بسرعة لصالحهم . وكان كل رجل من مقاتليهم يحتل مكاناً في رتل المسير يمنع من مغادرته ، ويدركون أنهم بصلابة تشكيلتهم يعرقلون محاولة المسلمين الالتحام بهم ويردونهم على أعقابهم . وكانوا على هذا النحو قادرين على متابعة مسيرهم ولو من خلال صفوف المسلمين ... «inter acies turcorum» .

لم يعلق المؤرخون حتى الآن على العلاقة المحتملة بين هذه الاجراءات والتطبيقات الحربية البيزنطية . فقد تبنى ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus في حملته الأخيرة ضد التركانية تشكيلة ابتكرها هو بنفسه ــ كما تؤكد لنا ابنته ــ بغية مقاومة تكتيكاتهم التي أشرنا إليها . ويتطابق وصفها لتكتيكات أتراك الشمال مع الوصف الذي قدمه الكتّاب الفرنجة :

« .... كان جناحا الترك الأيمن والأيسر غير مرتبطين إطلاقاً مع القلب ، فكانت كتائبهم (أطلابهم) تقف وكأنها منفصلة بعضها عن بعض . وإذا ما هاجَمْتَ الجناح الأيمن أو الأيسر فإن القلب سوف يضربك بعنف ومعه باقي

الجيش كله المتمركز خلفه... وهم يحيطون بعدوهم إحاطة تامة ويطلقون عليه سهامهم، وينظمون دفاعهم هذا على مسافة منه»[1].

تبنى الامبراطور الذي كان دارساً للعلم العسكري ومبتكراً لتراتيب قتال جديدة، تشكيلة خاصة للرد على طرائق المسلمين كانت «صلبة ولا يسهل تحطيمها»[2] فكان يحتفظ بالنساء والأطفال من الأسرى في وسط التشكيلة «وعندما يسير الجيش بتشكيلته الجديدة التي وصفناها، فإنك سوف تقول إذا ما شاهدته أنها مدينة مسورة حية»[3]. وليس من المدهش أن نعلم أن الترك ــ رغم أنهم كانوا يهاجمون الجيش البيزنطي بلا توقف ــ «لم يكونوا يستطيعون تجزئته كلية أو جزئياً»[4]. ومن المحتمل أن يكون مفعول أساليب المسلمين التكتيكية ضد الفرنجة أكبر أثراً من نصيحة ألكسيوس، بحيث اضطرتهم الى تبني تشكيلة المسير المتراصة أيضاً، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون ألكسيوس وغيره من البيزنطيين قد نقلوا شيئاً عن خبرة الاغريق الحربية الى الصليبيين.

لم تتميز معارك الالتحام في تلك الفترة بوجود خطط تكتيكية معقدة أو تشكيلات مركبة. ويمكن بالتالي إيجاد عدد قليل من الملامح العامة بينها، كما لاحظ الدارسون القدامى لهذا الموضوع. فعندما يتخذ القرار الهام حول خوض المعركة تصبح الترتيبات اللازمة بسيطة للغاية. وكان الفرنجة يعتمدون في نصرهم على الهجوم الذي يشنه الجند الخيالة، بينما يبقى الفرسان تحت تغطية ستارة من الجند المشاة حتى تحين لحظة شن الهجوم. وظلت مجموعات الجند هذه من النشابين والرماحة طوال القرن تملك القوة الدفاعية العنيدة التي أبدتها مكرهة وعن غير قصد منها في معركة دوريليوم، وعن عزم وتصميم عند أنطاكية والرملة، وبقيت محافظة عليها بعد تسعين عاماً من ذلك عند أرسوف ويافا. لقد كان جنود المشاة يشكلون دائماً جزءاً

١) Anna ص ٣٩٧ ــ ٨ .

٢) المصدر السابق ص ٣٩٨ .

٣) المصدر السابق ص ٤٠١ .

٤) المصدر السابق ص ٤٠٢ ؛ Buckler, Anna Comnena PP. 393-6

طبيعياً من الجيوش اللاتينية ، ويتخذون مواقعهم في المراحل الأولية من بدء المعركة أمام القوات الراكبة عادة بمهمة إيقاف العدو وإبقائه تحت الرقابة حتى يتمكن الفرسان من شن هجومهم الحاسم بالانقضاض.

لم يكن الخيالة يهاجمون كتلة واحدة وإنما كانوا ينقسمون الى كراديس (سرايا) عدة. وقد ذكر هيرمان Heerman أن هذه الكراديس (السرايا) لم تكن تقل عن خمسة أو ستة من حيث عددها ، وأن تعدادها المتوسط كان يتروح — في أكثر من مناسبة — بين مئة ومئة وخمسين فارساً. ويبدو لنا من سجلات المذكرات أن الكراديس كانت تنظم بترتيب ثلاثي تقريباً يتألف من القلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر ، ولكن من الصعب جداً أن نحدد فيما إذا كان هؤلاء الكتاب يصفون حقائق تكتيكية أم أنهم يراعون في ذلك عرفاً أدبياً ربما كان يعتمد على نماذج كلاسيكية.

اهتم عدد كبير من المؤرخين العسكريين اهتماماً كبيراً بالتشكيلة التي كانت كراديس الفرسان تنتظم فيها قبل دخول المعركة ، والترتيب الذي كانوا ينطلقون فيه للهجوم. ورغبوا في رسم الفروق بين الترتيب العميق والترتيب الرقيق (قليل العمق) «Tiefe und flache Ordnung» ، والترتيب المتوازي «Ordre Parallele» ، والترتيب المتعامد «Ordre Perpendiculaire» ، بينما فكر هيرمان بأن يبرهن أن الهجوم على نسق كان إجراء طبيعياً تماماً. ويبدو في الواقع أن تبني تشكيلات بعينها بصورة دائمة أمر لا يمكن إثباته. إذ أن معظم الشواهد المتوفرة شديدة الغموض الى درجة لا يمكن معها شرحه بالتفصيل ، بينما يشير الباقي منها الى تشكيلات متنوعة. كان الفرنجة يقاتلون أحياناً بالرتل ، وكانوا يضطرون الى ذلك عندما يهاجمون من وضعية المسير. أما في معارك الالتحام فيبدو أن الكراديس (السريا) اعتادت الاصطفاف متجانبة ، أو على نسق ، ومما لا شك فيه أنها كانت تتبنى مثل هذه التشكيلة في مناسبات معينة. ففي التاسع من شباط العام ١٠٩٨ مثلاً وضع الفرنجة نصب أعينهم تغطية أكبر جبهة يستطيعون تغطيتها لكي يستفيدوا من ميزة الحماية الطبيعية المتوفرة على جانبي

الجيش، وكذلك فعلوا في الثامن والعشرين من حزيران. وقد حدث الاشتباكان في وقت كانوا يعانون فيه من نقص شديد بالخيول، بحيث لم يكن يتوفر لديهم سوى بضع مئات من الخيول الملائمة لحمل الفرسان في أرض المعركة. ولا بد أن يكون الفرسان في كل كردوس من الكراديس قد اضطروا الى الهجوم على خط بسبب ضرورة احتلال جبهة عريضة. ومن المحتمل كذلك أن يكونوا هاجموا على خط أيضاً في كثير من الأحيان لأن مثل هذه التشكيلة تسمح بالاستفادة إفادة كاملة من الخيالة المدرعين الذين يعتمد عليهم كثيراً، والذين كانوا قليلي العدد دائماً.

لم تكن قوة الفرنجة الراكبة تنطلق بكاملها الى الهجوم في آن واحد. وقد بين هيرمان بوضوح، وأكد بحق، أن فرق الجيش كانت تهاجم بالتتابع في مناسبات عدة. ولم تكن تلك الفرق تتقدم على المحور نفسه، لأنه يمكن البرهان على أنها كانت تصطدم بأقسام مختلفة من خطوط العدو. ومما لا شك فيه أن الهجوم على نسق كان تطبيقاً شائعاً، ولكننا غير متأكدين فيما إذا كان الفرنجة يتخذون هذه التشكيلة سلفاً ويتقربون بها من العدو أم لا. وقد برهن هيرمان ببراعة على أن التقدم بهذه التشكيلة تم فعلاً عند أنطاكية وعند سرمين، إلا أن البراهين التي ساقها فيما يخص باقي المعارك ضعيفة للغاية ولا تلقى قبولاً عاماً.

أظهرت معارك تلك الفترة بوضوح أهمية وجود قائد ميداني واحتياط تكتيكي لدى الفرنجة. وقد يبدو الأول منهما قليل القيمة بشكل خاص لولا حقيقة افتقار الفرنجة فعلاً للزعامة الفاعلة. وقد كانت ثمة فترات ومناسبات هامة انقسمت فيها القيادة بعضها على البعض أو انتفت كلية. فإذا ما وجد ثلاثة ملوك في جيش — كما حدث في الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة، فلن تكون هناك وحدة في القيادة، وإذا ما وضعت الخلافات السياسية مملكة ما على شفا حرب — كما حدث في بيت المقدس في السنوات التي سبقت حطين مباشرة— فإن النزاع كان يتسبب في انقسام القيادة العليا. إلا أن الأكثر شيوعاً بالنسبة للفرنجة خلال القرن الثاني عشر كله هو خضوعهم لقائد مفرد عندما يقومون بحملة ما. ففي ثلاث معارك خارج أنطاكية

ـ في العام ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ـ كان بوهمند يملك زمام القيادة الكاملة دون منازع. وكان بوهمند شخصياً، في كل واحدة منها، يملك احتياطاً تكتيكياً تحت تصرفه مباشرة يتدخل به في القتال ليحسم الأمر. وكان ملوك القدس يمارسون بالطريقة ذاتها ـ قبل العام ١١٨٣ ـ صلاحيات كاملة على جيوشهم عادة، وغالباً ما يتخذون مواضعهم في ميدان القتال بحيث يستطيعون قيادة الفرقة الاحتياط الموجودة تحت تصرفهم المباشر وتوجيهها نحو أي قسم يحتاج الى المساعدة في صفوف الصليبيين.

أظهر الفرنجة نوعاً من الاستمرارية في تطبيق تلك المسائل كافة أثناء القتال ولكن مع إدخال بعض التغيير كذلك. فقد أدرك الفرنجة منذ أول اصطدام لهم مع السلاجقة أنهم يواجهون مشاكل تكتيكية من نوع جديد وأن من الضروري إدخال تعديلات على طرائقهم الحربية المعتادة. ووجدوا أن عليهم الوقوف صامدين في مواجهة النشابين وفي حال التطويق، مع تجاهل الاغراءات التي يتيحها لهم المسلمون بتحركاتهم المخادعة، والمحافظة على تماسكهم وثباتهم، حتى يصبح في إمكانهم اختيار اللحظة المناسبة لشن هجومهم وهم واثقون من تسديد الضربة الى الكتلة الرئيسية للعدو. وتكشف سجلات الحملة الصليبية الأولى عن تمثلهم لهذا الدرس. ففي العام ١٠٩٨ أرسل الأمراء اللاتين رسالة الى البابا أوربان الثاني يصفون له فيها أعمالاً بعينها خاضوها ضد السلاجقة. وكان مما أخبروه عن معركة الثامن والعشرين من حزيران العام ١٠٩٨ كيف راح الترك يشتتونهم ويطوقونهم واستمروا على هذا النحو طويلاً:

«Sed nobis multis bellis contra eorum calliditates et ingenia edoctis, ita gratia Dei et misericordia subvenit, ut qui paucissimi ad eorum comparationem eramus, omnes illos in unum cogimus et coactos, dextera Dei nobiseum dimicante»[1]

لقد أدرك الفرنجة جيداً أن عليهم المناورة إزاء المسلمين ضمن كتلة متماسكة

1) HSP. P. 163, Epistola Boemundi et atiorum pincipum ad Urbanum papam.

قبل أن يشقوا طريقهم بأنفسهم. وبعد عقدين من الزمن أخبرنا والتر المستشار كيف شُنت الهجمات ضد مفارز الجيش الاسلامي عندما كانت تغير جماعياً «gergatim»[1]. ومن المحتمل هنا أيضاً أن يكونوا قد استفادوا من نصيحة ألكسيوس كومنين وغيره من العسكريين البيزنطيين. فهنالك تشابه الى حد ما بين التكتيكات التي أشار بها الأمبراطور ليو الحكيم لتستخدم ضد السلاجقة وتلك التي طبقها بوهمند. إذ نصح الأمبراطور أن على القائد الذي يقود العمليات ضد الترك أن يهتم بتغطية جناحيه ومؤخرته بعوائق طبيعية، وأن يتجنب المطاردة، وأن يستفيد من المشاة الثابتين، وأن يخوض القتال بالالتحام دون تأخير[2]. وقد رأينا كيف أن بوهمند إنما حقق انتصاراته عند أنطاكية في العام ١٠٩٧ و ١٠٩٨ بضمان الحماية الطبيعية لجناحي صفوفه المقاتلة، وبالاحتفاظ باحتياط، وبشن الهجوم في أول فرصة عملية سنحت له. كما رافق الجند الراجلون فرسانه في المعركة أيضاً وسبقوهم الى القتال في أعظم انتصاراته. ويبدو من المؤكد أنه استفاد من الخبرة البيزنطية في هذا المجال. ونحن نعلم أنه تلقى تلك النصيحة، كما رأينا، من الكتابات العسكرية البيزنطية، التي لابد وأن يكون قد حصل عليها من خلال التعاون مع البيزنطيين والاحتكاك بهم، وأن أعماله كانت متوافقة مع ما بلغه منه. أضف الى ذلك عبقريته العسكرية التي فطر عليها والتي ساهمت كثيراً في هذا المجال. فقد كان الزعيم الوحيد بين صليبيي الحملة الأولى الذي برز في شخصية قائد كبير بارع. فلم يكن جيشه مؤلفاً من تلك الأفواج جيدة التدريب التي كان الجيش الروماني القديم يتمكن بوساطتها من وضع نظرياته قيد التطبيق، وإنما من حشد متنافر متباين الألوان من الحجيج يضم الكثير من السوقة وغير القادرين على القتال. وكان يوجد بين الفرسان مغامرون ومتفردون ومن لم يعتد الانضباط العسكري وغير مستعد للقبول به.

إن تطور الأساليب التكتيكية الفرنجية في الحملة الصليبية الأولى مدين بعض الشيء للخبرة البيزنطية ولا شك، ولكنه مدين بالشيء الكثير أيضاً لمقدرة بوهمند

1) Galt. P. 82.

2) Oman I PP. 206-7.

الرائعة على تكييف الوسائل المختلفة التي كانت تحت تصرفه وفق متطلبات خطط المعركة ــ وهي مقدرة لم يعادلها طوال القرن سوى مقدرة ريتشارد بلانتاجنيت[1] Richard Plantagenet ــ وفق ردود الفعل الطبيعية التي كان يقوم بها الصليبيون في مواجهة المسلمين في طرائق قتالهم الى حد ما.

بعد أن غاب بوهمند عن الأحداث الحربية ظلت أهمية وجود الاحتياط وتوقيت الهجوم موضع تقدير طوال القرن الثاني عشر، ولكن لم نسمع سوى القليل عن حماية الجوانب بالموانع الطبيعية رغم استخدام الحراسة الجانبية في غالب الأحيان. وكان معظم الاجراءات التكتيكية الأساسية في خاتمة المطاف محصلة لرد الفعل الطبيعي التي سبقت الاشارة اليها. وقد ذكرنا أنفاً أن المسلمين كانوا يعمدون الى اضعاف معنويات العدو وخلخلة تشكيلتهم قبل أن يبادروا أنفسهم الى تنفيذ انقضاضهم الأخير. بينما كان الفرنجة بطبيعة الحال يسعون ما أمكن الى الحيلولة دون تحقيق مثل هذه الأهداف بكل الوسائل التي كانت تحت تصرفهم. فتبنوا على هذا النحو التشكيلة المتراصة واستفادوا من الخصائص الدفاعية لجنود مشاتهم ومن العون المتبادل الذي كان يقدمه هؤلاء الفرسان بعضهم الى بعض، الى أن يتمكن الخيالة من تسديد الضربة القاضية. لقد كانت الخطط بسيطة ولكنها كانت تفترض توفر القيادة والانضباط، فإذا ما فشلت كانت الهزيمة واقعة لا محالة.

---

١) اللقب الذي اشتهرت به أسرة آنجو التي حكمت بريطانيا ويقصد به ريتشارد قلب الأسد.



الفصل السابع





تقوم الحكومات كافة على مبدأ القوة الى حد ما ، ولكن القوة كانت الاساس الرئيسي على الأرجح لقيام الممالك الفرنجية في سورية ولم يكن خطر الغزو وحده هو المتربص بها باستمرار ، وإنما كان الكثير من رعاياها غير راضين تماماً عن حكامهم اللاتين ، ويظهرون في الكثير من المناسبات الهامة ولاءً مشكوكاً بأمره أو عداء ظاهراً وفعالاً . وكانت قوة الفرنجة تكمن في أداتين توأمين هما جيش الميدان والمعاقل المحصنة ، وهذه الاداة الثانية هي موضوع البحث في هذا الفصل . وسوف نناقش في القسم الأول منه الوظيفة الحربية للقلاع بينما نتحدث في القسم الثاني عن شكلها .

١ ـــ الوظائف الحربية للقلاع

لم تكن الوظيفة الحربية للقلاع في سورية اللاتينية تتجاوز في أهميتها ما سبق وأشرنا إليه أو تناولناه بالبحث في فصل سابق[1] . ويفضل المؤرخون باستمرار النظر إليها على أنها وسائل للدفاع عن الحدود بصورة رئيسية . وهم يصوغون آراءهم تلك ـــ غالباً ـــ في عبارات مجازية ليس لها معنى دقيق ، كأن يقولوا على سبيل المثال : إن القلعة « تحرس الحدود » أو « تسيطر على الوادي » أو « تقطع الطريق » . ولما كان ثمة حِقب في التاريخ كانت القلعة تعفى فيها من هذه الوظيفة حرفياً في زمن الحرب

١) أنظر أعلاه ص ١٠٦ ـــ ١٠٩ .

فلا بد لنا من التأكيد سلفاً على أن القلعة في القرون الوسطى كانت كذلك من بعض النواحي. ففي القرن الثامن عشر ــ مثلاً ــ كانت إقامة الجيش في الميدان تعتمد غالباً على مواصلاته مع مستودعاته، وإذا ما تمكنت مدفعية العدو المركبة فوق قلعة أو حصن من عرقلة المرور على طريق هام فإن الطريق يصبح ــ حرفياً ــ تحت «سيطرة» الحامية[1]. بيد أن الظروف التي كانت سائدة في سورية اللاتينية تختلف عن ذلك تماماً. إذ كانت الجيوش الميدانية الصغيرة تعيش على حساب البلاد التي تجوبها. ولم تكن تعتمد نقل مؤنها من قواعدها على عربات ذات عجل، فلم تكن مقيدة ــ على هذا النحو ــ بأي طريق كانت. كما لم يكن بالإمكان إعاقة تحركاتها برمايات المدفعية البدائية في ذلك العصر. فكانت الطرق أو المناطق تخضع لسيطرة الحاميات في القرون الوسطى فقط من حيث تحكم تلك الحاميات بها في زمن السلم ومقدرتها على إخماد الإضطرابات المدنية أو رد غارات العدو الصغيرة عنها. ولكن إذا ما نشبت الحرب على مستوى يهدد الاحتلال اللاتيني بأكمله فإنه ما من قلعة أو مجموعة قلاع تستطيع سد الطريق في وجه قوة غازية[2]. وهكذا جرت العادة بالتالي على ربط التحصين في سورية اللاتينية بالدفاع عن الحدود، وعدَّ المؤرخون مجموعات قلاع بعينها على أنها منظومة دفاعية متكاملة. وتبدو وجهة النظر هذه في أوضح معانيها عند بروتز Prutz، فهو يدعي، بالاستناد الى خريطة يستشهد بها تحوي الأماكن المحصنة في سورية اللاتينية، بأن الفرنجة أقاموا حلقة خارجية من الدفاعات على امتداد الحدود، ودعموها بخطين داخليين من المنشآت الكبيرة. وقد وجدت مثل هذه الأفكار مرتعاً خصباً لها في كتابات راي Rey وديشامب[3] Deschamps.

والواقع أن خريطة من النوع الذي تبناه هؤلاء الكتاب تعد مادة تاريخية

---

1) Spenser Wilkinson, the Defence of Piedmont, PP. 69-72

٢) أنظر أعلاه ص ٤٨ ــ ٥١.

3) Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge, PP. 195-6; Rey, Etude sur les monuments de l'architecture militaire des croises en Syrie et dans l'ile do chypre P. 4; Deschamps, Le crac des Chevaliers PP. 16-42.

يستطيع المؤرخون الاعتماد عليها في تعميمهم هذا وبخاصة إذا ما رسمت بالاستناد الى أبحاث ودراسات ناقدة للشواهد التي تقدمها الصروح التذكارية والمصادر الأدبية. ومع ذلك لا بد عند استخدام مثل هذه الخريطة من توخي الحذر. أما وجهات نظر بروتز فغير مقبولة بالتأكيد نظراً لكونها تستخدم منظومة دفاعية مخططة عن عمد بما يتناسب مع وضع الحدود. والأكثر من ذلك أن خريطة التحصينات في سورية اللاتينية هي «رق ممسوح» (Palimpsest)، أي أنها لا تحمل آثار المتطلبات العسكرية الخاصة بالصليبيين فحسب، وانما تسجل آثار سابقيهم أيضاً. وقد احتل الفرنجة القلاع التي كانت تشكل الحدود الشمالية الغربية للدولة الاسلامية كما كانت موجودة منذ القرن السابع وحتى القرن العاشر[1]، كما احتلوا قلاعاً أخرى كانت مشادة على الأطراف الجنوبية لدوقية أنطاكية البيزنطية التي أسسها ابن الشقمقيق (جون تزيميسكس) Zimiskes ونقفور فوكاس[2] Nicephorus Phacas.

ورب قائل يقول إن الفرنجة لم يحتلوا من المعاقل القوية التي وجدوها قائمة سوى تلك التي يحتمل استخدامها ضد الغزاة. وهنا لا بد من التذكير مرة أخرى بأن قلعة القرون الوسطى كانت أكثر من مجرد قلعة بالمفهوم الحديث، فهي تمكن ساكنها أو نزيلها من تلبية الحاجات العامة وحاجاته الخاصة. إذ يستطيع ــ من جهة ــ أن يحتفظ بداخلها بالقوة اللازمة له للسيطرة على المقاطعة المحيطة بها وإدارة شؤونها وحمايتها. كما يستطيع ــ من جهة أخرى ــ استخدام القوة ذاتها ليجني منافع من تلك المنطقة واستغلال سكانها. إن عملية الاستيطان اللاتيني في زمن الحملة الصليبية الأولى لم تأت نتيجة احتلال رتبته ونظمته سلطة واحدة، ولكنها توسع كيفي أوجبته الجرأة والطمع اللذين كان يتحلى بهما بعض الأفراد. ففي مثل هذه الظروف لم تكن تحتل المعقل سلطة عامة تضيف اليه لبنة الى منظومة دفاعية تخطط لها، وإنما

---

1) Le Strange, Palestine under the Moslems P. 26.

٢) منها قلعة صهيون وبرزية وصافيتا وبكسرائيل Bikisr'ail والعليقة ربما، أنظر Dussaud, Topographie, PP. 119-151-2، وكذلك Cahen, Syrie du Nord PP.172-3 وكذلك Van Berchem, Voyage en Syrie PT. I, P. 269.

كان يحتله أفراد ينزعون الى الحصول على ممتلكات خاصة. وكان الوضع الاقتصادي للقلعة أهمية تفوق بكثير أهمية وضعها العسكري الصرف.

إن هذه الاعتراضات على الأفكار التي طرحها بروتز لاتنسحب بقوتها ذاتها على أفكار ديشامب. إذ يرى هذا الباحث الفرنسي أن الدويلات اللاتينية كانت محمية بسلاسل الجبال والمرتفعات التي تفصل بين السهل الساحلي السوري والوادي الانهدامي. وهذا الحاجز مقسم ـــ على كل حال ـــ بضهرات جبلية وممرات عريضة تؤمن طرق مواصلات سهلة لعدو يهاجم من الشرق الى الغرب. وكانت حماية السهل الساحلي تتطلب ادخال تحسينات على البيئة الطبيعية للتخلص من عيوبها بانشاءات يقوم بها الانسان، ولم تكن أهم التحصينات التي أقامها الفرنجة سوى استجابة لتلك الحاجة. إن الشواهد التي حوتها الخريطة تقدم تأييداً لوجهة نظر ديشامب هذه، ولكن تبين لنا كذلك بأنه يبالغ جداً في حافز الدفاع عن الحدود الذي عزاه الى الفرنجة، مثله في ذلك مثل بروتز وراي Rey. ومما لا شك فيه أن المعاقل المحصنة في بعض الأماكن التي تتمتع بأهمية عسكرية خاصة، مثل المنطقة المجاورة لجسر الشغور[1] والفجوة العريضة الواقعة الى الشمال من جبال لبنان والتي تؤمن المواصلات بين حمص وطرابلس، كثيرة العدد بشكل يلفت النظر[2]، بينما هي قليلة جداً عندما تتكفل سلسلة جبال لبنان الرئيسية بتأمين الحماية القصوى للحدود. ومن جهة أخرى تدل الخريطة على وجود كثير من القلاع البعيدة عن الحدود. وهي تزداد كثافة خاصة على السهل الساحلي ما بين حيفا ويافا، في قلب مملكة اللاتين، بينما توجد منافذ هامة تؤدي الى داخل المملكة تعد فقيرة جداً بالمعاقل المحصنة.

كانت دمشق طوال تلك الحقبة القاعدة الأكثر أهمية للسلطة السياسية المسلمة من أية مدينة تقع في أواسط مجرى العاصي، وكان الدفاع عن الطرق السهلة المؤدية من دمشق الى داخل مملكة اللاتين بالتالي مشكلة أكثر الحاحاً من الدفاع عن

1) Dussaud, Topography, P. 170.

2) Deschamps, Le Crac, PP. 30-1.

ممر حمص طرابلس. إذ أن أية قوة مسلمة تنطلق من دمشق الى بانياس (في الجولان) تصبح على الطريق الرئيسية المؤدية الى صور وصيدا. كما يمكنها أيضاً الاندفاع عبر مجرى نهر الأردن الأعلى لتبلغ سهل عكا. ولو كان ديشامب مصيباً في وجهة نظره القائلة بأن الفرنجة أشادوا قلاعهم بما يتلاءم أساساً مع حدودهم لكان لنا أن نتوقع وجود أقوى التحصينات على هذا القاطع من الحدود الشرقية طالما أنه يوفر أسهل الطرق المؤدية الى الموانىء البحرية الرئيسية لمملكة اللاتين، نظراً لعدم توفر الموانع الطبيعية فيه. ولكن الخريطة تقول عكس ذلك، وإن أي برهان يناقض ذلك لن يكون مقنعاً إذا ما تذكرنا أن بانياس لم تبق في يد الصليبيين إلا في الفترات الواقعة بين العام ١١٢٩ والعام ١١٣٢م، وبين العامين ١١٤٠ و ١١٤٦، وأن القلعة الصغيرة عند مخاضة يعقوب لم تؤسس إلا في العام ١١٧٨ وخربت الى الأبد في العام ١١٨٠. كما أن دخول المملكة عن طريق الأردن بالعبور مباشرة جنوبي بحيرة طبرية عند جسر الصنبرة، والذي استخدم خلال الغزوات الرئيسية التي قام بها مودود وطغتكين في العام ١١١٣ وصلاح الدين في الأعوام ١١٨٢ و ١١٨٣ و ١١٨٧ لم يكن محمياً في الواقع. ويبدو أنه لم يكن هناك أي حصن قريب من جسر الصنبرة. ولو رغب الغازي ـــ كما فعل صلاح الدين ـــ أن يتابع مسيره عن طريق وادي زرعين (يزرعيل Jezreel) فلن يواجه أي معقل محصن رئيسي هناك. صحيح أن طريقه كان تحت رقابة قلعة الاسبتارية المعروفة باسم كوكب الهوى (بلفوار Belvoir)، إلا أنه لم يكن يوجد على الطريق ذاته سوى قليعة بيسان الضعيفة، وقلعة الفولة الصغيرة عند رأس وادي زرعين[1]. فإذا ماراعينا هذه الحقائق توجب علينا أن نؤكد أن حكام دمشق كانوا طوال القرن ـــ باستثناء الفترة الواقعة ما بين العام ١١٤٠ والعام ١١٥٤ ـــ أعداء متربصين بالدويلات اللاتينية. وكان خطرهم عليها أعظم شأناً من خطر أي حاكم لحمص أو وال عليها. وكانت الطرق الواصلة ما بين دمشق وشمالي فلسطين تستخدم من قبل الجيش الغازي أكثر من طريق حمص طرابلس. ومع ذلك فإن الحدود التي كانت تجتازها تلك الجيوش غير محمية بمنشآت محصنة مثل تلك.

---

1) George Adam Smith, Historical Geograrhy of the Land, P. 357.

وفي أواخر القرن الثاني عشر وعندما أخذ ضغط المسلمين من دمشق يتزايد بشدة أخذ الفرنجة يزدادون قلقاً من هذا الخطر فأقاموا قلعة جديدة في هونين وأخرى عند مخاضة يعقوب (مخاضة الأحزان ـــ م.م)، وزادوا في تقوية قلعة كوكب الهوى الخاصة بالاسبتارية[1].

كانت كل قلعة تتحكم بجوارها مهما كان موقعها، وكان ذلك أمراً جوهرياً للمحافظة على السيادة اللاتينية في المنطقة. ومن الخطأ ـــ بالتالي ـــ أن مثل هذه المنشآت لم تكن سوى وسائل للدفاع عن الحدود فقط، إلا أن ذلك لا ينفي الأهمية الخاصة لقلاع الحدود. وقد أدرك حكام الدويلات اللاتينية أنفسهم تلك الأهمية في عدة مناسبات وتفهموها تماماً. فبعد زلزال العام ١١١٤ أعطى روجر أمير أنطاكية الأفضلية الأولى في ترميم الأضرار. التي لحقت بممتلكاته الى تلك القلاع التي تؤمن الدفاع عن الأمارة «quae defensioni suae terrae utiliora et hostibus propinquiora novit.»[2]. وبعد أن تملك صلاح الدين حلب في العام ١١٨٣، أولى الفرنجة عناية خاصة الى دفاعات مدنهم التي تقف في مواجهته «In confinibus hostium»[3]، ويدل البناء المتأخر في منطقة الجليل للقلاع المذكورة في الفقرة السابقة، على أنها تستطيع استشعار الخطر الذي تتعرض له الحدود. ولما كانت مقاطعات الحدود تتعرض لهجمات مفاجئة ومتكررة فقد كانت المعاقل التي تتحكم بها تتمتع بأهمية أكبر من تلك التي تقع على مسافة أبعد عن العدو، نظراً لأنها تحول دون تقليص المساحات التي يسيطر عليها الفرنجة.

كانت القلاع الحدودية تتيح للصليبيين ـــ عندما تتعرض سورية اللاتينية للغزو ملاقاة عدوهم قبل أن يتوغل عميقاً في أراضيهم. وكان الجيش الميداني يتحشد عادة

1) Deschamps. Defense, P. 14.

2) Galt, P. 25.

٣) وليم الصوري ص ١١١٤ .

في نقطة تقع خلف الحدود[1] حيث تنضم اليه فرق قادمة من المعاقل المحصنة، بما فيها تلك الموجودة عند الحدود. وثمة مناسبات غادرت فيها حاميات الثغور أماكنها مبتعدة عن العدو كي تنضم الى الجيش اللاتيني الرئيسي الذي يتحشد على مسافة عن الحدود[2]. وماإن يعرف اتجاه الهجوم المعادي حتى يسعى قادة الفرنجة الى إقامة التماس مع القوات الغازية بدون إبطاء. وفي مثل هذه المناسبات قد يعطى المعقل المحصن على الحدود أهمية أولى، لأنه يؤمن للقوات المأوى والمياه والمؤن بفضل وجوده في منطقة مزروعة. فإذا كان العدو قوياً جداً بحيث لا يمكن تحديه في الميدان تستطيع القوة اللاتينية أن تلوذ بأسواره، كما يستطيع ذلك من يبقى حياً منها إذا ما لحقت بها الهزيمة[3]. لهذه الأسباب جميعها كان رأي المعاصرين أن من الحكمة مواجهة العدو في جوار قلعة صديقة[4].

وهكذا نجد أن للقلعة الواقعة على الحدود أهمية خاصة في القضايا العسكرية، إلا أن القلعة في القرون الوسطى ـــ على العكس من الحصن الحديث ـــ كانت تقوم بعدد من الوظائف الأخرى إضافة الى تلك التي سبقت الإشارة إليها[5]. إذ تسجل المصادر مناسبات شيد الفرنجة فيها قلعة لأسباب عسكرية صرفة بالنسبة لزمن تأسيسها. وسوف نأتي على ذكر بعضها في ما بقي من هذا القسم، وسوف نرى أن الكثير من قلاع الصليبيين ـــ حسب ما تبينه الشواهد المتوفرة ـــ لم يؤسس بهدف الدفاع وإنما بهدف الهجوم المتعمد والمخطط.

١) من ذلك مثلاً استخدام الرجية من قبل تنكريد في العام ١١١١ (أنظر أعلاه ص ٢١٩) ومن قبل روجر في العام ١١١٥ (أنظر أعلاه ص ٢٢٥) واستخدام الصفورية من قبل جيش بيت المقدس في العام ١١٧٠ (أنظر أعلاه ص ٢٢٩).

٢) يسجل غالت (والتر) (ص ٩٩) أن إيلغازي قرر في العام ١١١٩ محاصرة الأثارب لأن صاحبها آلان Alan غادرها مع فرسانه إلى أنطاكية، حيث كان الملك يجمع كل القوى العسكرية المتوفرة لديه. كما يذكر بهاء الدين (ص ٧٤) تدمير فرقة شرقي الأردن خلال مسيرها من أجل الانضمام إلى التعبئة العامة عند الصفورية عام ١١٨٣.

٣) كما فعل بلدوين الرابع في عسقلان في العام ١١٧٧، (أنظر أعلاه ص ١٩٧ حاشية رقم ١).

٤) أنظر أعلاه ص ١٩٧.

٥) أنظر أعلاه ص ١٠٦ ـــ ١٠٩.

لم يكن استخدام أبراج الحصار Gegenburg في حرب الحصار في العصور الوسطى غير شائع. ولم تكن الحامية المحاصرة تخوض دفاعها من خلف الأسوار الحجرية دائماً، وإنما تشن إغارات وهجمات مفاجئة في داخل معسكر العدو. وفي مثل هذه الحالات يمكن أن يحتاج المحاصِرون الى قاعدة مأمونة لعملياتهم فيعمدون الى إقامة تحصينات مؤقتة ضمن خطوطهم، ويمكن أن تستخدم مثل هذه المنشآت أيضاً لمراقبة البوابات التي تنفذ من خلالها الإغارات المفاجئة. ويؤكد ذلك أول القلاع التي أقامها الفرنجة في سورية لهذا الغرض[1]. إذ بدأ حصار أنطاكية في شهر تشرين الأول (اكتوبر) من العام ١٠٩٧، ومن المرجح أن مجلس القادة قرر في الشهر التالي إقامة برج يحميهم خارج بوابة القديس بولس، فكان نتاج ذلك حصن مالْرغارد «Malregard»، الذي سرعان ما أصبحت حاميته قادرة على تحدي إغارات المسلمين المفاجئة[2]. ويبدو أن هذه المنشآت كانت ناجحة وأتت بنتائج طيبة، لأنه تقرر أن يقام بناء آخر في شهر آذار الذي تلا فوق نهر يقع عند الحافة الغربية لجسر العاصي الرئيسي تستطيع الحامية منه أن تتحكم بالمخرج عند بوابة الجسر[3]. ثم أقيم معقل ثالث وهو الأخير خارج بوابة القديس جورج عند السور الجنوبي لأنطاكية. وكانت المنشآت الثلاثة على هيئة حصن ودير، وشغل تنكريد القلعة الجديدة بقوة من أتباعه الخاصين[4].

تطور الاستيطان الفرنجي عبر سلسلة من عمليات الحصار كان بعضها يطول سنوات وشرع بوهمند بإقامة سلسلة من هذه المنشآت ضد حلب، التي لم تهن طوال ربع قرن، وكان يزمع تحصين المباني، التي كانت موجودة في جوار حلب مباشرة منذ

1) Prutz, Kulturgeschiehte, P. 194. Jahns, Handbuch, P. 682.

٢) الكاتب المجهول ص ٧٠ ، رايموندوس ص ٢٤٧ ، .HEP ص ١٥٧ .

٣) الكاتب المجهول ص ٩٦ ، رايموندوس ص ٢٤٨ ، .HEP ص ١٥٨ ، ١٦٦ .

٤) الكاتب المجهول ص ٩٨ ، رايموندوس ص ٢٥٠ .

العام ١١٠٠، لدعم هجومه ضدها، ولفرض حصار دائم عليها[1]. وبعد عشر سنين من ذلك التاريخ شرع ابن اخيه تنكريد في إقامة حصن على تل ابن معشر ليتخذ منه قاعدة لهجماته الموجهة ضد شيزر[2]. وفي العام ١١٠٣ بدأ صنجيل (ريمون دوسانجيل) حصاره لطرابلس. ولم يكن لديه إلا القليل من الأتباع بينما كانت دفاعات المدينة قوية وسكانها كثيرون، كما كان يتوقع هجمات يشنها حكام الأراضي التي لم تخضع لهم من المسلمين، فاختار بالتالي موقعاً لبناء حصن يسهل الدفاع عنه على مرآى من أسوار طرابلس. وتنازع السلطة من القلعة التي أقامها هناك مع حكام المدينة على كل المنطقة المحيطة بها حتى استسلموا له بعد ست سنوات وقد قطعت عليهم سبل الإمداد[3].

كانت صور مرفأ بحرياً أشد مناعة من الناحية الطبيعية والصنعية. وكان بإمكانها الاتكال على العون الذي يأتيها من الفاطميين في مصر ومن حكام دمشق. ودلت أول محاولة قام بها الفرنجة على أنها لن تسقط بسهولة في يد اللاتين. ويقول وليم الصوري إن هيو سانت أومر Hugh of st Omer، الأمير الثاني للجليل نظم هجمات كثيرة ضد صور، إلا أن بُعد قاعدته عند طبرية عن تلك المدينة كان يترك رجاله دون ملجأ يلوذون به ضد مطارديهم عندما ينهزمون في أية مواجهة قربها. وهكذا قرر قبل وفاته بقليل، في العام ١١٠٧، أن يقيم قلعة عرفها الفرنجة باسم تورون Toron فوق تل يدعى تبنين على بعد نحو ثلاثة عشر ميلاً الى الشرق من صور[4]. وفي العام ١١١٧ أمر بلدوين ببناء قلعة الإسكندرونة* على الطريق الساحلي على بعد تسعة

---

١) كمال الدين ص ٥٨٩. غروسيه، ج ١ ص ٣٧٧.

٢) Derenbourg، حياة أسامة ص ٩١، ابن القلانسي ص ١١٤.

٣) أصبحت قلعة صنجيل نواة مدينة طرابلس الحديثة. وما يزال يوجد أكثر من ميل من البساتين التي تفصل طرابلس عن مينائها الذي كان في القرن الثاني عشر بلدة حاصرها ريمون صنجيل. أنظر وليم الصوري ص ٤٤١، و Cafarus, Liberatio Orientis (ed. Belgrano) ١١٩،

٤) وليم الصوري ص ٤٥٩،

*) جاء في معجم البلدان م. ١ ص ١٨٢: «وجدت في بعض تواريخ الشام أن اسكندرونة بين عكا وصور» (م.م).

أميال الى الجنوب من صور «ad coercendum praedictum urbem»[١]. ورغم أن هاتين المنشأتين اللاتينيتين أقيمتا في الواقع «للدفاع عن الأراضي التي استولى عليها (بلدوين)»[٢] فهما مدينتان في الأصل بوجودهما للأهداف الهجومية اللاتينية ضد صور.

سقطت صور بيد الفرنجة في العام ١١٢٤، ولكن عسقلان ظلت بيد المسلمين حتى العام ١١٥٣. وقد عنيت الحكومة الفاطمية في مصر بالاحتفاظ بآخر ممتلكاتها في سورية فكانت تعزز حامياتها وتمونها في فترات منتظمة[٣]. ومع أن الفاطميين بعد العام ١١٢٣ امتنعوا عن استخدام عسقلان قاعدة للقيام بهجوم عام ضد فلسطين اللاتينية، فقد ظلت حاميتها تشن غارات مستمرة باتجاه القدس ويافا، مثيرة الشعور باللاأمن في أوساط سكان السهل الساحلي الخصيب والحجاج الصليبيين الذين يسلكون الطريق الى الأماكن المقدسة لذا قرر الفرنجة إقامة مراكز محصنة في جوار عسقلان لشكم نشاط المسلمين فيها، فشيدوا قلاعاً في الفترة ما بين العام ١١٣٦ و ١١٤٩ في كل من بيت جبرين (جيبلين Gibelin) ويبنة (ايبلين Ibelin) وتل الصافية (بلانش غارد Blanche Garde) وغزة[٤].

يربط المؤرخون وظيفة هذه الأماكن بالحاجة الى تحديد الحدود الجنوبية لمملكة اللاتين والدفاع عنها[٥]، ولكن وليم الصوري طرح رأياً أكثر دقة عن أسباب تأسيسها ومن بينها: أولاً — ضرورة درء الغارات التي تشنها حامية عسنقلان. ولم يكن بالإمكان تحقيق ذلك لمجرد وجود حصون جديدة مع حاميات جاهزة فيها لمواجهة الهجوم، وكانت تلك الحاميات ذاتها مضطرة للجوء الى الميدان، لمهاجمة رجال

---

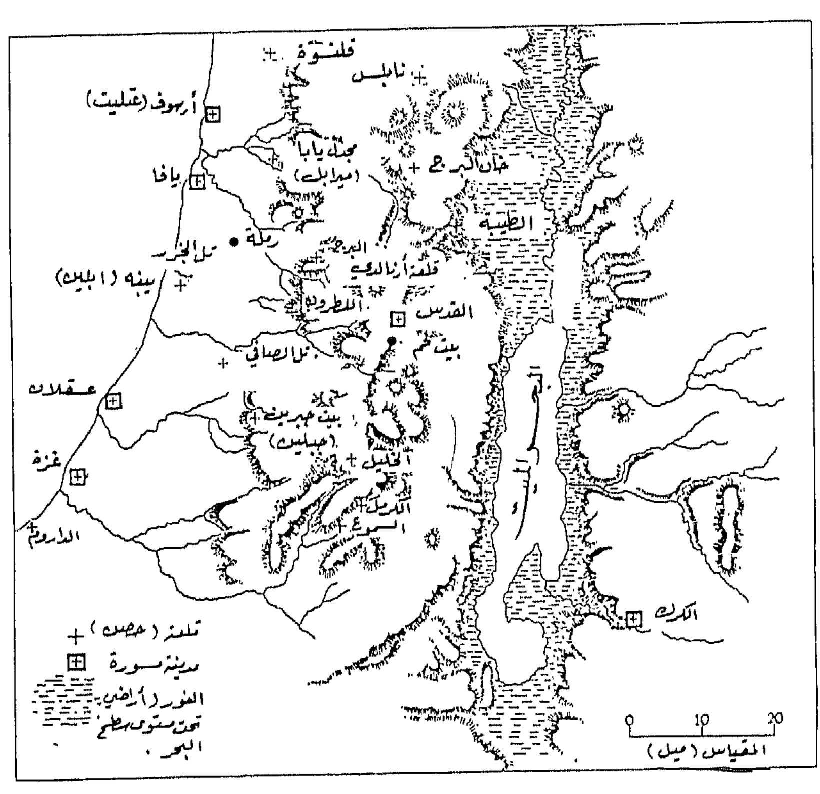
١) فلتشر ص ٤٣٥

2) C.N. Johns, Historical Introduction to map, Palestine of the Crusades.

٣) ابن الأثير ص ٤٩٠، وليم الصوري ص ٥٨١، ٦٣٨، ٧٧٩، ٧٩٧.

٤) أنظر فيما يلي ص ٢٣٠ — ٢

5) Rey, Monuments, P. 4, Grousset, II, PP. 154-8.



MAP III
خريطة رقم ٣ جنوب فلسطين

عسقلان بمجرد أن تغادر معقلها في المدينة . ويمكن أن نفهم بسهولة كيف تحول مثل هذا الدفاع العدواني الى هجوم على ضواحي عسقلان ، كان الخطوة الأولى لتقليص حجم المدينة ذاتها . وهكذا كانت الغايات الأولى من قلعة غزة ـــ كما يقول وليم الصوري ـــ إيقاف الغارات الصادرة عن المدينة ، وفرض الرقابة عليها من جهة الجنوب ـــ كما هو شأن القلاع الثلاث الجديدة الأخرى الى الشرق والشمال منها ـــ وشن الهجمات على المدينة ، والإبقاء على حالة الحرب العدوانية المستمرة . وعلى هذا النحو فإن القلاع الموجودة في جنوبي فلسطين لم تنشأ لغايات الدفاع عن الحدود بشكل عام . إذ لم يكن الوضع السياسي لمصر خلال الفترة التي أسست فيها تلك القلاع ينطوي على خطر تجديد الفاطميين لغزواتهم السابقة . والصحح أن القلاع شيدت هناك لغرض معين هو كبح جماح الغارات المفاجئة التي تشنها عسقلان ، وتمكين القوات الفرنجية من شن هجماتها ضدها . وكانت الخطة المتبعة هنا مماثلة لتلك التي طبقها عند أنطاكية قادة الحملة الصليبية الأولى فيما عدا كونها أوسع مجالاً من حيث الزمان والمكان .

يدلنا التاريخ اللاحق لهذه القلاع في فلسطيا Philistia (الجزء الجنوبي من فلسطين الذي يدعى أرض الفلسطينيين ، أو الحضارة الفلسطينية ـــ انظر معجم وبستر الكبير ـــ م. م) مرة أخرى على أن هذه المعاقل كانت أكثر من مجرد سلاح حربي . فقد ضمنت حامية تل الصافية الطمأنينة للمناطق الريفية بحيث استوطنت أسر بكاملها الى جوارها وازداد انتاج الأرض حولها . كما حاول الاسبتارية ، الذين نيط بهم أمر بيت جبرين أثناء تحصينها ، إغراء الفرنجة بالاستيطان في المقاطعة التي تتحكم بها تلك القلعة ، كذلك سبقت الاشارة الى النتائج التي نجمت عن تأسيس داروم على يد أملريك . وهكذا أصبحت هذه القلاع أداة للاستعمار ولتوسع مملكة اللاتين .

بعد أن أصبح صلاح الدين سيد مصر ، وأحال تلك البلاد مرة أخرى لقاعدة لغزو مملكة اللاتين ، احتلت تلك القلاع ذاتها أهمية حربية تختلف في نوعيتها

عن تلك التي كانت لها سابقاً عند تأسيسها . إذ يمكن أن نجدها في حملتي العام ١١٧٠ و ١١٧٧ تقوم بالوظائف التي اختصت بها معاقل الحدود آنفة الذكر . ففي العام ١١٧٠ اختار صلاح الدين مهاجمة داروم وغزة ولكنها صمدت بشدة ، وانطلق أملريك من القدس على جناح السرعة ليقيم التماس مع الجيش الغازي ، والتحقت بجيشه فرقة من الداوية قادمة من غزة ، فاضطر صلاح الدين الى الارتداد عائداً دون أن يكبد المملكة خسارة مستديمة[١] .

مضت على تلك الحادثة سبع سنوات عاد بعدها صلاح الدين لغزو جنوبي فلسطين ، وقد مر ذكر بعض ما سجل عن بداية هذه الحملة. حيث اصطحب بلدوين الرابع قوة لملاقاته ، ولكنه ما إن رأى قوة المسلمين حتى التجأ الى معقل عسقلان متخذاً منه ملاذاً له ولجيشه. وتجاهل صلاح الدين جميع المعاقل التي تعترض طريقه ، واندفع قاصداً الرملة ويافا . ورغم ذلك فقد أثرت هذه المعاقل على سير الحملة من أوجه عديدة . فهي وإن لم توقف الغزو عند الحدود ، ولم تمنعه من السيطرة المؤقتة على المناطق الريفية المفتوحة ، فإنها ظلت مناطق أمان سليمة لمالكيها. وانكمشت ممتلكات اللاتين داخل أسوارها حتى زال الخطر. ولم تتحقق المحافظة على المستوطنات بفضل المعاقل الموجودة على الحدود فحسب، بل وبفضل المعاقل الموجودة في قلب المملكة أيضاً مثل مجدل يابا (ميرابل Mirable)[٢]. كما مكنت مدينة عسقلان المحصنة الملك من المحافظة على قوته الصغيرة حتى أتيح له استخدامها في ظروف أفضل . بينما تعزى أسباب هزيمة صلاح الدين القاسية في نهاية الأمر ، وكارثة تراجعه عن فلسطين ، الى عدم وجود معاقل محصنة صديقة له الى الشمال من دلتا نهر النيل[٣] .

يصعب لدى الكتابة عن القلاع ــ كما هو شأن بقية المنشآت التي تعود للعصور الوسطى ــ الفصل بين الأوجه العامة والخاصة ، والعسكرية والمدنية لتلك

---

1) Grousset, II. PP. 559-62.

٢) وليم الصوري ص ١٠٤٠ .

٣) بهاء الدين ص ٦٤ .

المنشآت . إذ كانت القلعة في سورية اللاتينية تمنح مالكها سلطة السيطرة على المقاطعة التي تحيط بها . وهو يستطيع أن يجني من أرضها ومواطنيها مداخيل على شكل بضائع أو نقود أو خدمات تلبي احتياجاته الشخصية وتمكنه من الوفاء بالتزاماته الاقطاعية في مجال الإدارة والحرب . وكانت السلطة التي يمارسها فيها تشكل جزءاً من كامل الملكية اللاتينية في سورية ، كما كانت القوة التي ترتكز اليها جزءاً من كامل القوة الموجودة لدى الفرنجة لمواجهة الغزو الاسلامي . وكانت سيادة الطبقة الحاكمة في المجتمع الاقطاعي.وسيادة الفرنجة على الأرمن وعلى السوريين من مسيحيين ومسلمين ، ومقاومة الفرنجة لهجمات المسلمين ، كلها ترتكز الى القوة الكامنة في الجيش من جهة ، وفي المعاقل المحصنة من جهة أخرى . ومن هنا تنبع الأهمية الفعلية للقلعة والمدينة المسورة في سورية اللاتينية .

وهكذا كان الحكام والشخصيات من ذوي الطموح خلال الحملة الصليبية الأولى والسنوات التي تلتها يسعون الى الاستيلاء على القلاع القائمة بحماسة شديدة ، وكانوا يحاولون ذلك حيثما وجدت مثل هذه المواقع ، بغض النظر عن الحدود التي لم تكن قد وجدت آنئذ . كما شيدت قلاع جديدة في المناطق التي أريد لها أن تكون من ممتلكات اللاتين أو التي كانت تحتاج الى قوة لتأمين أعمال الادارة أو الاستثمار فيها . ومن السهل أن نرى الطابع العسكري في استخدام مثل هذه المباني المحصنة إلا أنه مرتبط دائماً بالمصالح الإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

تبرز المدن المسورة والقلاع بمظهرها الحربي أكثر ما يكون خلال الغزو الصليبي والاستيطان الفرنجي في سورية ، وأثناء الهجمات المعاكسة الكبرى التي شنها المسلمون على الدويلات اللاتينية . فعندما كان الفرنجة هم الغزاة استخدموا القلاع سلاحاً هجومياً ، وعندما أصبحوا هم عرضة للغزو أصبحت القلعة الملاذ الأخير لسلطانهم . وكان لمعاقل الحدود (الثغور) أهمية خاصة لأنها كانت تتعرض للهجمات المتكررة والمفاجئة ، بسبب قربها من أراضي المسلمين . وعندما يواجه المسلمون عند الحدود كانت القلعة الصليبية تستخدم قاعدة وملجأ للقوات العاملة هناك ، وعلى

كل حال ، كان لكل معقل أهميته الخاصة ، فهو تجسيد للقوة حيثما وجد ، وهو بالتالي الرادع والملاذ الأخير للاستيطان اللاتيني .

٢ ــ أشكال القلاع

جرت العادة على إظهار تاريخ التحصين في أوربا الاقطاعية في سياق واحد . إذ ينظر الى كل من المتاريس ذات الاسيجة Motte ، والمعاقل المسورة Baily من القرن الحادي عشر ، والأحراز الحجرية Stone Keeps من القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، والأسوار المتعددة للقلاع المركزية من أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، ينظر الى كل منها وكأنها طراز من التحصين أكثر تطوراً عن سابقه الذي اشتق منه . ونظراً لأن رجال الحملة الصليبية الأولى ، وأولئك الذين استوطنوا سورية شاهدوا المعاقل المحصنة البيزنطية والعربية وهاجموها واحتلوها ، وكانت أشد تحصيناً من تلك التي عرفوها في أوربا الغربية ، فقد عدت خبرتهم عاملاً حاسماً في تاريخ تطور التحصين الذي يتحدث عنه المؤرخون[١] . ولم تحدث أية محاولة هنا تتجاوز وصف طرز القلاع التي اعتمدها الفرنجة للمحافظة على ممتلكاتهم في سورية . وسوف نتطرق فيما يلي الى الحديث عن تلك الأماكن التي كانت قوية بمناعة موقعها الطبيعي ، وتلك التي كان لها معلم أساسي يتمثل في برجها المحصن الضخم كما هو شأن الكثير من القلاع المعاصرة لها والتي تدعى حرزاً (Keep) في وقتنا الحاضر على وجه العموم ، وتلك الأماكن التي كان يحميها سور ساتر مقوى بعدد كبير من الأبراج .

---

١) أنظر أومان ج ٢ ص ١٠ ــ ٤٢ ، وكذلك Enlart, Manael d'archéologie français ج ٢ ص ٤٩٤ ــ ٥٤٥ ، وأيضاً Hamilton Thompson, Military Architecture in England during the Middle Ages; Toy; Braun, the English Castle. يمكن الرجوع إلى أومان ج ٢ ص ٢٤ ــ ٣٣ وهاملتون تومبسون ص ٦٥ ، وتوي ص ٩٠ وبراون ص ٧٠ ــ ٧١ للاطلاع على تأثير الخبرة الصليبية في أوربة ، وكذلك Viollet-Le-Duc, Essai sur l'architecture militaire au moyen âge P. 23.

إذا ما اقتصرت دراسة قلاع العصور الوسطى من ناحية المبادىء العلمية لفن التحصين الذي تجسده لوجدنا الموضوع أكثر صعوبة وتعقيداً مما يمكن أن يكون عليه فعلاً، رغم أنه قبل عصر البارود كانت مشكلات التحصين ووسائل حلها بسيطة نسبياً. لقد كانت المعالم الأساسية للقلعة، طوال عدة قرون، مجرد رقعة مسيجة بدفاعها الرئيسي المؤلف من ساتر ترابي أو حاجز خشبي أو سور حجري يحجزه خندق مائي من الأمام عادة. وإن مثل هذه المنشآت تمثل أكثر من مجرد عائق سلبي للمحاصِرين. إذ تستطيع الحامية من ملجئها هذا خوض دفاع ايجابي. وخلال القرن الثاني عشر كان السور الحجري يصلح كي يكون منصة قتال جيدة التجهيز. إذ توجد على واجهته الداخلية شرفات جدارية على ممشى على شكل متراس عند ذروتها يستطيع المدافعون منها إطلاق مقذوفاتهم على العدو من خلال كوات الرمي أو فتحات الشرفة. ثم جرت بعد ذلك تقوية الأسوار على امتدادها بمجموعة من الأبراج، وأصبح لهذه المنشآت الجديدة عدد من الوظائف المفيدة. فهي تزيد في متانة السور وتدعمه، وتؤمن أماكن للراحة والإقامة، وتمكن المدافعين من القتال على ارتفاع أعلى من ذلك الذي يؤمنه الممشى ـــ المتراس فوق السور وتمنحهم بالتالي مميزات أفضل. فإذا ما برزت عن خط السور أصبح في إمكان نشابي (رماة) الحامية الرمي على طول واجهته، أي توجيه رمي جناحي الى أية مجموعة تحاول اقتحام السور. ومن المعالم الأخرى التي تميز مخطط التحصينات في القرون الوسطى وجود سلسلة من الخطوط الدفاعية المتعاقبة والعناية بتحسين المداخل.

سبق وأشرنا الى أن بعض المؤرخين يرون في علم التحصين فرعاً من فروع المعرفة التي كان الأوربيون متقدمين فيها في الفترة بين العام ١٠٠٠ والعام ١٣٠٠. ومما لاشك فيه أن القلاع تبدلت في حجمها ومظهرها طوال تلك الحقبة، ولكن ذلك حدث جزئياً بسبب ازدياد الثروة وتبدل احتياجات المجتمع (الغربي) الذي راح يتوجه نحو الاستيطان والتمدن بصورة مضطردة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. فنجد للوهلة الأولى أن قصر غيارد* Chateau Gaillard، أو الحصن Crac، أو قلعة

* قصر ـــ قلعة من القرن الثاني عشر شيده ريتشارد قلب الأسد على جرف أندليس Andelys Clifh

سيرفيلي Caerphilly* ، تشبه إلى حد ما المتراس ذي السياج motte ، والقلعة المسورة bailey Castle من أوائل القرن الثاني عشر ، أو المنشآت الترابية التي أقامتها الشعوب البدائية . إذ أن مبادىء الدفاع التي فكر فيها مهندسوها ظلت بدون تبديل . فهي تشكل في نظر القائم بالحصار عائقاً أو سلسلة عوائق متعاقبة ، وتستطيع حاميتها استخدام هذا العائق وسيلة للقتال التراجعي ضد العدو ، وظلت البوابات تشكل نقطة ضعف فيها فكانت تحصن بعناية خاصة[1] . أما في سورية اللاتينية فلا يمكن أن تعد منجزات الفرنجة محصلة التطبيق المدرك للأفكار الدفاعية المتطورة باستمرار ، رغم وجود تلك المعاقل العظيمة السابقة لوجودهم فيها . إذ أن عملهم هناك كان محصلة الوعي الفطري الى درجة كبيرة ، أو محصلة « البراعة النابعة من غريزة البقاء في وجه الخطر الدائم (!!) »[2] إضافة الى المعرفة التي جاؤوا بها معهم من أوربا الغربية (!!) .

إذا ما نظرنا نظرة شاملة الى القلاع ، التي شغلها الفرنجة أو شيدوها ، فإننا نجد أن المعلم السائد في معظمها هو زيادة مناعتها التي منحتها إياها الطبيعة وليس تجسيد نظريات التحصين المعقدة فيها . إذ يتمثل الدفاع الأمثل عنها بعدم إمكانية بلوغها وهذا ما تؤمنه الجروف الصخرية والوهاد العميقة بفاعلية تفوق فاعلية أي سور أو خندق مائي . وحينما يكون الاقتراب من القلعة مستحيلاً أو صعباً جداً تصبح إقامة الموانع المعقدة غير ضرورية ، حيث تتناسب قوة الدفاعات الصنعية عكساً في

المطل على نهر السين في فرنسا ، وما تزال آثاره قائمة . وهو أمنع قصر في ذلك الحين (يعرف باسم قلعة ساوسي) وتحرس مداخل وادي السين إلى النورماندي يتألف من حرز محصن محمي بصخور طبيعية وتغطي المنافذ المؤدية إليه أبراج وأسوار إلى جانب قلعة صغيرة تحمي الجانب الشرقي من المرتفع الموسوعة البريطانية .

* سيرفيلي قلعة — بلدة في ويلز — كونتية غلامورغان الشرقية من القرن الثالث عشر شيدها غلبرت دوكلو وهي أكبر قلعة في انكلترا بعد قلعة ويندسور .

١) أنظر هاملتون تومبسون ووصفه الرائع لهذه المعالم في المنشآت الترابية القديمة في كتابه الهندسة العسكرية في انكلترة خلال العصور الوسطى ص ١ — ١٠ .

٢) هاملتون تومبسون ص ٧ (المصدر السابق) .

الغالب مع قوة الموانع الطبيعية. وثمة أماكن كثيرة تعد قلاعاً في حد ذاتها بفضل إمكانية الوصول إليها. فالقلاع الكهفية على سبيل المثال كانت كاملة الى درجة أن الفرنجة اضطروا الى اقتلاع الحامية المسلمة منها اقتلاعاً عندما حاصروا قلعة حبس جلدك في العام ١١٨٢[١]. وقد سجل بهاء الدين المشاكل التي واجهها صلاح الدين في العام ١١٨٨ عندما شن هجومه على قلاع معينة في امارة أنطاكية[٢]. كما أن معاقل الحشيشية في جبال النصيرية منحتهم منعة نسبية بسبب موقعها النائي وليس بسبب قوة بنائها[٣]. كذلك شغل الفرنجة مواقع كثيرة كانت محمية من جميع جهاتها بسبب صعوبة مسالكها ومنها قلعة المضيق[٤]، وقلعة عُريمة، وقلعة الصبيبة (النمرود)، وربما كانت قلعة المصيلحة al- Musailiha[٥] من ضمنها.

تقطع السلاسل الجبلية على كلا الجانبين الحفرة الانهدامية السورية وديان مائية كثيرة تشكل نقاط التقائها معلماً دفاعياً على هيئة رعن أو أنف جبلي، منفصل تقريباً عن المرتفعات المجاورة له من جميع الجهات ماعدا جبهة واحدة. ويمكن التوصل الى عزله كاملاً بحفر خندق أو إقامة سور على تلك الجهة المطروقة. وقد شيدت أعظم المعاقل التي شغلها الصليبيون في مواقع من هذا النوع. ومن أعظمها على سبيل المثال قلعة صهيون، والحصن والكرك، والمرقب، وشقيف أرنون (بوفور)،

---

١) وليم الصوري صفحة ١١٠٦. التعريف الذي ذكره دشامب Deschamps, Revue Historique, CLXXII (1933) PP. 51-5 ص ١٦٤ — ٨. وانظر بشكل خاص عمل ديشامب الرائع حول القلاع الكهفية في كتابه Défense ص ١١١ — ١٦ وص ٢١٧ — ٢٠. وعندما ذهبت إلى سورية لم أشاهد أياً من هذه الكهوف، ولكن أتيح لي أن أزور كل القلاع الصليبية الأخرى التي ذكرت في هذا الفصل. وأمضيت في أكبرها ثلاثة أو أربعة أيام مثل الكرك وصهبون والمرقب والحصن وصبيبة، أما الباقي فكنت أحتاج إلى يوم واحد عادة أو يومين أحياناً.

٢) بهاء الدين ص ١١٣ — ١٥.

3) Dussaud, Topographie, P. 139.

4) Van Bercheme, Voyage en Syrie, PT. I. P. 188, Deschamps. Le Crac, Album Pl. X.

5) Van Bercheme, Voyage en Syrie, PT I, PP. 133-16.

وأصغر هذه القلاع حارم[١] ، وبرزية[٢] وقلعة المهلبة[٣] Qala'at . كما استخدمت قلاع مماثلة على الساحل أيضاً عند طرابلس وصور وعتليت بعدئذ على شكل شبه جزيرة تغسلها مياه البحر من جهات ثلاث.

لدى دراسة كل قلعة من قلاع القرون الوسطى يجب أن يُنظر الى مبانيها من حيث علاقتها بمناعة الموقع الذي تنتصب فوقه. وإذا ما فشل الدارس في ذلك فسوف يتوصل الى استنتاجات خاطئة، وتعد الاستنتاجات التي قدمها البروفسور أومان حول الكرك في جبال موآب مثالاً واضحاً عن ذلك. وقد تناول البحث هنا قلعة الكرك ببعض التفصيل لهذه الغاية، ولأنها خرجت من يد الفرنجة نهائياً في العام ١١٨٩ ، فكانت بالتالي واحدة من بضع قلاع ضخمة تملكها اللاتين خلال القرن الثاني عشر فقط[٤].

اعتمد أومان Oman في عمله مخططاً مبسطاً لقلعة الكرك وضعه راي Rey ، الذي لم يزر المنطقة إطلاقاً[٥]، فدرس المكان على أنه شيد على يد الفرنجة، وأنه يجسد مبدأً جديداً ــ من وجهة نظره ــ للأوربيين يشتمل على خطوط دفاعية متعاقبة. وأن أحد الأماكن التي عزز القطاع الأضعف فيه بسور ساتر يمكن رمي واجهته برمايات جناحيه من برجين جداريين[٦]. إن أية معاينة خاطفة لتلك القلعة تبين لنا عدم صحة كل هذه الافتراضات[٧].

يسود المكان خراب شديد، ولم يحدث أن أزيلت عنه الردميات أو جرت فيه

1) Van Bercheme, Voyage en Syrie, I. P. 229

2) Cahen, Syrie du Nord, P. 164.

3) Van Berehem, Voyage en Syrie, I, PP. 283-6.

٤) إن أفضل وصف لقلعة الكرك في جبال مؤاب هو ما كتبه دو شامب Deschamps في كتابه Défense ص ٨٠ ــ ٩٣ . وهو مزين بعدد من المخططات الرائعة والصور ، وتوجد في الصفحة ٣٩ مجموعة مراجع كاملة عنه .

5) Rey. Monuments, P-132 and his Pl. XIV.

٦) أومان ، ص ٣١ ،

٧) أنظر مخطط رقم ١ واللوحة رقم ١ ورقم ٢ .

تنقيبات. وللقلعة تاريخ طويل قبل أن يشرع كبير الخدم باغانوس Paganus the Butler ببناء حصن فيها في عهد الملك فولك Fulk[1]، واستمر ذلك التاريخ حتى مابعد استيلاء قوات صلاح الدين عليها في العام ١١٨٩. لقد استطاع دوشامب وآنوس Anus تمييز البناء الحجري الذي أقامه الصليبيون عن ذلك الذي شيده المسلمون بعد ذلك، إلا أنه يمكن التأكيد من المدى الذي يجب أن تنسب في قلعة الكرك في شكلها الحالي الى أفكار الفرنجة أو نشاطهم حتى يتم استكشافها بشكل دقيق.

أما ما هو ثابت ـــ فعلاً ـــ فهو أن مخطط القلعة كان يتحدد في كل العصور وفقاً لبنية موقعها الطبيعي الى درجة كبيرة. إذ أن نقطة التلاقي بين الواديين تشكل رعناً جبلياً تنتصب بلدة الكرك فوقه ويرتبط مع الأرض المرتفعة المجاورة له بمجاز ضيق من جهة الجنوب تقوم القلعة عنده، وكانت وظيفتها تغطية البلدة ضد الهجمات المحتملة من هذا القاطع. أما القلعة ذاتها فمعزولة عن هذا المنفذ المشار إليه بوساطة قناة مائية شقت عرضانياً من طرف الرعن الى طرفه الآخر، كما يفصل القلعة عن البلدة خندق آخر مماثل من جهة الشمال. بينما تنحدر الأرض بشدة من جهة الغرب والشرق بحيث يستحيل شن هجوم قوي عليها من أي من الاتجاهين. والخطوط الوحيدة التي يمكن استخدامها للهجوم هي التي تقع على امتداد السلسلة من جهة الجنوب أو من داخل البلدة من جهة الشمال.

يقسم موقع القلعة ذاتها طبيعياً الى مستويين علوي وسفلي[2]. يشكل كل مستوى منهما موقعاً مسوراً أو « جناحاً » فنجد « جناحاً علوياً » « وجناحاً سفلياً » عدهما أومان خطين دفاعيين متعاقبين يجسدان مبدأ من مبادىء التحصين المعقدة التي تعلمها الفرنجة نتيجة استيطانهم في المشرق. يقع الجناح المنخفض الى الغرب

---

١) تظهر خريطة من الفسيفساء البيزنطية في مأدبا في شرقي الأردن من القرن السادس وجود هذه القلعة.

٢) إن السور الفاصل بين الفناءين العلوي والسفلي يغطي جرفاً صغيراً شيد فوقه بصورة جزئية وهو واضح تماماً في اللوحة رقم ٢ (آ).

من الجناح العلوي ، ويمتد كل منهما ، على طول موقع القلعة بكامله ، من الشمال الجنوب . فإذا ما شن الهجوم من أي من الاتجاهين (وهو الاحتمال الوحيد الممكن) فإنه سيصطدم في آن واحد بالسور الواقي لكلا الجناحين العلوي والسفلي ، وقد غطي كلاهما من جهتي الشمال والجنوب بخندق مائي متماثل . وربما كان سور الفناء السفلي من جهة الجنوب أسهل منالاً بقليل من السور العلوي ، إلا أن القوات المهاجمة هنا تصبح تحت سيطرة الدفاعات الحاكمة من الفناء العلوي . ولن يصطدم المحاصير هنا بعوائق متتابعة ، وإنما بخط واحد من سور ذي مستويين[1] . وهي المشكلة ذاتها التي تعترضهم من الناحية الشمالية . بيد أن سور الفناء السفلي يشكل مانعاً قوياً جداً هنا كما السور العلوي . وهكذا لم يكن باغانوس ــ كما رآه أومان ــ تلميذاً لحضارة أقدم ، وطبق مبدىء نظرية سابقة لتلك التي عرفها المجتمع الاقطاعي في أوربا الغربية ، وإنما خضع في عمله لتأثيرات ظروف الأرض بكل تأكيد ، وربما لتأثيرات بقايا قلعة قديمة .

كانت النقطة الثالثة التي ذكرها أومان هي أن السور الواقي الشمالي للقلعة ، الذي يواجه أي هجوم يأتيها من جهة البلدة ، كان محاطاً من جانبيه ببرجين كبيرين يؤمنان رمايات جناحيه على طول الخندق[2] . والواقع أن البرجين القائمين على جانبي السور لايبرزان عن خط السور ، ولايتيحان تنفيذ الرمي المتقاطع الذي يتحدث عنه أومان ولايمكن السيطرة على واجهة السور إلا من بروزين ضئيلين لا يمكّن أي منهما الحامية الموجودة فوقه من تنفيذ رمي جناحي فعال لأن بروزهما قليل جداً ، ويبعد أحدهما عن الأخر حوالي مئة متر . كما أن الغاية من أحدهما هي بالتأكيد إيجاد وسيلة للدخول بزاوية قائمة على مواجهة السور[3] . وإذا ما استعدنا في أذهاننا

---

١) أنظر اللوحة رقم ١ (آ) حيث يبدو الجزء الظليل من السور وهو خط السور الذي أشير إليه أعلاه .

٢) أومان ، ص ٣١ .

٣) أعطيت هذه المداخل الرقمان ١ و ٢ في المخطط ويبدو رقم ٢ واضحاً في الصورة ــ اللوحة ٢ (ب) .

الأبراج البارزة جداً في القسطنطينية أو أنقرة جاز لنا أن نقول بلا تردد إن السور الواقي الشمالي لقلعة الكرك غير مرمي جانباً [1]. قد يكون أومان محقاً أكثر فيما يتعلق بالدفاعات الشرقية . إذ توجد هنا أربعة أبراج مربعة أو مستطيلة من القرن الثاني عشر مدمجة في السور الواقي [2]، وتتراوح المسافة الفاصلة بينها ما بين ٢٥ ياردة و ٥٥ ياردة ويختلف بروزها عن واجهة الجدار ما بين عشرة أقدام و ٢٣ قدماً . ورغم ذلك فإن حقيقة تأديتها لهذه المهمة لاتؤثر كثيراً في مخطط الدفاع . والأهم من ذلك انتصاب هذا السور على ذروة منحدر شديد كساه الفرنجة بالحجارة المنحوتة [3]. ولاتنحصر قوة القلعة عموماً في مبادىء الدفاع العلمي « الجديدة » المطبقة فيها وإنما في صعوبة الوصول إليها نسبياً ومنعتها أمام عمليات الاقتحام الكبيرة بفضل خنادقها التي شقت في الصخر وارتفاعها عن الأرض المحيطة بها مباشرة . إن وضعية الأرض هي التي حددت خط السور الواقي الذي زاد في منعة الموقع الطبيعية . وتؤمن الأبراج الجدارية فيها أماكن للراحة والقيادة ، إلا أنها لاتتيح سوى فرص ضئيلة للرمي الجناحي . ويمكن الدفاع عنها من أسطح الأبراج ، ومن الممشى المسور الذي يتوج السور ، ومن خلال كوات الرماية التي تضيء الحجرات داخل كل برج ، ومن الشرفات المقنطرة المبنية أحياناً في طبقتين أو ثلاث طبقات والتي تستند الى الواجهة الداخلية للسور . إن قلعة الكرك ، مثلها مثل معظم القلاع أيام الصليبيين ، ليست معجزة من معجزات التحصين العلمي ، وإنما هي موقع منيع بطبيعته مقوى بسور وخندق .

تشبه دفاعات شقيف أرنون (بوفور Bèafort) دفاعات الكرك من بعض

---

١) Van Millingen في كتابه Byzantine Constantinople ص ٤٧ — ٥١ ، وكذلك G. de Jerphanion. S.J. "Mélanges d'archeologie anatolienne in mélanges de L'Université St. Joseph, Beyrouth, Tom XIII, fasc. I, PP. 144-222.

2) Deschamps, Defense, PP. 84-5 and his plans.

٣) أنظر صورة لوحة رقم ١

النواحي[1] . إذ ينتصب القسم الرئيسي من القلعة كما لو كان بروزاً من صخر يرتفع بضعة أقدام فوق الأرض المحيطة به ، إلا أن مهاجمتها ممكنة ـــ رغم الصعوبات ـــ من جميع الجهات باستثناء الجهة الشمالية[2] . ويوجد من جهة الشرق رف صخري مسطح يبلغ عرضه حوالي خمسين ياردة يفصل موقع القلعة الطبيعي عن حافة جرف شبه قائم يرتفع حوالي ألف قدم عن وادي نهر الليطاني . وبعد تسوير هذا الرف داخل رقعة القلعة ـــ حيث يتشكل فناء سفلي مسور ـــ أصبحت حماية القلعة مضمونة تماماً من جهة الشرق . وبالتالي لا يمكن مهاجمة القلعة إلا من الغرب ومن الجنوب . ولكن الهجوم من جهة الغرب يصطدم بخندق الفناء المسور العلوي وسوره الواقي ، بينما يصطدم الهجوم القادم من الجنوب بدفاعات الفناءين العلوي والسفلي معاً . وكانت أسوار الفناء السفلي أقل منعة ولكن لايمكن مهاجمتها إلا من جهة يقل عرضها عن عشرين ياردة تتحكم بها المنشآت الدفاعية الجنوبية القوية للفناء العلوي . وهكذا يبين لنا مخطط قلعة شقيف المبسط وجود « جناحين » ، وربما يُظن ـــ طبقاً للتعميم الذي أطلقه أومان على قلعة الكرك ـــ بأنهما يشكلان خطوطاً دفاعية متعاقبة . ولكن الواقع أن شكلها هنا مثل شكل قلعة الكرك تتحكم فيه هيئة الأرض ، ولا يمكن شن هجوم كبير على جبهة واسعة إلا باتجاه المنشآت الدفاعية في الفناء العلوي .

كذلك لايمكن الدفاع عن قلعة شقيف بسور واق مرمي من الجانب رماية جيدة . وعندما يأتيها زائر اليوم من جهة الغرب فإنه لايرى في بادىء الأمر إلا بعض الدلائل على أبراجها . ورغم أن هذا الانطباع الأولي صادر عن حالة الخرائب الآن فإن شقيف أرنون في الواقع أقل تجهيزاً بمثل هذه المنشآت من معظم القلاع التي في

---

١) يؤكد كل من راي (Monuments P. 132) ودوشامب (Défense P. 197) على هذا التشابه إلا أن أسبابهما تختلف عما ذكر هنا . وفيما يتعلق بشقيف أرنون أنظر Rey المصدر السابق ص ١٢٧ ـــ ٣٩ ، و Survey, I, PP. 128-33; Guérin, Galilée, II. PP. 533-4 و Deschamps المصدر نفسه ص ١٩٧ ـــ ٢٠٨ مع ضور ومخططات .

٢) أنظر مخطط رقم ٢ ولوحة رقم ٣ .

حجمها وأهميتها . وكان دفاعها الرئيسي مؤلفاً من سور واق يحاذي تماماً حافة النتوء الصخري الذي تقف عليه . وثمة التواءات وزوايا مفروضة فرضاً بسبب شكل الموقع ، وليس نتيجة تفنن هندسي . ولا يوجد على السور سوى آثار برج فرنجي كان بمثابة البرج الكبير أو الحرز Keep في قلعتهم[١] . وقد شيد جداره الخارجي متماشياً مع خط السور بحيث تبرز جوانبه بكاملها داخل الفناء المسور ، وعلى السور الجنوبي المماثل في القلعة العليا برجان من المنشآت الاسلامية في القرن الثالث عشر[٢] . ومن المحتمل أن يكون هذا البرجان قد حلا محل منشآت فرنجية مماثلة سبقتها ، ولايمكن التحقق من ذلك طالما ظل الموقع على حاله من الخراب والردم . والأبراج الفرنجية الوحيدة المؤكدة من القرن الثاني عشر ، كانت تساعد الحامية على تسديد ضربات جانبية مفاجئة ، هما برجان صغيران دائريان ينتصبان على السور الجنوبي للقلعة السفلى . إن العناصر الرئيسية للدفاع عن قلعة شقيف مماثلة لتلك التي في قلعة الكرك .

ثمة ترتيبات مشابهة قائمة في **قلعة صُبيبة** (النمرود)[٣]. وتنتصب هذه القلعة فوق رعن جبلي يقع على المنحدرات الجنوبية الغربية لجبل حرمون (الشيخ)، على مسيرة ساعة من بلدة بانياس المسورة . وكانت تعرف في القرن الثاني عشر باسم قيصرية فيلبي Caesarea Philippi ، وهو الاسم الذي يطلقه عليها الباحثون الحديثون أيضاً . إن موقع القلعة كبير بصورة لا اعتيادية ، إذ يبلغ طوله من الشرق الى الغرب حوالي ٤٨٠ ياردة ، ويتروح عرضه من الشمال الى الجنوب ما بين ٨٠ — ١٨٠

---

١) أشير إليه بالحرف «آ» في المخطط .

٢) الحرفان ب و ج في المخطط . إن فترات البناء المختلفة في قلعة شقيف وصبيبة والحصن المذكورة في الفقرات التالية حددها ديشامب . وهي نماذج جميلة من المنشآت الميدانية لها أهميتها وتدل على مهارة في البناء ويمكن التحقق من الملاحظات الشخصية المذكورة في هذه الفقرات بالرجوع إلى ديشامب Défense اللوحات LXXV-LIII وفي المخططات التي رسمها للقلعة .

٣) أنظر ديشامب Defense ، ص ١٦٧ — ٧٤ مع الصور والمخططات ، وكذلك .Guerin, Galilée, II ص ٣٢٤ — ٧ ، .Survey, I. PP. 125-8

ياردة . وعند النهاية الشرقية أنشأ الفرنجة ــ خلال إحدى فترتي احتلالهم للقلعة في القرن الثاني عشر ــ برجاً محصناً أحاطوه بفناء صغير مسور . ونظموا الدفاع عن باقي الموقع بخط واحد من سور ساتر ذي شكل غير منتظم ــ كما جرت العادة ــ لكونه يتماشى مع حافة الهضبة[1] . ويبلغ طول الساتر الغربي ١٨٠ ياردة وهو مزود بأربعة أبراج ، برج واحد على كل طرف من طرفيه ، والإثنان الآخران في السور بينهما . وكانت هذه الأبراج مربعة أو مستطيلة الشكل وتبرز على مسافات تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ قدماً خلف الساتر . والى الشمال كانت القلعة محمية جيداً بشدة انحدار المرتفع ، وبالسور الواقي الذي يحمي قسماً منه . أما الجنوب فكان أكثر صلاحية للاقتراب وفيه ست منشآت بارزة مستطيلة الشكل مدمجة في السور ، ولكنها لاتتيح إمكانية تحقيق دفاع فعال من الجانب . وهنا شيدت الأبراج الدائرية التي تؤمن مثل هذا الدفاع ــ كما هو الحال في شقيف أرنون ــ على يد المسلمين الذين خلفوا الفرنجة فيها ، والذين زادوا في بروز الأبراج المربعة عن السور الشرقي ، كما كانوا يرون بأن الفرنجة لم يولوا هذا النوع من الدفاع حقه . والواقع أن قلعة صبيبة تشبه الكثير من القلاع الغربية ذات البرج المحصن والفناء المسور الداخلي والخارجي . وكانت أكثر شهرة من القلاع الأوربية المعاصرة لها بسبب كبر حجمها ، ولأن دفاعاتها الخارجية مبنية من الحجارة لندرة الأخشاب في سورية وشيوع استخدام الحجر في البناء . ولكن لم يكن هنالك تفنن كبير في وسائل دفاعها[2]

وحتى **قلعة الحصن** Crac des Chevaliers العظيمة لا يمكنْ أن تعد من بين قلاع الصليبيين العائدة للقرن الثاني عشر . إذ كان الدفاع عنها منظماً على أساس

١) تملك الفرنجة القلعة من العام ١١٢٩ وحتى العام ١١٣٢ ثم تملكوها مرة أخرى من العام ١١٤٠ وحتى العام ١١٦٤ . ويميل ديشامب إلى الاعتقاد بأن عمليات البناء الرئيسية حدثت أثناء الفترة الأولى منهما ، ولكن قصر المدة تجعل ذلك الأمر موضع شك . وفيما يتعلق بعامل الوقت في القلعة أنظر J.G. Edwards في "The Welsh Castles of Edwar I" في سجلات الأكاديمية البريطانية XXXII. ص ١٥ ــ ٨١ .

٢) أنظر المخطط .

استخدام وسائل بسيطة نسبياً لتعزيز مناعتها الطبيعية. وهي توضح دون شك ـــ على حالتها الحاضرة ـــ كمال تلك الفنون التحصينية، التي طورت في العالم القديم وانتقلت الى المجتمعات المسيحية والاسلامية في العصور الوسطى.

فهي تمثل موانع متتابعة مؤلفة من خندق مائي وسور خارجي وسور داخلي وثلاثة أبراج ضخمة تستخدم معاقل محصنة (حصون Redoubt). والدفاعات الداخلية أعلى بكثير من الدفاعات الخارجية وقريبة منها في الوقت ذاته بحيث يمكن الاشتباك مع العدو من كليهما في آن واحد. وتبرز الأبراج المستديرة بشكل متقارب وعلى مسافات منتظمة عن خطوط الأسوار، مؤمنة بذلك وسيلة للدفاع الجانبي. كما أن تنوع تجهيزاتها ما بين جدار مائل وشرفة مكواة machicolation ومنعة casemates وكوة رمي وممشى مسور تجعل من هذه الأسوار جميعها أكثر الوسائل فاعلية في ضرب مؤخرات العدو الذي يحاصرها في ذلك العصر[1].

إن أفضل هذه المنشآت، التي لايضاهيها بالتأكيد أي بناء حربي في العالم من حيث جمالها وقوتها، أنشأه الأسبتارية مع نهاية القرن الثاني عشر تماماً أو في بداية القرن الثالث عشر. وقد كان منظر القلعة الأخاذ من الجهة الجنوبية الغربية دائماً هو المفضل للمصورين الذين كانوا يرون في السور الواقع الى الشمال والشرق المباني الخلفية التي تمنح الصورة جمالها، مع العلم بأن هذا المكان هو الوحيد الذي تبدو فيه قلعة القرن الثاني عشر ظاهرة تماماً للعيان.

برهن كليرمون ـــ غانو Clermont-Ganneau، منذ أكثر من خمسين عاماً، على أنه يمكن تمييز المباني التي أقامها الفرنجة السوريون أحياناً ببعض الطرائق المميزة التي كانوا يستخدمونها في التكسية المعمارية الحجرية[2]. إذ تكشف العلامات الموجودة على الحجر نوع الأداة التي سوى بها الحجّار الكتل الحجرية وقطعها وطريقة

---

١) ديشامب Le Crac Des Chevaliers. إن كتابه هو نتيجة دراسات ميدانية مكثفة ودراسة المصادر الموثقة وهو بلا شك أفضل دراسة جرت حتى الآن لأية قلعة من قلاع العصور الوسطى.

2) C. Clermant-Ganneau, Archeologieal Researches in Palestine during the year 1873-4, 1, PP. 1-41,. R. Dussaud, le travaux et les decouvertes archeologiques de Charles Clermont Ganneau (1864-1923) in Syria (1923) PP. 140-73.

استخدامه لتلك الأداة[١]. إن الدراسات المكثفة للشواهد المتوفرة في قلعة الحصن من هذا القبيل، مع أخذ المعطيات التاريخية والمعمارية بعين الاعتبار، مكنت ديشامب من تحديد فترات البناء الرئيسية في القلعة[٢]. ويتميز أقدم هذه الشواهد بقطع الحجارة المستدقة مع صقل وجه الحجر عند أطرافه بينما يترك القسم الأوسط منه بارزاً وبحالة خشنة.

استخدم المسلمون في باقي أجزاء القلعة الحجارة المستدقة أيضاً في وقت متأخر، إلا أنَّ الحجارة الموجودة على السورين الداخليين الشمالي والشرقي فرنجية لأنها تشمل بروز قبا الكنيسة نصف المضلع مشكلاً جزءاً من البناء الأصلي وليس على شكل إضافات، وهذا ما يمكن تمييزه بتفاصيله المعمارية كبناء على النمط الرومانسكي من القرن الثاني عشر[٣]. ويأتي هذا الدليل ــ القاطع ــ متفقاً مع باقي التفاصيل. وقد استخدمت حجارة من النوع ذاته في قلاع أخرى ــ مثل قلعة صهيون والكرك في جبال موآب ــ كانت في حوزتهم في القرن الثاني عشر فقط، ولم يدخلوها في القرن الثالث عشر اطلاقاً[٤]. إن هذه المقارنة، الى جانب طبيعة المنشآت الموصوفة، تثبت أن العلامات التي كان الحجّارة يضعونها على سور قلعة الحصن التي نحن بصددها هي علامات غريبة من حيث مواصفاتها. وثمة نافذة تتماشى مع هذا البناء الحجري نفسه فوقها حجارة مسطحة حشرت بين لبنات قوسها والجدار الذي يعلوها. وهذا شيء عثر عليه في مبان أقيمت في فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر ــ وأوائل القرن الثاني عشر[٥].

يبدو أنه ما من شك بأن السور الساتر الذي يضم مكان الجوقة (الكورس)

---

١) ديشامب ــ الحصن ص ٢٢٩ ــ ٣٩.

٢) الحصن ص ٢٧٥ ــ ٣٠٥.

٣) الحصن Le crac ص ١٩٧ ــ ٨.

٤) بالنسبة للبناء الحجري المستدق drafted في صهيون أنظر اللوحات ٦ (آ) و ٧ (ب) و ٨ (آ) و (ب).

٥) الحصن ص ٢٠٤.

في الكنيسة، والذي يربط ذلك المعلم مع البرج الموجود على كل من الجانبين شيد أثناء القرن الثاني عشر[١]، وذلك إما بعيد العام ١١١٠ مباشرة في السنوات الأولى من الاحتلال اللاتيني، أو بعد العام ١١٤٢ عندما منحت القلعة الى فرسان الاسبتارية. وقد حقق ديشامب في العام ١٩٢٧ ــ على كل حال ــ كشفاً رائعاً حين وجد أن القسم الأكبر من ذلك السور القديم مع أبراجه ما يزال قائماً رغم اختفائه عن النظر، وبعد إزالة الأطلال التي راكمها سكان القرية المشيدة فوق الأسوار وفي داخلها وجد ديشامب ممراً ضيقاً داخل الجدار المائل الذي يحمي الجناح الداخلي من جهتي الجنوب والغرب، وعلى امتداد الجدار[٢]. وهو مضاء من شقوق الرمي التي تطل على الفناء الخارجي. وقد شيد ذلك الجانب من الممر ــ مثل الجدار المائل ــ من كتل الحجارة الملساء. إلا أن جداره الآخر الداخلي مبني من الحجارة المستدقة المنحوتة. أضف الى ذلك أنه يوجد عند منتصف المسافة، على الضلع الطويل الغربي، انقطاع قصير في الممر بسبب جدار من الكتل الحجرية المنحوتة[٣]. ولا بد من أجل المضي في استكشاف الممر من مغادرته ثم العودة اليه بعد ذلك من الجانب الآخر لذلك المانع. والواقع أن الجدار الداخلي للممر هو الواجهة الخارجية لسور ساتر سابق كان موجوداً قبل أن يغطى بجدار مائل وسور من الكتل الحجرية الملس في فترة بناء متأخرة. وما المانع المذكور سوى جنب لبرج مستطيل يعود تاريخه الى القرن الثاني عشر ينتصب حالياً داخل البرج المستدير العائد لفترة متأخرة. وهكذا استطاع ديشامب أن يعيد رسم مخطط القلعة كما كانت حتى نهاية القرن الثاني عشر[٤]. وكان لها آنئذ خط واحد فقط من الأسوار الواقية يتماشى مع حافة البروز الصخري ومقوى بأبراج مربعة ودائرية. وكانت هذه الأبراج مقامة ــ في الواقع ــ على مسافات منتظمة، وتبرز الى الأمام أكثر من تلك التي في قلعة شقيف

---

١) أنظر اللوحة رقم ٤ (آ) .

٢) أنظر آ آ آ في المخطط رقم ٤ .

٣) أنظر المقطع ب ب في المخطط رقم ٤ .

٤) قلعة الحصن Le Crac ، ص ٢٠٥ ، ٢٧٧ ، أنظر مخطط رقم ٤ .

وصبيبة ، إلا أن نصيب الطبيعة في إضفاء هذه المنعة عليها مكافىء لنصيب فن التحصين فيها .

إن المعلم المشترك بين معظم قلاع الصليبيين هو تأسيسها في مواقع منيعة بصورة طبيعية مع تقويتها بمنشآت من النوع سابق الوصف . ويمكن اعتبار بقية القلاع مجموعة على كل حال ، لأنها تشترك فيما بينها ببنائها الرئيسي الذي يعرفه الباحثون الحديثون بالبرج الكبير بينما يسميه كتّاب العصور الوسطى حرزاً Keep .

كان هذا الطراز من القلاع هو الأكثر شيوعاً في أوربا الغربية خلال القرن الثاني عشر ، وأعظم مساهمة قام بها ت . ي . لورنس T. E. Lauorence وأكثرها أصالة بالنسبة لموضوع قلاع الصليبيين هو تأكيده على أن الفرنجة تابعوا إشادة مثل هذه المباني في سورية[1] . بينما كان من سبق لورنس وكل الباحثين الذين كتبوا عنها يصبون اهتمامهم على البرهان على أن الفرنجة السوريين كانوا مصدر الإلهام في تطور العمارة العسكرية في أوربا الغربية بعد أن استوعبوا الدروس التي تعلموها من البيزنطيين . وقد كتبوا مطولاً عن قلعة الحصن والقلاع الضخمة الأخرى ، ولكنهم نادراً ما كانوا يذكرون الأحراز والأبراج المحصنة السورية ، بينما يوجد في سورية عدد من هذه الأوابد ما زال محفوظاً في حالة جيدة ، ومن أفضلها برج صافيتا (القصر الأبيض (Chastel Blanc) . إن النظرة الأولى الى هذا البرج ، الذي لا يزال قائماً يطل على البلدة ، تعطينا انطباعاً حياً عن الاستيطان اللاتيني القائم على المؤسسات الاقطاعية[2] . ولا تزال المعاقل من النوع نفسه تقف شاهدة في جبيل[3] (Giblet) ، وقلعة يحمور (Chastel Ruge)[4] ، كما أن البرج الرئيسي في قلعة صهيون (صلاح

---

1) Lawrence, Crausader Castles, I, PP. 33-8.

٢) أنظر لوحة رقم ٤ (ب) .

٣) Van Berehem, Voyage en Syrie, PT. 5 PP. 105-110, Rey, Monuments, PP. 115-21 Lawrence, Crausader Castles. I, P. 37. أنظر لوحة رقم ٥ .

4) Lawrence, OP. Cit. I, P. 34 Dussaud, Topographie, P. 120 and P. 3.

الدين[1] — Saone) ، وفي شقيف أرنون[2] يشبهانها من حيث الأبعاد والتصميم .. وعندما تستبعد الفروق الناتجة عن طرائق البناء المحلية نجد أن لهذه المباني المظهر والمواصفات عينها التي ترسم بها المباني المشادة في أوربا الغربية في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، كما أنها تماثلها في أبعادها[3] . حتى أن مظهرها الخارجي أكثر بساطة من معظم المعاقل الأوربية ، هذا بغض النظر عن بروزات قلعة كونسيبورو Consiborough أو زخارف قلعة رايزينغ Castle Rising . لقد كانت قوتها الأساسية سلبية وتكمن في جدرانها السميكة وبنائها الرائع . حيث أن سماكة جدران البرج الكبير في قلعة صهيون ، الذي يطل على أكثر اتجاهات الهجوم احتمالاً هي سبعة عشر قدماً ، وهي تزيد قليلاً عن أحد عشر قدماً في كل من جبيل وصافيتا وأقل من ذلك في شقيف أرنون . وكانت تعزز بشكل إضافي أحياناً باستخدام قطع حجرية مفردة ذات أبعاد ضخمة ، وثمة أمثلة مثيرة عنها في جبيل[4] . والفتحات الوحيدة الموجودة في الجدار هي شقوق ضيقة لرماية النبل ، وهي قليلة العدد بطبيعة الحال . وفي صافيتا يوجد في الطابق الأرضي ثلاثة شقوق في كل من الجدارين الطويلين . وفي الطابق العلوي أربعة شقوق في الجدارين الطويلين ، وشقان في الجدارين العرضيين . ولايوجد في صهيون وشقيف أرنون إلا شقين يطلان على اتجاه العدو . لقد اعتاد الأوربيون على وضع المدخل الرئيسي للبرج على مستوى الطابق الأرضي ، الأمر الذي لم يكن شائعاً في سورية . ويوجد مثل هذه البوابة في البرج

---

١) أنظر فيما يلي ص ٣٣٨ — ٣٤٢ .

2) Deschamps. Défense, P. 205 Rey, Monuments, P. 130, survey, I, P. 136.

٣) إن أبعاد برج جبيل هي ٨٠ × ٦٠ قدماً ، ويحمور ٥٢ × ٤٦ قدماً وصافيتا ١٠٠ × ٥٨ قدماً وصهيون ٨٠ × ٨٠ قدماً وشقيف ٧٥ × ٧٥ قدماً ، وصبيبة ١٢٣ × ٥٩ قدماً . وقد قست هذه الأطوال لوحدي بالخطوط أو باستعمال متر معدني وهي غير دقيقة بالتالي . وقد تحريت عنها قدر الامكان عن طريق المخططات المتوفرة رغم أن المخططات ذاتها قد تكون مضللة . فقد ذكر راي مثلاً أن مساحة البرج الكبير في قلعة صهيون هي ١٢٠ قدماً مربعاً . ولك أن تقارن هذه المقاييس مع قلعة رايزينغ ٧٥ × ٦٤ قدماً ، وسكاربورو Scarborough ٥٦ × ٥٦ قدماً ، وميدلهام Middleham ٩٨ × ٩٦ قدماً وبورشيستر Portchester ٦٥ × ٦٢ قدماً .

٤) أنظر لوحة رقم ٥ (ب) .

الرئيسي في عكار، ويبدو أنه توجد بوابة مماثلة أخرى في قلعة سارك (تل ابن معشر) Sarc، التي شيدها تنكريد لتكون متقدمة تستطيع الحامية مراقبة مسلمي شيزر منها[1]. ولكن الشائع أكثر هو وجود بوابة مفردة صغيرة على مستوى الأرض تنفتح الى داخل شقة الطابق الأرضي كما في جبيل وصافيتا وصهيون وشقيف. أما الدخول الى الطابق الأول ومنه الى السطح فيتم عن طريق بيت سلم شيد في سماكة الجدار.

كانت هذه الأبراج السورية الكبيرة تشبه من حيث المبدأ المباني المعاصرة لها في الغرب. وهي تشاطرها بساطتها وصلابتها الهائلة، ووسائلها المحدودة في خوض دفاع فعال. وهنالك أيضاً فروق معينة بينها لا يخلو بعضها من الأهمية العسكرية. إذ شيدت الأبراج في سورية دون استخدام الخشب فيها وهي مقنطرة ذات عقود. وربما كان هذا هو السبب في كونها من طابقين فقط في معظمها بدلاً من ثلاثة طوابق كما كان شائعاً في الغرب، ولم تكن بالتالي شاهقة الارتفاع كما كان شأن مثيلاتها الأوربيات. وقد يعوض هذا الانخفاض أحياناً بارتفاع العقد ذاته. ففي الطابق الأرضي من برج صافيتا ثمة قاعة ذات جمال آخاذ ونادر، كان الداوية يستخدمونها كنيسة، يبلغ ارتفاع سقفها المعقود حوالي ٥٥ قدماً فوق سطح الأرض. ويتجاوز الارتفاع الكلي للبرج مئة قدم وهو أكبر أبعاده، إلا أن ذلك استثنائي في سورية. ومن المميزات الحربية للبناء الحجري المعقود مناعته إزاء النيران. إذ كانت الدفاعات الخشبية في الغرب تدمر غالب الأحيان بإضرام النار فيها، وهذا أمر هام في الشرق حيث كان الاغريق والعرب خبراء في استخدام المواد الحارقة في الحرب. كما أن الأسقف ذات العقود كانت تتيح إمكانية بناء أسطح مسطحة تقدم إمكانات أفضل للدفاع الفعال من السطح المائل الذي لمعظم الأبراج الأوربية. وكانت الأبراج المحصنة السورية تسور في بعض الأحيان بسور دائري محكم وتشاهد مثل هذه الترتيبات في قلعة يحمور وجبيل وصبيبة[2]. وقد جرت العادة أن يقام في مقابل الواجهة الداخلية للسور

---

1) Deschamps, Les entrées des châteaux des croisés, in Syria (1932), P. 380.

٢) أنظر المخطط ٣.

سلسلة متواصلة من المباني ذات العقود، وهي مرتفعة بشكل يؤمن سطحها المنبسط ممشى فسيحاً مع متاريس (مطاف الحرس) تسمح بحرية الحركة حول السور الدائري أكثر من تلك التي يتيحها الأفريز الضيق المعتاد، وتسهل بالتالي تنظيم الدفاع عن القطاع المهدد. إن السور الأقرب الى البرج الكبير في هذه المباني منفصل عنه ويبعد عنه مسافة لا تقل عن ستة أقدام في بعض الأماكن[1]. وقد كان هذا الوضع سبباً في إثارة بعض التعليقات، لا لأنه يميز المعاقل السورية عن الأوربية في مظهرها فحسب، بل ولأنها تعد حالة مثيرة للاهتمام بالنسبة لمخططات الدفاع الاعتيادية. إذ أن الطابق الأرضي للبرج الكبير محجوب بكامله عن القوات المهاجمة، وتستطيع الحامية الدفاع عنهما كليهما من سطح البرج ومن الممشى ذي المتاريس على السور المحيط به، وربما وجد بعض المراقبين في ذلك تزاوجاً بين البرج Turris والحصن المسور Castrum، وظاهرة أخرى من مظاهر التكامل بين الشرق والغرب، الذي يقال أنه الناتج الأول والرئيسي للحروب الصليبية. كما يمكن أن يعد ذلك أمراً غريباً صرفاً لكونه ينطوي على الدفاع عن المعقل البرجي والفناء الداخلي. ولكنه سوري بشكل مميز مع وجود ترابط وثيق بين الاثنين.

أتينا على ذكر أفضل ما حفظ من المعاقل البرجية التي شيدها الفرنجة في سورية، أما ما بقي فأقل كمالاً منها. إلا أن المصادر تشير الى وجود أكثر من ذلك بكثير. إذ كان يوجد برج كبير في قلعة صبيبة[2]، وفي قلعة قرين (Montfort)[3]، بينما شيدت القلعة في كل من قيسارية[4] وطرطوس على هذا الشكل[5]. وكانت هنالك

---

١) توجد هذه المسافة في كل من صبيبة وقلعة يحمور.

2) Survey of Western Palestine, I, P. 126; Lawrence. Crusader Castles, I, P. 37 Deschamps, Défense, P. 173.

3) Rey, Monuments, P. 147; Survey, I. P. 186; Deschamps, Defense, P. 139.

4) Survey, II, P. 25-6.

5) Rey, Monuments, P. 79.

أبراج لها أهميتها في البترون[١]، ومرقية Maraqiya[٢]، وربما في صفد[٣] أيضاً كما كانت توجد الى جانب ذلك أبراج كثيرة أصغر شأناً. منها ذلك الذي كان في توكله Tokleh ووصفه راي Rey وناقشه ڤيوليت ـــ لو ـــ دوك[٤] Viollet-le-Duc، كما كان يوجد في جوار قلعة الحصن برج ميعار Mi'ar، وبرج عرب[٥] اللذان ربما كانا مستقلين في الأصل عن القلعة الكبرى، رغم أنهما كانا جزءاً من أملاك الاسبتارية. والى الشرق من صور يوجد البرج القبلي والبرج الشمالي[٦]، وكلاهما من الأبراج المربعة المشادة من الحجارة المنحوتة، ومن أصل فرنجي فيما يبدو. وكان يوجد في كونتية قيسارية عدد من القلاع الصغيرة كان البرج أبرز معالمها، ولم يعن أحد بدراستها بدرجة كافية شأنها شأن معظم الآثار الصغيرة الأخرى. ولكن يقال أن برج خربة المنطار Khirbet al- Muntar يعود في الأغلب الى زمن الصليبيين[٧]، بينما يبدو البرج الموجود على ساحل البحر عند الحلة al- Helat وكأنه من أصل صليبي[٨]. وعلى هذا الغرار تدل شواهد البناء الحجري والسجلات الوثائقية على أن برج المصرعة al- Mesra'a، وبرج العتوت Burj al- 'Atot، وبرج قاقون Qaqun، وبرج قلنسوة Qulunsawa، تعود جميعها الى القرن الثاني عشر[٩]. والى الشمال من بيت المقدس يوجد برج اللسانة Burj al- lisaneh، المطل على طريق نابلس وثمة أبراج غير بعيدة عنه عند خان البرج والطيبة[١٠] Tayibeh. وفي جنوبي فلسطين توجد معاقل برجية

---

1) Lawrence, OP. Cit, I, P. 37.

2) Dussaud, Topographie, P. 126 and references; Rey, Monuments, P. 161.

3) Survey, I, PP. 248-50.

4) Rey, Monuments, P. 102; Viollet-le-Duc, Dictionnaire raisonné de L'architecture française, art. Tour, IX, P. 163.

5) Deschamps, le Crac, P. 107.

6) Survey, I, PP. 57-8.

7) Survey, II, P. 61.

8) Survey, II, P. 33.

9) Survey, II, PP. 33, 137, 195, 199.

10) Survey, II, PP. 307, 370.

صغيرة عند الكرمل Kurmul، وسموع[1] Semoa. وقد عدّ المؤرخون مثل هذه الأماكن جزءاً من منظومة دفاعية تخص المملكة[2]، إلا أن عدداً كبيراً منها موجود في مناطق لم تكن تتعرض كثيراً لهجمات المسلمين، ومن المرجح أنها من النوع المستخدم مقرات إقامة وسكن ومراكز شرطة وإدارة وملاجىء محلية يعتصم بها[3].

لم يعر مؤرخو الحروب الصليبية عموماً أي اهتمام كبير الى القلاع الصليبية من هذا الطراز وإنما صبوا جل اهتمامهم الى القلاع التي تظهر المعماريين الفرنجة تلاميذ لمن سبقهم من البيزنطيين والعرب. وكان ينظر عادة الى اختفاء الحرز من مخطط القلعة على أنه علامة هامة من علامات التقدم والتطور، وقد أبدى الباحثون اهتماماً ملحوظاً بعدد القلاع اللاتينية التي اختفت منها هذه الظاهرة.

يقدم لنا وليم الصوري دليلاً دامغاً على أن عدداً من هذه الأماكن شيدت على السهل الساحلي لجنوبي فلسطين. إذ خطط الملك أملريك لبناء قلعته الجديدة عند الداروم على شكل سور ساتر يضم فناء مربعاً مع برج عند كل زاوية من زواياه الأربع[4] فإذا ما استثنينا أحد هذه الأبراج الذي «كان أكبر حجماً وأشد تحصيناً من الأبراج الأخرى» يصبح المخطط مماثلاً لمخطط المعسكر الروماني المعروف باسم Castrum*، وهو شكل كان يستخدمه العرب والبيزنطيون على نطاق واسع. ويقول وليم الصوري، من خلال وصفه للقلاع التي شيدت في المنطقة ذاتها في عهد الملك فولك، أن يبنة كانت «مخفراً له أربعة أبراج»[5] «Praesidium cum Turribus»

---

1) Survey, III, PP. 372, 412; Rey, Monuments, PP. 102-4.

2) Rey, ibid; Deschamps, Le Crac; P. 76; Défense, P. 21.

٣) فيما يتعلق بصعوبة تحديد وظيفة الأبراج الصغيرة التي كانت شائعة في العهدين الروماني والبيزنطي وفي سورية اللاتينية أنظر H.C. Butler في Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria, II, P. 235.

٤) وليم الصوري ص ٩٧٥ .

٥) وليم الصوري ص ٦٩٧ .

★) Castrum كلمة لاتينية، تعني المكان المحصن، وتستخدم غالباً من أجل الدلالة إلى أماكن المدن المحصنة أو المعسكرات الرومانية. لاروس ١٠ أجزاء

«quaruor» وأن تل الصافية كانت «بلدة محصنة مع أربعة أبراج متساوية الارتفاع»[1] «Oppidum cum Turribus quatuor congruae altitudinis»، وأن لمدينة غزة «تحصينات بحرية تتيمز بأبراجها»[2] «Opus muro insigne et turribus». وأن بيت جبرين كانت «مخفراً بحرياً منيعاً بأبراج محصنة» «Praesidium muro imsuperabili turribus munitissimum»[3]، وثمة تفاصيل كافية هنا لرسم مخطط مبسط لها، ولكن لدينا من الأسباب ما يدفعنا للاعتقاد بأن الدفاع في هذه الأماكن — كما هو الحال عند الداروم — كان يتألف من سور ساتر وأبراج جدارية، ولا يوجد في أي منها برج كبير[4] (بمعنى حرز)، وأنه كان يوجد في يبنة وتل الصافية معسكر روماني (كاستروم) يماثل مخططه مخطط معسكر الداروم.

ما زال بالإمكان دراسة القلاع من هذا الطراز «على الأرض» وفي المصادر الأدبية سواء بسواء. فعلى الشاطىء على بعد نحو من عشرة أميال الى الشمال من عسقلان يوجد معسكر روماني صغير عند مينة القلعة (١٨٠ × ١٤٤ قدماً)[5]، بينما تنتصب عند كوكب الهوى فوق المرتفعات التي تعلو الضفة اليمنى من نهر الأردن قلعة أكبر للاسبتارية هي قلعة كوكب[6] «بلفوار Belvoir» (٣٨٠× ٣٢٠)، وهي تشرف على مجرى النهر ما بين بحيرة طبرية وبيسان[7]. وتعد القليعة (٢٢٠ قدماً مربعاً) وسطاً ما بين القلعتين المذكورتين من حيث الحجم، وهي موجودة على مسافة حوالي خمسة عشر ميلاً من طرابلس على الطريق الرئيسي المؤدي الى حمص[8].

---

١) وليم الصوري ص ٦٩٨ .

٢) وليم الصوري ص ٧٧٨ ،

٣) وليم الصوري ص ٦٣٩ ، Survey, III, P. 268.

٤) Rey, Monuments P. 124, وهو يدعي أنه عثر على آثار لبرج كبير عند تل الصافية . ولا يوجد شيء من هذا حالياً ، أنظر كذلك لورنس Lowrence, Crusader Castles, I, P. 40

5) Survey, II, PP. 426-7.

٦) أنظر مخطط رقم ٥ ، Guérin, Galileé, I, PP. 129-32, Survey, II, P. 117.

7) Van Berchem, Voyage en Syrie, PT. I, PP. 131-5; Dussaud, Topographie, P. 90.

٨) وليم الصوري ص ٩٧٥ .

ويمكن وصف مظهرها الخارجي كما يراها المسافر المقترب منها بالعبارات ذاتها التي استخدمها وليم الصوري عندما صور قلعة الداروم المشابهة لها: «معسكر متوسط الحجم صعب داخل فناء فسيح من حجارة كبيرة على شكل مربع وأربعة أبراج زاوية واحدها كبير الحجم ويختلف عن الأبراج الأخرى» ,Castrum modicae quantitatis» Vix tantum spatium intra se continens quantum est jactus lapidis, formae quadrae, quatuor turres habens angulares, quarum une grossior et munitior erat aliis»

ولا يزال أحد أبراج القليعة محفوظاً بصورة أفضل من الأبراج الأخرى، ويبدو للوهلة الأولى أنه أكبرها وأفضلها تحصيناً، إلا أن تحري ذلك البرج عن قرب يدل على أن أبراج الزوايا الأربع متماثلة في حجمها ومخططها الدفاعي.

يبدو أن أحداً من هذه الأماكن، فيما عدا قلعة كوكب على الأرجح، لم يكن يضم برجاً كبيراً. ولكنها كلها محصنة ببرج في كل زاوية من زوايا سياجها، وفي بعض النقاط المعينة من سورها الساتر. وقد زودت مينة القلعة (في فلسطين) ببوابة رئيسية عند كل من السور الشرقي والسور الغربي، ويحرس كل بوابة منها برجان على الجانبين، ومجموع ما في القلعة ثماني منشآت من هذا النوع. وهكذا الحال في القليعة أيضاً حيث يوجد هنا حصن بارز bastion في نقطة متوسطة على كل واجهة من واجهات السياج. أما قلعة كوكب فلها سبعة أبراج، لأن سورها الشرقي محمي بسفح نهد شديد الانحدار على وادي الأردن ولا يحتاج الى دفاعات إضافية. ويختلف حجم الأبراج مع اختلاف حجم القلعة. فالأبراج في مينة القلعة مستديرة، متينة البنيان عند قاعدتها، ويبلغ قطرها حوالي ١٧ قدماً. بينما أبراج القلعتين الأخريين مربعة الشكل أو مستطيلة في مخططها وتبرز داخل الخندق الى ماوراء خط السور. يبلغ طول كل من الأبراج السبعة في قلعة كوكب باستثناء واحد منها أكثر من ثلاثين قدماً، وتبرز فيما بين ١٥ و ٢٠ قدماً عادة. بينما لاتتجاوز مساحة ابراج الزاوية في القليعة ٢٥ قدماً مربعاً، وأطول جانب من جوانب الحصن البارز المتوسط مساو لها في الطول. ورغم أنه يمكن بلوغ القلعة من جميع الجهات بالسهولة نفسها فإن بروز

هذه المنشآت يختلف من واحدة الى أخرى. فعند السور الشمالي لا يتجاوز هذا البروز القدمين وعند السور الجنوبي يبلغ البروز ستة أقدام. والأبراج الوحيدة الأكثر بروزاً هي تلك الموجودة على جانبي البوابة عند النصف الجنوبي من السور الشرقي.

وجد المؤرخون في هذه القلاع التي تعزي للصليبيين دليلاً واضحاً على أن الفرنجة السوريين تعلموا على يد البيزنطيين (!). وقد جرى التأكيد على عدد الأماكن المسورة الكثيرة التي حصنت بهذه الطريقة بناء على اقتراح من حكومة جوستنيان Justinian في مقاطعة شمال أفريقيا التي استولى عليها مجدداً[1]. وإذا ما اعتبرنا أن مثل هذه الأماكن استخدمت نماذج للمهندسين المعماريين اللاتين فإن الأجدر والأوثق صلة بالموضوع تلك التي توجد في بلاد عرفها الصليبيون على الأغلب[2]. ولكن درجة تأثر الفرنجة بمثل هذه النماذج لا تزال موضع شك يفوق ما توصل اليه المؤرخون. إذ افترض أن الفرنجة قبل قدومهم الى سورية لم يكونوا يشيدون سوى قلاع تحتوي على معقل برجي فقط، وأنهم كانوا يفتقرون الى المهارة في تحصين السور الساتر وتقويته بأبراج. وعلى ضوء هذه الافتراضات تعد القلعة البيزنطية علامة من

---

١) أنظر لورنس Lowrence, OP. Cit, I, P. 28 ، وكذلك Deschamps, le Crac, PP. 47-53; in Syria (1932) PP. 372-3; in Gazette des Beaux-arts (Dec. 1930), P. 351; وحول استخدامها أنظر ، Diehl, L'Afrique byzantine

٢) بالنسبة لآثار القلاع الرومانية في جنوبي حوران أنظر H.C. Butler, "Syria", in Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria, II, (Architecture, Sect. A, Southern Syria) E. 9 PP. 70-6, 145. وبالنسبة للقلاع الرومانية على الطريق بين دمشق وتدمر أو في حوض وادي الفرات — وكلتا المنطقتين كانتا في متناول الفرنجة ، أنظر . . . R, Pére A. Poidepard, Latrace de Rome dans le désert de Syrie, especially PP. 43-9, 54. and Atlas, Pls XX, XL, XLII, XLV, LXXV,.

وبالنسبة لقصر الحير أنظر K.A.C. Cresswell, Early Muslim Architeeture المجلد الأول صفحة ٣٣٠ وما تلاها . وبالنسبة للسلمية أنظر Van Berchem, Voyage en Syrie, PT. I, PP. 167-17. ويلفت ديشامب (قلعة الحصن) الانتباه إلى المباني البيزنطية ذات المخطط المماثل والتي رآها الفرنجة أو احتلوها .

علامات التقدم وجزءاً من دين تدين به أوربا الغربية لبيزنطة بسبب عدم وجود المعقل البرجي، ولأنها محمية بسور متحلق دائري مع الأبراج[1].

ثمة اعتراضات على هذا القول. إذ كانت القلعة التقليدية (في أوربا) في القرن الحادي عشر محمية دائماً سواء كانت فناء مسوراً أو معصماً على شكل حرز[2]. وكانت دفاعاتها تقام من الخشب عادة ولهذا السبب لم يبق منها شيء. إلا أن الوصوف الأدبية القديمة لها تدل على أنها كانت تُشاد بكل عناية[3]. كما شيدت القلاع الحجرية بدون حرز أيضاً قبل العام ١١٠٠. والمثال على ذلك دفاعات قلعة لودلو Ludlow التي كان لها سور حجري يحيط بها وأبراج جدارية[4]. ولو احتاج المعماريون الى استلهام المعسكرات الرومانية أو الأسوار الحجرية الجانبية المعروفة في العالم القديم ليشيدوا منشآت مماثلة لوجدوا ذلك متوفراً في أوربا الغربية (!!) كما كان موجوداً في المشرق سواء بسواء. ولا بد هنا من أن نذكر قلعة بورتشستر Portchester، أو بيفنشي Pevenscy[5]، أو أسوار روما[6]، أو كركسون Careassonne[7]. ولا يحق لنا بطبيعة الحال إنكار تأثير الفرنجة الى حد ما على مثل هذه الأعمال إلا أنه

---

١) أومان، ٢ ص ٣٠.

٢) لأن المعقل كان معلماً رئيسياً في القلعة فقد كان الكتاب يميلون إلى دراسته وكأنه القلعة بكاملها. ولكن يجب أن يعطى اهتمام مماثل إلى الفناء المسور ودفاعاته. أنظر F.M. Stenton في كتابه the Development of the Castle in England and Wales, ص ١١.

٣) أنظر الوصف الذي ذكره جون كولميه John of Colmiea ونقله إنلارت Enlart في كتابه ... Manuel d'archeologie française, II, P. 499.

4) G.T. Clark, Mediaevâl Military Architecture, II, PP. 273-10. Hamilton Thompson, Military Architecture, PP. 95-6.

٥) أنظر الدليل الرسمي الذي أصدره المكتب الملكي للمنشآت حول بورشستر وبيفنسي.

6) I.A. Richmond, the City Wall of Imperial Rome.

٧) Viollet-le-Duc, La Cité, de Carcassonne; J. Poux, La Cite de Carcassonne

أما النقطة التي ذكرت في هذا المقطع فقد نوقشت بتفاصيل أكبر من قبل لورنس ص ١٦ — ٢٤.

لا تجوز المبالغة بأهمية ذلك نظراً لأن العوامل الأخرى التي يمكن أن تدفع الفرنجة الى بناء ما يعرف بالمعسكرات الرومانية Castra نادرة.

درس ديهل Diehl ــ ومثله بقية الكتّاب الذين كتبوا عن التحصينات البيزنطية ــ قلاع شمال أفريقيا وناقشها من حيث علاقاتها بكتابات المنظرين العسكريين المعروفين في العصر الروماني المتأخر من أمثال فيجيتيوس Vegetius وفيتروفيوس Vitruvius وبروكوبيوس القيساري Procopius of Caesarea وفيلو البيزنطي Philo of Byzantion. وقد كتب هؤلاء عن علم التحصين[١]، وناقشوا بعض المسائل منها مثل الترتيب المثالي للسور الرئيسي والسور الأمامي والخندق[٢] والفسحة والمخطط الأرضي والترتيبات الداخلية للأبراج[٣] وبناء البوابات[٤] ومخزون الماء. وكان المؤرخون يميلون دائماً في دراساتهم للقلاع البيزنطية، الى تحديد المعالم المعمارية التي يبدو أنها متطابقة مع وصف هؤلاء المنظرين[٥]. وقد وجدوا أيضاً أن النظريات والتطبيق يختلفان كثيراً في الغالب. والمثال على ذلك أن المؤلفين المذكورين آنفاً لم يكونوا متفقين في ضرورة كون البرج دائرياً أو مضلعاً في شكله، ولكن تافرالي Tafrali يقول حرفياً: بالرغم من هذه النصائح، فإنه غالباً ما كان ينشأ في المشرق أبراج مربعة، إما عن طريق التقليد، وإما لأنها كانت أسهل إنشاءً».

---

١) Vitruvius, De architectura, ed. F. Krohn; Vegetius, Epitoma rei militaris, ed. C. Lang; Procopius, De aedificiis, Translated A. Stewart. وثمة ترجمة المؤلف فيلو البيزنطي بالفرنسية قام بها Rochas d'Aiglum توجد في les Mémoires de la Société d'Emulation du Doubs, sér. 4, tom VI (1870-1), PP. 183-441. أضاف المترجم أيضاً قبسات من مؤلف Aeneas Tacticus والمجهول البيزنطي وبطل القسطنطينية.

٢) فيجيتوس، ص ١٢٩؛ فيلو ص ٢٣٧ ــ ٨، المجهول البيزنطي ص ٣٤١، بروكوبيوس ص ٤٢ ــ ٤ (عمل جوستنيان في دارا).

٣) فيجيتيوس ص ١٢٩؛ فيتروفيوس ص ١٨؛ فيلو ص ٢١١ ــ ٢٢، ٢٣٦، المجهول البيزنطي ص ٣٤٠.

٤) فيلو ص ٢٢٦.

5) Diehl, L'Afrique byzantine; Jerphanion, Melanges d'archeologie anatoliene; Tafrali, Topographie de thessalonique, Passim.

«malgre ces recommendations, souvent on construisait en Orient des tours carrees, soit par tradition, aoit parce-qu'elles étaient d'une construction plus facile»[1]

كذلك يؤكد جرفانيون Jerphanion على أن الكثير من القلاع الهامة كانت ببرج مضلع واحد فقط، أو لم يكن لها برج إطلاقاً[2]. وكان ديهل مضطراً بدوره الى الاستنتاج أن شكل معظم المباني التي درسها، بما في ذلك المعسكر الروماني Costra ، كان يتحدد بالاعتبارات الأكثر أهمية لشمال افريقيا في القرن السادس أكثر من تقيده بالمبادىء الرئيسية لفن التحصين[3]. وهي الفترة التي تلت مباشرة استيلاء جيوش جوستنيان على تلك المقاطعة. وكانت سلطة البيزنطيين في هذه المناطق غير مضمونة بينما كانت التحصينات مطلوبة فيها دون تأخير لترسيخ تلك السلطة. وكان اختيار الموقع القوي بصورة طبيعية يقلل من ضرورة إقامة البناء فيها، كما كان حالها في سورية. ولكن الوقت لم يكن يتسع ــ حتى في الأراضي المكشوفة ــ لإقامة دفاعات مدروسة ومتعددة. فكانت تكفي بقعة مسورة من الأرض مع أبراج تحميها. وغالباً ما كانت الأبراج قليلة ومتباعدة فيما بينها[4]. أما مواد البناء فلم تكن محتجرة بعناية أو دقيقة التكعيب والتربيع، وإنما كانت من تلك التي تقع تحت اليد بين الأنقاض وداخل التربة عادة، أو من الأبنية القائمة سابقاً في بعض الأحيان[5]. وكانت الطبيعة البدائية للأعداء المحتملين في المنطقة تشكل مبرراً إضافياً لبساطة البناء وسرعة تنفيذه. إذ لم يكن يتوفر لدى قبائل البربر من التقنيات أو المواد مايؤهلهم لخوض عمليات حصار كبيرة. لهذه الأسباب جميعها جاءت التحصينات البيزنطية في شمالي أفريقية نتاجاً للظروف الآنية أكثر منها نتاجاً لمبادىء محددة. وقد كتب ديهل يقول: «إن

1) Tafrali, OP. Cit P. 58.
2) Jerphanion, OP. Cit, P. 157-n 3.
3) Diehl,OP. Cit. PP. 172-4.
4) Diehl, OP. Cit, PP. 172-4.
5) Diehl OP. Cit, PP. 217.

الضرورات الخاصة التي فرضتها الأرض والالتزام بسرعة العمل، الى جانب المبادىء المطلقة، هي التي حددت شكل القلاع وأبعادها في أفريقية البيزنطية»[1].

وهذا ما كان من شأن القلاع الصليبية. إذ كان بناء المعسكر الصليبي castra قرب عسقلان عملية عسكرية نفذت في جوار قوات معادية. واتخذت هنا الاستعدادات نفسها التي كانت تطبق عادة في حملة ميدانية رئيسية. وكان الملك وإقطاعيوه موجودين جميعاً، والقوات المسلحة للملكة معبأة بكاملها[2]. وبما أن مثل هذه الخدمة تشكل عبئاً ثقيلاً، ولم يكن من الملائم إطالة أمدها، فقد توجب التعجيل بالبناء واستكماله بأسرع وقت ممكن. ومما يلفت النظر مخطط القليعة التي شيدت قرب جسر بنات يعقوب (قلعة مخاضة الأحزان ــ م. م) والتي شيدها «الملك مع قوة المملكة بكاملها في أقل من ستة أشهر» وكانت من نمط المعسكرات الرومانية[3]. وأهم المعالم المشتركة بين جميع المعسكرات الصليبية آنفة الذكر إقامتها فوق أرض مكشوفة. إذ أن معظم القلاع العربية السورية تحميها الطبيعة من جهاتها جميعاً أو باستثناء جهة واحدة. أما هذه المعسكرات فبعضها محمي من جهة واحدة فقط مثل قلعة كوكب وهونين وتل الصافية، وبعضها غير محمي إطلاقاً مثل القليعة والقصر الصغير Chastellet، وبيت جبرين، ويبنة، ومينة القلعة، وغزة، والداروم.

من المحتمل أن يكون عاملا السرعة والأرض فرضا والى حد كبير تكرار استخدام مخطط «المعسكر المحصن» حتى ولو لم يشاهد اللاتين أي حصن بيزنطي أو عربي. إذ كان المطلب الأول لهم هو التحصين في أرض مسورة محمية بحيث تخيل مهندسو القصر الصغير، أو بيت جبرين، قلعة أوربية تقليدية من ذلك العصر، إلاّ أن ضرورة الاسراع في البناء جعلت تسوير الفناء أشد إلحاحاً من الحرز البرجي الذي

1) Diehl OP. Cit, P. 221.

٢) إن العبارات التي استخدمها وليم الصوري في وصف التحضيرات المنفذة لبناء القلعة تشبه تلك التي استخدمها في وصف التعبئة للقيام بحملة ويقصد بذلك بيت جبرين (ص ٦٣٩) وغزة (ص ٧٧٨).

٣) وليم الصوري ص ١٠٥٠، Survey, I, PP. 250-1. Guérin, Galilée, I, P. 341.

يمكن أن يضاف الى البناء فيما بعد. وهكذا تم تشييد سور دائري مغلق ومعه أبراج جدارية كانت ضرورية لتنفيذ عدد من المهام. واعتاد الفرنجة وجودها وبناءها نتيجة خبرتهم في أوربا. وبما أن المنطقة التي شيدت فيها مكشوفة فلم يكن ثمة ما يملي عليهم شكل الأرض وحدودها، وكان من الضروري تجهيزها بما يكفل صد الهجوم عنها من ثلاث جهات أو أربعة.

كذلك فرضت عليهم العجلة ضرورة إقامة دفاعات سهلة البناء واقتصادية، بينما فرضت عليهم ضرورة الدفاع الدائري جعل المخطط الأرضي متناظراً. وقد طبقت هذه الخصائص كلها على أفضل وجه في بناء المعسكرات. ومن المحتمل، بل ومن الراجح أن يكون المهندسون المعماريون اللاتين تأثروا بالمباني الاغريقية والعربية التي شاهدوها، ولكنهم تأثروا وبكل تأكيد بعاملي الزمن والأرض أيضاً.

نستطيع، على كل حال، أن ننتقل من عالم التصور والحدس الى دراسة قلعة صليبية توجد في موقع ما تزال تنتصب عليه خرائب قلعة بيزنطية سابقة. فإذا ما قارنا بين هذه القلعة والمنشآت اللاتينية لتوصلنا بالتأكيد الى اختصار المدى الذي تأثر فيه الفرنجة — في هذا الموقع بالذات — بمن سبقهم. إضافة الى عدد من الأسباب الأخرى التي تدعونا الى دراسة قلعة صهيون (قلعة صلاح الدين حالياً) بالتفصيل[1].

استولى صلاح الدين على قلعة صهيون في العام ١١٨٨ ولم يستطع الفرنجة استردادها بعد ذلك أبداً. وهي بالتالي، مثل قلعة الكرك، لم تبق في يد اللاتين إلا في عهد مملكة القرن الثاني عشر، إلا أن مبانيها أقرب الى قلاع الصليبيين من تلك الموجودة في قلعة الكرك، ولم تستبدل أو تغطى بأبنية إسلامية متأخرة. تضم قلعة صهيون أيضاً الكثير من المعالم التي سبقت مناقشتها في هذا الفصل. وقد جاء عمل المهندس المعماري متمماً للمنحة الطبيعية العظيمة التي يتمتع بها موقعها، وتتألف

---

1) Rey, Monuments, PP. 105-13, Colonies, PP. 15-18. Van Bercheme, Viyage en Syrie, PT. I, PP. 267-83. Deschamps, in Gazette des Beaux-arts (Dec. 1930) PP. 329-64.

دفاعاتها من سور ساتر وأبراج جدارية، منها واحد هو أكبرها وأجملها، ويحمل جميع مواصفات الحرز (المعقل البرجي)[1].

إن موقع قلعة صهيون موقع سوري تقليدي. وهو يتشكل من اتصال مجريين مائيين يمتدان داخل واد سحيق شديد الانحدار. وقد عزل هذا الرعن الجبلي عزلاً كلياً عن الأرض المرتفعة المتصلة به بخندق مائي هائل الحجم قُدَّ في الصخر على مسافة حوالي ٧٠٠ ياردة الى الشرق من ذروته. تتألف القلعة بكاملها من مستويين طبيعيين، وفيها فناء علوي من جهة الشرق وفناء سفلي من جهة الغرب. وقد نظمت حماية الفناء السفلي ضد الهجمات القوية فطوق بسور ساتر بسيط يتماشى بشكله غير المنتظم مع حافة الهضبة. إلا أن أكثر الدفاعات قوة تلك التي أنشئت من جهة الشرق وجهة الجنوب لحماية الفناء العلوي، وهذا ما سوف يتناوله البحث هنا.

شيد السور الشرقي من الكتل الحجرية متوسطة الحجم منحوتة الأطراف المألوفة في الأعمال الفرنجية المنفذة في القرن الثاني عشر. ويوجد على هذا السور عند الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة العلوية بوابة ضخمة لا يمكن بلوغها إلا عبر جسر منصوب فوق الخندق المائي الكبير، وقد أحيط هذا المدخل من جانبيه ببروزين دائريين يبرزان قليلاً خلف خط السور. والى الجنوب من البوابة ينتصب البرج الكبير فوق خط السور الشرقي، ويبرز عنه بضع بوصات. وهو عبارة عن بناء تبلغ مساحته من الخارج حوالي ثمانين قدماً مربعاً. وتوجد جنوبي ذلك البرج أيضاً ثلاثة أبراج صغيرة ينتصب ثالثها الزاوية الجنوبية الشرقية للقلعة. بينما توجد على السور الجنوبي للقلعة أبراج ثلاثة أخرى مستطيلة الشكل، كان أقصاها من جهة الغرب حصن بوابة gatehouse. وقد أجمع المؤرخون على أن البرج الكبير ببنائه الضخم وحجارته المنحوتة وترتيباته الداخلية يشبه «أي حرز (معصم برجي) في النرماندي»[2] وأنه شيد بكامله على يد الصليبيين وليس من سبب وجيه ــ على ما يبدو ــ يدعونا الى

١) رقم ١ في المخطط.

٢) لورنس، المصدر السابق ١ ص ٣٣.

الشك بأن باقي السور الواقي وأبراجه الجدارية غير صليبية . ونلفت النظر هنا الى أن الكتل الحجرية في هذه الجهة ليست من حجم واحد كما هو الحال في البرج الكبير ، إلا أن معظمها أصغر من تلك بقليل . وهي منحوتة بالطريقة ذاتها وتحمل علامات الحجّارة بمواصفات لاتينية لا تقبل الجدل[1] . كذلك لا حاجة بنا الى مماشاة لورانس في القول بأن البرج الكبير يختلف من حيث المبدأ عن باقي الأبراج المستطيلة الموجودة على السور الواقي . إذ تبدو هذه أصغر من مقاييسها الحقيقية إذا ما قورنت بصلابة البرج الكبير وضخامته . إلا أن أبعادها مساوية في الواقع لأبعاد الكثير من المعاصم البرجية الأوربية[2] . وهي ذات عقود تختلف كثيراً عن البرج ، ولكن يمكن تفسير ذلك منطقياً بفارق الحجم أكثر منه بفارق الأصل .

يبدو أن لورانس لم يلاحظ مغزى وجود أسوار أخرى في قلعة صهيون ذات طابع مختلف تماماً . إذ ما تزال توجد قطعة من هذا السور على ارتفاع نحوٍ من عشرين قدماً على بعد بضع ياردات الى الغرب من البرج الكبير[3] . وهو مبني من دبش الحجارة ومكسو بقطع مربعة من حجارة أصغر من تلك التي استخدمها الفرنجة ، وقد نحت بعضها على شكل مَعيَّن[4]. وثمة خرائب لبرج يبرز عن ذلك السور يدل على أنه مسدسي الشكل وصلب البنيان حتى الممشى ذي المتراس . ويعثر على حجارة مشابهة بالمواصفات المذكورة على امتدادات موازية للسور كلما اتجهنا غرباً وهي بقايا خطوط دفاعية متعاقبة تتوجها قليعة أقيمت فوق أعلى نقطة في الموقع كله[5] . وهي لا تزال مطمورة بالحطام والردم ولكنها تبدو على شكل سور دائري يحيط بفناء مسيج

---

١) بما في ذلك الترس الذي يحمل صورة حدأة مما كان يحمله فرسان اللاتين . أنظر علامات البنائين على اللوحة رقم ٨ آ و ب .

٢) البرج رقم ٤ وأبعاده ٦٢ × ٤٦ قدماً والبرج رقم ٥ وأبعاده ٤٨ × ٤٢ قدماً .

٣) أنظر لوحة رقم ٦ (آ) .

٤) أنظر ديشامب في مجلة الفنون الجميلة Gazette des Beaux-arts (1930) ص ٣٥٠ . وهو يشير إلى أن هذه هي الحجارة البارزة المتشابكة Opus reticulatum التي وصفها فيتروفيوس . تبدو استطالة السور هذه وزاوية البرج اللاتيني الكبير واضحة في اللوحة رقم ٦ (آ) .

٥) أنظر الصورة في أول الكتاب

مربع الشكل مقوى بأبراج زاوية وبروز على واجهته الشمالية. يفترض راي Rey، وأثبت ذلك فان بيرشيم Yan Berchem وديشامب Deschamps[1]، أن هذا التعاقب بالأسوار والقليعة معها هي آثار قلعة بيزنطية دون شك كانت قد شيدت في موقع صهيون قبل أن يستولي عليها الفرنجة. لأن البرج المضلع مع قاعدته الصلبة وحجارته المتشابكة البارزة ومخطط القليعة كل ذلك يحمل مواصفات البناء الاغريقي. وبالتالي فإن قلعة صهيون على حالها في القرن الثاني عشر كانت تتألف من سور وأبراج أقامها الصليبيون إضافة الى الدفاعات التي كانت لقلعة بيزنطية كبيرة جداً.

لم يتأكد لنا فيما إذا كان شق الخندق المائي من صنع اللاتين أم الأغريق. وهو يعزى عادة الى الصليبيين، ولكن لورانس يفترض كونه بيزنطياً. مما لا شك فيه أن الدفاع عن موقع صهيون يفترض وجود خندق يكمل عزله الطبيعي ونظراً لأن الاغريق اشتهروا بشق مثل هذه الخنادق في أماكن أخرى[2] فمن المعقول الافتراض أنهم هم من قاموا بذلك في موقع صهيون. ومن جهة أخرى ترتكز الأبراج الدائرية التي تبرز عن السور الشرقي على بروزات دائرية قدت في الصخر بما يتلائم معها تماماً. ولو كان الفرنجة — كما جرى الاتفاق عليه — هم الذين شيدوا الأبراج لتوجب أن يكونوا هم أنفسهم الذين قطعوا الصخر على هذا النحو. وبالاستناد الى هذا الدليل يمكن القول أنهم ربما وسعوا الخندق الموجود سابقاً عرضاً وعمقاً.

إلا أن الحقائق ذاتها تسمح لنا بافتراضات مناقضة. إذ لايمكن أن يكون الخندق الذي يفترض أن يحمي القلعة البيزنطية إلا مساوياً لوضعه الحالي أو أقل منه وهو عرضه بالذات في القرن الثاني عشر. وعلى هذا النحو يكون السور البيزنطي الموجود الى الغرب من البرج الكبير على مسافته الحالية على الأقل عن حافة الخندق.

---

1) Rey, Monuments, P. III; Van Berchem, Voyage en Syrie, PT. 1, PP. 269 280-1, Deschamps, Gazette des Beaux-arts (1930), P. 350.

٢) قوى البيزنطيون قلعة الرها وغرغر Gargar بخندق شق في الصخر ترك فيه عمود من صخر — كما هو شأن صهيون — كركيزة متوسطة لجسر خشبي، لورانس — المصدر السابق ص ٣١، راي — المستعمرات.

ومن الطبيعي الافتراض بالتالي أنه كان يوجد أثناء الاحتلال البيزنطي سور آخر أمام ذلك السور ويطل على الخندق نفسه وحل محله السور الصليبي. ومن المحتمل أن يكون السور البيزنطي قد شيد بأبراج دائرية ترتكز على الصخر الدائري البارز عندما جرى شق الخندق، وأن هذه القواعد الصخرية هي التي أملت على الفرنجة أبراجهم فيما بعد[1]. وهكذا يبقى من غير المؤكد مدى ما قام به اللاتين من عمل فيما يتعلق بخندق قلعة صهيون.

توقفنا طويلاً عند هذه المسائل لأن العلاقة بين المنشآت البيزنطية والصليبية عند قلعة صهيون تساعد في تحديد درجة تأثيرها على شكل القلاع الصليبية. وقد جهد المؤرخون في حل المشكلة باحثين عن الدليل في ثلاث قارات، بينما نجد البناء الاغريقي واللاتيني جنباً الى جنب عند صهيون.

ذكر البروفسور أومان القلعة على أنها إحدى القلاع التي توضح «التطورات السابقة للعمارة الفرنجية في الأراضي المقدسة» واستطرد يقول «إن تحري مثل هذه القلاع يدلنا على أن المبدأين الأساسيين للهندسة المعمارية العسكرية البيزنطية ــ وهما الدفاع عن السور بوساطة أبراج والجمع بين خطوط التحصين متحدة المركز ــ كانا مفهومين في القرن الثاني عشر وطبقهما البناؤون الفرنجة[2]. إن قلعة صهيون ــ مثلها مثل قلعة الكرك في الصحراء ــ لم تخضع للتنقيب أو الدراسة التفصيلية، وهي بالتالي لا تقدم لنا أسساً متينة يرتكز إليها في استنباط تعاميم مقنعة، ويبدو أن ما قاله أومان لا يرتكز الى أساس. إذ أن الدفاع عن السور الساتر بوساطة أبراج أمر معروف ومطبق في أوربا قبل زمن الحملة الصليبية الأولى. كما لا تقدم لنا قلعة صهيون دليلاً ملموساً على أية نظرية لتطوير الدفاعات الجانبية، لأن الطبيعة والإبداع زوداها بمثل هذه المناعة، بحيث لم تكن ثمة حاجة لإقامة دفاع من هذا القبيل عندها. إذ أن

---

١) يزداد هذا الأمر احتمالاً بالاستناد إلى الأساسات العائدة للبرج الدائري البيزنطي الكائنة تحت البرج رقم ٤ ، أنظر ديشامب في مجلة الفنون الجميلة (١٩٣٠) ص ٣٥١ .

٢) أومان ، ٢ ، ص ٢٩ .

الأبراج الدائرية الصغيرة تؤمن نوعاً من الرمايات الجانبية على الجدار المعاكس للخندق المائي ، بينما لا تبرز الأبراج المستطيلة إلا قليلاً جداً عن السور الخارجي . كما أنه ليس من السهل التوصل الى معرفة كيف استنتج أومان أن قلعة صهيون تدل على تطور الفرنجة في تطبيقهم لمبادىء الدفاع متحد المركز . فهم إنما شيدوا بناءهم على الحافة الخارجية للهضبة المرتفعة التي كانت تشكل القليعة العليا . وأقاموا سوراً ضخماً وأبراجاً جدارية طغت على الأسوار القديمة . وحتى لو أبقى الفرنجة على الدفاعات البيزنطية في حالة جيدة ــ كما يميل ديشامب الى الاعتقاد ــ فليس ثمة ما يدعو للتساؤل حول استخدامهم لتلك الأسوار مجموعة مع سورهم الخاص . إلا أن السور الذي يحيط بالموقع كله أضخم بكثير من السور الاغريقي ، بحيث لا يواجه العدو المهاجم موانع متعاقبة تزداد صعوبة كلما أوغل في القلعة . إذ نجد أقوى الدفاعات وأكثرها فاعلية موجوداً عند الحلقة الخارجية التي يشكلها السور الجديد الذي بناه الصليبيون والذي يؤكد لنا رفض الإلتزام المطلق بالدفاع متحد المركز الذي يتجسد في القلعة القديمة .

أما الاستنتاج بأن الدليل الذي تقدمه قلعة صهيون يساعد في البرهان على أن المعماريين الفرنجة في سورية لم يتعلموا شيئاً من الوسط الجديد الذي عاشوا فيه فأمر بالغ الخطأ . إذ استخدم الفرنجة مواداً محلية وربما بعض الحرفيين المحليين . ولا بد بالتالي من توقع التأثير السوري في تفاصيل البناء إن لم يكن في المخطط العام للقلعة وشكلها[1] . وثمة علامات أخرى في صهيون تدل على التأثير المحلي لا تنحصر في عقود الأبراج فقط بل تتعداها الى طرق الاتصال المتقطعة بين المتاريس والدفاع ذي المرحلتين ، وتخطيط بوابات الدخول ، وشكل كوات الرمي والأقواس الجميلة ، وسوف يتناول الحديث كلاً منها باقتضاب .

فصلت الأبراج عن الممشى ذي المتاريس فوق السور بحيث تحول دون السير بين الأقسام المفصولة باستثناء البرج السادس فقط ، إذ يمكن هنا الدخول الى تجويف

---

١) أنظر الاستنتاج ذاته في لورنس ، المصدر السابق ١ ، ص ٣٤ .

الطابق الأول عن طريق السور . أما في باقي الأماكن فيتم الوصول الى كل قسم من أقسام المتاريس عن طريق بيت درج خارجي يرتقيه المدافعون من داخل الفناء . وبهذه الطريقة ذاتها لا يوجد في الأبراج رقم ٤ و ٥ و ٦ أي طريق مباشر يصل بين غرف الطابق الأرضي وغرف الطابق الأول . إن هذا القطع في الاتصالات يشكل آلية دفاعية على الأرجح . وقد وصفه المنظرون المعروفون لدى البيزنطيين وأشادوا به ، وحوته أبنية معينة[1] تعود اليهم . فلو استطاع العدو الاستيلاء على موطىء قدم في برج من الأبراج ، أو في أي قطاع من السور ، يكون من السهل إيقافه هناك ودرء الخطر عن الحامية كما كان يحدث فعلاً . ولكن مثل هذه الترتيبات غير ملائمة في باقي الأوقات ، بل إن لها سيئاتها أثناء الهجوم أيضاً لكونها تعرقل إمكانات المناورة وتعزيز القطاعات المهددة في الدفاع بسرعة . ولم تأخذ هذه الترتيبات صفة التقليد في المعاقل الفرنجية إطلاقاً ، كما لم يؤخذ بها في القلاع الكبيرة التي كانت تابعة للأخويات الفرسانية العسكرية والتي أنشئت في أواخر القرن الثاني عشر . أما في صهيون فرغم تبني شكل من أشكال الدفاع التقليدي ، بالنسبة لبعض المباني البيزنطية ، فإن عملية الانتشار كانت مقيدة على ما يبدو بموقع البناء .

كانت الدفاعات العليا للبرج الكبير والسور الخارجي من النوع الذي تبناه الصليبيون في معظم قلاعهم . وهي تضم خطين دفاعيين متراكبين متطابقين أدناهما مطاف الحرس (ممشى دائري يطوف به الحرس) Chemin de ronde في داخل السور أو على مستوى سطيحة Terrace برج من الأبراج ، وله جدار حاجز يشكل متراساً يطل على حقل المعركة ، وفيه تجاويف على شكل منع مقنطرة ذات كوات يستخدمها النشابون . وكان النشابون الواقفون في هذه المنع يستطيعون إطلاق سهامهم على العدو دون أن تعيقهم الحركة في مطاف الحرس (Chemin de ronde) ، أو السطيحة التي

---

1) Deschamps, in Gazette des Beaux-arts (1930), P. 355; Diehl, OP. Cit. P. 156; Tafrali, P. 59; Lawrence, OP. Cit, I, P. 27; Philo of Byzantiun (Translated by Rochas d'Aiglum), in Société-d 'Emulation du Doubs, Memoires, sér. 4, Tom. 6), P. 236; Vitruvius, De arehitectura (ed. F Krohn), PP. 18-19. Procopius of Caesarea (Translated by A. Stewart), P. 118.

تقع خلفهم. وكان الجدار الساتر لهم سميكاً بدرجة كافية لاحتواء المنطقة ولحمل ممشى ذي متراس فوقه يشكل خط الدفاع العلوي. وكان هذا الأخير محمياً من جهة العدو بمتراس ذي شَرَفات مفرضة (فتحات) لإطلاق السهام. إن مثل هذه الدفاعات المزدوجة فوق ذروة السور موجودة تقريباً في كل مكان استخدمت فيه التحصينات الفرنجية[١]. والشيء المهم هنا هو أن هذه الدفاعات استخدمت مدة طويلة في الشرق، إلا أنها لم تتحول مطلقاً الى ظاهرة عامة في أوربا الغربية.

درس ديشامب نتيجة أخرى محتملة لتأثير البيزنطيين على الصليبيين دراسة ممحصة[٢]. إذ وجد أن بوابة الدخول الجنوبية في القلعة العليا، والبوابتين الجنوبية والشمالية في القلعة السفلى كلها، موجودة الى جوار برج يجانبها، وذلك كي يتعرض خط تقرب العدو بكامله للرمي الجناحي من السور إذا ما رغب في اقتحام المدخل[٣]. كما وجد عند مدخلين منها أنه إذا ما نجح العدو في اقتحام البوابة الأولى فسوف يضطر الى الانعطاف وتبديل وجهة هجومه لأن الطريق الى بوابة الدخول الثانية ــ التي تصل بين مقر الحرس والفناء الداخلي المسور ــ يشكل زاوية قائمة مع الباب الذي يلج منه المهاجم. وهذا ترتيب روماني متأخر وبيزنطي أيضاً يشاهد في شمالي أفريقيا وآسيا الصغرى وسورية.

ثمة مسحة لنموذج بيزنطي في الطلّاقات (كوات الرمي) التي استخدمها الفرنجة في صهيون أيضاً. فقد كان الطراز الذي تبناه الصليبيون في قلاعهم المتأخرة مشقوقاً بعناية في الكتلة الحجرية ذاتها ومقوساً من ذروته وعلى شكل ركاب الفرس

---

١) بالنسبة لما هو موجود في قلعة صهيون، أنظر اللوحة رقم ٦ (ب) حيث تظهر الشرَفات على سطح البرج الكبير وكذلك اللوحة رقم ٧ (آ) التي تظهر الشرفات على الوجه الداخلي للسور الشرقي جنوبي البرج الكبير. ولم يبق سوى المنع الموجودة على مستوى مطاف الحرس، أما الممشى المسور ذي الشرفات فوقها فقد اختفى. وفي الدفاعات التي شيدت بعد ذلك في أماكن أخرى كانت هذه الخطوط تتألف من ثلاث طبقات أحياناً.

٢) أنظر فيما يتعلق بهذه الفقرة كلها: Deschamps in Syria, XIII (1930) ص ٣٦٩ ــ ٨٧.

٣) لوحة رقم ٧ (ب) وتظهر فيها بوابة الدخول الجنوبية من القلعة العليا التي أشير إليها بالحرف (B) في اللوحة رقم ٦.

المسطح من قاعدته بحيث يسمح برمايات رأسية فاعلة. ومعظم الطلّاقات الموجودة في قلعة صهيون لم تكن بحاجة لمثل هذه الترتيبات، وهي أكثر عدداً على السور الخارجي الشرقي، وعلى مستوى واحد عملياً مع الجدار المعاكس للخندق المائي ونستطيع التنويه هنا الى أن الفتحات الفعلية فيها لم تكن مقوسة وليست مشقوقة في الكتل الحجرية الخارجية. فعندما تم تركيز الكتل التي تكسو السور ترك فاصل بينها مشكلاً فتحة مستطيلة ضيقة مساوية تماماً في طولها لارتفاع صفين أو ثلاثة صفوف من الحجارة[1]. وربما لم يكن هناك شيء مميز حول طريقة البناء هذه، ولكنها بالتأكيد غير متبناة عموماً في بناء القلاع العربية في أي وقت من الأوقات خلال العصور الوسطى. ومن جهة أخرى فإن طلّاقات الرمي في قلعة أنقرة البيزنطية مبنية على هذا النمط، بينما المعروف أن معماريي جوستنيان سدوا الشرفات المفرجة في سور أناستازيا القديم عند دارا Dara، إلا أنهم تركوا فيها فتحات للرمي بين الحجارة القديمة والجديدة[2].

وأخيراً غطيت بعض المداخل في الأسوار الصليبية من قلعة صهيون بأسكفة يعلوها قوس استنادي مسطح من ثلاث أو خمس لبنات ضخام[3]. ولم يستخدم ذلك في قلعة صهيون وحدها فقط وإنما استخدم أيضاً فوق باب البرج الكبير في جبيل[4]، كما يذكر فان برشيم وجوده كذلك في قلعة الزاو Qala'at ez-Zau، وبرج المهج Burj al-Mohash[5]. وهذا المعلم غير موصوف في البناء الغربي ولكنه يشاهد في المباني البيزنطية[6] بما فيها قلعة صهيون[7].

١) انظر لوحة رقم ٨ (ب) ومن المثير هنا الإشارة إلى أن الطريق ذاتها استخدمت في البناء في قلعة الكرك ـــ مؤاب وهي القلعة الثانية الضخمة في القرن الثاني عشر.

2) Jerphanion, OP. Cit. P. 168.

٣) لوحة رقم ٨ (ب).

٤) لوحة رقم ٥ (ب).

5) Van Berchem, Voyage en Syrie, I, PP. 104, 109, 243. Dussaud in Revue archcologique, 3 sér. Tom. XXVIII (1896

٦) منها مثلاً دير سمعان، أنظر فان برشيم في Voyage en Syrie, م ١ ص ٢٢٦ و م ٢ لوحة رقم LV.

٧) لم يلحظ أي زائر سابق أن جزءاً من السور البيزنطي داخل في قاعدة البرج رقم ٤ وأنه يضم مدخلاً يبدو وكأنه جزء من البناء الأصلي تعلوه اسكفة من الطراز نفسه مع قوس استنادي.

إن أعظم قلعة تقليدية بناها الصليبيون قبل انهيار المملكة اللاتينية الأولى وأفضلها حفظاً تقدم أوضح دليل على التأثير البيزنطي على المعماريين الغربيين. إذ أن شكل بنائهم وطرازه في قلعة صهيون أوربي غربي بكامله، ولكن يحتمل أنهم تبنوا قليلاً من المعالم التي اختص بها المشرق باستخدامهم الحرفيين المحليين والمواد المحلية، واستغلالهم الترتيبات التي وحدوها في القلعة البيزنطية القديمة. وهم ليسوا مدينين للشرق بمادتهم العلمية وإنما بتفاصيل التحصين والبناء.

إن سجل قلعة صهيون يلخص تماماً كل مناقشة تتعلق بالتحصين في سورية اللاتينية في القرن الثاني عشر، أما القلاع الضخمة الأخرى مثل الحصن والمرقب وطرطوس وعتليت فتنسب بشكل أخص الى مملكة اللاتين الثانية بأخواتها الفرسانية الغنية والقوية التي منحتها شكلها الحالي.

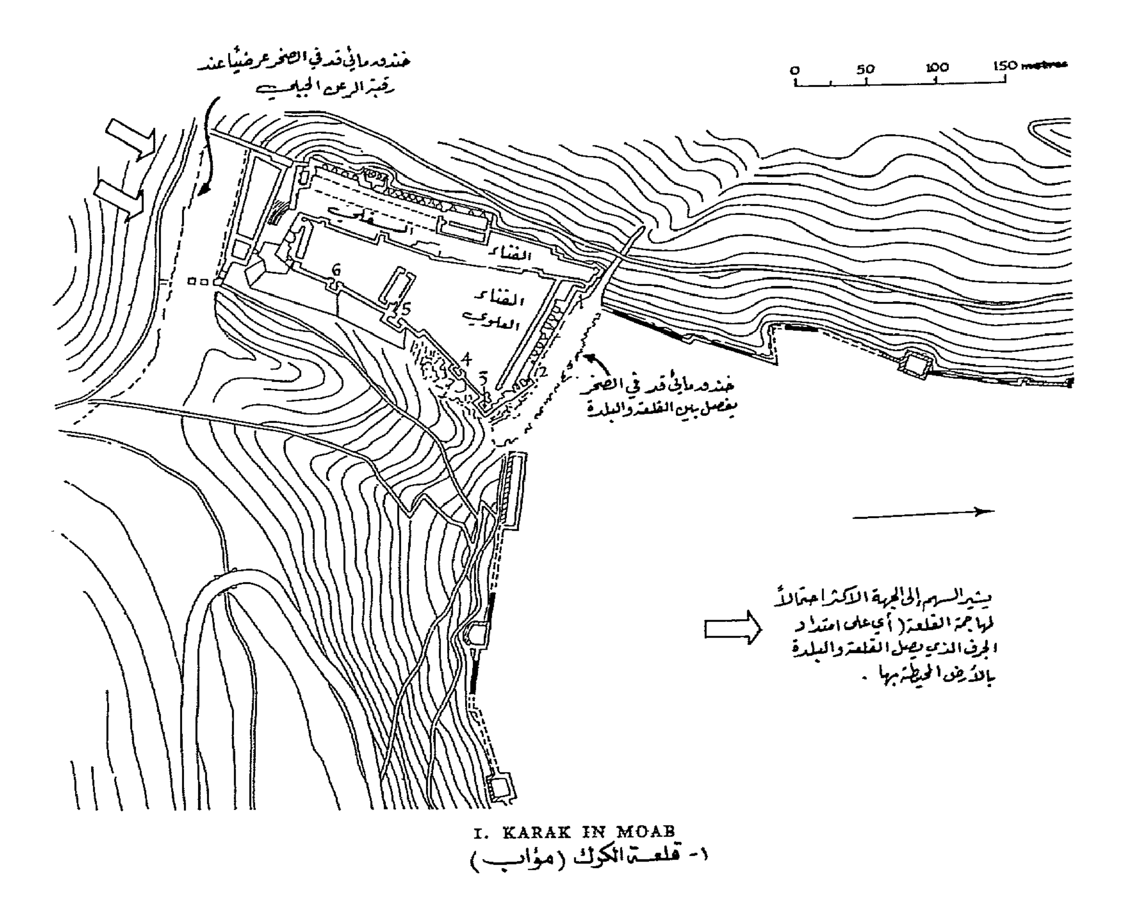
لم يؤكد الكتّاب، الذين قاموا بمسح مختصر ــ من النوع الذي نحاوله هنا ــ لكامل ميدان التحصين الصليبي المبكر، على القيمة المحدودة لاستنتاجاتهم. ولا يمكن لهذه الاستنتاجات إلا أن تكون كذلك لأنه لم يستكشف بعد إلا القليل والسطحي من هذا الموضوع. وقد تمت زيارة القلاع خلال القرن الماضي من قبل دارسين رحالة متعاقبين لفترات لا تكاد تزيد عن بضعة أيام إن لم تكن لساعات قليلة فقط. وقد لاقى هؤلاء الرحالة صعوبات وعقبات جمة، لا بسبب التخريب الذي حل بتلك الأوابد، وإنما بسبب الأنقاض والمزروعات والمباني الحديثة التي دثرتها، وكانت النتيجة أن اسهامهم في التوصل الى معرفة الموضوع من جميع الأوجه قليل إذا ما قيس بتلك الدراسة الميدانية التفصيلية التي قام بها ديشامب في قلعة الحصن، والتي قام بها س. ن. جونز في عتليت[1]

وفي بعض الأحيان كان يتم التوصل الى استنتاجات عامة مقنعة نتيجة مناقشة جزء من الموضوع كما لو كان الموضوع بأكمله. حتى أن بعض الباحثين كتب

---

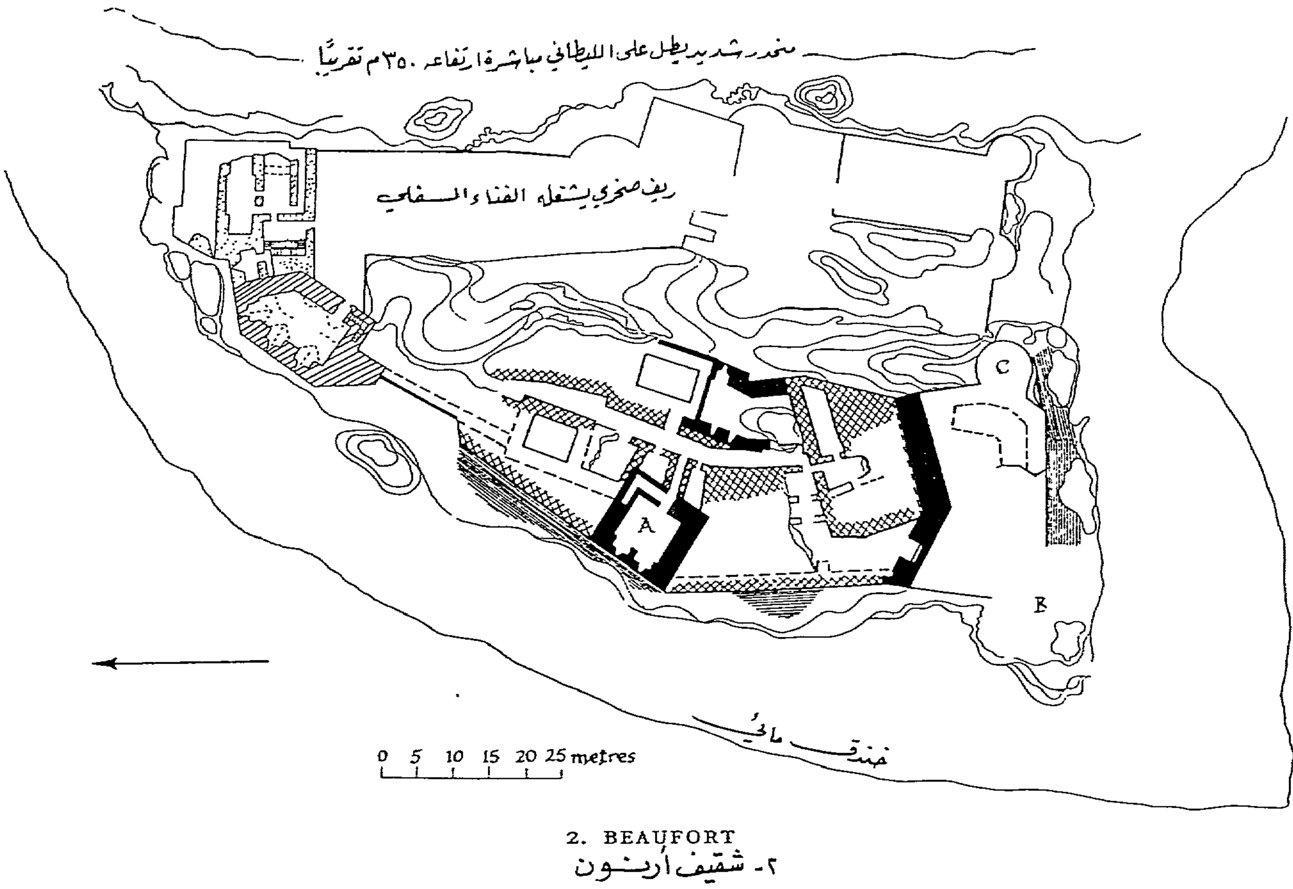
١) إن التأكيدات المقنعة التي قدمها لورنس فيما يتعلق بعتليت (المصدر السابق ص ٢٤٢) تبدو غريبة تماماً في ضوء ما وجده السيد جونز. أنظر دورية فرع الآثار في فلسطين ج ٣ ص ١٥٢ ــ ٦٤.

ـــ على سبيل المثال ـــ عن أول قلعة في أوربا الغربية متحدثاً عن « حرزها » فقط الذي هو واحد من معالمها كما نعرف . وعلق الآخرون عن فن العمارة العسكرية البيزنطية بالاستناد الى أعظم منجزاته ، بينما ركز لورانس ـــ من جهة أخرى ـــ على أكثر الأمور اعتدلاً فيه ، ولكن لو أخذت في الاعتبار كل المباني المعروفة ، جيدها وسيئها ، بسيطها ومعقدها ، لاستعصت على أي تصنيف باستثناء أوسعها وأكثرها شمولاً . ولا يمكن القول كذلك بأن ثمة عامل واحد هو السائد فيها وهو الذي يحدد شكلها . فالنموذج العربي والبيزنطي ، والخبرة والعادات الأوربية والظروف التي تفرضها الأرض والوظيفة والوقت المتوفر والمواد المتوفرة والطقس السائد كل ذلك كان له دوره المميز . ولا يمكن التوصل الى حل للمسائل المتعلقة بالموضوع المعني إلا بالاستكشاف الصبور والشامل لكل موقع على حدة .



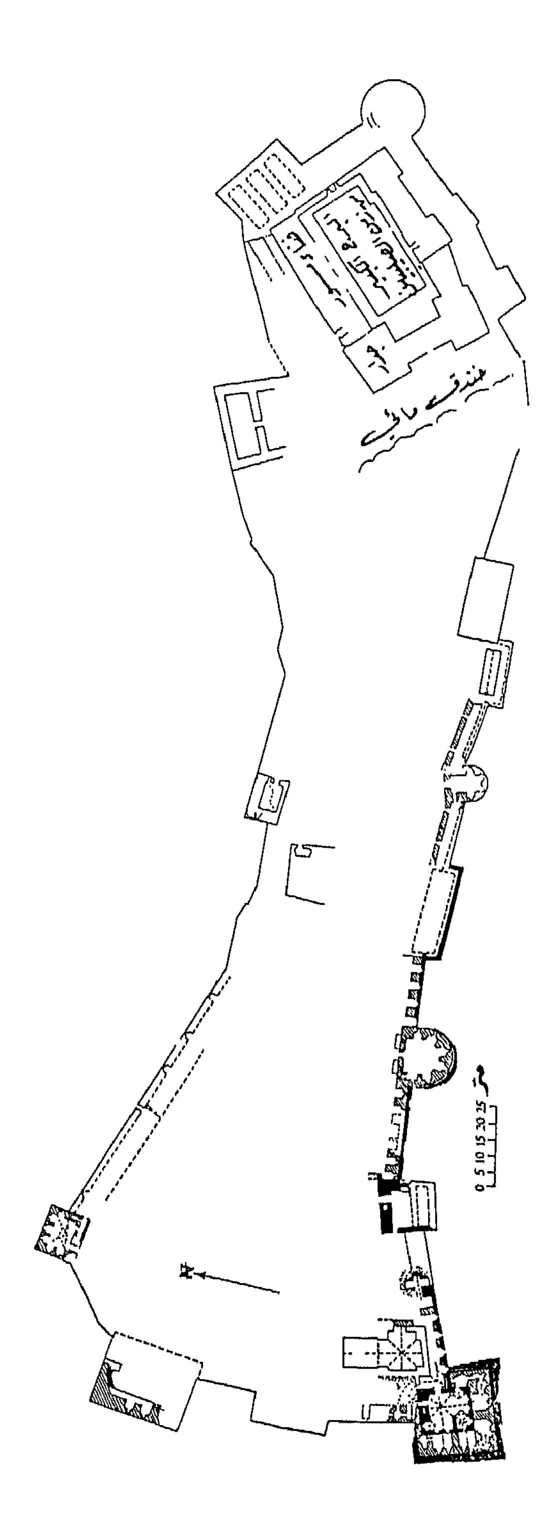
I. KARAK IN MOAB

١- قلعة الكرك (مؤاب)

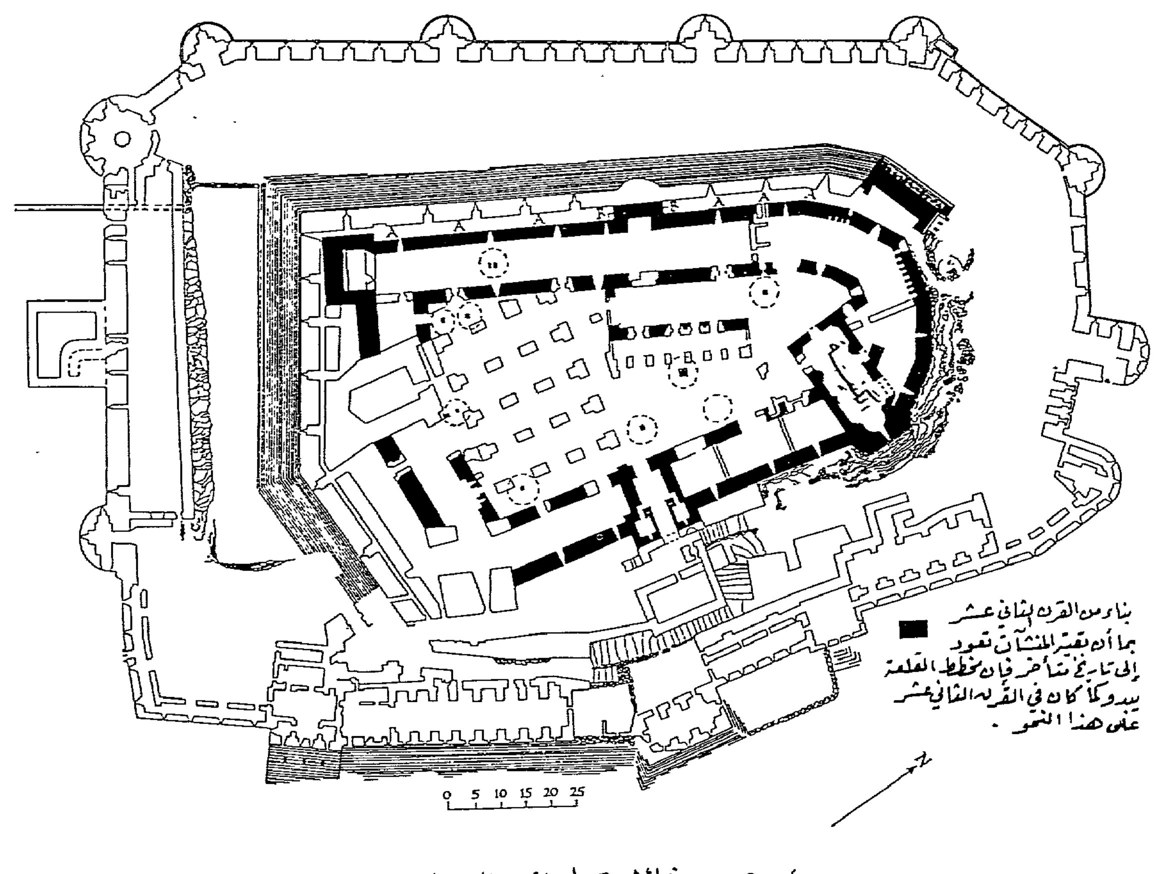


2. BEAUFORT

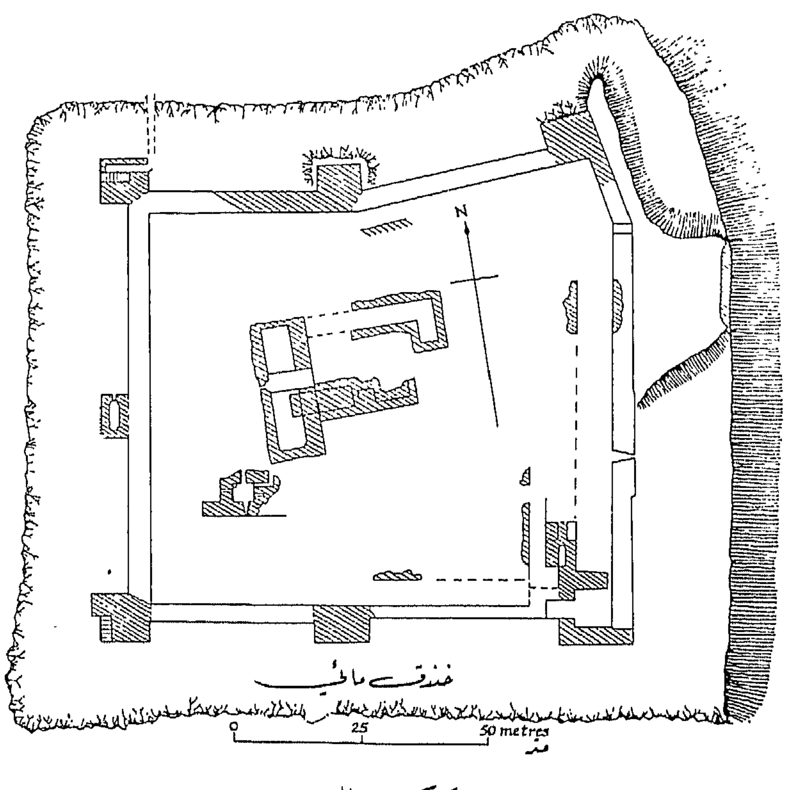
٢- شقيف أرنون



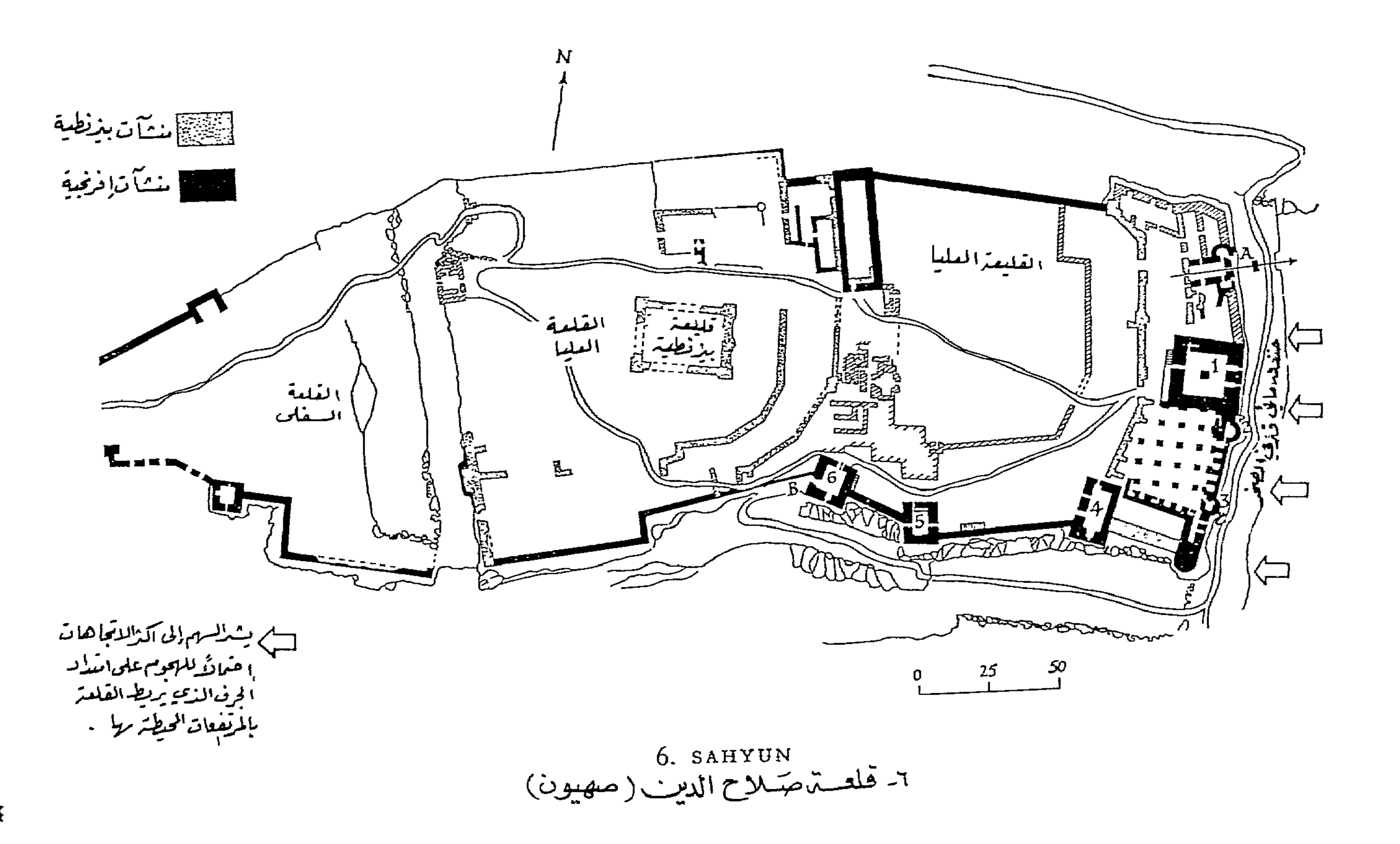
٣ - صبيبة - (مُرود)



٤ - حصن الأكراد (قلعة الحصن)

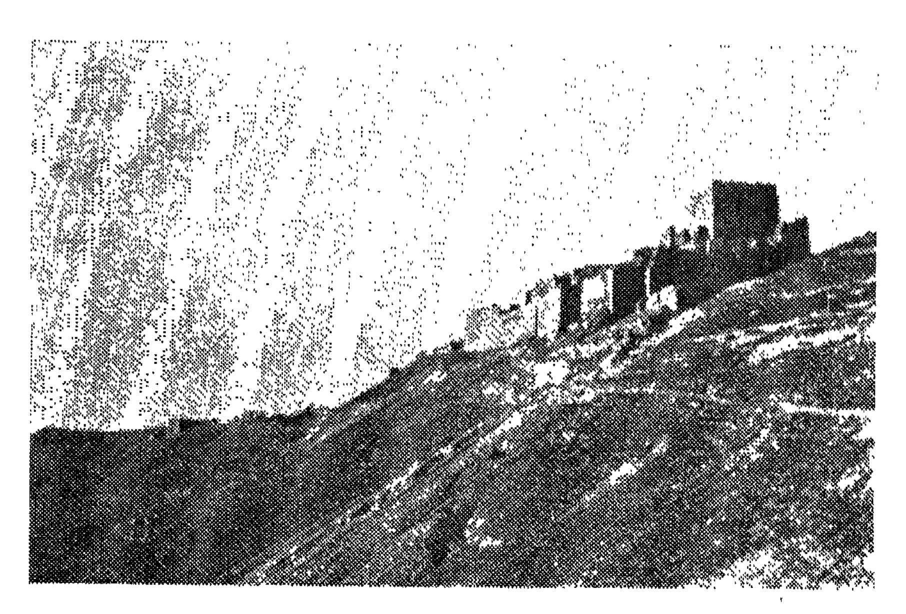


٥ ـ كوكب الهوى



6. SAHYUN

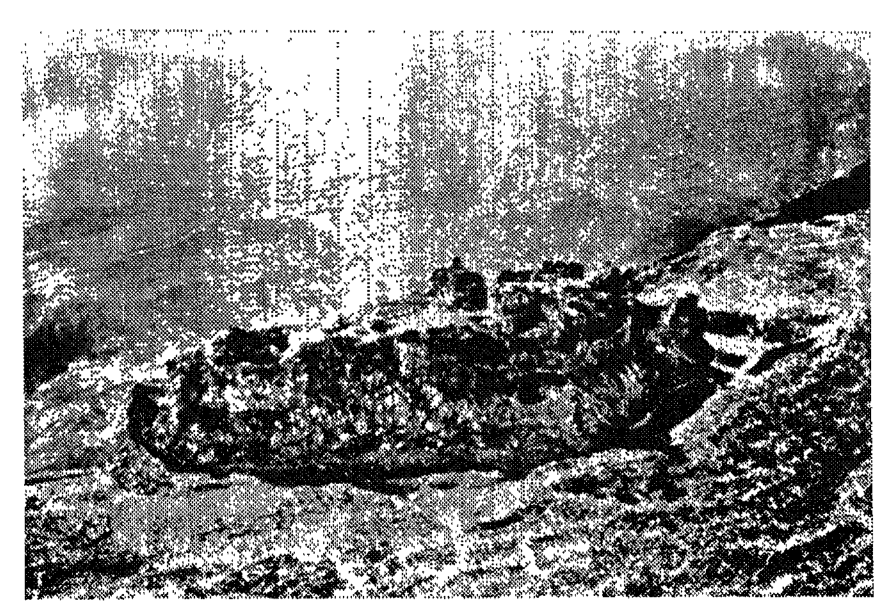
٦- قلعة صلاح الدين (صهيون)



أ) قلعة الكرك ــ من الناحية الجنوبية الغربية



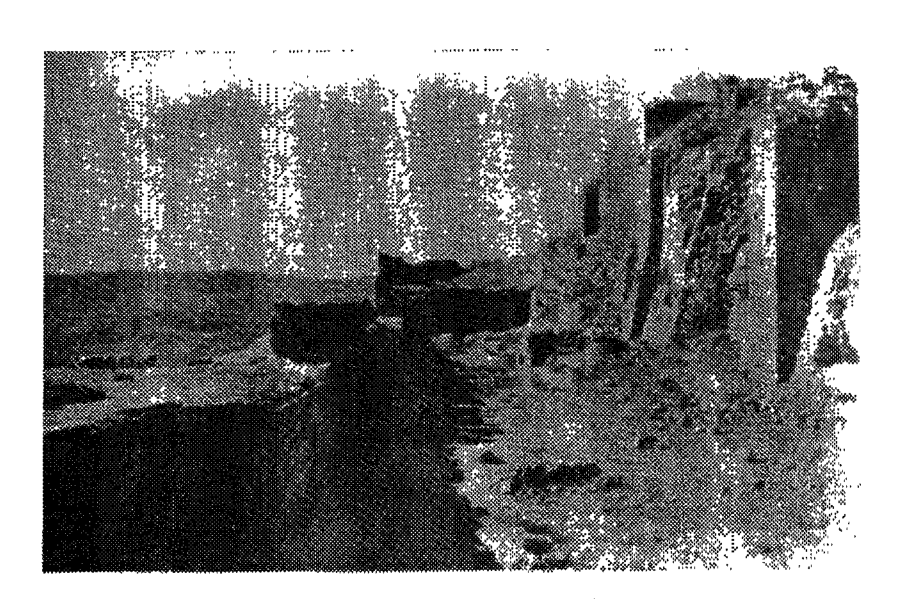
ب ــ قلعة الكرك ــ من الناحية الشمالية الشرقية



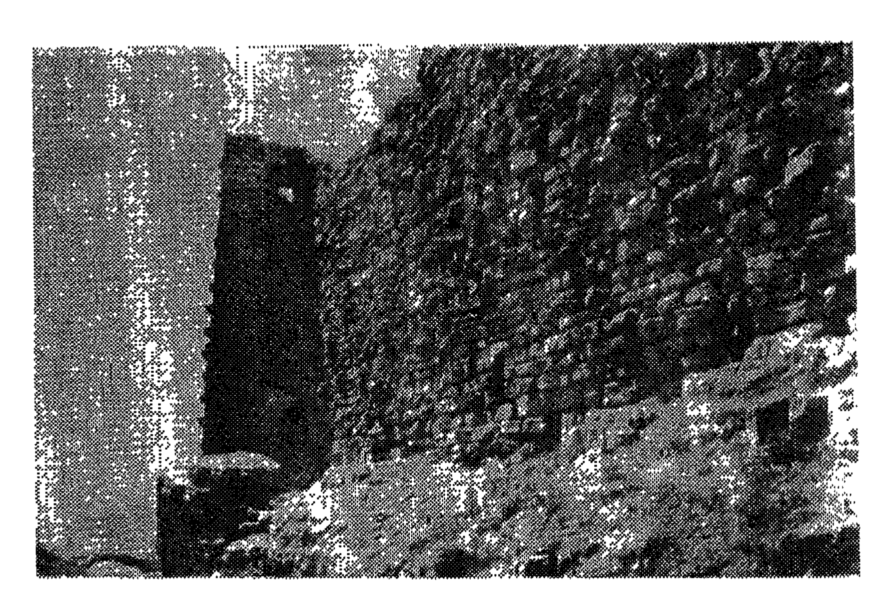
أ) شقيف أرنون ـــ من جهة الغرب



ب) شقيف أرنون ـــ من جهة الجنوب



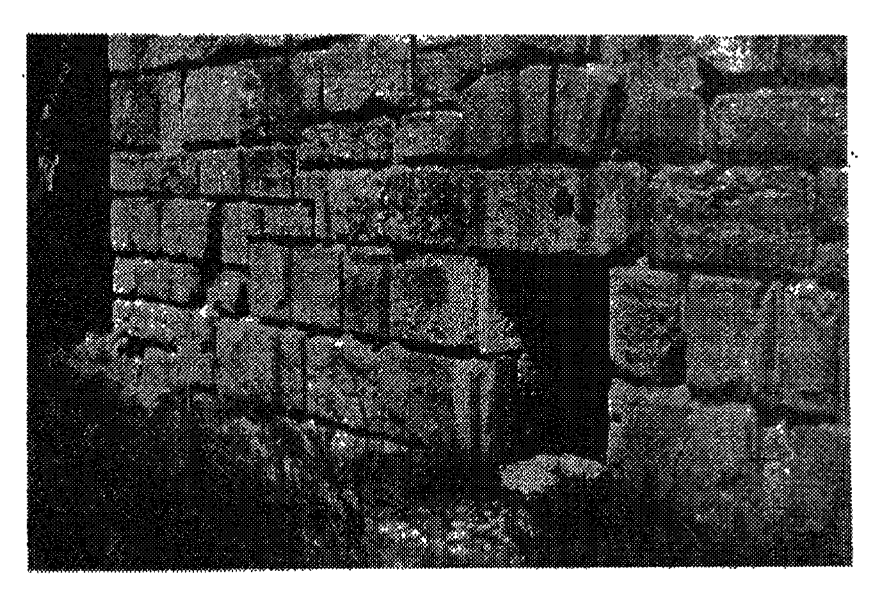
أ) الكرك ـــ الفناء السفلي



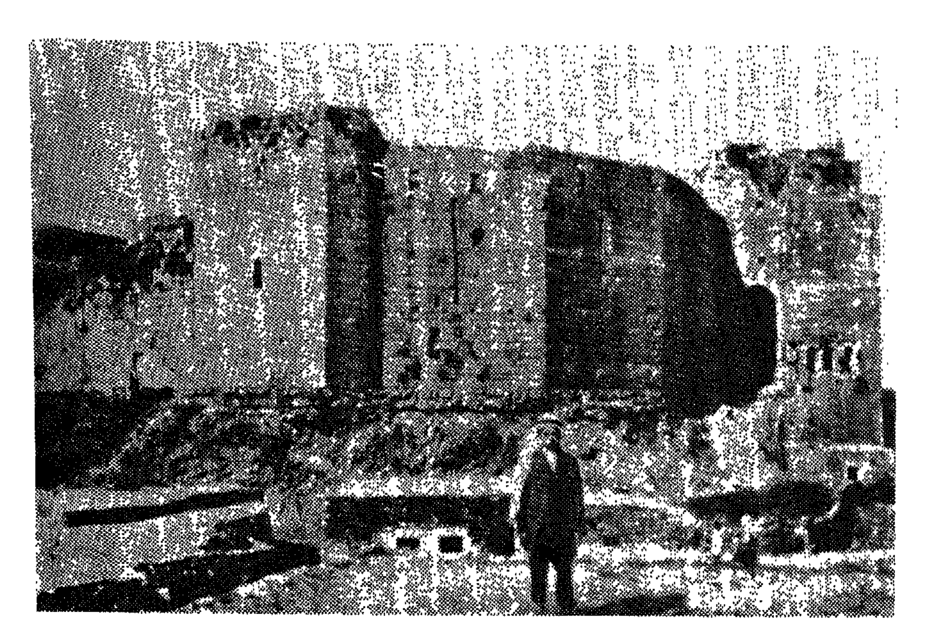
ب) الكرك ـــ السور الشمالي



أ) جبيل ــ البرج الكبير



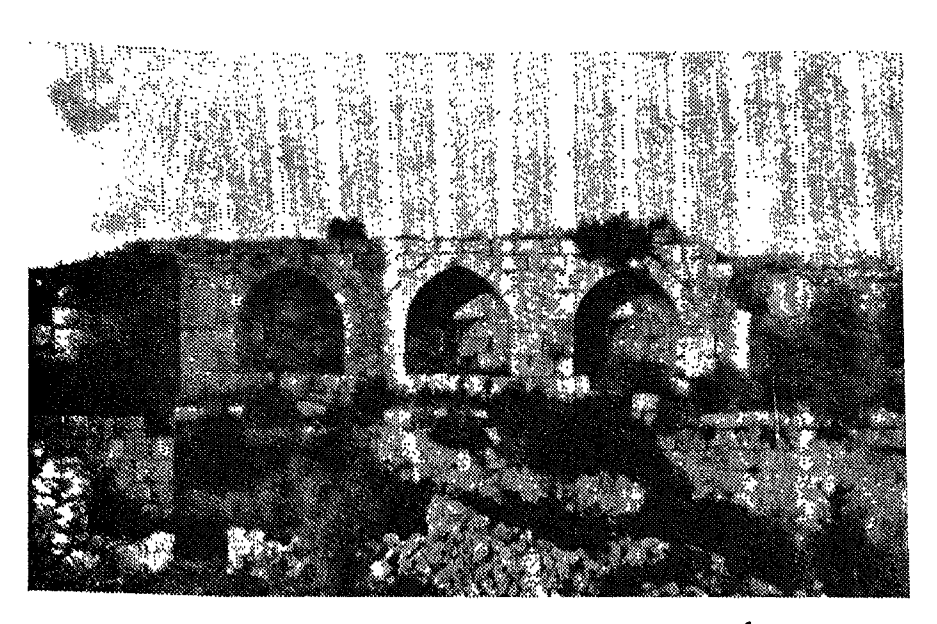
ب) جبيل ــ باب الدخول إلى البرج الكبير



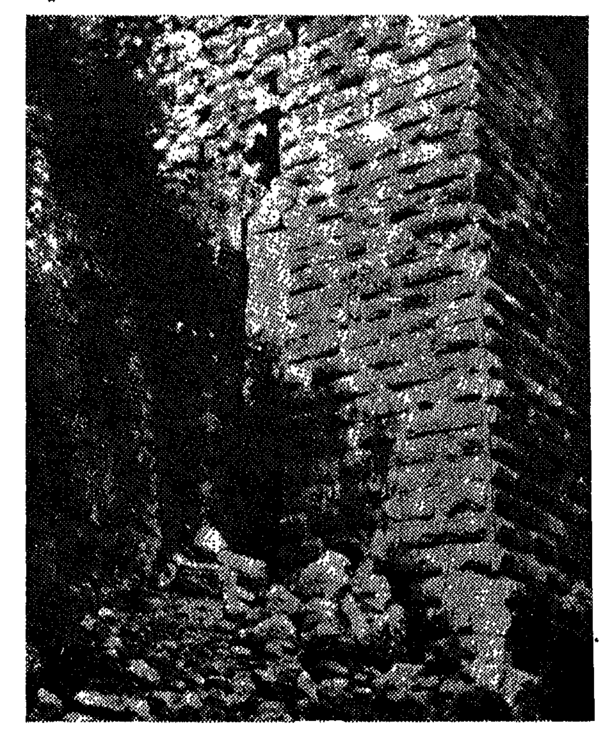
أ) قلعة الحصن ـــ السور الداخلي من الجهة الشمالية الشرقية



ب) صافيتا



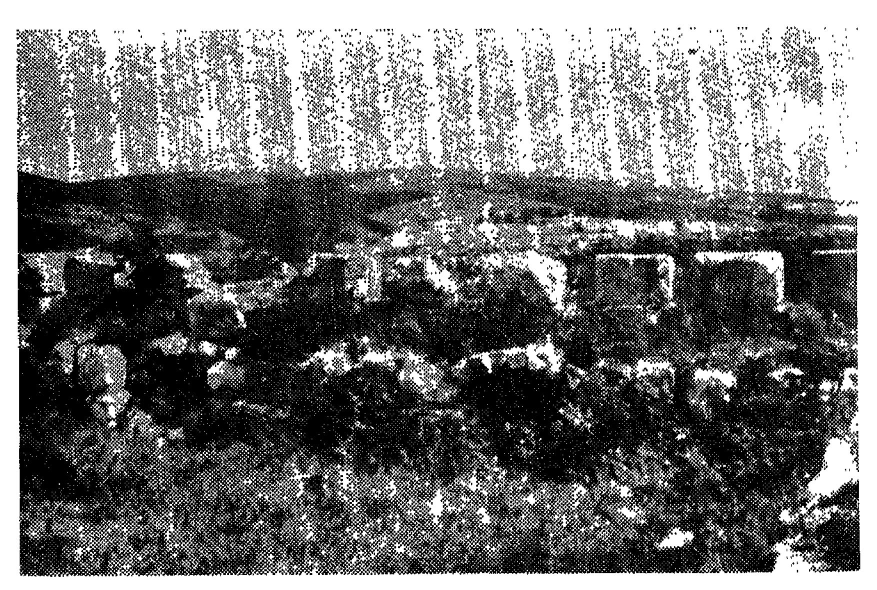
أ) صهيون ـــ الواجهة الداخلية للسور الخارجي



ب) صهيون ـــ بوابة الدخول إلى الفناء العلوي المسور



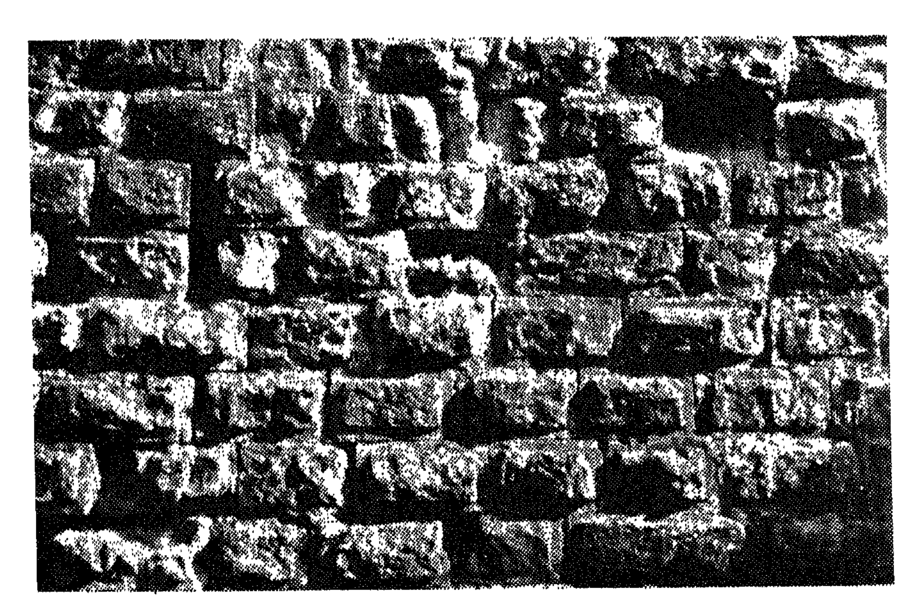
أ) صهيون ـــ البرج الصليبي الكبير والسور البيزنطي



ب) صهيون ـــ سطح البرج الكبير



أ) صهيون ــ الأسكفة والقوس الاستنادي



ب) صهيون ــ الطلّاقة (كوة رمي السهام)

BIBLIOGRAPHY ثبت المراجع

Oart I. SOURCES الجزء الأول : المصادر

A. LATIN AND FRENCH آ ـــ لاتينية وفرنسية

(a) Chronicles (ا) كتب التاريخ الزمني

(١) كاتب مجهول « مآثر الفرنجة في مملكة بيت المقدس » ، طبعة هـ. هاغنماير ، هايدلبرغ ١٨٩٠ ؛ طبعة ل . بريهر ، باريز ١٩٢٤ وكل ما أشير إليه هنا مأخوذ من طبعة بريهر . (باللغة اللاتينية)

Anonymous. Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. H. Hagenmeyre, Heidelberg, 1890; ed. L. Bréhier, Paris, 1924. All references are to Bréhier's edition.

(٢) رايموندوس آغيليه ، « تاريخ الفرنجة الذين قطنوا بيت المقدس » في « جامع مؤرخي الحروب الصليبية » ، الأحداث التاريخية III ، ٢٣٥ ـــ ٣٠٩ باريز ١٨٦٦ .

Raimundus de Aguilers. Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, in RHC, Hist. occ. III, 235-309. Paris, 1866.

(٣) فُلتشريوس كارنوتنسيس (فُلتشر) « تاريخ مملكة بيت المقدس » في « جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، الأحداث التاريخية III ، ٣١٩ ـــ ٤٨٥ ، وطبعة هـ . هاغنماير ، هايدلبرغ ١٩١٣ . وكل ما أشير إليه هنا مأخوذ من طبعة « الجامع » .

Fulcherius Carnotensis. Historia hierosolymitana, in RHC, Hist. occ.

III, 319-485, and ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1913. All references are to RHC edition.

(٤) غالتيريوس كانسيلاريوس (والتر المستشار) « أنطاكية الجميلة » طبعة هـ . هاغنماير انسبروك ١٨٩٠ .

Galterius Cancellarius

(٥) رادولفوس كادومنسيس . « مآثر تنكريد في حملة بيت المقدس » ، في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، الأحداث التاريخية III ، ٦٠٣ — ٧١٦ . (باللغة اللاتينية)

Radulfus Cadomensis. Gesta Tancredi in expeditione hierosolymitana, in RHC, Hist. occ. III. 603-716.

(٦) البرتوس آكوينسيس (ألبرتو الاكويني) « تاريخ بيت المقدس » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، الأحداث التاريخية IV ، ٢٧١ — ٧١٣ باريس ١٨٧٩ . (باللغة اللاتينية)

Albertus Aquensis, Historia hierosolymitana, in RHC, Hist. occ. IV. 271-713. Paris, 1879.

(٧) إكهاردوس « بيت المقدس » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، الأحداث التاريخية V ، ١ — ٤ باريس ١٨٩٥ (باللغة اللاتينية) .

Ekkehardus. Hierosolymita, in RHC, Hist. occ. v, I-40 Paris, 1895.

(٨) كافاروس « تحرير مدنية المشرق » في حولية جينوفيسي دي كافار وما بعدها طبعة ن . ت بلغرانو ، روما ١٨٩٠

Cafarus. De liberatione civitatum orientis, in Annali Genovesi di Caffaro e De' suoi continuatori, I, ed. L. T. Belgrano. Rome, 1890.

(٩) ويلرموس أسقف صور (وليم الصوري) « تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، الأحداث التاريخية I باريز ١٨٤٤ (باللغة اللاتينية)

Willermus archiepiscopus Tyrensis. Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, in RHC, Hist. occ. I. Paris, 1844.

(١٠) أودو دي ديوجيلو « حملة لويس السابع ملك فرنسا » طبعة هـ . واكيت ، باريز ١٩٤٩ . نشر وترجمة ف . ج . بري . نيويورك ١٩٤٨ ، وكل ما أشير إليه مأخوذ من طبعة واكيت .

Odo de Diogilo. La Croisade de Louis VII, roi de France, ed. H. Waquet. Paris, 1949. Ed. and trans. V.G. Berry. New York, 1948. All references are to Waquet's edition.

(١١) كاتب مجهول . « التكملة اللاتينية لوليم الصوري » طبعة م . سالوخ ، لايبزيغ ١٩٣٤ . « باللغة الألمانية » .

Anonymous. Die lateinische Fortsetzung Wilhelms von Tyrus, ed. M. Salloch. Leipzig, 1934.

(١٢) « التاريخ الزمني لارنول وبرنار تريزوربيه » طبعة م . ل دوماس لاتري . باريس ١٨٧١ . « باللغة الفرنسية » .

Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, ed. M. L. de Mas Latrie. Paris, 1871.

(١٣) « تاريخ الإيراكل الامبراطوري وغزو أراضي ما وراء البحار ، تكملة تاريخ وليم أسقف صور » في « جامع مؤرخي الحروب الصليبية » ، الأحداث التاريخية IIباريس ١٨٥٩ .

L'Estoire de Eracles empereur et la conqueste de la terre d'outremer; la continuation de l'estoire de Guillaume arcevesque de Sur, in RHC, Hist. occ. II. Paris, 1859.

(١٤) « غزو صلاح الدين للأرض المقدسة » في رادولفوس دي كوغشال « الحوليات الانكليكانية » طبعة ستيفنسون . لندن ١٨٧٥ (سلسلة

رولز) « ليبلوس » طبعة هـ . بروتز أيضاً في « كتابات مجمعة حول تاريخ الحروب الصليبية » دانزيغ ١٨٧٦ .

De expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum libellus, in Radulphus de Coggeshall, Chronicon anglicanum, ed. J. Stevenson. Lobdon, 1875. (Rolls Series). Libellus also ed. H Prutz in Quellenbeitrage zur Gêschichte der Kreuzzuge. Danzig, 1876.

(١٥) « الإيتينراريوم أو دليل الحج وتاريخ الملك ريكاردوس » في « حوليات ومذكرات عهد الملك ريتشارد الأول » طبعة و . ستوبس لندن ١٨٦٤ (سلسلة رولز) .

Itinerarium peregrinorum et gesta regis Ricardi, Chronicles and Memorials of the reign of Richard I, ed. W. Stubbs. London, 1864. (Rolls Sertes).

(١٦) أمبرواز « تاريخ الحرب المقدسة » طبعة ج . باريس ، باريز ١٨٩٧ .

Ambroise. L'Estoire de la Guerre Sainte, ed. G. Paris. 1897.

(١٧) « تاريخ حملة الامبراطور فريدريك » في « مصادر تاريخ الحملة الصليبية للقيصر فريدريك الأول » طبعة آ . خروست . برلين ١٩٢٨ . وهذا العمل هو جزء من وثائق التاريخ الألماني، والمخطوطات الامبراطورية الألمانية » مجلد V .

Historia de expeditione Friderici imperatoris, in Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, ed. A. Chroust. Berlin, 1928. This work is part of the Monumenta germaniae historica, scriptores rerum germanicarum, n.s., tom. V.

(١٨) « تاريخ الحج » طبعة آ . خروست في « مصادر تاريخ الحرب الصليبية للقيصر فريدريك الأول » ١١٦ — ٧٢ .

Historia peregrinorum, ed. A. Chroust in quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, 116-72.

(١٩) جاكوبوس دو فيترياكو « تاريخ المشرق في عهد مملكة بيت المقدس » في « انجازات الفرنجة » I طبعة ج . بونغارس ، هناو ١٦١١ .

Jacobus de Vitriaco, Historia orientalis seu hierosolymitana, Gesta Dei per Francos, I, ed. J. Bongars. Hanau, 1611.

(ب) الرسائل وكتب القانون ووثائق أخرى

(b) Letters, law books, and other documents

(٢٠) « الرسائل والخرائط التاريخية العائدة للحروب المقدسة » طبعة هـ . هاغنماير ، انسبروك ١٩٠١ .

Epistulae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, ed. H. Hagenmeyer. Innsbruck, 1901.

(٢١) « رسائل وفاة الامبراطور فريدريك » طبعة آ . خروست في « مصادر تاريخ الحرب الصليبية للقيصر فريدريك الأول » ١٧٣ ــ ٨ .

Epistola de morte Friderici imperatoris, ed. A. Chroust in Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, 173-8.

(٢٢) « رسائل ملك الانكليز إلى أسقف كلارفال » في « روجروس دي هويدن ــ يوميات ، ج ٣ ص ١٣٠ ــ ٢ ، طبعة ج .ستوبس لندن ١٨٧٠ (سلسلة رولز) .

'Epistola regis Angliae ad abbatem de Claravalle', in Rogerus de Houeden, Chronica, III, 130-2, ed. J. Stubbs. London, 1870. (Rolls Series).

(٢٣) « سجل مملكة بيت المقدس » MCCXCI-MXCVII طبعة

روهريخت ،انسبروك ١٨٩٣ . « أديتامنتوم » ١٩٠٤ . لكي لا نبالغ في تحميل هذا المرجع مختلف اليوميات والمجموعات و السجلات الكنسية التي تضم النصوص الكاملة للوثائق الملخصة في هذا « السجل » ، والتي رجعنا إليها في هذا المؤلف فإننا لم نذكر منها شيئاً هنا فيما عدا استثناءين اثنين . أما الإشارة الضرورية إلى هذه الأعمال فقد ذكرت في « السجل » وفي حواشي كتابنا هذا .

Regesta regni hierosolymitani, MXCVII-MCCXCI, ed. R. Rohricht. Innsbruck, 1893. Additamentum, 1904. In order not to overburden this bibliography the various chronicles, collections, and cartularies, which contain the complete texts of the documents summarized in the Regesta and used in this work, are, with two exceptions, not included here. The necessary references to these works are given both in the Regesta and in my footnotes.

(٢٤) « السجل العام لأخوية اسبتارية القديس يوحنا في بيت المقدس » ٤ مجلدات طبعة ج . ديلافيل لو روكس ، باريز ١٨٩٤ — ١٩٠٦ .

Cartulaire général de l'ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem, 4 vols., ed. J. Delaville le Roulx. Paris, 1894-1906.

(٢٥) « السجل العام لأخوية الهيكل (الداوية) — ١١١٩ ؟ — ١١٥٠ . طبعة مركيز دالبون باريز ١٩١٣ .

Cartulaire général de l'ordre du Temple, 1119 ?-1150, ed. Marquis d'Albon. Paris, 1913.

(٢٦) « قانون الداوية » طبعة هـ دوكورزون باريز ١٨٨٦ .

La Règle du Temple, ed. H. de Curzon. Paris, 1886 .

(٢٧) « كتاب الملك » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية « لويس » أنظمة بيت المقدس » ج ١ ص ٦٠١ — ٤٤ . باريس ١٩٤١ . وهي مجموعة

العادات والتقاليد المتبعة في مملكتي بيت المقدس وقبرص والتي تبنتها محاكم هاتين المملكتين (لاروس ١٠ أجزاء ــ م . م)

Le Livre au roi, in RHC, Lois, les assises de Jérusalem, I, 601-44.

(٢٨) « كتاب جان ايبلين » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية ، « لويس » ، « أسس بيت المقدس » , I ٧ ـــ ٤٣٢ .

Le Livre du Jean d'Ibelin, in RHC, Lois, les assises de Jérusalem, I, 7-432.

B. ARABIC ب ـــ العربية

(٢٩) « تاريخ دمشق أيام الحروب الصليبية » مستحرج مترجم من تاريخ ابن القلانسي من قبل هـ . آ . ر . غيب . لندن ١٩٣٢ .

The Damascus Chronicle of the Crusades, extracted and translated from the chronicle of Ibn al-Qalanisi, by H.A.R. Gibb. London, 1932.

(٣٠) أسامة بن منقذ « كتاب الاعتبار » طبعة وترجمة ف . ك . حتي « محارب سوري عربي ذي مروءة فترة الحروب الصليبية » نيويورك ١٩٢٩ .

Usamah ibn Munqidh. Memoirs, ed. and trans, by P.K. Hitti as An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the period of the Crusades. New York. 1929.

(٣١) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » (مستخرج) في جامع مؤرخي الحروب الصليبية » مؤرخون شرقيون مجلد ١ ص ١٨٩ ـــ ٧٤٤٠ و II الجزء الأول ص ٣ ـــ ١٨٠ باريس ١٨٧٢ ـــ ٨٧ .

Ibn al-Athir. Kamel-Altevarykh (extrait), in RHC, Hist. or. I, 189-744 and II, ière partie, 3-180. Paris 1872-87.

(٣٢) ابن الأثير « تاريخ أتابكة الموصل » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون شرقيون المجلد الثاني ص ٥ ـــ ٣٧٥ باريس ١٨٧٦ .

Ibn al-Athir. Histoire des Atabecs de Mosul, in RHC, Hist. or. II, 2ème partie, 5-375. Paris 1876.

(٣٣) ابن جبير « مستخرج من رحلة ابن جبير » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون شرقيون مجلد III٤٤٥ ـــ ٥٦ باريس ١٨٨٤ ترجمت الرحلة بالكامل من قبل ر . ج . سي . برودهورست ، لندن ١٩٥٣ .

Ibn Jubair. Extrait du voyage d'Ibn Djobeir, in RHC, Hist. or. III, 445-56. Paris, 1884. Translated in full by R.J.C. Broadhurst. London, 1953.

(٣٤) كمال الدين (ابن العديم) « مستخرج من تاريخ حلب » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون شرقيون مجلد III٥٧٧ ـــ ٦٩٠ ، ترجمة بلوشيت في كتاب الشرق اللاتيني VIII-III ، ١٨٩٥ ـــ ٨ .

Kemal ed-Din. Extraits de la Chronique d'Alep, in RHC, Hist. or. III, 577-690; trad. Blochet, in Revue de l'Orient latin, III-VI, 1895-8.

(٣٥) أبو شامة « كتاب الروضتين » في جامع مؤرخي الحروب الصليبية مؤرخون شرقيون مجلد VI, IV باريس ١٨٩٨ ـــ ١٩٠٦ .

Abu Shamah. Le Livre des deux jardins, in RHC, Hist. or. IV. V. Paris 1898-1906.

(٣٦) بهاء الدين (ابن شداد) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية « سيرة حياة السلطان صلاح الدين) « في جامع مؤرخي الحروب الصليبية » مؤرخون شرقيون III ٣ ـــ ٣٧٠ وكذلك الترجمة الانكليزية على يد س . و . ويلسون لندن ١٨٩٧ .

Beha ed-Din. Anecdotes et beaux traits de la vie du Sultan Youssof

(Salah ed-Din), in RHC, Hist. or. III, 3-370 . Also English trans, by C.W. Wilson, London, 1897.

C. ARMENIAN AND SYRIAN ج ـــ الأرمنية والسريانية

(٣٧) ماثيو الرهاوي « حوليات » « في جامع مؤرخي الحروب الصليبية وثائق أرمنية I ٤١ ـــ ١٥٠ باريس ١٨٦٩ .

Matthew of Edessa. Chronique, in RHC, Doc. arm. 1,4-150. Paris, 1869.

(٣٨) القس غريغوري « حوليات » « في جامع مؤرخي الحروب الصليبية » وثائق أرمنية I ،١٥٢ ـــ ٢٠١ .

Gregory the Priest. Chronique, in RHC, Doc. arm. 1, 152-201.

(٣٩) باسيل « تأبين بغدوين كونت مرعش وكيسون » « في جامع مؤرخي الحروب الصليبية » وثائق أرمنية I ، ٢٠٤ ـــ ٢٢

Basil. Oraison funèbre de Baudouin, comte de Mar'asch et de K'eçoun, in RHC, Doc. arm. I, 204-22.

(٤٠) « تاريخ ميخائيل السوري . بطريرك الكنيسة اليعقوبية لأنطاكية (١١٦٦ ـــ ٩٩) » طبعة ج . ب . شابوت . ٤ مجلدات ، باريز ١٨٩٩ ـــ ١٩١٠ .

Chronique de Michel le Syrien, patriarche jacobite d'Antioche (1166-99), ed. J.B. Chabot. 4 vols. Paris, 1899-1910.

(٤١) « الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية من تاريخ أحد الكتاب السريان المجهولين ترجمة آ . س . تريتون وعلق عليه هـ . آ . ر . غيب في جورنال الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٣٣) ٦٩ ـــ ١٠١ و ٢٧٣ ـــ ٣٠٥ .

'The First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle',

trans, by A.S. Tritton, notes by H.A.R. Gibb, in the journal of the Royal Asiatic Society. (1933), 69-101 and 273-305.

D. GREEK د ــ الاغريقية

(٤٢) آنا كومنينا « الألكسياد » ترجمة ى . آ . س . داوس . لندن ١٩٢٨

Anna Comnena. The Alexiad, trans. E.A.S. Dawes. London, 1928.

الجزء الثاني : المؤلفات الثانوية

PART II. SECONDARY WORKS

آ ــ تاريخ ونقد المصادر

A. HISTORIOGRAPHY AnD CRITICISMOFTHESOURCES

(١) بوس ، ت . س . ر « التطورات الأخيرة في تاريخ الحروب الصليبية » في كتاب « التاريخ » XXII (١٩٣٧) ، ١١٠ ــ ٢٥ .

BOASE, T.S.R. 'Recent developments in crusading historiography', in History (n.s.), XXII (1937), 110-25.

(٢) بكلر ج . « آنا كومنينا » أوكسفورد ١٩٢٩

BUCKLER, G. Anna Comnena. Oxford, 1929.

(٣) خروست ، آ . « تاغينو وآنسبرت وتاريخ الحج » غراز ١٨٩٢

CHROUST, A. Tageno, Ansbert und die Historia Peregrinorum. Graz, 1892.

(٤) غراند كلود . م . « دراسة نقدية لكتاب أنظمة بيت المقدس ، باريس ١٩٢٣ .

GRANDECLAUDE, M. Etude critique sur les livres des assises de Jérusalem. Paris, 1923.

(٥) إدواردس ، ج . ج . « إيتنراريوم أو طريق الملك ريتشارد وتاريخ الحرب المقدسة » في مقالات تاريخية على شرف جيمس تايت ٥٩ ــ ٧٩ مانشستر ١٩٣٣ .

EDWARDS, J.G. 'The Itinerarium regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte', in Historical Essays in honour of James Tait, 59-79 Manchester, 1933.

(٦) فونك ، ب . « ياكوب فون فيتري حياته وتاريخه » لايبزيغ ١٩٠٩ .

FUNK, P. jacob von Vitry, Leben und Werke. Leipzig, 1909.

(٧) غليسنر ، هـ . « راوول دوكان ، مؤرخ وكاتب » في مجلة التاريخ الإكليري XLVI(١٩٥١) ص ٥ ــ ٢١ .

GLAESENER, H. 'Raoul de Caen, historien et écrivain', in Revue d'histoire ecclésiastique, XLVI (1951), 5-21.

(٨) غيب ، هـ . آ . ر . « المصادر العربية حول حياة صلاح الدين » في مجلة « سبيكولوم » XXV(١٩٥٠) ص ٥٨ ــ ٧٢ .

GIBB, H.A.R. 'The Arabic sources for the life of Saladin', in Speculum, XXV (1950) , 58-72.

(٩) كراي ، آ . سي . « وليم الصوري » « أعمال مؤرخ من العصور الوسطى » في مجلة « سبيكولوم » XVI (١٩٤١) ص ١٤٩ ــ ٦٦ .

KREY , A.C. 'William of Tyre: the making of an historian in the Middle Ages', in Speculum, XVI (1941), 149-66.

(١٠) كوغلر ، ب . « آلبرت فون آخن » شتوتغارت ١٨٨٥ .

KUGLER, B. Albert von Aachen. Stuttgart, 1885.

(١١) لامونت ، ج . ل . « مدخل إلى حملة ريتشارد قلب الأسد الصليبية »

بقلم آمبرواز (ترجمة م . ج . هيوبرت ، تعليق ج. ل. لامونت . نيويورك . ١٩٤١ .

LA MONTE, J.L. Introduction To The Crusade Of Richard Lion-Heart, By Ambroise (trans. by M.J. Hubert, notes by J.L. La Monte). New York, 1941.

(١٢) « بعض مشاكل تاريخ الحروب الصليبية ، في « سبيكولوم » XV (١٩٤٠) ، ٥٧ — ٧٥ .

'Some problems in crusading historiography', in Speculum, XV (1940) , 57-75.

(١٣) نورغيت ، ك . « الاتينراريوم الخاص بالحج وأنشودة أمبرواز » في المجلة التاريخية الانكليزية XXV (١٩١٠) ، ٥٢٣ — ٤٧

NORGATE, K. 'The Itinerarium Peregrinorum and the Song of Ambroise', in EHR, XXV (1910), 523-47.

(١٤) بروتز ، هـ « دراسة عن وليم الصوري » في الأرشيف الجديد لتاريخ الحرب في تاريخ ألمانيا القديم » VIII (١٨٨٢) ص ٩٣ — ١٣٢

PRUTZ, H. 'Studien uber Wilhelm von Tyrus', in Neues Archiv der Gesellschaft fur altere deutsche Geschichtskunde, VIII (1882) , 93-132.

(١٥) سيبل ، هـ . فون . « تاريخ الحروب الصليبية الأولى . مجلدان ، لايبزيغ . ١٨٨١ .

SYBEL, H. von. Geschichte des ersten Kreuzzugs. 2 Auflage . Leipzig, 1881.

ب ــ مؤلفات عامة حول الحروب الصليبية والدويلات اللاتينية

B. GENERAL WORKS ON THE CRUSADES AND THE LATIN STATES

(١٦) آرشر، ت. آ. وكينغسفورد سي. ل. «الحروب الصليبية» لندن ١٨٩٤.

ARCHER, T.A. and KINGSFORD, C.L. The Crusades. London, 1894.

(١٧) بلدوين م. و. رايموند الثالث كونت طرابلس وسقوط بيت المقدس (١١٤٠ـ١١٨٧). برنستون ١٩٣٦.

BALDWIN, M.W. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140-1187). Princeton, 1936.

(١٨) باركر، سير إرنست «الحروب الصليبية» لندن ١٩٢٥

BARKER, SIR ERNEST. The Crusades. London, 1925.

(١٩) «الحروب الصليبية في كتاب شريعة الاسلام» طبعة ت. أرنولد و آ. غليوم، اوكسفورد ١٩٣١.

__'The Crusades', in Legacy of Islam, ed T. Arnold and A Guillaume. Oxford, 1931.

(٢٠) بيلّوك، هـ. «الحروب الصليبية» لندن ١٩٣٧.

BELLOC, H. The Crusade. London, 1937.

(٢١) بريهييه، ل. «الكنيسة والشرق في العصور الوسطى، الحملات الصليبية» طبعة ٦ باريس ١٩٢٨.

Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen âge: les croisades. 6th ed. Paris, 1928.

(٢٢) كاهن سي. «سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبية» باريس ١٩٤٠.

CAHEN, C. La Syrie du nord à l'époque des croisades. Paris, 1940.

(٢٣) كارتيليري ، آ . « فيليب الثاني أوغست ج ٢ ، الحروب الصليبية »
١١٨٧ — ١١٩١ ، لايبزيغ ١٩٠٦

CARTELLIERI, A. Philipp II August, Bd. II. Der Kreuzzug (1187-1191). Leipzig, 1906.

(٢٤) « ريتشارد قلب الأسد في الأرض المقدسة » المجلة التاريخية CI (١٩٠٨)
١ — ٢٧ .

__'Richard Lowenherz im heiligen Lande', Historische Zeitschrift, CI (1908), 1-27.

(٢٥) شالاندون . ف . مقالة حول عهد الامبراطور ألكسي الأول كومنين
(١٠٨١ — ١١١٨) باريس ١٩٠٠ .

CHALANDON, F. Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène (1081-1118). Paris, 1900.

(٢٦) حنا الثاني كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) ومانويل كومنين الأول
(١١٤٣ — ١١٨٠) باريس ١٩١٢ .

__Jean II Comnène (1118-1143) et Manuel I Comnène (1143-1180). Paris, 1912.

(٢٧) تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، باريس ١٩٢٥ .

__Histoire de la Première Croisade. Paris, 1925.

(٢٨) كوندر ، سي . ر . « مملكة بيت المقدس اللاتينية » لندن ١٨٩٧ .

CONDER, C.R. The Latin Kingdom Of Jerusalem. London, 1897.

(٢٩) فيشر ، ك . «تاريخ الحروب الصليبية للقيصر فريدريك الأول» لايبزيغ
١٨٧٠ .

FISCHER, K. Geschichte Des Kreuzzugs Kaiser Friedrichs I. Leipzig, 1870.

(٣٠) غروه ، ف « انهيار مملكة القدس » ١١٨٧ — ١١٨٩ ، يينا ١٩٠٩ .

GROH, F. Der Zusammenbruch des Reiches Jerusalem, 1187-1189. Jena, 1909.

(٣١) غروسّيه . ر . « تاريخ الحروب الصليبية ومملكة الفرنجة في بيت المقدس » باريس ١٩٣٤ — ٦ .

GROUSSET, R. Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem. Paris, 1934-6.

(٣٢) « امبراطورية المشرق » باريس ١٩٤٦ .

__L'Empire du Levant. Paris, 1946.

(٣٣) كوغلر ، ب . « دراسة حول الحملة الصليبية الثانية » شتوتغارت ١٨٦٦ .

KUGLER, B. Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges. Stuttgart, 1866.

(٣٤) لان بول ، س . « صلاح الدين » لندن ١٨٩٨ .

LANE-POOLE, S. Saladin. London, 1898.

(٣٥) نورغيت ، ك . « ريتشارد قلب الأسد » لندن ١٩٢٤ .

NORGATE, K. Richard Lion Heart London 1924.

(٣٦) بيتو . ل . ج . « الحروب الصليبية وغيرها من المقالات التاريخية مهداة إلى دانا . سي . مونرو » نيويورك ١٩٢٨ .

PAETOW, L.J. (ed). The Crusades and other historical essays presented to Dana C. Munro. New York, 1928.

(٣٧) ريتشارد ، ج . « كونتية طرابلس في عهد الأسرة الطولوزية (١١٠٢ — ١١٨٧) باريس ١٩٤٥ .

RICHARD, J. Le Comté de Tripoli sous la dynastie toulousaine (1102-1187). Paris, 1945.

(٣٨) روهريخت . ر . تاريخ مملكة بيت المقدس (١١٠٠ ـــ ١٢٩١)
اسنبرغ ١٨٩٨ .

ROHRICHT, R. Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100-1291). Innsbruck, 1898.

(٣٩) رانسيمان . س . « تاريخ الحروب الصليبية » ٣ مجلدات . كامبريدج ١٩٥١ ـــ ٤ .

RUNCIMAN, S. A History of the. Crusades. 3 vols. Cambridge, 1951-4.

(٤٠) شلومبرغر ، ج . رونو دو شاتيون . (أرناط) أمير انطاكية » باريس ١٨٩٨ .

SCHLUMBERGER, G. Renaud de Châtillon, prince d' Antioche. Paris, 1898 .

(٤١) ستفنسون . و . ب . « الصليبيون في الشرق » . كامبريدج ١٩٠٧ .

STEVENSON, W.B. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

ج ـــ المؤسسات والقوانين وظروف الاستيطان في سورية العصور الوسطى

C . THE INSTITUTIONS, LAWS, AND CONDITIONS OF SETTLEMENT IN MEDIEVAL SYRIA

(٤٢) بيكر . سي . هـ . « الضرائب والحياة الاجتماعية » في موسوعة الإسلام ، V (١٩١٤) .

BECKER, C.H. 'Steuerpacht und Lehnswesen', in Der Islam, V (1914).

(٤٣) بونيو « مذكرات حول نظام الأراضي في الإمارات التي أسسها الفرنجة في سورية في أعقاب الحروب الصليبية ، في مكتبة مدرسة الخرائط ، سلسلة

٣ ، IV (١٨٥٣) ٥٢٩ ــ ٤٥ ، V (١٨٥٤) ، ٣١ ــ ٥٧ ،
٢٣٦ ــ ٦٢ ، ٤٠٩ ــ ٢٩ .

BEUGNOT, 'Mémoire sur le régime des terres dans les principautés fondées en Syrie par les Francs à la suite des croisades', in Bibliothèque de l'Ecole des chartes. sér. 3, IV (1853), 529-45; V (1854), 31-57, 236-62, 409-29.

(٤٤) كاهن . سي . « البلديون والصليبيون » في سورية XV (١٩٣٤) ،
٣٥١ ــ ٦٠ .

CAHEN, C. 'Indigènes et croisés, in Syria, XV (1934), 351-60.

(٤٥) « ملاحظات حول تاريخ الحروب الصليبية والشرق اللاتيني » في نشرة كلية الآداب في ستراسبورغ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٠ ، نيسان (ابريل) ١٩٥١ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥١ .

__'Notes sur l'histoire des croisades et de l'Orient latin', in Bulletin de la Faculté des lettres de Strasbourg, Nov. 1950; April 1951; October 1951.

(٤٦) ديلافيل لورو ، ج . « الاسبتارية » في الأرض المقدسة وقبرص ،
١١٠٠ ــ ١٣١٠ ، باريس ١٩٠٤ .

DELAVILLE LE ROULX, J. Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre, 1100-1310. Paris, 1904.

(٤٧) درينبورغ . هـ . « أسامة بن منقذ ، الجزء الأول ، حياة أسامة ، باريس
١٨٨٩ .

DERENBOURG, H. Ousâma ibn Mounkidh, 1ère partie, Vie d'Ousâma. Paris, 1889.

(٤٨) دودو . ج . « تاريخ المؤسسات الملكية في مملكة بيت المقدس اللاتينية »
(١٠٩٩ ــ ١٢٩١) ، باريس ١٨٩٤ .

DODU, G. Histoire Des Institutions monarchiques dans le royaume latin de Jérusalem (1099-1291). Paris, 1894.

(٤٩) موسوعة الاسلام طبعة م . ت . هوتسما وآخرين . لندن ١٩١٣ .

Encyclopaedia of Islam. Ed.M.T. Houtsma and others. London, 1913.

(٥٠) فارس ، ن . آ (طبعة) « التراث العربي » برينستاون ١٩٤٤ .

FARIS, N.A. (Ed.) The Arab Heritage. Princeton, 1944.

(٥١) حايك . د . « القانون الفرنجي في سورية خلال الحروب الصليبية » باريس ١٩٢٥ .

HAYEK, D. Le Droit Franc en Syrie pendant les croisades. Paris, 1925.

(٥٢) هايد . و . « تاريخ تجارة المشرق في العصور الوسطى » طبعة فرانسيز ريفوندو (نشرها ف . رانيود) ٢ مجلد ، لايبزيغ ١٩٣٦ .

HEYD, W. Histoire du commerce du Levant au moyen âge, éd. Française refondue (publ. par F. Raynaud). 2 vols. Leipzig, 1936.

(٥٣) جونز . سي . ن . « محاولة استعمار فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية المركزية XXI(١٩٣٤) ، ٢٨٨ — ٣٠٠ .

JOHNS, C.N. 'The attempt to colonise Palestine in the twelfth and thirteenth centuries', in journal of the Royal Central Asian Society, XXI (1934), 288-300.

(٥٤) لامبتون ، آ . ك . س « مقالات حول دراسة المؤسسات السلجوقية (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة في جامعة لندن ١٩٣٩ ، موجودة في مكتبة جامعة لندن) .

LAMBTON, A.K.S. 'Contributions to the study of Seljuq

institutions'. (Dissertation accepted for Ph.D. At University of London, 1939; available in the London University Library).

(٥٥) لامونت ، ج . ل . « الملكية الاقطاعية في مملكة بيت المقدس اللاتينية ١١٠٠ — ١٢٩١ » كامبريدج ماس ١٩٣٢ .

LA MONTE, J.L. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291. Cambridge, Mass. 1932.

(٥٦) لان — بول ، س . « تاريخ مصر في العصور الوسطى » لندن ١٩٠١

LANE-POOLE, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

(٥٧) مادلين . ل . « التوسع الفرنسي من سورية حتى الراين » باريس ١٩١٨ .

MADELIN, L. L'Expansion Française; de la Syrie au Rhin. Paris, 1918.

(٥٨) « سورية الفرنجية » في مجلة العالمين ، السلسلة السادسة XXXVIII (١٩١٧) ، ٣١٤ — ٥٨ .

__'La Syrie Franque', in Revue des deux mondes, 6 ème sér. XXXVIII (1917), 314-58.

(٥٩) مونرو . د . سي . « مملكة الصليبيين » نيويورك ١٩٣٥ .

MUNRO, D.C. The Kingdom of the Crusaders. New York, 1935.

(٦٠) براور ، ج . « الأنشطة الاستعمارية في مملكة بيت المقدس اللاتينية » ، في المجلة البلجيكية للسانيات والتاريخ ، XXIX (١٩٥١) ، ١٠٦٣ — ١١٨ .

PRAWER, J. 'Colonization activities in the Latin Kingdom of Jerusalem' in Revue belge de philologie et d'histoire , XXIX (1951), 1063-118.

(٦١) « الاستيطان اللاتيني في بيت المقدس » في مجلة سبيكولوم XXVII (١٩٥٢) ، ٤٩٠ ــ ٥٠٣ .

__'The settlement of the Latins in Jerusalem' in Speculum, XXVII (1952), 490-503.

(٦٢) بروتز ، هـ . « قصة الحضارة في الحروب الصليبية » برلين ١٨٨٣ .

PRUTZ, H. Kulturgeschichte der Kreuzzuge. Berlin, 1883.

(٦٣) رجال الدين الفرسان برلين ١٩٠٨

__Die geistlichen Ritterorden. Berlin. 1908.

(٦٤) راي . ي . ج « المستعمرات الفرنجية في سورية في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر » باريس ١٨٨٣ .

REY, E.G. Les Colonies franques de Syrie au XIIème et XIIIème siècles. Paris, 1883.

(٦٥) ريستلهوبر ، ر . « التقاليد الفرنسية في لبنان » باريس ١٩١٨ .

RISTELHUEBER, R. Traditions françaises au Liban. Paris, 1918.

(٦٦) شلومبرغر . ج . « مسكوكات المشرق اللاتيني » باريس ١٨٧٨ .

SCHLUMBERGER, G. Numismatique de l'Orient latin. Paris, 1878.

(٦٧) ويت ، ج . « مصر العربية » باريس ١٩٣٧ .

WIET, G. L'Egypte arabe. Paris, 1937.

(٦٨) فوستنفيلد ، هـ . ف . « تاريخ الخلافة الفاطمية في المصادر العربية » في نشرة للجمعية الملكية للبحث العلمي في غوتنغن XXVII (١٨٨٠) و XXVII (١٨٨١) .

WUSTENFELD, H.F. 'Geschichte der Fatimiden Chalifen nach der arabischen Quellen', in Abhandlungen der koniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Gottingen, XXVII (1880) and XXVIII (1881).

د ــ الجغرافية والطبوغرافية والأثريات في سورية اللاتينية

D. GEOGRAPHY, TOPOGRAPHY, AND ARCHAEOLOGY OF LATIN SYRIA

(٦٩) آبل . ف . م . « جغرافية فلسطين » ٢ مجلد ، باريس ١٩٣٣ ــ ٨ .

ABEL, F.M. Géographie de la Palestine. 2 vols. Paris, 1933-8.

(٧٠) آلكروفت ، آ . هـ . « حفريات انكلترا » لندن ١٩٠٨ .

ALLCROFT, A.H. Earthwork of England. London, 1908.

(٧١) برشيم ، م . فان . و فاتيو ، ي . « رحلة في سورية » مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة XXXVIII , XXXVII ، القاهرة ١٩١٤ ــ ١٥ .

BERCHEM, M. VAN And FATIO, E. Voyage en Syrie. Mémoires de l'Institut Français d'archéologie orientale du caire, XXXVII. XXXVIII. Cairo, 1914-15.

(٧٢) باير . ج « اقليم قيسارية في حكم الفرسان الصليبيين » في نشرة الجمعية الفلسطينية الألمانية LIX (١٩٣٦) ١ ــ ٩١ .

BEYER, G. 'Das Gebiet der Kreuzfahrerherrschaft Caesarea', in Zeitschrift des deutschen Palastina Vereins, LIX (1936), 1-91.

(٧٣) نابلس وأراضيها في حكم الفرسان الصليبيين » المرجع السابع LXIII (١٩٤٠) ، ١٥٥ ــ ٢٠٩

__Neapolis und sein Gebiet in der Kreuzfahrerzeit', in ZDPV, LXIII (1940), 155-209.

(٧٤) « الممتلكات الصليبية في بيت المقدس والخليل » المرجع السابق LXV (١٩٤٢) ١٦٥ ــ ٢١١ .

__'Die Kreuzfahrergebiete von Jerusalem und S. Abraham (Hebron)', in ZDPV, LXV (1942), 165-211.

(٧٥) « الممتلكات الصليبية في عكا والجليل » المرجع السابق LXVII (١٩٤٤ — ٥) ١٨٣ — ٢٦٠ .

__'Die Kreuzfahrergebiete Akko und Galilaea', in ZDPV , LXVII (1944-5), 183-260.

(٧٦) « الممتلكات الصليبية في جنوب غرب فلسطين » ، في مقالات حول الأراضي المقدسة في نشرة الجمعية الفلسطينية الألمانية ، LXVIII (١٩٤٦ — ٥١) ١٤٨ — ٩٢ ، ٢٤٩ — ٨١ .

__'Die Kreuzfahrergebiete Sudwestpalastinas', in Beitrage zur biblischen Landes-und Altertumskunde (herausgegangen aus der ZDPV), LXVII (1946-51), 148-92, 249-81.

(٧٧) براون ، هـ . « القلعة الانكليزية » لندن ١٩٣٦ .

BRAUN, H. The English Castle. London, 1936.

(٧٨) بتلر ، هـ . سي . منشورات بعثات التنقيب الأثرية لجامعة برنستون في سورية في الأعوام ١٩٠٤ — ٥ و ١٩٠٩ . القسم الثاني ، العمارة ، لايدن ١٩١٩ .

BUTLER, H.C. Publications of the Princeton University archaeo-logical expeditions to Syria in 1904-5 and 1909. Division II. Architecture, Leyden, 1919.

(٧٩) كلارك ، ج . ت . « العمارة العسكرية في انكلترا في القرون الوسطى » ٢ مجلد ، لندن ١٨٨٤ .

CLARK, G.T. Mediaeval Military Architecture in England. 2 vols. London, 1884.

(٨٠) كليرمون ـــ غانو ، سي . « أبحاث أثرية في فلسطين في الأعوام ١٨٧٣ ـــ ٤ » ، ٢ مجلد لندن ١٨٩٠ ـــ ٦ .

CLERMONT-GANNEAU, C. Archaeological Researches In Palestine during the year 1873-4. 2 vols. London, 1890-6.

(٨١) كوندر ، سي . ر . وكتشنر ، هـ . هـ . « دراسة شاملة لفلسطين الغربية . دراسة طبوغرافية وجبلية ومائية وأثرية ، ٣ مجلدات ، لندن ١٨٨١ ـــ ٣ .

CONDER, C.R. and KITCHENER, H. H. Survey of Western Palestine. Memoirs of the Topography, Orography, Hydrography and Archaeology. 3 vols. London, 1881-3.

(٨٢) ديشامب . ب . « قلاع الصليبيين في الأراضي المقدسة ، I ، قلعة الحصن» باريس ١٩٣٤ ، «II الدفاع عن مملكة بيت المقدس» باريس ١٩٣٩ .

Deschamps, P. Les Châteaux des croisés en Terre Sainte. I. Le Crac des Chevalirs. Paris, 1934. II. La Défense du royaume de jérusalem. Paris, 1939.

(٨٣) ديشامب . ب . « قلعة صهيون في أمارة أنطاكية » في مجلة الفنون الجميلة (كانون الأول ١٩٣٠) ص ٣٢٩ ـــ ٦٤ » .

Deshamps, P. 'Le Château de Saone dans le principauté d' Antioche', in Gazette des beaux-arts (Dec. 1930), 329-64.

(٨٤) « مداخل قلاع الصليبيين في سورية والدفاع عنها » في مجلة « سورية » XIII(١٩٣٢) ٣٦٩ ـــ ٨٧ .

'Les entrées des châteaux des croisés en Syrie et leurs défenses'. in Syria, XIII (1932), 369-87.

(٨٥) « موقعان استراتيجيان صليبيان إلى الشرق من الأردن : أهمانت والحبس » في المجلة التاريخية CLXXII (١٩٣٣) ، ٤٢ ـــ ٥٧ .

-'Deux positions stratégiques des croisés à l' Jourdain: Ahamant et el Habis', in Revue historique, CLXXII (1933), 42-57.

(٨٦) ديهل ، ي . « أفريقية البيزنطية » باريس ١٨٩٦ .

Diehl, C. L' Afrique byzantine. Paris, 1896.

(٨٧) دوسو ، ر . « رحلة في سورية » في مجلة الآثار (١٨٩٦) السلسلة الثالثة ، مجلد XXVIII ٩٩ ـــ ٣٣٦ ، و (١٨٩٧) مجلد XXX ، ٣٠٥ ـــ ٥٧ .

Dussaued, R. 'Voyage en Syrie', in Revue archéologique (1896), 3éme sér., tom. XXVIII, 299-336 and (1897) tom XXX, 305-57.

(٨٨) « الطبوغرافية التاريخية لسورية القديمة والمتوسطة » باريس ١٩٢٧ .

-Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris, 1927.

(٨٩) دوسو ، ر . وديشامب ، ب . وسيريغ . هـ ، « سورية القديمة والمتوسطة بالصور » باريس ١٩٣١ .

Dussaud, R. Deschamps, P. and Seyrig, H. La Syrie antique et médiévale illustrée. Paris, 1931.

(٩٠) انلارت ، سي . « كتاب الآثار الفرنسية من عهد الأسرة الميروفنجية حتى عصر النهضة » ٣ مجلدات باريس ١٩٠٢ ـــ ١٦ .

Enlart, C. Manuel d' archéologie francaise depuis les temps mérovingiens jusqu' à la renaissance. 3 vols. Paris, 1902-16.

(٩١) « الصروح الصليبية في مملكة بيت المقدس » باريس ١٩٢٦ ـــ ٢٧ .

-Les Monuments des croisés dans le royaume de jérusalem. Paris, 1926-27.

(٩٢) غرانت ، سي . ب . « الصحراء السورية (بادية الشام) » لندن ١٩٣٧ .

Grant, C. P. The Syrian Desert. London, 1937.

(٩٣) غيران ، م . ف . « الوصف الجغرافي والتاريخي والأثري لفلسطين » الجزء الثالث « وصف الجليل » ٢ مجلد ، باريس ١٨٨٠ .

Guérin, M. V. Déscription géographique. historique et archéologique de la Palestine, 3ème partie, Description de la Galilée. 2 vols. Paris, 1880.

(٩٤) الدليل الأزرق « سورية — فلسطين » باريس ١٩٣٢ .

Guides Bleus. Syrie-Palestine. Paris, 1932.

(٩٥) جرفانيون ، ج . دو « مقالات عن الآثار الأناضولية » في مجلة ميلانج جامعة القديس يوسف بيروت . مجلد XIII ملزمة ١ بيروت ١٩٢٨ .

Jerphanion, G. de. 'Mélanges d'archéologie anatolienne', in Mélanges de l' Université St joseph, Beyrouth, tom. XIII, fasc. I. Beyrouth, 1928.

(٩٦) جونز سي . ن . « التنقيبات في قلعة الحجيج — عتليت (١٩٣٢) ، في المجلة الفصلية لدائرة الآثار في فلسطين ، III (١٩٣٣ — ٤) ١٤٥ — ٦٤ .

Johns, C. N. 'Excavationsat Pilgrims' Castle, 'Atlit (1932)', in Quarterly of the Department of Antiquities in Palcstine, III (1933-4), 145-64.

(٩٧) « دليل عتليت » القدس ١٩٤٧ .

-guide to' Atlit. jerusalem, 1947.

(٩٨) لورنس ، ت . ي . « قلاع الصليبيين » ٢ مجلد لندن ١٩٣٦ .

Lawrence, T. E. Crusader Castles. 2 vols. London, 1936.

(٩٩) لوسترانج ، ج . « فلسطين في ظل المسلمين » لندن ١٨٩٠ .
Le Strange, G. Palestine under the Moslems. London, 1890.

(١٠٠) « ترجمة المقدسي في وصفه لسورية بما فيها فلسطين » لندن ١٨٩٢ .
-Translation of Mukaddasi's Description of Syria, including Palestine. London, 1892.

(١٠١) ميلينجن ، آ . فان . « القسطنيطينية البيزنطية » لندن ١٨٩٩ .
Millingen, A. van. Byzantine Constantinople. London, 1899.

(١٠٢) بينتر ، س . « القلاع الانكليزية في العصور الوسطى » في مجلة سبيكولوم ، X ، (١٩٣٥) ٣٢١ — ٢ .
Painter, S. 'English Castles in the Middle Age', in Speculum, X (1935), 321-2.

(١٠٣) بؤادوبار ، آ . « الأثر الروماني في الصحراء السورية » باريس ١٩٣٤ .
Poidebard, A. La trace de Rome dans le désert de Syrie. Paris, 1934.

(١٠٤) ماكنزي . و . ماكاي : القلعة في العصور الوسطى في سكوتلندا (لندن) ١٩٢٧ .
Mackenzie, W. Mackay. The Medieval Castle in Scotland. London, 1927.

(١٠٥) بوكس ، ج . « مدينة كركسون » ٣ مجلدات ، باريس ١٩٢٧ — ٣٨ .
POUX, J. La Cité de Carcassonne. 3 vols. Paris, 1927-38.

(١٠٦) راي ، ي . ج . « دراسة حول الصروح التذكارية للعمارة العسكرية الصليبية في سورية وجزيرة قبرص » باريس ١٨٧١ .
REY, E. G. Etude sur les monuments de l'architecture militaire des croisés en Syrie et dans l'île de Chypre. Paris, 1871.

(١٠٧) روريخت ، ر . « دراسة حول جغرافية سورية وطبوغرافيتها في العصور الوسطى » في مجلة الجمعية الفلسطينية الألمانية X (١٨٨٧) .

ROHRICHT, R. 'Studien zur mittelalterlichen Geographie und Topographie Syriens', in ZDPV, x (1887).

(١٠٨)سميل . ر . سي . « قلاع الصليبيين في القرن الثاني عشر » في المجلة التاريخية لجامعة كامبردج ، X (١٩٥١) ١٣٣ — ٤٩ .

SMAIL, R.C. 'Crusaders' Castles of the twelfth century', in Cambridge Historical Journal, X (1951), 133-49.

(١٠٩)سميث، ج.آ«الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة» الطبعة ٢٦ لندن ١٩٣٥.

SMITH, G.A. The Historical Geography of the Holy Land. 26 th ed. London, 1935.

(١١٠)ريتشموند ، آي . آ . « سور مدينة روما الامبراطورية » أوكسفورد ١٩٣٠ .

RICHMOND, I.A. The City Wall of Imperial Rome. Oxford, 1930.

(١١١)ستنتون ، ف . م . « تطور القلاع في إنكلترا وويلز » جمعية ليغلت التاريخية رقم ٢٢ لندن ١٩٣٣ .

STENTON, F.M. The Development of the Castle in England and Wales. Historical Association Leaflet, No. 22. London, 1933.

(١١٢)تافرالي . و . « طبوغرافية سالونيك » باريس ١٩١٣ .

TAFRALI, O. Topographie de Thessalonique. Paris, 1913.

(١١٣)تومبسون ، آ . هاملتون . « العمارة العسكرية في انكلترة في العصور الوسطى » لندن ١٩١٢ .

THOMPSON, A. HAMILTON. Military Architecture in England during the Middle Ages. London, 1912.

(١١٤)توي ، س . « القلاع » . لندن ١٩٣٩ .

TOY, S. Castles. London, 1939.

(١١٥) فيوليت لو ـــ دوك ، ي . ي . « المعجم المفصل للعمارة الفرنسية من القرن الحادي عشر وحتى القرن السادس عشر » . ١٠ مجلدات ، باريس ١٨٥٤ ـــ ٦٨ .

VIOLLET -Le-DUC, E.E. Dictionnaire raisonné de l'architecture Française de XIème au XVIème siècle. 10 vols. Paris, 1854-68.

(١١٦)« مقالة حول العمارة العسكرية في العصور الوسطى » ، باريس ١٨٥٤ .

Essai sur l'architecture militaire au moyen âge . Paris, 1854.

(١١٧)« مدينة كاركاسون » باريس ١٨٨٨ .

__La Cité de Carcassonne. Paris, 1888.

هـ ـــ تاريخ الحرب في العصور الوسطى

E. HISTORIES OF MEDIEVAL WARFARE

(١١٨) آلتن ، ج . فون . « كتاب الجيش والأسطول . موسوعة فن الحرب والمناطق المحصنة » برلين ١٩٠٩ ـــ ١٤

ALTEN, G. VON (Ed). Handbuch fur Heer und Flotte. Enzyklopadie der Kriegswissenschaften und verwandter Gebiete. Berlin, 1909-14.

(١١٩) بالتزر ، م . « حول تاريخ فن الحرب الألماني في عهد الأسرة الكارولنجية وحتى عهد القيصر فريدريك الثاني » لايبزيغ ١٨٧٧ .

BALTZER, M. Zur Geschichte des deutschen Krigswesens in der Zeit von den letzten Karolingern bis auf Kaiser Friedrich II. Leipzig,1877.

(١٢٠) دلبروك ، هـ . « تاريخ فن الحرب في إطار التاريخ السياسي » ٧ مجلدات برلين ١٩٠٠ ـــ ٣٦ .

DELBRUCK, H. Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte. 7 vols. Berlin, 1900-36.

(١٢١) دلبش ، هـ . « التكتيك في القرن الثالث عشر » ٢ مجلد باريس ١٨٨٦ .

DELPECH, H. La Tactique au XIIIème siècle. 2 vols. Paris, 1886.

(١٢٢) دروموند ، ج . د . « دراسة حول تاريخ الحرب الانكليزي في القرن الثاني عشر » برلين ١٩٠٥ .

DRUMMOND, J.D. Studien zur Kriegsgeschichte Englands im 12 jahrhundert. Berlin, 1905.

(١٢٣) ارين ، و . « تاريخ الحرب في العصور الوسطى » ميونيخ ١٩٢٩ ، العدد ١٦ من مجلة التاريخ .

ERBEN, W. Kriegsgeschichte des Kittelalters. Munich, 1929. Beiheft 16 der Historischen Zeitschrift.

(١٢٤) فرانهولز ، ي . فون . « الجيوش في فجر ألمانيا ، في عصر الملكية والفروسية » ميونيخ ١٩٣٥ .

FRAUENHOLZ, E. VON. Das Heerwesen der germanischen Fruhzeit, des Frankenreiches und des ritterlichen Zeitalters. Munich, 1935.

(١٢٥) غلوفر ، ر . « فن الحرب الانكليزي في العام ١٠٦٦ » في المجلة التاريخية الانكليزية LXVII (١٩٥٢) ١ — ١٨ .

GLOVER, R. 'English warfare in 1066', in EHR, LXVII (1952), 1-18.

(١٢٦) هيرمان ، و . « معارك الجيوش الغربية في الشرق في فترة الحروب الصليبية الأولى » ماربورغ ١٨٨٨ .

HEERMANN, O. Die Gefechtsfuhrung abendlandischer Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzugs. Marburg, 1888.

(١٢٧) يانز ، م . « كتاب تاريخ فن الحرب من العصور القديمة وحتى عصر النهضة » ٢ مجلد ، لايبزيغ ١٨٨٠ .

JAHNS, M. Handbuch einer Geschichte des Kriegswesens von der Urzeit bis zur Renaissance. 2 vols. Leipzig, 1880.

(١٢٨) كوهلر ، ج . « تطور فن الحرب وأعمال القتال في عهد الفروسية منذ أواسط القرن الثاني وحتى حرب الهوسايت » ٣ مجلدات ، المجلد الثالث مطبوعاً في ثلاثة أجزاء منفصلة ١٨٨٦ ـــ ٩٠ .

KOHLER, G. Die Entwickelung des Kriegswesens und der Kriegfuhrung in der Ritterzeit von Mitte des II Jahrhunderts bis zu den Hussitenkriegen. 3 vols. Vol. III is published in three separate parts. Breslau, 1886-90.

(١٢٩) لو ، ف . « فن الحرب والجيوش في العصر الوسيط » ٢ مجلد باريس ١٩٤٦ .

LOT, F. L'art militaire et les armées au moyen âge. 2 vols. Paris, 1946.

(١٣٠) موريس ، ج . ي . « حروب ادوارد الأول في ويلز » أوكسفورد ١٩٠١ .

MORRIS, J. The Welsh Wars of Edward I. Oxford, 1901.

(١٣١) أومان ، سيرتشارلز . « تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى » الطبعة الثانية ، ٢ مجلد ، لندن ١٩٢٤ .

OMAN, SIR CHARLES. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 nd edition. 2 vols. London. 1924.

(١٣٢) « تاريخ فن الحرب في القرن السادس عشر » لندن ، ١٩٣٧ .

__A History of the Art of War in the Sixteenth Century. London, 1937.

(١٣٣) بوويك ، ف . م . « ضياع النورماندي » مانشستر ، ١٩١٣ .

POWICKE, F.M. The Loss of Normandy. Manchester, 1913.

(١٣٤) شلومبرغر ، ج . « حملات الملك أموري الأول ملك القدس على مصر » باريس ١٩٠٦ .

SCHLUMBERGER, G. Campagnes du roi Amaury ler de Jérusalem en Egypte. Paris, 1906.

(١٣٥) شباتز ، ف . « معركة هاستينغز » برلين ١٨٩٦ .

SPATZ. W. Die Schlacht von Hastings. Berlin, 1896.

(١٣٦) سبولدينغ ، و . ل ، ونيكرسون ، هـ ، ورايت . ج . و . « فن الحرب » لندن ١٩٢٥ .

SPAULDING, O.L., NICKERSON, H. and WRIGHT, J.W. Warfare. London, 1925.

و ــ التنظيم العسكري والعتاد أثناء القرن الثاني عشر

F. MILITARY ORGANIZATION AND EQUIPMENT DURING THE TWELFTH CENTURY

(١٣٧) أودوان ، ي . « مقال حول الجيش الملكي في عهد فيليب أوغست » باريس ١٩١٣ .

AUDOUIN, W. Essai sur l'armée royale au temps de Philippe-Auguste.

(١٣٨) بلدوين ، ج . ي . « البدل العسكري وخدمة الفروسية في انكلترة » شيكاغو ١٨٩٧ .

BALDWIN, J.F. The Scutage and Knight Service in England. Chicago. 1897.

(١٣٩) بلوخ ، م . « المجتمع الاقطاعي ، تشكل روابط التبعية » باريس ١٩٣٩

BLOCH, M. La Société féodale. La formation des liens de dépendance. Paris, 1939.

(١٤٠)« المجتمع الاقطاعي ، الطبقات وحكومة السادة » باريس ١٩٤٩ .

.La Société féodale. Les classes et le gouvernement des hommes. Paris, 1949.

(١٤١)بوسار ، ج . « المرتزقة في القرن الثاني عشر ، هنري الثاني بلانتاجينت وأصل الجيش المحترف » في مكتبة مدرسة الخرائط ، CVI (١٩٤٥ — ٦) ١٨٩ — ٢٢٤ .

BOUSSARD, J. 'Les mercénaires au XIIème siècle. Henri II Plantegenêt et les origines de l'armée de Métier', in BEC, CVI (1945-6), 189-224.

(١٤٢)بوتاريك ، ي . « المؤسسات العسكرية الفرنسية قبل تشكل الجيوش الدائمة » باريس ١٨٦٣ .

BOUTARIC, E. Iustitutions militaires de la France avant les armées permanentes. Paris, 1863.

(١٤٣)تشو . هـ . م . « الأتباع الاكليركيين الانكليز وخدمة الفرسان » أوكسفورد ١٩٣٢ .

CHEW, H.M. The English Ecclesiastical Tenants-in-chief and Knight Service. Oxford, 1932.

(١٤٤)ديماي ، ج . « اللباس في العصر الوسيط كما هو على الاختام » باريس ١٨٨٠ .

DEAMY, G. Le Costume au moyen âge d'après les sceaux. Paris, 1880.

(١٤٥) جيرو . هـ . « الأدلاء في القرن الثاني عشر » في مكتبة مدرسة الخرائط III ، باريس (١٨٢١ — ٢) ١٢٥ — ٤٧ .

GERAUD, H. 'Les routiers au XIIème siècle', in BEC, III (1841-2), 125-47.

(١٤٦)« ميركاديه ، الأدلاء في القرن الثالث عشر » في مكتبة مدرسة الخرائط III باريس (١٨٤١ — ٢) ٤١٧ — ٤٣ .

__Mercadier. Les routiers au XIIIème siècle, in BEC, III (1841-2), 417-43.

(١٤٧)غيب . هـ . آ . ر . « جيوش صلاح الدين » في منشورات التاريخ المصري سلسلة III ملزمة ٤ (أيار ١٩٥١) ، ٣٠٤ — ٢٠ .

GIBB, H.A.R. 'The armies of Saladin', in Cahiers d'histoire égyptienne, série III, fasc. 4 (May 1951), 304-20.

(١٤٨)غيلهر موز ، ب . « مقالة حول أصل النبلاء في فرنسا في العصر الوسيط » باريس ١٩٠٢

GUILHIERMOZ, P. Essai sur l'origine de la noblesse en France au moyen âge. Paris, 1902.

(١٤٩)هاسكينز ، سي . هـ . « المؤسسات النورمندية » كامبريدج ، ماس . ١٩١٨ .

HASKINS, C.H. Norman Institutions. Cambridge, Mass. 1918.

(١٥٠)لاكينغ ، ج . ف . « سجل الدروع والأسلحة الأوربية خلال سبعة قرون » ٥ مجلدات ، لندن ١٩٢٠ — ٢

LAKING, G.F. A Record of European Armour and Arms through Seven Centuries. 5 vols. London, 1920-2.

(١٥١)لو ، ف . وفوتييه ، ر . « الميزانية الأولى للمملكة الفرنسية » باريس . ١٩٣٢ .

LOT, F. and FAWTIER, R. Le Premier Budget de la monarchie Française. Paris, 1932.

(١٥٢)ليون ، ب . د . « الضرائب النقدية في عهد ملوك الإنكليز » في مجلة التاريخ الأنكليزي ، LXVI (١٩٥١) ، ١٦١ — ٩٣ .

LYON, B.D. 'The money fief under the English kings', in EHR, LXVI (1951), 161-93.

(١٥٣)ميتييس ، هـ . « المستندات القانونية وقانون الدولة » فايمر ١٩٣٣ .

MITTEIS, H. Lehnrecht und Staatsgewalt. Weimar, 1933.

(١٥٤)ستنتون ، سيرفرانك . « العصر الأول في الاقطاع الانكليزي » أوكسفورد ١٩٣٢ .

STENTON, SIR FRANK. The First Century of English Feudalism. Oxford, 1932.

(١٥٥)شميتنر ، ب . « المرتزقة الأحرار في امبراطورية الغرب في العصور الوسطى » ميونيخ ١٩٣٤ .

SCHMITTHENNER, P. Das freie Soldnertum im abendlandischen Imperium des Mittelalters. Munich, 1934.

ز ــ الخرائط

G. MAPS

(١٥٦)سبرونر منكة ، ل . « الأطلس الخاص بتاريخ العصور الوسطى والأزمنة الحديثة » طبعة ٣ لوحة ٨٥ « سورية في زمن الحروب الصليبية » فون . ث . منكة ، غوثا ، ١٨٨٠ .

SPRUNER-MENKE, L. Hand-Atlas fur die Geschichte des Mittelalters und der neueren Zeit. 3 Auflage. Pl. 85, 'Syrien zur Zeit der Kreuzzuge', von Th. Menke. Gotha, 1880.

(١٥٧)لان ــ بول ، ر . « الأطلس التاريخي لأوربة الحديثة » ٧ لوحة ٧٦ ، « سورية في فترة الحروب الصليبية ، ١٠٩٦ ــ ١٢٩١ ، طبعة ت . آ . آرثر . أوكسفورد ١٩٠٢ .

(١٥٨) LANE-POOLE, R. Historical Atlas of Modern Europe. V, Pl. 76, 'Syria during the period of the crusades, 1096-1291', ed. T.A.Archer. Oxford, 1902.

(١٥٩) الخريطة الموضوعة والمنشورة من قبل مكتب المساحة الخاص بالقوات الفرنسية في المشرق ، « سورية ولبنان » ١/١٠٠٠٠٠٠ ، بيروت ، ١٩٣٦

Carte dressée et publiée par le Bureau topographique des troupes Françaises du Levant. Syrie et Liban. 1:1,000,000. Beyrouth, 1936.

(١٦٠) مسح شامل لفلسطين « خريطة فلسطين من ١٤ لوحة ١/١٠٠٠٠٠ ، القدس ١٩٣٥ — ٧ .

Survey of Palestine, Map of Palestine 4 sheets 1:100,000. Jerusalem, 1945-7.

(١٦١) جونز ، س . ن . « فلسطين في عهد الصليبيين » خريطة البلاد بمقياس ١/٣٥٠٠٠٠ مع مدخل تاريخي ومعجم جغرافي القدس ، ١٩٣٨ .

Johns , C . N . Palestine Of The Crusades . A Map Of The Country On Scale 1:350,000 With Historical Introduction And Gazetteer . Jerusalem . 1938 .

(١٦٢) أنظر كذلك الخرائط في : غروسيت — تاريخ الحروب الصليبية ، لورنس — قلاع الصليبيين ، ج . آ . سميث — الجغرافية التاريخية للأراضي المقدسة ، دوشامب — قلعة الحصن ، داسو — الطبوغرافية ، كوندر وكيتشنر — دراسة شاملة لفلسطين الغربية اللوحات XXVI-I

See also maps in Grousset, Histoire des croisades; Lawrence, Crusader

Castles; G.A. Smith, Historical Geog, of the Holy Land; Deschamps, Le Crac; Dussaud, Topographie; Conder and Kitchener, Survey of Western Palestine, sheets I-XXVI.

كشاف الأعلام والأماكن الجغرافية

ومقابلها باللغة الانكليزية

ـــ العال	al-'Al
ـــ الخلفاء العباسيون	Abbasid Caliphs
ـــ صفوف (كراديس ، تراتيب)	Acies
المبجل بطرس	Beati Petri
ـــ عكا :	Acre
عكا معركة ـــ أنظر معركة عكا	Battle of Acre
عكا ، أسقف	Bishop of Acre
عكا ، حصار	Seige of Acre
ـــ أدهمر ، أسقف باي	Adhemar Bishop of Puy
ـــ أفامية	Afamiya
ـــ الأفضل وزير فاطمي مصري	al Afdal
ـــ عفرا بالا	'Afrabala
ـــ ساحة الدم أنظر معركة ساحة الدم .	Ager Sanguinis
ـــ أحمديل	Ahmadil
ـــ أيلة (العقبة)	Aila
ـــ عين الجوزة أنظر معركة عين الجوزة (نبع الرشاد)	Ain Gozeh. See Battle of Cresson
ـــ عين جالوت	Ain Jalud

English	العربية
Aintab	ـ عينتاب
Ain tubaniya	ـ عين التبانية
Akaba	ـ العقبة
Akkar	ـ عكار
Alan, Lord of Atharib	ـ ألان ، لورد الأثارب
Albert of Aix	ـ ألبرت أيكس
Aleppo	ـ حلب
Alexandria	ـ الاسكندرية
Alexius Comninus, Byzantine Emperor	ـ ألكسيوس كومنينوس (امبراطور بيزنطي)
Alp Arslan	ـ ألب أرسلان
Altuntash	ـ ألتنتاش
Amalric, See Jerusalem, Latin Kings	ـ أملريك (أموري ، عموري ، إمري) أنظر بيت المقدس ، ملوك
Ambroise	ـ أمبرواز
Amida	ـ آمد
Amirs	ـ أمراء
Anjou , County of	ـ آنجو ، كونتية .
Ankara (Angora)	ـ أنقرة
Ancelinus Babini	ـ أنسيلينوس بابيني
Antioch	ـ أنطاكية :
Bzantine Duchy	دوقية بيزنطية
City	مدينة
Latin Principality	أمارة لاتينية
Seige of	حصار

Ascalan siege of . . .	ــ عسقلان حصار ...
Batlle of	أنظر كذلك معركة عسقلان
Asia Minor	ــ آسيا الصغرى
'Askar	ــ العسكر
Assassins , Sect	ــ الحشيشية (طائفة)
Assize of Arms	ــ قانون السلاح
Atharib	ــ الأثارب ، تل
'Atlit	ــ عتليت
Ayubid	ــ الأيوبيون
'Azaz	ــ أعزاز
Ba'albek	ــ بعلبك
al-Babein battle of	ــ البابين
Battle of	أنظر معركة البابين
Baghdad	ــ بغداد
Baibars	ــ بيبرس ، الملك الظاهر
Bairut	ــ بيروت
Baisan	ــ بيسان
Bait Gibrin	ــ بيت جبرين
Balak, nephew of Il-Ghazi	ــ بلق ، ابن أخ إيلغازي
Baldwin	ــ بلدوين
See olso Jerusalem, Kings of	أنظر ملوك بيت المقدس
Baldwin, Professor M. W.	ــ بلدوين ، برفسور ، م . و .
Baldwin of Mar'ash	ــ بلدوين كونت مرعش
Balian of Ibelin	ــ باليان ايبلين
Banyas	ــ بانياس

Dorylaeum	دوريليوم (١٠٩٧)
Fons Muratus	عين مراد (١١٤٩)
Hab	هاب (آب ١١١٩)
Harim	حارم (١١٦٤)
Harran	حران (١١٠٤)
Hattin	حطين (تموز ١١٨٧)
Jaffa	يافا (١١٩٢)
Marj 'Ayyun	مرجعيون (١١٧٩)
Marj Es-Suffar	مرج الصّفر (١١٢٦)
Mont Gisard	تل الجزر (١١٧٧)
Ramla	الرملة (١١٠١)
Ramla	الرملة (١١٠٥)
Ramla and Jaffa	الرملة ويافا (١١٠٢)
al - Sannabra	« جسر » الصنبرة (سن نبرة) (١١١٣)
Sarmin	سرمين (١١١٥)
Yibneh	يبنة (١١٢٣)
Battle Formation	ـــ تشكيلة القتال
Echelon	نسق
Importance to Franks	أهميتها بالنسبة للفرنجة ..
maintenance of. . .	المحافظة على تشكيلة القتال
	في العام ١١١١
	في العام ١١٨٢
	في العام ١١٨٣
Battle:	ـــ المعركة :

Avoidance of Battle — تجنب المعركة

Difficulties of Reconstruction — صعوبات إعادة ترتيب القتال

Military Historians interest in Battle — اهتمام المؤرخين العسكريين بالمعركة

Risks of Battle — مخاطر المعركة

in Syrian Warfare — المعركة في فن الحرب في سورية

Bayeux Tapestry — سجاد بايو

Beaufort (Shaqif Arnun) — شقيف أرنون (بوفورت)

Bedouin — البدو

Beha ed-Din — بهاء الدين

Belvoir (Kawkab al-Hawa) — كوكب الهوى (بلفوار)

Berbers — البربر

Berchem, Max Van — برشيم ، ماكس فان ،

Bernard of Valence, Latin Patriarch of Antioch — برنار الفالنسي . البطريارك اللاتيني لأنطاكية

Bertrand of Tripoli — برتراند كونت طرابلس

Beugnot, Comte — بونيون « كونت »

Beyer, G. — باير . ج

Bikisrail — بكسرائيل

Bilbeis — بلبيس

Biqa' — بقاع

Bohemond I, Prince of Antioch — بوهمند الأول ، أمير أنطاكية

Bohemond II Prince of Antioch — بوهمند الثاني ، أمير أنطاكية

Bohemond III Prince of Antiock — بوهمند الثالث ، أمير أنطاكية

Bosra — بصرى

Bourzey — برزية

Champlain	ـــ تشامبلين
Chastellet	ـــ القليعة ، القصر الصغير
Chateau Gaillard	ـــ قصر (قلعة) غيلارد
Cilicia	ـــ قليقية
Clausewitz, C. Von	ـــ كلاوزفيتز ، سي . فون
Clermont-Ganneou, Charles	ـــ كليرمونت ـــ غانّو ، تشارلز
Clubs, Turkish	ـــ الهراوة
See also W. and A.	أنظر كذلك الأسلحة والقسي
Command and Commanders, Military	ـــ قائد وقادة عسكريون
Comneni	ـــ آل كومنين ، أباطرة بيزنطيين
	ألكسيوس ، حنا ، مانويل
Conisborough	ـــ كونيسبورو
Conrad of Montferrat	ـــ كونراد مونتفرات
Constantinople	ـــ القسطنطينية
Cour de la fonde	ـــ محكمة مالية
Crac des Chevaliers	ـــ قلعة الحصن
Cresson fountain of,	ـــ نبع الرشاد (عين الجوزة)
See battle of Cresson	أنظر معركة عين الجوزة
Crossbaws	ـــ القوس الأنبوبي
See also	كذلك النبالة والأسلحة
Crusade	ـــ حملةصليبية
First	الأولى
Second	الثانية
Third	الثالثة
Cyprus	ـــ قبرص

Dabburiya	ـــ دبّورية
Damascus	ـــ دمشق
Damietta	ـــ دمياط
Dara'	ـــ درعا
Darb al-Hajj	ـــ درب الحج
Darraya	ـــ داريا
Darum	ـــ داروم
Dauk Bridge	ـــ جسر الداعوق
Deir Si'man	ـــ دير سمعان
Delbruek, H	ـــ دلبروك ، هـ .
Delpech, H	ـــ دلبش ، هـ .
Dechamps	ـــ ديشامب
Desert Routes	ـــ الطرق الصحراوية
Diehl, Charles	ـــ ديهل ، تشارلز
Disciplina Militaris	ـــ النظام العسكري
Diyar Bakr	ـــ ديار بكر
Dodu, G.	ـــ دودو ، ج
Dorylaeum battle of. . .	ـــ دوريليوم ، معركة دوريليوم
Drought	ـــ قحط
Duluk	ـــ دلوك
Dunkalf. F	ـــ دونكالف ، ف
Duqaq of Damascus	ـــ دقاق أتابك دمشق
Dussaud, R	ـــ دوسو . ر
Earthquake	ـــ زلزال ، هزة أرضية
Echelon	ـــ نسق

See bottle formation	أنظر تشكيلة قتال
Ecuyer, squire	ــ حامل الدرع (أنظر)
Edessa county of. . .	ــ الرها ــ أديسا
	كونتية الرها
Egypt and Egyptians	ــ مصر والمصريين
Armies and Tactics	جيوشهم وتكتيكهم
Goverment	حكومة مصر
Vizier	الوزير المصري
Wealth	غنى مصر .
Ephesus	ــ إفسوس
Epitoma Rei Militaris	ــ ابيتوما راي ميليتاريس
Book of Vigitius	كتاب لفيجيتيوس
Equipment, Military	ــ معدات حربية
Egyptian	مصري معدات مصرية
of Frankish K.	معدات فرسان الفرنجة
of Frankish f. S.	معدات مشاة الفرنجة
Turkish	معداتعساكر الإسلام
Eracles, Estoire de	ــ إيراكل ، تاريخ
Ernoul, Squire of Balian of Iblin	ــ أرنول ، حامل دروع باليان ايبلين
Eschive, Wife of Raymond III of Tripoli	ــ ايشيف ، زوجة ريموند الثالث كونت طرابلس « القمصة »
Euphrates	ــ الفرات
Farrkh-Shah	ــ فروخ شاة
Fatimid Caliphs	ــ الخلفاء الفاطميون
Feudalism in Latin Syria	ــ الاقطاعية في سورية اللاتينية

Infantry	ـــ مشاة
See soldier infantry	أنظر جند مشاة
Inib	ـــ انب (حصن)
Iqta'	ـــ إقطاع
Isaac Angelus	ـــ اسحاق أنجلوس (امبراطور بيزنطي)
Iskandaruna (Scandelion)	ـــ اسكندرونة (سكاندليون)
Isma'ili	ـــ الاسماعيلية
See also Assassins	أنظر الحشيشية كذلك
Italy	ـــ إيطاليا
Itinerarium Rejis Ricardi	ـــ اتينيراريوم ريجيس ريكاردي
Richard King History	(تاريخ الملك ريتشارد)
Ivo Velos	ـــ ايفو فيلوس
Jabala	ـــ جبلة
Qadi of	قاضي جبلة
Jabal Akkar	ـــ جبل عكار
Jabal Ansariya	ـــ جبل أنصارية
Jabal Nusairi	ـــ جبال النصيرية (البهراء)
Ja'bar	ـــ جعبر
Jacobite Churches	ـــ الكنيسة اليعقوبية
Jacob, Ford	ـــ مخاضة يعقوب
Jisr banat Yakub	جسر بنات يعقوب ،
Jaffa	ـــ يافا
See also Jaffa battle	أنظر كذلك معركة يافا
James of Vitry	ـــ جيمس فيتري

— مجدل يابا (ميرابل)	Majdal Yaba (Mirabel)
— ملاطية	Malatya
— ملك شاه	Malik Shah
— مالرغارد	Malregard
— منبج	Manbij
— مانويل كومنين امبراطور بيزنطي	Manuel Comnenus
— مرقية	Maraqiya
— تشكيلات المسير « الفرنجية »	March formations, Frankish
— أرتال المسير هجمات المسلمين على ...	Marching columns
— ماردين	Mardin
— مرجعيون (مرج عيون) أنظر معركة مرجعيون	Marj Ayyun
— مرج الصفَّر أنظر معركة مرج الصفر	Marj es-Suffar
— الموارنة	Maronites
— المرقب	Marqab
— مسعود	Mas'ud
— موريس امبراطور بيزنطي	Mourice
— موريس مونت رويال	Mourice of Mont Royal
— مودود بن ألتنتاش	Mowdud ibn Altuntaṣh
— المرتزقة في جيوش اللاتين	Mercenaries, in latin armies
— مابين النهرين (العراقين ، بلاد	

Mesopotamia	بلاد الرافدين
al-Mesra'a	ـــ المصرعة
Michael the Syrian	ـــ ميخائيل السوري
Jacobite Patriarch	بطرك اليعاقبة
Middleham	ـــ ميدلهام
Milites	ـــ السواري ـــ الفرسان
See knights	انظر الخيالة
Minet al-Kala'	ـــ مينة القلعة
Money fiefs	ـــ إقطاعة نقدية
	أنظر اقطاعة
Monophysite clurches	ـــ كنائس الطبيعة الواحدة
	أنظر كنائس اليعاقبة
Mons Glavianus	ـــ جبل غلافيانوس
Montfort	ـــ قلعة قرين (مونتفورت)
Mont Gisard	ـــ تل الجزر (مونت جيزار)
	معركة تل الجزر
Mont Pelerin	ـــ تل الحجاج
Mosul	ـــ الموصل
Mount Hermon	ـــ جبل حرمون
Mount Sion	ـــ جبل صهيون
Mount Thabor	ـــ جبل طابور
Muhammad ibn Mahmud	ـــ محمد بن محمود
	سلطان سلجوقي
Mu'in al-Din Unur	ـــ معين الدين أنر
Munaitira Pass	ـــ ممر المنيطرة

Opus reticulatum	ــ الحجارة المتشابكة (المداميك)
Orders of knight hood	ــ الأخويات الفرسانية
Orontes, river	ــ العاصي ، نهر
Ouaira	ــ عويرة
P	
Paganus the Butler	ــ باغانوس كبير الخدم
Patriarch	ــ بطريارك
	الأرثوذكس الإغريق في أنطاكية
Payen of Haifa	ــ بايان كونت حيفا
Pedites	ــ البيادة أنظر « مشاة »
Pescara	ــ بسكارا
Peter of Courteney	ــ بيتر كورتني
Peter the Hermit	ــ بطرس الناسك
Peter, tenant of mount Thabor	ــ بيتر صاحب جبل طابور
Petra	ــ البتراء
Pevensey	ــ بيفنسي
Philip of Alsace	ــ فيليب الألزاسي
Philip II Augustus(France)	ــ فيليب الثاني أوغسطس (ملك فرنسا)
Philip Rufus	ــ فيليب روفوس
Philo of Byzantium	ــ فيلو البيزنطي
Pilgrims	ــ الحجاج
	أثرهم في الحرب
	قيمتهم الحربية
Pisan fleet	ــ أسطول بيزة

Plunder,	ـــ سلب ، غنائم
Spoil	أنظر غنائم الحرب
Pons, count of Tripoli	ـــ بونز ، كونت طرابلس
Portchester	ـــ بورتشستر
Poverty	ـــ فقر
	ملوك اللاتين في بيت المقدس
	اقطاعييهم العسكريين
Prisia servientium	ـــ الخدمة الالزامية
Procopius of Caesarea	ـــ بروكوبيوس القيساري
Prutz. H.	ـــ بروتز ، هـ .
Q	
Qala'at Mehelbe	ـــ قلعة المهلبة
Qala'at of Mudiq	ـــ قلعة المضيق
Qala'at Yahmur	ـــ قلعة يحمور
Qala'at ez-Zou	ـــ قلعة الزاو
Qaqun (Caco)	ـــ كاكون (كاكو)
Qara Arslan	ـــ قرة أرسلان
Qasr al-Hair	ـــ قصر الحير
Qilij Arslan	ـــ قلج أرسلان
Al-Quhwana	ـــ الأقحوانة
Al-Quleiat	ـــ القليعة
Qulwnsawa	ـــ قلنسوة
Qusair	ـــ قصير
R	
Rafaniya	ـــ رفانية

Robert, duke of Normandy	ـــ روبرت ، دوق النورماندي
Robert Fulcoy	ـــ روبرت فولكوي
Robert of St-Lo	ـــ روبرت سانت لو
Roger, prince of Antioch	ـــ روجر ، أمير أنطاكية
Rome	ـــ روما
Rudwan of Aleppo	ـــ رضوان أتابك حلب
Rugia	ـــ الرجية
S	
Safad	ـــ صفد
Saffuriya	ـــ الصفورية
Safita (Chastel Blanc)	ـــ قلعة صافيتا (القصر الأبيض)
Sahyun (Saona)	ـــ قلعة صهيون (صلاح الدين)
St Georges gate, Antioch	ـــ بوابة القديس جورج (أنطاكية)
St Johns, knights of	ـــ فرسان القديس يوحنا أنظر الاسبتارية . (الأخويات الفرسانية)
St Lazarus, Church of	ـــ سان لازاروس (كنيسة)
St Paul's gate, Antioch	ـــ بوابة القديس بولس ، أنطاكية .
Saladin	ـــ صلاح الدين
	ـــ معركة يافا (١١٩٢)
Salamiya	ـــ السلمية
Salkhad	ـــ صلخد
Salt river	ـــ نهر المالح
Samaria	ـــ سمارية
Al-Sannabra	ـــ الصنبرة

Sinjar	— سنجار
Spoils of war	— غنائم حرب
Squires	— حامل الدروع
Stevenson W. B.	— ستيفنسون ، و . ب .
Strategicon	— الخدع الحربية
Strategy	— استراتيجية
Subeibe .	— صبيبة (نمرود)
Sudanese	— سوداني
Sukman al-Qutbi	— سكمان القطبي
Sukman ibn Urtuq	— سقمان بن أرتق
Sulaiman ibn Daoud	— سليمان بن داوود
Surprise Tactical	— مفاجأة تكتيكية
Swords	— سيف ، أنظر كذلك أسلحة
Syrians	— سوريون
Syrian Christians	— مسيحيون سوريون
	قيمتهم الحربية
	علاقتهم مع الفرنجة
Syrian Muslims	— مسلمون سوريون
	علاقتهم مع الفرنجة

T

Tactica	— التكتيك
Tactics military	— التكتيك العسكري
Tafrali	— تافرالي
Taki ed-Din	— تقي الدين

Tancred, prince of Galilee and Antioch	ـــ تنكريد أمير الجليل وأنطاكية
Tartous	ـــ طرطوس
Taurus, Mountains	ـــ طوروس الغربية ، جبال
Tax of 1183	ـــ ضريبة العام ١١٨٣
Et-Tayibeh	ـــ الطيبة
Tell-Ayadiya	ـــ تل العياضية
Tell Bashir	ـــ تل باشر
Tell Kurdaneh	ـــ تل كردانه
Tell ibn Ma'ashar	ـــ تل ابن معشر
Tell es-Safi	ـــ تل الصافي
Templars, knights	ـــ الداوية ، فرسان دورهم .
Thabor	ـــ طابور « جبل طابور »
Theory, mifitary	ـــ نظرية عسكرية
Byzantine	بيزنطية
Strategicon of Maurice	استراتيجية موريس
Tactica of Leo the Wise	تكتيك ليو الحكيم
Vegetius	فيجيتيوس
Thierry of Alsace	ـــ تييري الألزاسي
Thoros of Armenia	ـــ طوروس الأرمني
Tiberias	ـــ طبرية
Tiberias, Lake	ـــ طبرية ، بحيرة
Tibnin	ـــ تبنين
Tokleh	ـــ توكله

Tolstoy	— تولستوي
Toron	— تبنين (تورون)
Trans jordan	— شرقي الأردن
Tripoli	— طرابلس
	كونتية طرابلس اللاتينية
	مدينة طرابلس
Tughril Beg	— طغرل بك
Tughtagin	— طغتكين
Turcoboles	— تركوبول
	دورهم في الجيش اللاتيني
Turkmens	— تركمانية
Tyre	— صور
U	
Unur	— أنر
	أنظر معين الدين أنر
Urban II, Pope	— أوربان الثاني « بابا »
Urtuqids	— الأراتقة
Usamah ibn Munqidh	— أسامة بن منقذ
V	
Vigitius	— فيجيتيوس
Venetian fleet	— أسطول البندقية
Viollet-le-Duc	— فيوليت ـ لو ـ دوك
Vitruvius	— فيتروفيوس
Vizer, Fàtimid	— الوزير الفاطمي

W

Walter, chancellor to Roger of Antioch	— والتر ، مستشار روجر أمير أنطاكية
Warfare, character in latin Syria	— فن الحرب ، طابعة في سورية اللاتينية
Water	— الماء
Weapons	— الأسلحة
Wilkinson, Spenser	— ولكنسون سبنسر
William, archbishop of Tyre	— وليم رئيس أساقفة صور
William of Maraclea	— وليم مرقلية
Winter, effect on Campaigning	— أثر الشتاء في الحملات

Y

Yibneh (Ibelin)	— يبنة (ايبلين) أنظر معركة يبنة
Ysa, chancellor of Saladin	— عيسى مستشار صلاح الدين

Z

Zangid family	— الزنكية ، الأسرة
Zanki, Imad ed-Din	— زنكي ، عماد الدين
Zerdana	— زردنة

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ــ ج ــ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ــ د ــ

— ر —

— ز —

— س —

ــ ش ــ

ـ ص ـ

ــ ض ــ

ــ ط ــ

ـ ع ـ

ــ غ ــ

ـ ف ـ

ــ ق ــ

ــ ك ــ

ـ ل ـ

— م —

ـ ن ـ

ــ و ــ

ــ ي ــ

الفهرس

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

ثبت المراجع

٦ ــ آ ــ قلعة صلاح الدين (صهيون) : البرج الفرنجي الكبير والجدار البيزنطي

ب ــ قلعة صلاح الدين : سطح البرج الكبير

٧ ــ آ ــ قلعة صلاح الدين : الواجهة الداخلية للسور الخارجي

ب ــ قلعة صلاح الدين : بوابة الدخول إلى الفناء العلوي

٨ ــ آ ــ قلعة صلاح الدين : أسكفة والقوس الحامل (تحمل فِقْرتا العقد المتوسطة واليسارية علامات الحجّارة . وعلى اليسارية منهما نحت بارز على شكل درع كان يستخدمه فرسان الغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر)

ب ــ قلعة صلاح الدين : كوة للرمي

٤٨٤
٤٨٥
٤٨٦
٤٨٧
٤٨٨
٤٨٩
٤٩٠
٤٩١
٤٩٢
٤٩٣
٤٩٤
٤٩٥
٤٩٦
٤٩٧
٤٩٨
٤٩٩





هذا الكتاب

أول كتاب يقدم بحثا مفصلا عن التنظيم الحربي للمجتمع الاقطاعي « الفرنجي » في سورية في المئة سنة الأولى من الحروب الصليبية .... وفيه يحاول الدكتور ر . سي . سميل تقديم البراهين القاطعة على أن الحرب كانت الأساس الذي قام عليه ذلك المجتمع ، وأن فن الحرب كان جزءا لايتجزأ من حياة اللاتين في سورية . ويؤكد المؤلف أن فن الحرب والسياسة والتنظيم الاجتماعي كانت أموراً متداخلة متكاملة يتمم بعضها بعضا .

وهو يوازن بين فن الحرب الذي طبقه ملوك اللاتين الأوائل في سورية وبين فن الحرب الذي مارسته القوى الإسلامية التي قابلت التحدي الصليبي بتحد مماثل ، وتمكنت في آواخر القرن الأول من الحروب الصليبية ، القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) ، من تحقيق توازن استراتيجي ، أخذ يتحول لصالحها تدريجيا مع بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، بفضل اتحادها وعملها المشترك .